خير الأنام وصحْبه الكرام

الجزء الثاني

"حياة العشرة المبشرين بالجنة"

تأليف

الدكتور /حسن عشماوي

إهداء

إلى مَن علَّمني حبَّ العطاء، وحبَّ الإيثار على النَّفس، حتى ولو كنتُ لا أملِك له إلَّا القليل، رحمه الله؛ والدي.

وإلى مَن علَّمتني أصولَ ديني، وكيف أؤدِّي فروضي إلى الله، بل وكيف أحِبُّ أن أكون عبدًا لله، رحمها الله؛ والدتي.

اللهمَّ ربِّ ارحَمْهما كما ربَّياني صغيرًا.

وإلى مَن كانت لي عونًا وداعمًا في كلِّ ما أقوم به من أعمالٍ لخدمة ديني، وفي إخراج هذا العمل المتواضع؛ إلى زوجتي العزيزة.

حسن عشماوي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة فضيلة مفتي دولة زيمبابوي

الحمد لله، والصَّلاة والسَّلام على خيرِ خلْق الله، سيِّدنا ومولانا محمَّد، وعلى آلِه وصَحْبه الكرام.

إنَّه لَمِن دَواعي سُرورنا وسعادتنا أنْ نرى ثمارَ الجهد المبذول مِن صديقنا العزيز وأخينا الأكبر، الدكتور حسن عشماوي، تَصدُرُ الآن في صورة كتاب "خير الأنام وصَحْبه الكرام"، بعد عُقودٍ من العمل المخلِص والدَّؤوب للتعريف بالتاريخ الإسلامي، بدءًا من السيرة النبويَّة العطِرة.

فقد قام الدكتور حسن عشماوي بإلقاء العديد من المحاضرات في مَساجدَ مختلِفة بالبلاد، وتمَّ تسجيلها وتوزيعها على نفقته الخاصَّة، وقد لاقَتْ هذه التسجيلاتُ إقبالاً كبيرًا واستحسانًا من المسلمين بدولة زيمبابوي والبلادِ المحيطة بها؛ في زامبيا وبوتسوانا وجنوبِ أفريقيا ...وغيرها، ولا تَزالُ تُلاقي إقبالاً كبيرًا.

وها نحن اليوم نرى هذا العملَ يَظهر في صورة كتاب "خير الأنام وصحبه الكرام"؛ فهذا فضلٌ من الله ومنَّة، وعلامة من علامات القَبول إن شاء الله.

وقد قام الدكتور حسن عشماوي بهذا الجهد وتلك التضحيات إلى جانب عمله كطبيبٍ وجرَّاح، وما قام به من جهد مشكور لمساعدة أبناء وطننا في زيمبابوي، وفي هذا الصَّدد أسَّس الجمعيَّة الطِّبيَّة الإسلاميَّة بدولة زيمبابوي، والتي تُعْنى بمساعدة الفُقراء والمحتاجين وعلاجهم بالمجَّان، والحمد

لله أصبح لها فروع في معظم محافظات البلاد.

فنسأل اللهَ تعالى أن يَحفظ أخانا الدكتور حسن عشماوي، وأنْ يجزيَه خيرًا على ما قام به من جهد وعمل مُضْنٍ لخدمة الإسلام والمسلمين، وإنِّي لعَلى يَقينٍ أنَّ هذا الكتاب سيكون فيه الفائدة والنَّفع العظيم لنا جميعًا، لعلَّ الله يتقبَّل هذا الجهد، ويكتب له الاستمرار؛ آمين.

الشيخ / إسماعيل موسى منك

مفتي دولة زيمبابوي

الجمعة ٢٦ شعبان ١٤٣٤هـ

الموافق ٥ يوليه ٢٠١٣م

مقدمة الجزء الثاني

إنَّ الحمد لله وحدَه لا شريك له، والصَّلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، سيدنا ومولانا محمَّد وعلى آلِه وصَحبه أجمَعين.

أما بعد :

فقد تمَّ بحَمد الله نشرُ الجزء الأول من هذا الكتاب "حياة خير الأنام"، وبفضل الله لاقى استحسانًا وإقبالاً كبيرًا من القرَّاء، وقد نَفِدَتْ طبعتُه الأولى، ونحن بصدد الإعداد للطبعة الثانية.

واستكمالاً لهذه السلسلة، فإنَّنا نتشرَّف بتقديم الجزء الثاني من الكتاب "حياة العشَرة المبشَّرين بالجنة"، وقد رأينا أن نُفرِد جزءًا كاملاً من هذا الكتاب "خير الأنام وصحبه الكرام"؛ لِسَرد حياة هؤلاء العشَرة الأجِلَّاء من كِبار صحابة رسول الله ﷺ؛ لِما لهم من فضلٍ كبير، ودروس كثيرة نتعلَّمها منهم.

وكنتُ أحرِص أثناء إلقاء هذه السلسلة من المحاضَرات عن حياة العشَرة المبشَّرين بالجنة، أن أقوم بتوزيع أسمائهم مَطبوعةً على جميع الحاضرين، وأَذكُر أسماءهم جُملة واحدة مع بداية كلِّ محاضرة ...وفي نهايةِ سلسلة المحاضرات تُجرَى مسابقة، وتُرصَد لها جوائزُ قيِّمة لِمن يَذكر أسماء العشَرة المبشَّرين بالجنة، وهكذا الحال في جميع المساجد التي قمتُ فيها بإلقاء هذه السلسلة من المحاضرات.

والآن – بحَمْد الله وفضله – ما مِن أحد من المسلمين في المدينة التي أقطُنها "بولاوايو – زيمبابوي"، إلَّا ويحفظ أسماءَ العشَرة المبشَّرين بالجنَّة عن ظَهر قلْبٍ، فلِلَّه المنَّةُ مِن قبلُ ومِن بعد.

فنسأل اللهَ العليَّ القدير أن يتقبَّل منَّا هذا الجهد المتواضع، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه.

حسن عشماوي

الهدف من سرد سيرة الصحابة

لسنا بصَدد كتابةِ وسرد قصص للتَّسلية، ولكنْ هناك أهدافٌ هامَّة لهذا العمل، منها :

١ – القدوة :

إنَّ الأمَّة تعيش هذه الأيامَ حالةً من التخبُّط والشَّتات، فما أحوجَنا الآن إلى أن نجد مَن يكونُ لنا قدوة ومثالاً يُحتذى به !فإنَّك إن أردتَ أن تتعلَّم السِّباحةَ، أو الطِّب، أو الهندسة، أو الرسم، أو أيًّا من مَناحي الحياة – فإنَّك دائمًا ما تبحَث عن الأفضل في هذا المجال أو ذاك؛ ليكون لك مُعلِّمًا ودليلاً.

ومَن يكون لنا معلِّمًا ودليلاً خيرًا من هؤلاء الذين تَعلَّموا وتربَّوْا وتخرجوا في مدرسة الحبيب المصطفى ﷺ؟!

فهي أعلى وأرقى مدرسةٍ عرَفها التاريخ، وعرَفَتها البشريَّة.

فهم كما قال حبيبي ﷺ «**خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته**» أخرجه البخاري ومسلم.

وفي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**يأتي زمان يغزو فئام من الناس، فيقال: فيكم من صحب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح عليه، ثم يأتي زمان، فيقال: فيكم من صحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح، ثم يأتي زمان فيقال: فيكم من صحب صاحب أصحاب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح**».

ففيهم القدوة التي علينا أن نَحتذيَ بها في كلِّ مناحي الحياة؛ وهذا هو

السبيل الوحيد لرقيِّ هذه الأمَّة، ونشر صحيح الإسلام.

٢ – حب الصَّحابة:

أرَدْنا من هذا العمل أن نَصنَعَ حالةً من الحبِّ والعشق لهؤلاء الصَّحابة؛ لعلَّ الله أن يحشرنا معهم.

كما قال حبيبي ﷺ: «**يُحشَر المرءُ مع مَن يُحب**».

فنسأل اللهَ أن يرزقنا حبَّهم، وحبَّ من يحبهم، وأن يجعلنا على خُطاهم، ويحشرنا معهم؛ إنه وليُّ ذلك ومولاه.

مَن هو الصحابي؟

أجمع العلماء على تعريف الصَّحابي بأنه: "كل مَن لقي رسولَ الله ﷺ[1] في حياته وهو مسلِم، وعاش ومات على إسلامه".

فكثير من النَّاس شاهد رسولَ الله ﷺ في حياته، ولكنه لم يُسلِم، وبعضهم أسلم، ولكنَّه ارتدَّ عن الإسلام، فلا يُلقَّب بالصَّحابي.

ولنا أن نُنوِّه في هذا المقام على أنَّ هذا التعريف كما يَنطبق على الرِّجال من الصَّحابة، فإنَّه يَنطبق كذلك على النِّساء من الصحابيات.

فضائل الصَّحابة

إنَّ لصحابة رسول الله ﷺ من الفضائل ما لا يُعدُّ ولا يُحصى، وسنحاول أن نُلخِّصها فيما يلي:

---

[1] أي: حضَره والْتقَى به ولو لم يَرَه؛ بأنْ كان أعْمى.

أولاً – تزكية الله ﷻ:

لقد ذكَر الله ﷻ: صحابةَ رسول الله ﷺ وزكَّاهم في مواضِعَ كثيرةٍ من القرآن الكريم، وقد جاء ذِكرهم على ثلاثة أشكال :

١- **آيات تشير إلى عموم الصَّحابة وتُزكِّيهم**، كما في قوله تعالى:

*{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الفتح: ٢٩].

* {لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ٨٨، ٨٩].

وهناك العديد والعديد من الآيات والتي تزكِّي صحابةَ رسول الله ﷺ، قد لا يتَّسع المجالُ لذِكرها جميعًا.

٢– آيات تشير إلى مجموعة بعينها من الصَّحابة، كما في قوله سبحانه :

*** {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: ١٨].**

وهي تشير إلى أهل بَيعة الرِّضوان.

*** {وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا * مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا**

تَبْدِيلاً} [الأحزاب: ٢٢، ٢٣].

وهي تُشير إلى أهل الخندق "غزوة الأحزاب".

وهناك غيرها من الآيات تشير إلى أهل بدر، وحُنَين ...وغيرها من المشاهد.

٣- آيات تشير إلى صحابي بعينه :

أ – بدون ذكر اسمه، كما في قوله تعالى :

* **{إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٤٠].**

إشارة إلى أبي بكر الصديق ﷺ .

ب – بذكر اسمه:

وحدث ذلك مرَّة واحدة في قوله تعالى:

* {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً} [الأحزاب: ٣٧].

في إشارة إلى زيد بن حارثة ﷺ.

ومَن أصدق من الله قِيلاً؟ !فأيُّ فضلٍ وأيُّ شرف أعلى مِن أن يُذكر الإنسان في كتاب يُتلى ويتعبَّد به إلى يوم الدِّين؟!

ثانيًا – تزكية رسول الله ﷺ لصحابته :

وقد زَكَّى رسولُ الله ﷺ أصحابَه في كثير من الأحاديث، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

١– قال رسولُ الله ﷺ : «**خير أمَّتي قَرني، ثمَّ الذين يَلونهم، ثمَّ الذين يَلونهم**» أخرجه البخاري ومسلم .

٢– قال رسولُ الله ﷺ : «**لا تَسبُّوا أصحابي، فلو أنَّ أحدكم أنفَق مثلَ أُحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم أو نَصيفَه** » أخرجه البخاري.

والْمُدُّ :هو ضربٌ من المكيال؛ وهو رُبع صاعٍ.

والمعنى :أنَّه لا ينال أحدكم بإنفاقه مثل أُحُدٍ ذهبًا – من الفَضل والأجر –ما يَنال أحدهم بإنفاق مُدٍّ من طعام أو نَصيفه .

٣– قال رسولُ الله ﷺ : "**اللهَ اللهَ في أصحابي ! لا تتَّخِذوهم غرَضًا مِن بعدي، فمَن أحبَّهم فبحبي أحبَّهم، ومَن أبغضهم فببغضي أبغَضَهم**" رواه أحمد في المسند.

فهذه الأحاديث بَعضٌ مِن أحاديثَ كثيرة تُزَكِّي صحابةَ رسول الله ﷺ كافَّة، فضلاً عن كثير من الأحاديث التي زَكَّى فيها رسولُ الله ﷺ كثيرًا من الصَّحابة بأعيُنِهم، وسنأتي إلى ذِكر ذلك في مَعرِض حديثِنا عن كلٍّ صحابي.

ثالثًا – ما قاله ابنُ مسعود ﷺ في أصحاب رسول الله ﷺ :

فعن ابن مَسعود ﷺ قال: "**إنَّ الله نظَر في قلوب العِباد، فوجد قلبَ محمَّد ﷺ خيرَ القلوب، فاصطفاه لنَفسه، فابتَعثه برِسالته، ثمَّ نظر في**

قلوب العباد بعدَ قلبِ محمد ﷺ، فوجَد قلوبَ أصحابه خيرَ قلوب العباد، فجعَلهم وزراءَ نبيِّه يقاتِلون على دِينه"؛ (أخرجه أحمد في المسند).

رابعًا – مميزات صحابة رسول الله ﷺ:

والسؤال الذي قد يَطرح نفسَه في هذا المقام هو :لماذا هذا التَّكريمُ القرآني والنَّبوي لصَحابة رسول الله ﷺ؟

والإجابة تتلخَّصُ في الآتي :

فقد امتَاز أصحابُ رسول الله ﷺ عمَّن سبَقهم من أتْباع الرُّسل، ومَن لَحِقهم من أمَّة الإسلام بمميِّزات متعدِّدة بلَغوا فيها الدَّرجات العُلا، منها :

١ – الربَّانية :

فقد كانوا مَوصولين بالله، قلوبهم متعلِّقة به وحدَه، يُحبُّهم ويحبونه، يَشتاقون إليه، فإذا دعَوْه جعلوا ألسِنتَهم من وراء قلوبهم، وكانوا عند ذِكْره خاشِعين مطمئنِّين، وإذا قاموا بين يديه قاموا قيامَ الذَّليل الوَجِل.

٢ – المثالية :

بلغ صحابةُ رسول الله ﷺ الدَّرجةَ العليا في عباداتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم.

أ – فبلغوا من الخشوع درجةَ التفوُّق، وذروة الإخلاص، فكانوا بحقٍّ كما وصَفهم الله ﷻ : {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} [المائدة: ٨٣].

ب – كانت قلوبهم تَلين، وجلودهم تَقشعِرُّ، وعيونهم تَهطُل بالدموع عند قِراءة القرآن الكريم.

وهاك بعض الأمثلة :

* كان صديقُ الأمَّة ﷺ كثيرَ البُكاء، وكان إذا بَكى لا تُعرَف قراءتُه من كثرة البكاء.

* وهذا هو الفاروق عمرُ ﷺ لَمَّا قرأ: {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ} [الطور: ٧، ٨] ظلَّ يَبكي، وانتابته حالةٌ من الخوف لمدَّة عِشرين يومًا.

* ولما نزلت آية: {أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ} [النجم: ٥٩، ٦٠] بكى أصحاب الصُّفَّة حتى جرَتْ دموعهم على خدودهم، فلمَّا سمِع رسولُ الله ﷺ صوتَ بكائهم بكى معهم.

ج – كانوا إذا أُنزلت الآية يَعملون بها ويطبِّقون شرعَها فورَ سماعها، والأمثلة كثيرة، سنعرض لها بالتفصيل إن شاء الله.

٣– التوازن بين الدُّنيا والدين :

حقَّق أصحابُ رسول الله ﷺ هذا التَّوازُنَ بدون إفراطٍ ولا تَفريط.

وهذا أمرٌ ما أحوَجَنا إليه هذه الأيَّام !فترى مِن النَّاس مَن أُغرِق في أمور الدين ونَسي حظَّه من الدنيا، والعكس صحيح؛ فكثيرٌ من النَّاس أُغرق في أمور الدُّنيا ونسي حظَّه من الآخرة.

أمَّا صحابة رسول الله ﷺ فقد حقَّقوا هذا التوازنَ بين ما يَحتاجه الجسد وما تحتاجه الرُّوح.

والأمثلة على ذلك كثيرة، نذكر منها :

* إقبالهم على تَعلُّم ما ينفعهم ويساعدهم في الحياة؛ فهذا ابن الزُّبير كان يتكلَّم بأكثرَ من لغةٍ "قيل :مائة لغة"، وهذا زيدُ بن ثابت أرسلَه رسولُ الله ﷺ لتعلُّم العِبْرية والسُّريانية.

* كانوا يجمعون بين العلم (تعلُّم أمور دينهم) والكسب:

- فهذا عمر بن الخطَّاب يقول :"كنتُ أنا وجاري مِن الأنصار نتَناوب النُّزولَ على رسول الله ﷺ؛ يَنزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزَلتُ جئتُه بخبَر ذلك اليومِ من الوحي وغيره، وإذا نزَل فعَل ذلك". أي: إنَّ أحدَهما يَنزل لرسول الله ﷺ يَسمَع منه ويتعلَّم، والآخَر يذهب للعمل والكَسْب ...وهكذا .

- وعن البَراء رضي الله عنه قال" :ليس كلُّنا سَمِع رسولَ الله ﷺ؛ كانت لنا ضَيْعة وأشغال، ولكن النَّاس كانوا لا يَكذِبون يومئذ، فيُحدِّث الشاهدُ الغائبَ؛ (أخرجه أحمد).

* كثيرٌ من الصَّحابة، أمثالُ عبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عفَّان بلَغوا من النَّجاح في تجارتهم ومن الغِنى مَبلَغه، إلَّا أنَّهم جعَلوا الدُّنيا وسيلةً ولم يَجعلوها غاية، فأخذوا منها ما يُصلِح الجسدَ، وصيَّروا همَّهم وهدفهم إلى الآخرة.

٤ – الشجاعة:

تميَّز صحابة رسول الله ﷺ بالتضحية الفذَّة بالنَّفس والمال، وقد شهد تاريخهم شجاعة لم يُعرَف لها نظير، وكانت دائمًا ما تَظهر وقت الشدَّة،

ووقتَ الحاجة لها، والأمثلة على ذلك كثيرة، سنَعرِض لها بالتفصيل مع سَرْدِ سيرة كل صحابي.

٥- العدالة :

كانت العدالة جزءًا أصيلاً من شخصيَّة الصَّحابة، وقد عُرفوا بها، وأقرَّها الأعداءُ قبل الأصدقاء؛ ولهذا كانت لهم الغلَبةُ والسيادة، "فالعدل أساس الْمُلْك"؛ كما يقال، والأمثلة كثيرة، سنعرض لها بالتفصيل في سَرد سيرة كل صحابي.

٦- الإنفاق والكرم :

أحبَّ أصحابُ رسول الله ﷺ معاليَ الأمور ومكارمَ الأخلاق، فجادوا بأفضلِ ما يَملِكون، وأنفَقوا خيرَ ما يجدون، فكانوا يُنفقون ممَّا يُحبون لينالوا البرَّ؛ عملاً بقوله تعالى :{لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [آل عمران: ٩٢]، وقد يَجود الواحدُ منهم بكل ما يَملِك، ولا يخشى مِن ذي العَرش إقلالاً.

وسنعرض بالتفصيل لكل هذه الأمثلة في مَعرِض حديثنا عن كل صحابي.

٧- الإيثار :

لم يَذكر التاريخُ أحدًا مات جوعًا في عصر الصَّحابة، وكيف يكون ذلك والله عزَّ وجلَّ قد أثنى عليهم بقوله {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُفْلِحُونَ} [الحشر: ٩]؟!

والأمثلة من حياة الصَّحابة كثيرة، سنعرض لها بالتفصيل إن شاء الله.

٨- حب الصَّحابة لرسول الله ﷺ :

تميَّز صحابة رسول الله ﷺ - فوق كلِّ ما تقدَّم، وقبل كل ما تقدَّم - بحبِّهم لرسول الله ﷺ؛ فكان حبُّهم له ﷺ حبًّا جمًّا، أكثرَ مِن حبهم لأولادهم وأموالهم وأنفسهم، فكانوا لا يتردَّدون في بذل الغالي والنَّفيس فِداءً لرسول الله ﷺ.

وقد ذكَرنا في الجزء الأول "حياة خير الأنام" بعضَ الأمثلة من حبِّ صحابة رسول الله ﷺ له وحِرصهم عليه؛ وذلك تصديقًا لقوله تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} [الأحزاب: ٦].

وسنَعرِض لمزيد من الأمثلة في معرض حديثنا عن كلِّ صحابي إن شاء الله .

فكان هذا أعِزَّائي جزءًا يسيرًا من صفاتٍ ومميزات كثيرة لصحابة رسول الله ﷺ، وقد أُفرِدَتْ لها كتبٌ ومجلدات يصعب حصرها في هذا المقام .. فكانوا بحقٍّ أهلاً لتزكية اللهﷻ لهم، وتزكية رسول الله ﷺ لهم، وأن ينالوا هذا الشَّرَف العظيم، أنِ اختارهم اللهُ ﷻ ليكونوا في صحبة خير خلقه سيدنا محمد ﷺ.

قد يبدر للأذهان سؤال: هل لنا من الوصول إلى هذا المقام الرَّفيع في

الرُّقي والقربِ من الله؟ أم أنَّ هؤلاء الصَّحابةَ عاصروا رسولَ الله ﷺ وتتلمَذوا على يديه، فأنَّى لنا اللحاق بهم؟!

والإجابة: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الخير فيَّ وفي أمَّتي إلى يوم القيامة**»؛ أو كما قال، فالأمل موجود، والطَّريق إلى الله ممهَّد، والهداية والقدوة التي تُنير لنا الطريق مُيسَّرة، فعلينا أن نُخلِص النيَّةَ إلى الله، ونسأله سبحانه أن ينير أبصارَنا وبصائرَنا؛ لنتبع الهدى والنُّور الذي مَنَّ الله به علينا، فنَنعَم بصحبة "خير الأنام وصَحبه الكرام".

العشرة المبشَّرون بالجنَّة

مَن هم العشَرة المبشَّرون بالجنَّة؟

هذا مصطلَح يُستخدَم للإشارة إلى عشَرةٍ من صَحابة رسول الله ﷺ، وُعِدوا في بعض أحاديث النَّبي ﷺ "مجتمِعين في حديث واحد"، بدخول الجنَّة، وهم العشَرةُ الأكثرُ فضلاً وخيرةً بين صحابة رسول الله ﷺ.

فقد رُوي عن عبد الرحمن بن عوفٍ ﷺ أنَّه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**أبو بكر في الجنَّة، وعُمر في الجنَّة، وعُثمان في الجنَّة، وعليٌّ في الجنَّة، وطلحةُ في الجنَّة، والزُّبير في الجنَّة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنَّة، وسعدُ بن أبي وقَّاص في الجنَّة، وسعيدُ بن زيد في الجنَّة، وأبو عُبيدة بن الجرَّاح في الجنَّة**»؛ (رواه الترمذي).

وهناك الكثير من الصَّحابة والصحابيات – من غير هؤلاء العشَرةِ – بشَّرهم رسولُ الله ﷺ بالجنَّة، لكنَّ العشَرة المبشَّرين ذُكروا في وقت واحد، وفي حديث واحد، ربَّما لأنهم وُجدوا معًا في مجلس واحد، فذكَرهم رسولُ الله ﷺ معًا.

إذًا فالعشرة المبشَّرون بالجنَّة هم:

١– أبو بكر الصدِّيق ﷺ.

٢– عمر بن الخطاب ﷺ .

٣– عثمان بن عفَّان ﷺ .

٤– علي بن أبي طالب ﷺ .

٥– طلحة بن عُبيد الله ﷺ .

٦- الزُّبير بن العوَّام ﷺ .

٧- عبد الرحمن بن عوف ﷺ .

٨- سعد بن أبي وقَّاص ﷺ .

٩- أبو عُبيدة بن الجرَّاح ﷺ .

١٠- سعيد بن زيد ﷺ .

والآن أعزَّائي فلنستمتِع بصحبة العشرة المبشَّرين بالجنَّة، مع صفحات الكتاب التالية...

أبو بكر الصدِّيق

إذا سألتَ أيَّ مسلِم على وجه الأرض أن يَذكر لك اسمَ صحابيٍّ واحد فقط من أصحاب رسول الله ﷺ ...ستَجِد الإجابةَ وبدون تردُّد :"أبو بكر الصدِّيق".

فهو صاحِبُ رسول الله ﷺ، والتلميذ الأول في مدرسة الحبيب المصطفى ﷺ، وهو الصَّديق، والرَّفيق، والعَتيق، وثاني اثنين .

يقول الشيخ الشَّعراوي رحمه الله :"لقد كان أبو بكر الصدِّيق ثاني اثنين في مواقِعَ كثيرة:

١- فهو ثاني مَن خصَّه الله بالأمر بالعفو والصَّفح؛ فبَعد أن أمَر اللهُ رسولَه ﷺ بالعفو والصَّفح في قوله {فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [المائدة: ١٣].

أمَر الله أبا بَكر بالعفو والصَّفح في قوله تعالى : {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: ٢٢].

في إشارةٍ إلى أبي بَكر؛ لِيَعفو ويَصفح عن ابنِ خالته الذي شارَك في حديث الإفك، رغم ما كان لأبي بكرٍ عليه مِن فَضل .

٢- ثاني مَن بلَّغ عن الله بعد رسول الله ﷺ.

٣- الثاني في الهجرة بعد رسول الله ﷺ.

ويستطرد الشيخ الشعراوي ويقول :لذلك قال رسول الله ﷺ :"**كنت أنا وأبي بكر في الجاهلية كفرسي رهان، سبقته إلى النبوة فاتبعني، ولو سبقني لأتبعته**" .

فها هو أبو بكر الصديق أيها الأعزاء ..تعالوا نقترب منه لنستشرق بعض من جوانب حياته وسيرته العطرة، رضي الله عنه وأرضاه.

من هو أبو بكر الصدِّيق؟

نسَبه :

هو عبد الله (أبو بكر) بن عثمان (أبي قُحافة) بن عمرو بن كعب بن سعد بن تَيْمِ بن مُرَّة بن كعب بن لؤيِّ بن غالب بن فِهْرٍ التَّيْميُّ القرشي.

وهو يجتمع مع رسول الله ﷺ في الجدِّ السادس مُرَّة بنِ كعب.

مولده ونشأته:

وُلد أبو بكر الصدِّيق للسنة الثانية بعد عام الفيل، فهو أصغر من رسول الله ﷺ بنحو سنتين، وُلد لأبَوَين من بني تَيم، وهم قومٌ اشتهروا بالدَّماثة والأدب.

وكان أبو بكر رجلاً ذا خُلق وفضل، وكان رِجال قريش يأتونه ويألَفونه؛ لعِلمه وتجارته وحُسن مُجالَسته.

موقفه من عِبادة الأصنام :

نشأ أبو بكر وقد سادت عِبادة الأصنام مكَّةَ، وإن كان هناك مَن

يَعبدون الشمس والملائكة.

ووسط هذا الشِّرك الطاغي الذي باعَد بين النَّاس وبين الحنيفيَّة المؤمنة الموحِّدة، التي جاء بها إبراهيمُ، كان يَظهر مَن يَلوحون براية إبراهيم، ويرفعون أصواتَهم داحِضين الشِّركَ والزَّيغ.

وكان مِن هؤلاء قُسُّ بنُ ساعِدَةَ، وزيدُ بن عَمرِو بن نُفيل، وورَقةُ بن نَوفل، وكان أبو بكر شديدَ الإعجاب بهؤلاء وأفكارِهم، رغم أن هذا كان يُعرِّضه لاستنكار قريش.

فقد عزَف عن عبادة الأصنام، وكان يَقضي أيامَه بعيدًا عن مَعابث النَّاس وعادتهم، وقد كان مِثلَ رسول الله ﷺ لا يَذكر الأصنامَ بسوء، ولا يذكرها بخير، ولا يَعبدها ولا يَسجد لها، ولا يتقرَّب إليها.

وقد جمَعَتْه برسول الله ﷺ أفكارٌ واحدة، وسِنٌّ واحدة، إلَّا أنه كان يرى فيه مثَالاً أعلى، وقُدوةً تدعو إلى الثِّقة؛ فكان يتبع منهجَ رسول الله ﷺ في التأمُّل والإصغاء، وإن كان رسول الله ﷺ يُصغي إلى الهَمْس الآتي من داخل الحقيقة ذاتِها، إلَّا أنَّ أبا بكر كان يُصغي إلى حِكمة الحكماء ومنطق العابدين المبصِرين.

وصفه :

كان أبو بكر في جُملة ما وصَفوه به :أبيضَ تُخالطه صُفرة، وسيمًا، غزير شعر الرأس، خفيفَ العارضين، غائرَ العينين، نَحيفًا، أمْيَلِ إلى القِصَر، دقيقَ الساقين.

ألقابه :

عُرف الخليفةُ الأول في التاريخ بأسماء كثيرة :أشهَرها أبو بكر، والصدِّيق، ويليها في الشُّهرة عَتيق وعبد الله، وقيل :إنَّه عُرف بهذه الأسماء والألقاب في الإسلام والجاهلية على السواء.

ففي الجاهليَّة :

- **عُرف بالصدِّيق**؛ لأنَّه كان يتولَّى أمر الدِّيات وينوب فيها عن قريش؛ فما وافق عليه من هذه الدِّيات صدَّقتْه قريش فيه وقبِلَته، وما تولَّاه غيره خذلَتْه وتردَّدتْ في قَبوله.
- **وعُرف بالعَتيق**؛ لجمال وجهه؛ مِن العتاقة وهي الجَودة في كلِّ شيء، وقيل :من العِتق، لأنَّ أمه لم يكن يَعيش لها ولد، فاستقبلَتْ به الكعبةَ وقالت : اللهمَّ إنَّ هذا عَتيقك من النار، فهَبْه لي، فعاش، وعُرف بالعتيق.

أمَّا في الإسلام :

-**فعُرف بالصدِّيق**؛ لأنَّه صدَّق رسولَ الله ﷺ في حديث الإسراء.

-**وعُرف بالعتيق**؛ لأنَّ رسول الله ﷺ بشَّره بالعتق من النار.

إسلامه رضي الله عنه

رؤيا أبي بكر :

خرَج أبو بكر في رِحلة إلى الشَّام، ولما أنجز أعمالَه وتهيَّأ للعودة إلى مكَّة رأى رؤيا :رأى أنَّ القمر قد غادَر مكانَه في السَّماء، ونزل على مكَّة؛ حيث

تجزَّأ إلى قطع وأجزاء تفرَّقت على جميع منازل مكَّة، ثمَّ تَضامَّت هذه الأجزاء مرَّة أخرى، وعاد القمرُ إلى كيانه الأوَّل، واستقرَّ في حِجر أبي بكر .

فلمَّا صحا من نومه، سارع إلى أحد الرُّهبان وقصَّ عليه الرُّؤيا، فقال له الرَّاهب :لقد أهلَّتْ أيَّامُ النَّبي الذي ننتظره، وستُؤمن معه، وستكون أسعدَ النَّاس بصُحبته، فلمَّا سمع أبو بكر بهذا الحديث، أشرقَتْ في نفسه أنوار، وازداد شوقًا لرؤية هذا النَّبي المنتظَر ...

حديث قريش :

وما أن وصَل الرَّكْب إلى مكَّة، حتى وجد القومَ في حالة من الثورة والقلق والغضب، فلمَّا سأل عن ذلك، قيل له: إنَّ صاحبك يقول :إنَّ في السماء إلهًا واحدًا، وقد أُوحي إليه، وأرسله إلينا لِنَعبدَه ونذَر ما كان يَعبد آباؤنا.

أبو بكر يُجيب دعوة الحق :

فلمَّا سمع أبو بكر بهذا الحديث، اتَّجه لتوِّه إلى رسول الله ﷺ يسأله :

– يا أبا القاسم، ما هذا الذي بلَغني عنك؟

قال النَّبي ﷺ : «**وما بلَغك عنِّي يا أبا بكر؟**».

قال :بلَغني أنَّك تدعو إلى توحيد الله، وأنَّك رسولُ الله.

قال رسول الله ﷺ : «**نعم يا أبا بكر، إنَّ ربي جعَلني بشيرًا ونذيرًا، وجعلني دعوةَ إبراهيم، وأرسلني إلى النَّاس كافة**».

فما أبطأ أبو بَكر أن قال :والله ما جرَّبتُ عليك كذبًا، وإنَّك خَليق بالرِّسالة؛ لِعظيم أمانتك وصِلَتِك لرَحِمك وحُسن فعالك، مُدَّ يدَك فإنِّي مُبايِعُك.

وشدَّ بكِلْتا يديه على يمين رسول الله ﷺ وقال :أشهَد أنَّك صادق أمين، أشهد أن لا إله إلَّا الله، وأشهد أنك رسول الله.

فكان أبو بكر أوَّلَ مَن أسلم من الرِّجال، حتى قال عنه رسول الله ﷺ: «**ما دعَوتُ أحدًا إلى الإسلام، إلَّا كانت له كَبْوة غير أبي بكر؛ فإنَّه لم يتلعْثَم**».

* * * * * * * * * * *

مواقفه ﷺ في صدر الإسلام

١ – الدعوة إلى الله :

ما أن أسلم أبو بكر ﷺ حتى كان أمر الدَّعوة إلى الله هو شاغِلَه الأكبر، فأخذ يدعو إلى الإسلام، فكان بحقٍّ "ثاني اثنين" في الدَّعوة إلى الله.

فلمَّا كانت زيارته التاليةُ لرسول الله ﷺ بعد إسلامه، لم يكن وحدَه، بل كان معه زمرة من أشراف قريش وقد أسلَموا، منهم سِتَّة من العشَرة المبشَّرين بالجنَّة، وهم :عثمان بن عفَّان، وطلحة بن عُبيد الله، والزُّبير بن العوَّام، وسعد بن أبي وقَّاص، وأبو عُبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، فيأتي الصدِّيق يوم القيامة وهؤلاء في ميزان حسناته.

وكذلك أسلم على يديه :عثمان بن مظعون، وأبو سلمة بن عبد الأسد، والأرقَم بن أبي الأرقم، كما أسلم على يديه خَلْق كثير غيرُ هؤلاء الأشراف الأطهار .

وقد كان لصلاح سيرته ورَجاحة قدْرِه الأثرُ الكبيرُ في يقين النَّاس باستقامة قصده.

٢ – الدفاع عن المستضعَفين والعبيد :

بينما أسلَم على يديه مِن أشراف قريش أناسٌ كثيرون، أسلم كذلك على يديه من العَبيد والمستضعَفين خَلْق كثير، فإن كان للأشرافِ مَن يَحميهم مِن بَطش المشركين من أهلٍ وعشيرة، إلَّا أن هؤلاء العَبيدَ لم يكن لهم مَن يحميهم ويُدافع عنهم، فكان أبو بكر هو من يحميهم ويدافع عنهم، فكان يقوم بشِراء العبيد منهم ثمَّ يُعتقهم لوجه الله.

فقد مرَّ يومًا فرأى أُميَّةَ بن خلَف وهو يعذِّب بلالَ بن رَباح الذي كان عبدًا عنده عذابًا لا يتحمَّله بشَر، فعرَض على أميَّةَ أن يشتريَه منه، فأغلى به الثَّمَن وهو يظنُّ أنَّ أبا بكر لا يأخذه، فاشتراه منه بعَشْر أواقٍ من الذَّهب ...فقال له أميَّة بعد أن تمَّت الصفقة :لو أبيتَ أخْذَه إلَّا بأوقيَّة واحدة لبِعتُه إليك، فقال الصدِّيق :وأنتَ لو أبيتَ بيعَه إلَّا بمائة لاشتريتُه.

وما أن اشتراه الصدِّيق حتى أعتَقه، وكذلك فعَل مع عامِر بن فُهيرة وآخَرين.

٣- إيذاء المشركين له ودفاعه عن رسول الله ﷺ :

استشاط المشركون غضبًا، وتميَّزوا غيظًا من أبي بكر بعد إسلامه، فأقسموا ليؤذونه أشدَّ الإيذاء.

وفيما يلي بعضٌ من كثير مما تعرَّض له الصدِّيق :

ما فعل رسول الله ﷺ؟

كان المسلمون دون الأربعين يومَ خرَج الصدِّيقُ مع رسول الله ﷺ واجتمعوا في المسجد ليَجهَروا بالدَّعوة، فلمَّا وقف الصدِّيق بينهم يدعو إلى الله ورسوله، وثَب عليهم المشركون يَضربونهم ويؤذونهم، وتصدَّى عُتبة بن أبي ربيعة لأبي بَكر، فجعل يَضرِبه بنَعلين مَخصوفين حتى ورم وجهه، فلمَّا علِم بذلك أهلُه من بني تَيْم أقبلوا عليه لِيَحموه من المشركين وحملوه في ثَوب إلى بيته، وظنُّوا أنه قد دنا من الموت، فصاح منهم صائحون :واللهِ لئن مات أبو بكر لنَقتُلنَّ عُتبة، ثمَّ أحاطوا به يكلِّمونه حتى أفاق، فكان أوَّل ما فاه به وهو في تلك الحال :"ما فعَل رسولُ الله؟".

فلاموه وعنَّفوه، وسألوا أُمَّه أن تُطعمه أو تَسقيَه شيئًا، فأبى أن يأكل أو يَشرب حتى يَعلم ما فعَل رسولُ الله ﷺ.

فأرسلوا مَن يأتيه بخبر رسول الله ﷺ، وعلم أنَّ رسول الله ﷺ بخَير، فلم يَكْفه ذلك حتى يراه بعينَيه، فخرجوا به يتَّكئ على اثنين منهما، حتى أتَوا به إلى دار الأرقَم بن أبي الأرقم، فلمَّا دخَل على رسول الله ﷺ وهو بتلك الحالة، انكبَّ عليه يُقبِّله، ورقَّ رسولُ الله ﷺ لصَديقه وصفيِّه رقَّةً شديدة وسأله :«**ما بِك يا أبا بكر؟**»، فقال :بأبي أنت وأمِّي، ليس بي إلَّا ما نال الفاسِقُ من وجهي .

ولما اطمأنَّ أنَّ رسول الله ﷺ بخير ولم يصبه سوء شرب وطَعِم.

أتقتلون رجلاً أن يقول :ربي الله؟!

بينما رسول الله ﷺ بفِناء الكعبة إذْ أقبل عليه ثُلَّةٌ من المشركين، والتفوا حوله وأخذوا بتلابيبه وهم يصيحون:

– أنتَ الذي جعلتَ الآلهة إلهًا واحدًا!

وأقبل عُقبةُ بن أبي مُعيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولفَّ ثوبه حول عُنقه، فخنقه خنقًا شديدًا.

أمَّا المسلمون من حول رسول الله ﷺ، فكانوا مستضعَفين لا يَقدر أحدٌ منهم أن يدنوَ من هؤلاء، إلَّا أبا بكر تقدَّم وأخذ بمنكبي ابن أبي مُعَيط ودفعه هو ومَن معه عن النَّبيِّ ﷺ وهو يقول:

–"وَيلكم ! أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟."!

وهكذا لَبِث الصدِّيقُ بين المشركين، يَستهين بالخطَر على نفسه، ولا

يَستهين بخطَرٍ يُصيب رسولَ الله ﷺ – قَلَّ أو كَثُر – حيثما رآه واستطاع أن يَذود عنه العادِينَ عليه.

٤– الهجرة إلى الحبشة :

مرَّت الأيام والشُّهور، وأبو بكر يُلاقي مِن عنَتِ المشركين ما يناله باقي المسلمين، فاستأذن رسولَ الله ﷺ في الهِجرة إلى الحَبشة فأذِن له، وغَضِب لرحيله الأكرَمون من القوم، فلَحِق به في الطَّريق ربيعةُ بن فهيم المعروف بابن الدَّغِنَةِ فسأله:

– أين تريدُ يا أبا بكر؟

فقال له أبو بكر:

– أخرَجني قومُك !فأريد أن أسيح في الأرض، فأعبد ربي.

فقال ابن الدَّغِنَة:

– ولِمَ؟ فإنَّك تَكْسِبُ المعْدُومَ، وتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَقْري الضَّيفَ، وتُعينُ على نَوائبِ الحقِّ، فما كان لمثلِك أن يهاجر أبدًا، ارجِعْ واعبُد ربَّك في بلدك؛ فأنت في جِواري.

وطاف ابنُ الدَّغِنَة في أشراف قريش يبلِّغهم أنَّه أجارَ أبا بكر، فأقَرُّوا جِواره وقالوا له:

– مُرْه فليعبد ربَّه في داره، يصلِّي فيها ويقرأ ما يشاء، ولا يؤذينا ولا يَستعلِن به؛ فإنَّا نَخشى أن يَفتن نِساءنا وأبناءنا، ففعل ورضي أبو بكرٍ بذلك.

أرضى بجوار الله

إلَّا أنَّ أبا بكر بنى بفِناء دارِه مسجدًا يُصلِّي فيه ويرتِّل القرآنَ، وكان أبو

بكر رجلاً بَكَّاءً، لا يملِك دموعَه حين يقرأ القرآنَ، فكان نساءُ المشركين وأبناؤهم يَجتمِعون إليه لِيَستمعوا إلى القرآن ويعجَبون به، فأفزَع ذلك كفَّار قُريش، وطلَبوا من ابن الدَّغِنَة أن ينهاه عن ذلك ويعبد ربه داخلَ داره، وإلَّا يسترد منه جِواره.

فلمَّا أَخبر ابنُ الدَّغِنَة أبا بكر بذلك، أبى أن ينتهي عن الجهر بالصلاة والقراءة، وقال له:

"فإنِّي أردُّ عليك جِوارَك، وأرضى بجوار الله عزَّ وجلَّ".

٥- موقفه ﷺ في قصة الإسراء والمعراج :

لما أُسري برسول الله ﷺ وأَخبر بذلك قُريشًا فاستنكروا عليه ذلك استنكارًا شديدًا، وقالوا:

- أتزعم أنَّك أتيتَ بيتَ المقدس وعُدتَ في ليلتك، ونحن نَضرب أكبادَ الإبل إليه شهرًا في الذَّهاب وشهرًا في الإياب؟!

أبو بكر صدِّيقًا

فذهبوا إلى أبي بكر وصاحوا به:

-يا عتيق، كلُّ أمرِ صاحبك قبل اليوم كان هيِّنًا، إلَّا الآن؛ فالأمر لا يحتمل!

فردَّ أبو بكر في لهفة : ويحَكم ! هل أصابه سوء؟!

فقالوا : إنّه يحدِّث النَّاس أن ربَّه أسرى به الليلةَ إلى بيت المقدس !ذهب ليلاً وأصبح بين أظهُرِنا!..

فكان رد أبي بكر الصَّاعق الصادم لهم:

- أيُّ بأس؟ !إنِّي أصدِّقه فيما هو أبعدُ من ذلك؛ أُصدِّقه في خبر السماء!

ثمَّ أطلق عبارته الصادمة :"إن كان قال فقد صدَق".
فأيُّ إيمان هذا؟ !وأيُّ يقين وهبَك به الله يا أبا بكر؟!

وكان أبو بكر حتى يومها مَعروف بأبي بكر بن أبي قُحافة والعتيق ... وغيرها من الأسماء، ولكنَّه منذ هذا اليوم سمِّي أبا بكر الصدِّيق، لتصديقه لرسول الله ﷺ في هذه الواقعة حين كذبها الناس .

٦– دوره ﷺ في الهجرة النبويَّة:

لقد هاجر المسلمون إلى المدينة بإذن رسول الله ﷺ، وإنَّهم بالهجرة لَسُعداء؛ فقد أراحَتْهم من سَفَه قومهم، وإن يَكُ لِفراق الأهل والوطن مَرارةٌ وغُصَّة.

فلمَّا تجهَّز أبو بكر واستأذن رسولَ الله ﷺ في الهجرة، قال له :

– « **لا تَعْجل؛ لعلَّ الله يجعَل لك صاحبًا**».

فحبَس أبو بَكر نفسه على رسول الله ﷺ لِيَصحَبه، وعلف راحلتين كانتا عنده.

مَخاطر الهجرة :

لقد انتهى زُعماء قريش إلى أنَّهم إذا تركوا رسولَ الله ﷺ يُهاجِر إلى المدينة، فلسوف يَجمع العربَ حوله، ثمَّ يَغزو بهم قُريشًا.

ومِن ثَمَّ قرَّروا أن يَظفروا برأسه، ولعلهم تركوا المسلمين ومعَهم عمر بن الخطاب – عمر بن الخطاب بصفة خاصَّة – لعلَّهم تركوهم يُهاجرون؛ لِيَبقى رسولُ الله ﷺ بينهم بلا أنصار، حتى يتأتَّى لهم الخَلاصُ منه بسهولة.

إذًا، فهجرة رسول الله ﷺ ليست نُزهة !إنَّما هي مُخاطرة مَهولة ومُطاردة فادحة، وأبو بكر يَعلم ذلك جيدًا، ويَعلم أنَّ قُريشًا ستَملأ السَّهل والجبل بفُرسانها حتى تظفَر برسول الله ﷺ.

الصدِّيق يبكي فرحًا

فبِرغم عِلمه ﷺ بهذه المخاطر، فما باله يتهلَّل لهذه الصحبة ويطير قلبه فرحًا بها؟ !إنَّه الإيمان واليقين المطلَق.

فلمَّا أُذِن لرسول الله ﷺ بالهجرة، ذهب إلى بيت أبي بكر في وقت الظهيرة، فلمَّا رأى أبو بكر رسولَ الله ﷺ قال:

– فِداك أبي وأمِّي، واللهِ ما جاء برسول الله ﷺ في هذه الساعة إلَّا أمرٌ جَلَل!

فقال له رسول الله ﷺ : «**إنَّ الله قد أذِن لي بالخروج**».

فقال وقد تهلَّل وجهه فرحًا :الصُّحبة يا رسول الله؟!

فقال ﷺ : «**الصُّحبة**».

وقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت:

–"ما شعَرتُ قبل ذلك أنَّ أحدًا يَبكي من الفرَح، حتى رأيتُ أبا بكرٍ يَبكي، حين أَذِن له رسولُ الله بصحبته".

مع المهاجر إلى الله

وصَل رسولُ الله ﷺ إلى بيت أبي بكر، وتَحسُّبًا من أن يكون هناك عُيونٌ تَرقُب بيتَ أبي بكر، فإنَّهما تَسلَّلا من فتحةٍ كانت في ظهر البيت،

وخرَجا لِتَبدأ رِحلةُ المهاجر إلى الله، ومعه رفيقُه الصِّديق، وقد احتمل معه مالَه كلَّه؛ ستةَ آلاف درهم.

إلى الغار

ولما انتَهَيا إلى غار ثَوْر، قال أبو بكر لرسول الله ﷺ:

– واللهِ لا تدخله حتى أدخل قَبلك؛ فإن كان فيه أذًى أصابني دونك.

فدخل فكسَحه، ووجَد مِن جانبه ثقبًا، فشقَّ إزاره وسدَّه به، ثمَّ دخَلا الغار.

لا تحزن إنَّ الله معنا

ولما تتبَّع الكفارُ آثارَهما، ووصل المطارِدون إلى باب الغار قال أبو بكر، وقد ازداد خوفًا وقلقًا على رسول الله ﷺ:

– يا رسول الله، لو نظر أحدهم تحت قدَميه لأبصرنا!

فردَّ النَّبيُّ ﷺ بثقة المؤمن مِن نصر الله:

– «**يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟ !لا تحزن إنَّ الله معنا**».

فكانت معجزةُ الغار، وسكَن أبو بكر، ورأى المطارِدين يَطوفون بالغار في خَبال، ثمَّ يرتدون عنه حَيارى وعُميانًا، لم يَنالوا شيئًا.

خشيتُ أن أوقظك يا رسول الله

لبث رسولُ الله ﷺ وصاحبُه في الغار ثلاثًا، وفي إحدى هذه الليالي غلَب النُّومُ رسولَ الله ﷺ، فوضع رأسه في حِجر أبي بكر ونام، فمدَّ أبو بكر ساقَه، فرأى ثُقبًا لم يَلحظه من قبل، فسدَّه بإصبع قدَمِه، فلُدغ أبو بكر

في إصبعه من هذا الثقب، فلم يُحرِّك ساقَه!

ولما نظَر إلى رسول الله ﷺ وهو نائم، فبكى وسقَطت دموعُه على وجه رسول الله ﷺ، فاستيقظ رسولُ الله ﷺ من نومه وقال : «**ما لك يا أبا بكر؟!**»، فقال :لُدِغت فِداك أبي وأمِّي، فقال له رسول الله ﷺ: «**ولِمَ لَمْ تحرِّك ساقك؟!**»، فقال :خشيتُ أن أوقظك يا رسولَ الله !..

فتفَل رسولُ الله ﷺ في قدَمه، فذهَب عنه السمُّ ودعا له.

هكذا كان أبو بكر يتمنَّى أن يَفدي رسول الله ﷺ بنفسه وماله وكلِّ ما يَملِك، وهذا هو كَمال الحبِّ لرسول الله ﷺ، وهو أن يُحبه أكثرَ من حبه لنفسه .

شرب رسول الله ﷺ حتى ارتويت

مضى رسولُ الله ﷺ وصاحبُه في طريقهما إلى يثرب، وبينما هما بالطريق إذا براعٍ مُقبِل بغنمه، فحلَب أبو بكر مِن غنمه في إناءٍ كان معه، وأتى به لرسول الله ﷺ ليشرب.

يقول أبو بكر راويًا هذه الواقعة :"فشَرِب رسولُ الله ﷺ حتى ارتويتُ" .

في حراسة دائمة لرسول الله ﷺ

وكان أبو بكر رضي الله عنه كثيرًا ما يمشي عن يَمين رسول الله ﷺ، ثمَّ فجأة يتحوَّل إلى يساره، ثمَّ يمشي أمامه، وفجأة يتحوَّل إلى خلفه !فلمَّا سأله رسولُ الله ﷺ عن ذلك، قال :إن كنتُ عن يمينك يخيَّل إليَّ أنَّ أذًى

سيأتي عن يسارك، فأركُض يسارًا، وإن كنتُ أمامك فأخاف مكروهًا يصيبك من خلفك فأُهرول إلى الخلف منك .

لله دَرُّك يا أبا بكر!

وهكذا نال الصدِّيق ﷺ شرَف صُحبة رسول الله ﷺ في هذه الرِّحلة المباركة، وإن كانت محفوفةً بالمخاطر، إلَّا إنَّها كانت مُحاطة برعاية الله وأَمْنِه، فكان له شرَفُ ذِكره في قرآنٍ يُتلى إلى يوم الدين :{إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبة: ٤٠]، ويا له من شرَف لا يُدانيه شرف!

يقول عمر بن الخطاب ﷺ : "واللهِ لَلَيلةٌ مِن أبي بكر خيرٌ من آلِ عُمر ! ولَيومٌ من أبي بكر خيرٌ من آلِ عمر!"؛ أمَّا الليلة فليلةُ الهجرة، وأمَّا اليومُ فيوم الإسراء، يوم أنْ كذَّب النَّاسُ قصَّةَ إسراء رسول الله ﷺ وصدَّقها الصدِّيق ﷺ .

للاستزادة من رحلة المهاجِر إلى الله، ارجع إلى الجزء الأول من هذا الكتاب "حياة خير الأنام" ص (١٣٧).

الصديق في المدينة

دخول المدينة :

دخَل رسولُ الله ﷺ مع صاحبه المدينةَ؛ ليُنوِّرها، وكم كانت فرحة وسعادة أهلها برؤية رسول الله ﷺ !وإن كان أكثرُهم لم يرَه مِن قبل، حتى ظنَّ بعضُهم أنَّ أبا بكر هو رسولُ الله ﷺ، ولَمَّا أصابت الشمسُ رسولَ الله ﷺ، فأقبل أبو بكر يُظلِّله بردائه، وهو ما كان يعكف عليه طوالَ الرحلة من حماية لرسول الله ﷺ، فلمَّا رأى النَّاسُ ذلك عرَفوا رسولَ الله ﷺ.

دور الصدِّيق في المواقف والمَشاهد :

لقد شهِد أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ المشاهدَ كلَّها، وثبَتَ معه ثباتًا لا نَظير له .

وها هي بعضٌ مما سطَّره التاريخ من مواقف الصدِّيق وما قام به من دَور عظيم في هذه المشاهد :

١ – موقفه رضي الله عنه يوم بدر :

* لما استشار رسولُ الله ﷺ أصحابَه في خوض المعركة من عدمه، كان أوَّل المتحدِّثين أبا بكر، وقال مؤيدًا وأحسَن القولَ، ثمَّ تلاه عمرُ، فالمقدادُ بن عمرو، ثمَّ كانت مَقالةُ الأنصار على لسان قائدهم سعدِ بن معاذ.

* لما بَنى المسلمون لرسول الله ﷺ عَريشًا (مقرًّا للقيادة) على تلٍّ مرتفِع في المؤخِّرة، قالوا :مَن يكون مع رسول الله؛ لئلَّا يصل إليه المشركون؟ فما دنا أحدٌ إلَّا أبا بكر شاهِرًا سيفه، وقال :لا يقترب منه أحدٌ إلَّا هوى

* لما حَمي الوَطيس ورأى رسولُ الله ﷺ كثرةَ قريش وقلَّةَ رجاله، وضَعْف عدَّته إلى جانب عدَّتهم، عاد إلى العريش ومعه أبو بكر، فاستقبل القبلةَ واتَّجه إلى ربِّه ينشده : «**اللهمَّ أنجِزني ما وعدتَني، اللهمَّ إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهمَّ إن تَهلِكْ هذه العصابةُ اليومَ لا تُعبدْ** » .

وما زال يناجي ربَّه حتى سقَط رداؤه عن منكبه، وأبو بكر وراءه يردُّه على منكبه ويقول :حسبك يا رسولَ الله، ألحَحْتَ على ربِّك؛ فإنَّ الله مُنجِزٌ لك ما وعَدَك، وكان النصر للمسلمين.

٢– موقفه ﷺ يوم أُحد :

لما دارت الدَّائرةُ على المسلمين، بعد أن كانوا متقدِّمين، نجح المشركون في إيقاع رسول الله ﷺ في حُفرة، وقد أُصيبت رَباعِيَتُه وأوذي أذًى شديدًا، فلمَّا علم كبارُ الصَّحابة بذلك أسرعوا إلى رسول الله ﷺ، وأقاموا سِياجًا من أجسادهم وأسلحتهم حوله، وكان أولَ من وصل إلى رسول الله ﷺ ثانيه في الغار "أبو بكر الصدِّيق"، وقد ثبَت ثَبات الجبال حول رسول الله ﷺ يُدافع عنه .

٣- موقفه ﷺ يوم الحديبية :

لما أُبرم صلح الحديبية، رأى المسلِمون - وعلى رأسهم عمرُ بن الخطاب -أن شروط الصلح جائرةٌ، وأنَّ موقفَ المسلمين فيه ضعفٌ وذلَّة، وهو ما أثار غضبَهم !إلَّا أن الصدِّيق ﷺ الذي كان شديد الشَّبه برسول الله في تفكيره وشفافية قلبه، بل في كلامه، ينظر إلى الموقف ببصيرة عميقة وشفافية ليس لها حدود.

ففي الوقت الذي ثارت فيه نفوسُ الصَّحابة وغضبوا لهذا الاتفاق، كان الصديقُ ﷺ في أقصى الجمع تَغمُره سَكينةٌ وطُمَأنينة دون باقي الصَّحابة، وهو على يقينٍ أنَّ ذلك خير وعزَّة للمسلمين.

ولْندَعِ الفاروقَ عمرَ ﷺ يَروي لنا هذا المشهد؛ لنرى فيه ثباتَ الصديق ﷺومطابقته لرسول الله ﷺ.

قال عمر :قلتُ لرسول الله ﷺ : ألستَ نبيَّ الله حقًّا؟!

قال : «**بلى** » .

قلت :ألَسنا على الحقِّ وهم على الباطل؟!

قال : «**بلى**» .

قلت :فلِمَ نُعطي الدَّنيَّةَ في ديننا؟!

قال : «**إنِّي رسول الله، ولستُ أَعصيه وهو ناصري** ».

قلت :أوَلستَ كنتَ تُحدِّثنا أنَّا سنأتي البيتَ فنطوف به؟!

قال : «بلى؛ **أفأخبرتُك أنَّا نأتيه هذا العام؟** »!.

قلتُ : لا.

قال :**فإنَّك آتيه ومطوِّف به.**

قال عمر :فأتيتُ أبا بكر، فقلت :يا أبا بكر، أليس هذا نبيَّ الله حقًّا؟!

قال : بلى.
قلت :ألسنا على الحقِّ وعدونا على الباطل؟!
قال : بلى.
قلت : فلِم نعطي الدَّنية في ديننا؟
قال : إنَّه رسول الله، ليس يعصي ربَّه، وهو ناصره.
قلت : أليس كان يحدِّثنا أنَّا سنأتي البيت ونطوف به؟
قال : بلى، أفأخبرك أنَّك آتيه العام؟ !
قلت : لا.
قال : فإنك آتيه ومطوف به.
وانتهى الحوار بينهما.
يقول عمر :فأخذ أبو بكر بيَدي وجذبها بقوَّة، وقال لي:
– إنَّه رسولُ الله، فاستمسِك بغَرزه (أي :اتَّبع قولَه، ولا تخالفه)، فواللهِ إنَّه على الحقِّ المبين، فأنزل الله السَّكينةَ على قلبي وعلمتُ أنه الحق.

ولو تأمَّلتَ عزيزي القارئ كلمات الصدِّيق ﷺ ، لوجدتَ أنَّها نفس الكلمات التي قالها رسولُ الله ﷺ !رغم أنَّه لم يكن معهما لَمَّا دارَ هذا الحوارُ بينهما !فيا لها مِن مُوافقة بين تلك الأرواح الطاهرة النقيَّة التقية الصادقة.

وكان صُلح الحديبية وما تلاه مِن نَصر وفتحٍ مبين.

* للاستزادة من أخبار الحديبية، ارجع إلى "**حياة خير الأنام**"؛ للمؤلِّف.

٤ – موقفه ﷺ يوم تبوك :

لما عزَم رسولُ الله ﷺ السَّيرَ إلى الرُّومان وقِتالَهم، طالَع النَّاسَ بعزمه حتى يأخُذوا عدَّتَهم، فبعَث إلى أثرياء المسلمين ليشاركوا في تَجهيز هذا الجيش، فما لَبِث المسلمون أن سَمِعوا نداءَ رسول الله ﷺ حتى تسابَقوا إلى امتثاله، كلٌّ حسب قدرِه ومقدرته.

أبقيتُ لهم الله ورسوله!

وفي هذا اليوم قال عمر بن الخطاب :ﷺ اليومَ أَسبِق أبا بكر، إنْ سَبَقتُه يومًا!

فأتى النَّبيَّ ﷺ بنِصف ماله، فقال له رسول الله ﷺ :«**ما أبقيتَ لأهلك؟**».

قال :مِثلَه.

فأتى أبو بكر بكلِّ ماله، فقال له رسولُ الله ﷺ :«**ما أبقيتَ لأهلك؟**».

قال :أبقيتُ لهم اللهَ ورسولَه!

فقال عمر:

–واللهِ لا أسبِقه إلى شيء أبدًا.

وكانت المعركة، وفيها أَعطى رسول الله ﷺ اللِّواءَ الأعظم إلى أبي بكر الصديق ﷺ .

٥– حج أبي بكر:

أرسل رسولُ الله ﷺ أبا بكر أميرًا على الحجِّ في ذي القعدة سنة ٩ هجرية.

٦- الصديق في حجة الوداع:

لما أقبل ذو القَعْدة من سنة ١٠ هجرية تجهَّز رسولُ الله ﷺ للحجِّ، وأمر النَّاس بالتجهُّز إليه.

وفي يوم عرفَة ألقى رسولُ الله ﷺ خطبتَه «خطبة الوداع»، ولما أتمَّ خِطابه الذي جمَع فيه كلَّ أمور الدين، نزل قوله تعالى:

{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣].

فلمَّا سمعها أبو بكر بكى بكاء شديدًا، فلمَّا سأله رسولُ الله ﷺ عمَّا يبكيه؟ قال: أبكاني أنَّا كنا في زيادة من ديننا، أما إذا كمل فإنَّه لا يكتمل شيء إلَّا نقص.

فقال رسول الله ﷺ: «**صدقتَ**».

٧- الصِّدِّيق مع الحبيب ﷺ في اللحظات الأخيرة من حياته:

* لما مرِض رسولُ الله ﷺ مرضَه الذي مات فيه واشتدَّت عليه الحمَّى، لم يَمنعه ذلك من أن يمشي إلى المسجد بمساعدة أحد من أهله ليصلِّي بالناس، وظلَّ هكذا لعدة أيام.

وفي يومٍ من الأيام، خطب رسولُ الله ﷺ في النَّاس وقال:

- «**إنَّ عبدًا من عباد الله، خيَّره الله بين زهرة الدنيا، وبين ما عند الله، فاختار ما عند الله**».

وسكتَ رسولُ الله ﷺ والناس كأنَّما على رؤوسهم الطَّير، إلَّا أبا بكر؛ فبكى وأجهش بالبكاء، وقال: نفديك بأنفسنا وآبائنا وأمَّهاتنا يا رسول الله!

فقد عَلِم لرِقَّة وجدانه وعظيم صداقته للنَّبي ﷺ، أنما رسول الله ﷺ يعني نفسه وأنَّه هو العبدُ المخيَّر.

وقد تعجَّب الصَّحابة من ردِّ فِعل أبي بكر في ذلك الوقت، إلَّا أنَّهم أيقنوا بعد ذلك أن رسول الله ﷺ كان هو المخيَّر، وأن أبا بكر كان أعلَمَهم!

لو كنت متخِذًا خليلاً لاتَّخذت أبا بكر خليلاً

فلمَّا بكى أبو بكر وأجهش بالبكاء خشي رسولُ الله ﷺ أن يمتدَّ التأثُّر من أبي بكر إلى النَّاس، فأشار إليه قائلاً: «**على رِسلك يا أبا بكر!**».

ثمَّ أمر أن تُغلَق جميعُ الأبواب المؤدِّية إلى المسجد إلَّا باب أبي بكر، فلمَّا أُغلقتِ الأبواب قال رسولُ الله ﷺ:

- «**إنِّي لا أعلم أحدًا كان أفضلَ في الصُّحبة عندي يدًا من أبي بكر، ولو كنتُ متخذًا من العباد خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً، ولكنْ أخُوَّةُ الإسلام**».

مُروا أبا بكر فليُصلِّ بالناس

ولما ثقل المرَض برسول الله ﷺ، لم يستطع الخروجَ إلى المسجد، فقال: «**مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس**»، فصلَّى أبو بكر بالناس ثلاثةَ أيام في حياة النَّبي ﷺ، صلى فيهنَّ سبعَ عشرةَ صلاةً: صلاة العشاء مِن يوم الخميس، وصلاة الفجر من يوم الاثنين (اليوم الذي توفِّي فيه رسول الله ﷺ)، وخمسَ عشرةَ صلاةً فيما بينَهما (خمس صلوات في كلٍّ من الجمعة والسبت والأحد).

* اليوم الأخير من حياة النَّبي ﷺ

بينما أبو بكر يصلِّي بالمسلمين صلاةَ الفجر من يوم الاثنين، كشَف السِّتر مِن حُجرة عائشة، وخرَج رسول الله ﷺ وقد أحَسَّ بتحسُّن، وكأنَّه الصَّحو الذي يسبق الموتَ، فلمَّا رآه المسلمون كادوا يُفتَنون في صلاتهم، ولما أحسَّ أبو بكر بما صنع المسلمون وأيقَن أنَّهم لم يفعَلوه إلَّا لرسول الله ﷺ، فنكَص عن مُصلَّاه، يريد أن يتخلَّى لرسول الله ﷺ عن مكانه، فدفَعه رسولُ الله ﷺ، يريد أن يأمره أن يصلِّي بالناس، وجلس رسولُ الله ﷺ إلى جنب أبي بكر، فصلَّى قاعدًا عن يمينه.

ولما فرَغ رسولُ الله ﷺ من صلاته، أقبل على النَّاس رافعًا صوتَه، حتى سمعه مَن كان خارجَ المسجد، فأتاه أبو بكر قائلاً: يا نبيَّ الله، إنِّي أراك قد أصبَحتَ بنعمةٍ من الله وفضل كما تُحب، وطلب أن يذهب إلى بيته، فأذِن له النَّبيُّ ﷺ، فانطلق إلى أهله وانصرَف النَّاسُ كلٌّ إلى عمله، وهم في غِبْطة بما أصبح عليه رسولُ الله ﷺ.

٨- موقفه رضي الله عنه يوم وفاة رسول الله ﷺ :

مَن شاء أن يرى إيمانَ أبي بكر في أحفل ساعاته، ومَن شاء أن يرى الإيمانَ العلوي الموصول بقيُّوم السموات والأرض، فلْيرَ هذا الإيمانَ وهذا اليَقين يوم دُعي رسولُ الله ﷺ إلى الرَّفيق الأعلى فأجاب، ورحل عن الحياة والأحياء.

فما هي إلَّا ساعاتٌ بعد مُغادرة أبي بكر لرسول الله ﷺ، حتى كان الحدَثُ الجلَل الذي زلزَل كِيانَ الصَّحابة كلِّهم؛ فقد مات رسولُ الله ﷺ،

وكان الصدِّيق ﷺ يتهيَّأ للعودة إلى رسول الله ﷺ بعد أن قَضى بعض حاجات أهله لما جاءه الخَبَرُ المفجِع، فأخذ يقطع الأرض وثبًا.

فقد كان موتُ رسول الله ﷺ مفاجأةً تامَّة للمسلمين على الرغم من سابِق مرضه؛ كأنَّهم ما تصوَّروا أبدًا أن يُقال لهم ذاتَ يوم :"مات رسولُ الله ﷺ"؛ لذلك طار صوابهم .

ولقد كان أبو بكر أحقَّ النَّاس بأكبر قَدر من الأسى والذُّهول لموت رسول الله ﷺ، فهو صَديق عمره، وأولُ من آمَن به، ورفيقُه في الغار، وقد أحَبه حبًّا جمًّا، وآخاه مؤاخاة تجعل الصَّبر على فراقه فوقَ طاقة البشر، لكنَّ أبا بكر كان يبدو وكأنَّه لا تُحرِّكه طاقاتٌ بشريَّة، بل هي طاقة إلهيَّة قد حلَّت فيه.

فلمَّا أقبَل أبو بكر ودخل المسجد، فتبَصَّر بالمسلمين وعمرُ يَخطُبهم ويَنفي أنَّ رسول الله ﷺ قد مات، والناس في حَيرة من أمرهم ويُريدون تصديقه، فلم يقف أبو بكر، ودخَل على رسول الله ﷺ، لِيَجده مُسجًّى في ناحيةٍ من البيت عليه بُرْدُه، فكشَف عن وجهه ثمَّ قَبَّله وقال :"بأبي أنت وأمِّي يا رسولَ الله، طِبتَ حيًّا وطبتَ ميتًا، إنَّ الموتةَ التي كتَبها الله عليك قد ذُقتَها، فلن يُصيبَك بعدها موتةٌ أبدًا".

ثمَّ ردَّ الثَّوبَ على وجه رسول الله ﷺ وخرج للنَّاس، وعمر ما زال يكلِّمهم، فدعاه للسكوت، فأبى، فأقبل على النَّاس يكلِّمهم، وقد منحه الله القوَّةَ ورِباطةَ الجأش، رغم ما به من ألَمٍ وما له من رقَّةِ حسٍّ وصَداقة عَميقة برسول الله ﷺ.

من كان يعبد محمدًا فإنَّ محمدًا قد مات!

وقف أبو بكر مخاطِبًا النَّاس، فأقبَلوا عليه مُنصِتين، فحمد الله وأثنى عليه، ثمَّ قال:

-"أيها النَّاس، مَن كان يعبد محمدًا فإنَّ محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت".

ثمَّ تلا قولَه تعالى: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} [آل عمران: ١٤٤].

فبكى النَّاسُ وكأنَّهم يَسمعون هذه الآية لأول مرَّة، أمَّا عمر فقد هوى إلى الأرض، وقد أيقن من كلمات أبي بكر أنَّ رسول الله ﷺ قد مات حقًّا.

فكان إيمانُ أبي بكر يُشبِه عينَ الصَّقر، وقَعَت في أقلَّ مِن لَمح البصر على كلمة السرِّ التي ستَرُد الهِممَ المنسحقة تحت وطأة الفاجعة إلى وعيٍ قدير يستقبل تَبِعاته الجسامَ ويَعبر أزمةَ الموت بسلام.

ولم تكن كلمة السرِّ هذه سوى الصَّيحة الحاسمة الفاصِلة :"مَن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لا يموت"!

ولقد فعلَتْ صيحةُ أبي بكر فعل القدر، فقاموا إلى الجسد الكريم المسجَّى وأدَّوا له تحيَّة الوداع ممزوجةً بالعزم على مواصلة المسيرة لرفع كلمة الله .

وهكذا وقف إيمان أبي بكر يومَ وفاة رسول الله ﷺ وقفةً ما كان يَقدر عليها سواه.

فإنَّ الأمر يبدو كما لو كان الله سبحانه حين اصطفى محمدًا ﷺ ليكون رسولَه إلى النَّاس، اجتبى معه في نفس اللَّحظة أبا بكر لِيَحمي رسالتَه ويُواصِل مسيرته ويَحفظ به دينَه.

الصدِّيق خليفة رسول الله ﷺ

لما كانت وَفاة رسول الله ﷺ وما أصاب المسلمين من فزَع واضطراب أفقدهم صوابَهم، ولما كانت وقفة الصدِّيق وخطابه لهم، وما لها من أبلغ الأثر لعودتهم إلى صوابهم، وعلموا أنَّ رسول الله ﷺ قد مات وأنَّ الله حي لا يموت – كان هناك موقفٌ لم يَخطر ببال أبي بكر، وهو مَوقف السَّقيفة الذي كاد يُحدِثُ فِتنة بين المهاجرين والأنصار، كادت تَعصِف بالأخضَرِ واليابِس، فكان لها الصدِّيقُ الذي استطاع أن يَئِد الفِتنة في مَهدها، وإن كان هناك مَن يؤجِّجها ولا يريد لها أن تَخمد.

أحداث سَقيفة بني ساعدة

فعلى إثْر وفاة رسول الله ﷺ اجتمع نفَر من كِبار الأنصار في سَقيفة بني ساعدة؛ ليُبايعوا سعدَ بن عُبادة على الخِلافة، فلمَّا علِم أبو بكر بهذا الجمع هُرِع إليهم ومعه عمرُ بن الخطاب وأبو عُبيدة بنُ الجرَّاح، لم يُسارِع الصدِّيق لِيَحجز الخلافةَ لنفسِه، ولكنَّه سارع ليكُفَّ الفتنةَ ويَكبَح جِماح الطائفيَّة؛ حيث وقَف مَن يقول :يا لَلأنصار !ومَن يقول :يا لَلمهاجرين !

الصديق يَئد الفِتنة

وهناك عند السَّقيفة هَمَّ عمرُ ليتكلَّم، لكنَّ أبا بكر أومأ إليه بيَمينه، واستأذن أن يَبدأ هو الحديثَ، فقال:

–"يا مَعشر الأنصار، إنكم لا تَذْكرون فضلاً إلَّا وأنتم له أهل".

هكذا بدأ الصدِّيقُ قولَه، ثمَّ راح الحديثُ يَنساب من قلبه، وإنَّه قد آثر المهاجرين بالخِلافة، لكن ليس لأنَّهم مهاجرون؛ بل لأنَّ الهجرة أعطَتْهم

مكانَ السَّبقِ في الإسلام؛ فالهجرة كانت نهايةً لِمرحلة العُسرة التي سُلِّط عليهم فيها كلُّ بأس قريش لِيُفتَنوا عن دينهم، فما ازدادوا إلَّا إيمانًا وثباتًا.

فكان الميزانُ الذي يَزِن أبو بكر به النَّاسَ هو كِتابَ الله وسُنَّةَ رسول الله ﷺ.

أمَّا كتاب الله، فقد احتَكَم لقوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١٠٠]، وما فيه من ذِكر للمهاجرين قبل الأنصار.

أمَّا سُنَّة رسول الله ﷺ؛ فقد احتكم لقول رسول الله ﷺ، لَمَّا أتاه عمُّه العباسُ يسأله أن يولِّيه ولاية، فأجابه ﷺ قائلاً : «**إنَّا والله لا نولِّي هذا الأمر أحدًا يَحرِص عليه**»، وهنا قد حرَص هؤلاء النَّفرُ من الأنصار على طلب الخِلافة؛ وهو الأمر الذي جرَتْ عادةُ رسول الله ﷺ ألَّا يُمكِّن منه مَن يَطلبه أو يَحرِص عليه.

وبهذا الخطاب الهادئ عاد النَّاسُ إلى رشدهم؛ فبعد أن كانت الأمور تُنذر بشرٍّ مُستطير، انتهت نهاية مَوفورة السَّعادة.

فقد كان هذا الموقف دَخيلاً على إيمانهم، وليس أدلَّ على ذلك من عودتهم السَّريعةِ إلى رشدهم.

مبايعة أبي بكر بالخلافة

لما أنهى الصدِّيق حديثَه اقترب من عُمر وأبي عُبيدة ورفَع ذِراعَيهما بكِلْتا يديه وقال:

–"لقد رضيتُ أحدَ هذين الرَّجلين، عُمر أو أبا عُبيدة لِتَختاروا أحدَهما".

وهنا ارتعَدَت يَد عمر وقال:

-"والله لَأَن أُقدَّم فيُضرَب عنقي في غير إثمٍ، أحَبُّ إليَّ من أن أؤمَّر على قومٍ فيهم أبو بكر".

وقال مُخاطِبًا الأنصار:

-"ألَستم تَعلمون أنَّ رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يُصلِّي بالناس؟ ! فأيكم تَطيب نفسُه أن يتقدَّم أبا بكر؟."!

فقالوا:

- نعوذُ بالله أن نتقدَّم أبا بكر.

فما كاد عمرُ يُلقي بكلمته هذه ويتقدَّم باسطًا يده مُبايعًا أبا بكر، حتى ازدَحم الأنصارُ على البيعة، وكأنَّما دعاهم مِن السماء داعٍ، واجتمعوا حولَ هذا الحَليم الأوَّاب.

لقد كان مِن المحتمل ألَّا ينتهيَ يوم السَّقيفة دون أن يَترك في البناءِ شروخًا غائرة، لكن الله أكرَم الإسلامَ والمسلمين يومَها بأبي بكر، الذي جعَله الله حِصنًا حصينًا ليَحْمي هذا الدِّينَ مرَّتين في يومٍ واحد؛ مرَّةً عند وفاة رسول الله ﷺ، ومرَّةً أخرى في سَقيفة بني ساعِدة.

واجتاز النَّاسُ في سَلامٍ هذه التجرِبةَ، وتوحَّدتِ الأمَّةُ تحت قيادة الصدِّيق.

أول خطبة لخليفة رسول الله ﷺ

بعد هذا اليوم العاصِف بوفاةِ رسول الله ﷺ، وما تلاه مِن أحداث سَقيفة بني ساعِدة، ومُبايعة أبي بكر بالخلافة .

في اليوم التالي (يوم الثلاثاء) ، تقدَّم أبو بكر لِيَصعد على منبر رسول الله

ﷺ، وقد كان ذا ثلاثِ درجات، وكان رسول الله ﷺ يَصعد حتى الدرج الثالث ثمَّ يخطب الناسَ، فلمَّا كان أبو بكر يصعده، ارتقى حتى الدرج الثاني ثمَّ توقَّف، وقال :ما كان لي أن أرتقيَ حيث كان رسولُ الله ﷺ، وجلس بالدرج الثاني، وهنا وقَف عمر بن الخطاب فحَمِد اللهَ وأثنى عليه ثمَّ قال:

– أيُّها النَّاس، إنَّ الله قد جمع أمرَكم على خيركم، صاحب رسول الله ﷺ، ثاني اثنين إذ هما في الغار، قوموا فبايِعوه.

وُلِّيت عليكم ولست بخيركم

ولما اكتملَت المبايعة، وقَف أبو بكر يُخاطب النَّاسَ في أوَّل خِطابٍ له وهو خليفةُ المسلمين ...

فلنستمع إلى ما قاله خليفةُ رسول الله ﷺ.

– حمِد اللهَ وأثنى عليه ثمَّ قال:

– "أمَّا بعد، أيُّها النَّاس، فإنِّي قد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم، فإن أحسَنتُ فأعينوني، وإن أسأتُ فقوِّموني، الصِّدق أمانة، والكذب خِيانة، والضَّعيفُ فيكم قويٌّ عندي حتى آخُذَ الحقَّ له، والقويُّ فيكم ضَعيف عندي حتى آخذ الحقَّ منه، أطيعوني ما أطعتُ اللهَ ورسولَه، فإن عصَيتُ اللهَ ورسولَه فلا طاعةَ لي فيكم".

بأبي أنت وأمِّي يا رسول الله، يا مَن أخرَجت للأمَّة هذه الكوكبةَ من الرِّجال، وهذا الطِّرازَ النادِر من العُظماء !فها هو الصدِّيق يبدأ حِكَمه بهذه الكلمات :"وُلِّيت عليكم ولَست بخيركم"؛ فإن لم تكن أنت يا خليفةَ رسولِ الله خيْرَنا، فمَن يكون خيرَنا بعد رسول اللهﷺ؟!

دستور عظيم لكلِّ حاكِم

بهذا الخِطاب وضع الصدِّيقُ أُسس الحُكم العادل، والمنهاج الذي يَجِب أن يكون دستورًا لكلِّ حاكِم، عليه أن يتدبَّره ويعمل به.

فلنا أن نَستخلص من هذا الخطاب الدروسَ الآتية :

١– علاقة الحاكم بالمحكوم :

أ – أنَّ الحكم وظيفة لا استِعلاء، وأن الحاكم ليس بخيرهم لأنَّه حاكم، وإن كان أبو بكر هو خيْرَهم؛ لأنَّه الصِّدِّيق الذي توفَّر فيه الصِّدقُ والأمانة والرشد، فكان بحقٍّ "ثاني اثنين".

ب – أنَّ الشَّعب عَونٌ للحاكِم على نفسه، وعلى مسؤوليَّاته، يُعينه إذا أحسَن، ويُقوِّمه إذا أخطأ.

٢– الدستور :

إنَّ الدُّستور هو المرجعيَّة للجميع، وكان دستورُ الصدِّيق هو طاعةَ الله ورسوله. أطيعوني ما أطعت الله ورسوله.

٣– سيادة القانون :

إنَّ القانون فوق الجميع، وإنَّه مُطبَّق على القويِّ قبل الضعيف؛ "الضَّعيف فيكم قويٌّ عندي."...

وهكذا بدأ الخليفةُ مهمَّتَه وإن كان زاهدًا فيها، فقد كان صادقًا حين قال :"والله ما كنتُ حَريصًا على الإمارة يومًا ولا ليلة ...ولا سأَلتُها سرًّا ولا علانية" .

فلولا أن يكون بتخلِّيه عنها قد هرَب من مسؤوليَّاتٍ دينيَّة وإيمانيَّة لاتَّخَذ سبيلَه إلى الفرار منها.

راتِب خليفة رسول الله ﷺ

في غَداة استخلافه، خرَج أبو بكر من داره حاملاً على كتفيه لفافةً كبيرة من الثِّياب، وفي الطَّريق لقيه عمرُ بن الخطاب وأبو عُبيدة بن الجرَّاح، فسألاه:

– إلى أين يا خليفة رسول الله ﷺ؟ فأجاب :إلى السُّوق .

قال عمر:

– وماذا تَصنع بالسُّوق وقد وُلِّيت أمرَ المسلمين؟

قال الصدِّيق:

– فمن أين أُطعِم عيالي؟

قال عمر:

– انطلِق معنا نَفرِضْ لك شيئًا من بَيت المال.

فانطلَقوا جميعا إلى المسجد حيث نودِي أصحابُ رسول الله ﷺ، وعَرض عمر عليهم رأيَه؛ أن يُفرض للخليفة راتبٌ يكفيه، ليتفرَّغ لأمر المسلمين ...

فلك عزيزي القارئ أن تتخيَّل كم كان راتِبُ خليفة رسول الله ﷺ؟!

مائتان وخمسون دينارًا في السَّنة، ثمَّ زيد إلى ثَلاثمائة، وقد عاش الخليفةُ بهذا المبلغ الزَّهيد، هو وأُسرته الكبيرة، حتى بعد أن فتَح الله على المسلمين، وبدَأت خَيرات الشَّامِ والعراق تصِل إلى المدينة.

ولعلَّ الصدِّيق أحسَّ أنه ليس خيرًا من أحد ليختصَّ لنفسه بالمزيد، وعليه فَلْيَعِش في مستوى المواطن العادي من أمَّته.

مع أنَّه يوم كان يعيش مِن ماله وتجارته، كان مُستوى مَعيشته عند مُستوى دخله، فيه رغَد كثيرٌ ونفقة واسعة، فلمَّا وليَ أمرَ النَّاس دحَض كلَّ ما مِن شأنه أن يخصه بامتياز .

حالب الشاة يا أمَّاه

لقد كانت بساطة الصدِّيق ﷺ أهمَّ عناصر عظَمته؛ فقد كان قبل أن يَصير خليفة، يُقدِّم لأهل الحيِّ الذي يسكنه خدمات رائعة، فكان من جيرانه بعضُ الأرامل العجائز اللَّاتي مات أزواجُهنَّ أو استُشهِدوا في سبيل الله، كما كان هناك بعضُ اليتامى الذين لا عائل لهم؛ فكان ﷺ يَؤُمُّ بيوتَ هؤلاء الأرامل فيَحلب لهن الشِّياه، ويَؤمُّ بيوتَ هؤلاء الأيتامِ فيَطْهو لهم الطَّعامَ.

ولما صار خليفةً ظنَّ هؤلاء الأراملُ والأيتام أنَّهم سيُحرَمون مِن هذه الخدمات الجليلة، وأصابَتْهم حَسرة كبيرة، إلَّا أنَّ خليفة رسول الله ﷺ أخلَف ظنونَهم .

وذات يوم يقرَع بابَ إحدى تلك الدُّور، وتُسارع إلى الباب فتاةٌ صَغيرة، لا تكاد ترى خليفةَ رسول الله ﷺ حتى تصيح:

– حالب الشاة يا أمَّاه !

وتُقبِل الأمُّ فإذا بها أمام الخليفة العظيم، فتقول لابنتها في حَياء:

– ويحَكِ !ألا تقولين خليفة رسول الله ﷺ؟!

وتقول للصدِّيق:

– والله يا خليفة رسول الله، لقد ظننَّا أنَّك لن تقوم بهذا العمل بعد أن أصبحت خليفة.

فيقول لها:

– كلَّا، إنَّها أحبُّ أعمالي إلى الله.

ويتقدَّم حالِبُ الشَّاة ليُؤدِّيَ الذي فرَضه على نفسه؛ حَلْب الشِّياه للعجائز، والعاجِنُ بيده الخبزَ للأيتام.

– بَساطة، ورحمة، وتَفانٍ في أداء حقِّ الحياة، فكان حقًّا كما وصَفه رسولُ

الله ﷺ وقال عنه: «**أرحَم أمَّتي بأمَّتي أبو بكر**».

التسابق للخيرات :

لعلَّنا نُلاحظ في أيَّامنا هذه أنَّ النَّاس في سِباق وتنافُسٍ، بل في صِراعٍ فيما بينهم، على المال والجاه، والدنيا وملذَّاتها ...

أمَّا أصحاب رسول الله ﷺ، مَن تتلمذوا على يَدِ خير الأنام ﷺ، فكان أيضًا بينهم سِباقٌ وتنافُس ولكنَّه سِباق إلى الخيرات، وتنافُس في رضا الربِّ.

فهذا خليفة رسول الله ﷺ، عَلِم بأمر امرأة عجوزٍ عَمياءَ لا عائل لها، فذهب إلى مَنزلها كعادته – كما أسلَفْنا – لِيَقضي لها حاجتَها من طَعام وشَراب، وكلِّ ما قد تحتاجه، ولما انتهى مِن عمله وترك مَنزلها، إذا بعمر بن الخطاب يَدخل، ولقد كان هو مَن يقوم بأمر هذه المرأة، فوجَد غيره قد سبَقه إليها وأصلَح لها ما أرادت، فقال لها:

–مَن أتاكِ يا أمَّاه وأصلح لكِ ما أردت؟

فقالت :لا أدري يا بني، إنِّي ظننتُ أنك هو.

فخرج عمر من عندها حزينًا؛ لأنَّه خسر هذا الأجر العظيم.

لعلَّ هذا الأمر لو حدث لأحَدِنا هذه الأيام، لكان فَرِحًا، بأنَّ آخرَ قد رفع عن كاهلِه هذه المهمَّة ...لكن انظر ماذا فعل الفاروق؟

لم يستسلِم، وقرَّر أن يأتيها مبكرًا؛ لِيَرصُد مَن ذا الذي أخذ منه رزقه؟

فإذا هو خليفة رسول الله ﷺ، فذهب إليه عمر وقال:

– أأنت هو يا خليفة رسول الله ﷺ!

فتعانَقا وبَكَيا.

يا لها من مدرسة عَظيمة... تَخرَّج فيها هؤلاء العظماء!
مدرسة الحبيب المصطفى ﷺ.

تحدِّيات خلافة الصدِّيق

وبدأت خِلافةُ أبي بَكر، وكان في انتظاره العديدُ من التحدِّيات التي لم يكن لها إلَّا الصديق رضي الله عنه .

وكانت هذه التحدِّيات تَنقسم إلى قِسمين :تحدِّيات داخليَّة، وتحدِّيات خارجيَّة.

وفيما يلي سنعرض لهذه التحدِّيات، ونرى كيف أنَّ إيمان وصِدق ويقين وعمق نظر خليفة رسول الله ﷺ، كان هو السِّلاحَ الأعظم في مواجهة هذه التحدِّيات وتلك الصعاب .

أولاً – التحيات الداخليَّة :

١ – بَعْث أسامة :

كان رسول الله ﷺ قَبل وفاته قد أعدَّ جيشًا تحت إمرة أسامة بن زيد، ووجَّهه إلى الشَّام، إلَّا أنَّ مرض رسول الله ﷺ أرجأ زحْفَ هذا الجيشِ الذي كان مُعسكِرًا في الجُرْف (على بُعد ثلاثة أميال من المدينة).

فلمَّا لحق رسولُ الله ﷺ بربِّه فعَظُم الخَطْبُ، واشتدَّ البلاء، وظهر النِّفاق، وارتدَّ أحياءٌ من العرب حول المدينة، وامتنَع آخَرون عن دفع الزكاة.

أول قرار لخليفة رسول الله ﷺ :

كان أوَّل قرار يتَّخذه أبو بكر الصدِّيق بعد توليه الخِلافة، هو تسيير

جيش أسامة، كما أمَر به رسولُ الله ﷺ، ولكن هذا القرار لقي مُعارَضةً كبيرة من كثيرٍ من الصَّحابة، وكان الاعتراض على أمرين؛ أولهما :توقيت البعثة، وثانيهما :قائد البعثة.

أما توقيت البعثة :فقد رأى فريقٌ من المسلمين، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب وأسامةُ نفسُه – أنَّ بعث الجيش يحمل مُخاطرة كبيرة في الوقت الذي أصبحَت فيه المدينةُ عاصِمةُ الإسلام، مهدَّدةً بغزو المرتدِّين.

ورأَوا ضرورة عودة الجيش إلى المدينة لِيَكون في مواجهة الأحداث الجديدة.

لو أنَّ الطَّير تخطفَتْنا:

كان هذا هو رأْيَ المعارِضين، أما الصدِّيق الذي كان يَستمدُّ منطقه من إيمانه، وأن كل قضيَّة عنده تتَّسِع للاجتهاد إلَّا قضيةً أبرَم اللهُ فيها حُكمًا، وأصدَر رسولُ الله ﷺ فيها أمرًا؛ فقد أمر رسولُ الله ﷺ قبل وفاته أن يُنفَذ بَعْثُ أسامة، فليكن ما أمَر به رسولُ الله ﷺ، مهما تَكُن الأخطار، فكان جوابُ أبي بكرٍ القاطعُ الحاسم :"واللهِ لا أَحُلُّ عُقدةً عقَدها رسولُ الله ﷺ، ولو أنَّ الطَّير تخطَّفتنا والسِّباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرَتْ بأرجل أمَّهات المؤمنين، لأُجهِّزنَّ جيشَ أسامة".

كلمة لو قالها غيرُ أبي بكر لكانت كبيرة، ولكن الذي يقولها أبو بكر وبِنتُه أعَزُّ أمَّهات المؤمنين ...

فلا خطَر إذًا أكبر من خطر الاجتِراء على حقِّ الطَّاعة في تلك الآونة ...

أما الاعتراض الثاني :فكان على شخص قائد البعثة؛ فقد رأى كثيرٌ من الصَّحابة أن يتَقدم للقيادة مَن هو أسَنُّ من أسامة، وأكثرُ منه خِبرةً في فنون القتال.

استَعمَله رسولُ الله ﷺ وأَعزِله؟ !

كان هذا الرَّأيُ أيضًا يبدو سَديدًا، لو بُحث في ضَوء المنطِق المجرَّد، لكنَّ أبا بكرٍ كما هو شأنُه في كل الأمور، يستمدُّ منطقَه من إيمانه ...

فالذي ولَّى أسامةَ هو رسولُ الله ﷺ، أفيخلع هو رجلاً ولَّاه رسول الله ﷺ؟!

وهنا كان أيضًا ردُّه الحاسِم القاطع :"استعمَله رسول الله ﷺ، وتأمروني أن أعزِلَه؟ ."!

تَسيير بعث أسامة :

ثمَّ قام الخليفة يَتبعُه عمرُ بن الخطاب إلى حيث كان الجيشُ معسكِرًا، فدَعاهم للتحرُّك على بَرَكة الله، وسار معهم مُودِّعًا، ومشى الخليفةُ على قدَميه وعبدُ الرحمن بن عوف يقود دابَّته بجوارِه، بينما أسامةُ ممتطيًا ظهر جَواده، فقال أسامةُ :يا خليفةَ رسول الله، والله لتَركَبنَّ أو لأَنزِلنَّ؟ فقال : "والله لا تَنزِل ولا أَركَب، وما علَيَّ أن أُغبِّر قدَميَّ ساعةً في سبيل الله!"، ثمَّ استأذن الخليفةُ من أسامة قائلاً :إن رأيتَ أن تُعينني بعُمر فافعَل، فأَذِن له.

رسالة إلى دُعاة حقوق الأنسان:

وقَف الصدِّيقُ رضي الله عنه مخاطِبًا الجيشَ؛ ليُزوِّدهم بخير الزَّاد، ويَرسم لهم دستورَ الحرب الذي ما عَرَف التاريخُ أعدلَ ولا أطهرَ ولا أشرَف منه في غير الإسلام، فقال لهم :"أيها النَّاس، قِفوا أوصيكم بعَشْرٍ فاحفظوها عنِّي :

١- لا تَخونوا.

٢- ولا تَغُلُّوا.

٣- ولا تَغدِروا .

٤- ولا تُمثِّلوا .

٥- ولا تَقتلوا صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة.
٦- ولا تَعقِروا نخلاً ولا تحرقوه.
٧- ولا تقطَعوا شَجرة مثمرة.
٨- ولا تذبَحوا شاةً ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة.
٩- وإذا مرَرتم بأقوام فرَّغوا أنفسهم في الصوامع، فدَعوهم وما فرَّغوا أنفسهم له.
١٠- إذا قُرِّب عليكم الطَّعام فاذكروا اسم الله.

ثمَّ توجَّه إلى أسامةَ وقال :"اصنَعْ ما أمَرك به رسولُ الله ﷺ، ولا تُقصِّر في شيءٍ من أمر رسول الله ﷺ."

ولعلَّنا نُهدي هذه الكلماتِ، وتلك الأوامرَ الرَّاقية، التي سبَقَت بقرونٍ كلَّ دساتير الحرب، نُهديها إلى كلِّ دعاة حقوق الإنسان ...

فهي أبلَغُ ردٍّ على كلِّ مَن يُحاولون تشويهَ هذا الدِّين القيِّم.

تحرُّك الجيش وصدق يقين الصديق :

وانطلق جيشُ أسامة في أمان الله، وقد تجلَّى صدقُ رؤية ويقينِ خليفة رسول الله ﷺ؛ فلم تكَدِ القبائلُ التي مرَّ بها جيشُ أسامة وهو في طريقه إلى الشام تُبصِر هذا الجيشَ الجرَّار حتى عاد إليها صَوابُها، وقال بعضُهم لبعض : والله لو كانت المدينة تَئِنُّ تحت وطأة الضَّعف والخِلاف كما سَمِعنا، ما كان بوُسْعِها أن تبعث هذا الجيشَ لتقابل الروم .

وهكذا كان مجرَّدُ تحرُّك الجيش إلى غايته مُثبِّطًا لكثيرٍ من القبائل، التي كانت نيَّةُ الرِّدَّة تتسلَّل إليها .

وعاد جيش أسامة إلى المدينة ظافرًا، بعد أن غاب عنها أربعين يومًا، أبلى فيها بلاء حسنًا، وانتصر انتصارًا ساحقًا.

وأدرَك النَّاسُ صوابَ الرَّأي، ويقينَ البَصيرة لخليفة رسول الله ﷺ، الذي كان قَرارُه فيه النَّفعُ للإسلام والمسلمين؛ لأنَّه مُستمَدٌّ من إيمانه والتزامِه بما أمر الله ورسوله .

٢– حروب الرِّدَّة :

مُنِيَ الإسلامُ بعد وفاةِ رسول الله ﷺ بمصيبة عُظمى، لو لم تتَدارَكْها حِكمةُ أبي بكر رضي الله عنه ، لَضَعُف الدِّين وتشتَّت شمل المسلمين.

فما لَبِث العربُ أن عَلِمَتْ بوفاة رسول الله ﷺ حتى ارتدَّت، ولم يَبق أحدٌ متمسِّكًا بدينه – خارِجَ المدينة – إلَّا قُريشًا بمكة وثَقيفًا بالطَّائف، وقليلاً غيرهم.

أنواع الردَّة :

كان النَّاسُ في ذلك على ثلاثة أقسام :

– قسم تمرَّد على دفع الزكاة.

– قسم ارتدَّ وترَك الدِّين بالمرة.

– قسم ادَّعى النبوَّة، وتبعه آخرون .

موقف الصديق من أهل الرِّدَّة:

قابَل الصدِّيقُ رضي الله عنه هذا العصيانَ وهذه الرِّدَّة بأحزَمِ ما تُقابَل به من مَبدئِها إلى مُنتَهاها؛ فكان مِن رأيه قتالُ مانِعي الزَّكاة على حدٍّ سواءٍ مع قتال المرتدِّين؛ لأنَّ تعطيل الزكاة طَعنٌ على الصلاة، بل على جميع منازل الدين.

المعارضة لموقف الصديق:

وهنا ظهر رأيان :

* رأي يقول :ألَّا يُقاتِل مانعي الزَّكاة، ما داموا لم يَقترِفوا سوى امتِناعِهم عن دفع الزَّكاة؛ وكان على رأسهم عمرُ بن الخطاب.
* ورأيٌ آخر يقول :إنَّ الزكاة ركنٌ مِن الدِّين، ليس من حق الخليفة أن يدع النَّاس يهدمونه، ويرى أنَّ الامتناع عن أدائها ليس سوى البداية، وما هي إلَّا حركةُ استطلاع، يتَوالى بعدها التمرُّدُ والقضاء على الإسلام؛ وكان أبو بكر مع هذا الرأي .

مقالة عمر ورد أبي بكر :

قال عمر :كيف نُقاتل قومًا يَشهدون أن لا إله إلَّا الله، وقد قال رسولُ الله ﷺ : «مَن قالها فقد عَصم منِّي نفسَه ومالَه إلَّا بحقِّها، وحسابه على الله»؟!

فيردُّ أبو بكر :ألم يَقُل :«بحقِّها»؟ !ومِن حقِّها إقامُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة، ثمَّ قال قولتَه الشهيرة الحاسمة الجازمة :"والله لو منَعوني عِقالاً – الحبل الذي يُعقَل به البعير – كانوا يؤدُّونه إلى رسول الله ﷺ لقاتَلتُهم عليه".

فقال عمر :يا خليفةَ رسول الله، تألَّفِ النَّاس وارفُقْ بهم.

فأجابه أبو بكر :رجَوتُ نُصرتَك وجِئتَني بخِذْلانك، أجبَّارٌ في الجاهلية وخوَّار في الإسلام؟ !إنه انقَطع الوحيُ، وتمَّ الدِّين، أوَيَنقُص وأنا حيٌّ؟!

وهنا يقول عمر :فما هو إلَّا أن رأيتُ اللهَ قد شرَح صدري لرأيِ أبي بكر.

كيف اختلف الصاحبان؟

لو سُئل النَّاس – قبل أن يُعلِن كلٌّ من الصاحبين أبي بكر وعمر عن رأيه – مَن الذي سيكون منهما أكثر صرامة وشدة؟ ومَن الذي سيكون أكثر لِينًا ومهادنة؟ لَما تردَّدوا في أن يشيروا إلى عمر مناديًا بالقمع الصارم، وإلى أبي بكر داعيًا إلى الأناة والملايَنة !ومع هذا فالذي حدَث كان العكس والنَّقيض، وخالَف المنظورَ كما خالَف المعهودَ من طبائع الرجلين.

يقول الأستاذ عباس العقاد مفسِّرًا هذه الظاهرة :"صَفوة ما يُقال في تفسير هذه العَجيبة، حقيقتان غير عجيبتان :

أُولاهما : أنَّ المعهود مِن أخلاق الإنسان ليس هو الإنسانَ كلَّه، بل في الإنسان شيءٌ كبير مما ليس يَعهَدُه النَّاسُ منه في عامَّة أحواله.

والثانية : أنَّ الخلق المعهودَ قد يُفسَّر على وجوه كثيرة، بعضها مُوافق للمتبادِر إلى الذِّهن، وبعضها لا يوافق المتبادِرَ إلى الذِّهن إلَّا بعد إنعامٍ واستِقْصاء.

فالشدَّة في أبي بكرٍ موجودةٌ في مُناسَبتها، واللِّين في عمر موجودٌ ويَظهر في مناسبته، ولا تَظهر هذه المواقف غيرُ المألوفةِ إلَّا في وقت الشدَّة، وفي الموقف العَصيب ...

وهو ما حدَث مع هذه الرِّدَّة، وما تلاها من تَبِعات !فالصاحبان اتَّفقا مقصدًا، واختَلَفا رأيًا" .

علامات مضيئة لموقف أبي بكر:

هناك علامَتان مُضيئتان وراء موقف أبي بكر :

أولاهما :تكشف عن يقين أبي بكر "الصديق المؤمن".

ثانيهتُما :تكشف عن بَصيرة أبي بكر "الخليفة والزَّعيم" .

– فيَقينُه بالله لا يَسمح بأن يتغيَّر في عهده شيءٌ من شَرع الله وسُنَّة

رسوله، هو ببَصيرةِ القائد يرى أنَّ أيَّة بادِرةٍ من الضَّعف تُصيب الإسلامَ في هذه المرحلة، ستُغري الكثيرَ بالوُثوب عليه من كل وادٍ.

لكن هذا الإيمانَ وهذه البَصيرة لم يَكونا يَعمَلان بمَعزِلٍ عن رأي الجماعة وحَقِّها في الشورى والمناقَشة؛ فلم يُسيِّرِ الجيوشَ حتى أقنَع المسلِمين برأيه، وحَجْم الخطر الذي يُداهِمُهم، وأنَّهم أمام تجَمهُر مُسلَّح وزاحفٍ أكيد على المدينة وعلى الإسلام.

فإذا نظَرْنا إلى القضيَّة بأسلوبِ عصرنا الحديث، لوَجَدنا أنَّ الأزمة بدَأَت بحركةِ "عصيان مَدني" تَمثَّل في الامْتِناع عن أداء الزَّكاة، ثمَّ تَحوَّل إلى عِصيانٍ مُسلَّح ليؤكِّد حقَّه في هذا الامتناع؛ فهل تَقف الحكومةُ ساكِنة ضارعةً أمام هذا التحدِّي، أم تتَحمَّل المسؤوليَّة في زَجرِه وقَمعِه؟ مع مُراعاة أنَّ هؤلاء لم يظَلوا مكانَهم في ديارهم مُكتفين بموقف الدِّفاع إذا هُوجِموا، بل نادى بعضُهم بعضًا لِيَزحفوا إلى المدينة ...

هكذا كان حجمُ الأزمة كما رآها الصِّديق ﷺ .

تسيير الجيوش

وهنا وبعد هذا الإعداد النَّفسيِّ والتربوي، بل قُل :الديمقراطي – إن صحَّ التعبير – أصدَر خليفةُ رسول الله ﷺ أوامِرَه بتسيير الجيوش، فأرسَل 11 جيشًا توجَّهوا إلى مَعاقل الفِتنة في كلِّ أجزاء جزيرة العرب، وأمَّر عليهم خيرةَ الصَّحابة؛ رجال صدَقوا ما عاهَدوا الله عليه.

انتِصار الحق على الباطل

فكان النَّصر المبين، وقتل الطُّغاة المضلِّين، ورجع الحقُّ إلى نصابه، وتمهَّدَت جزيرة العرب، وصار البعيدُ الأقصى كالقريب الأدنى.

وكان إيمانُ ويَقين، وبصيرةُ وسداد رأي الصدِّيقﷺ، كان له الأثرُ الأكبر في هذا النصر.

وبعد هذه المعارك وهذه المواقف العصيبة، دخَل عمر يومًا على أبي بكر في داره، فألْفاه يَبكي، وما كاد الصدِّيق يُبصر عمر حتى تشبَّث به، كأنه زورق نَجاة، وقال له :"يا عُمر، لا حاجة لي في إمارتكم"، فلم يتركه عمر يُتِم حديثه فبادره قائلاً :"والله لا نُقيلك، ولا نَستقيلك".

وقال ابن مسعود كلماتٍ تصوِّر الموقفَ أصدق تصوير :

-"لقد قُمنا بعد رسول الله ﷺ مقامًا كِدنا نَهلِك فيه، لولا أن مَنَّ الله علينا بأبي بكر".

وروى أبو رَجاءٍ البصري :"أنَّه دخل المدينة، فوجد النَّاسَ مجتمِعين، ورأى رجلاً يقبِّل رأسَ رجل ويقول له :إنَّا فداؤك ولولا أنت لهلَكنا، فلمَّا سأل عن هذين الرجلين، قالوا :هذا عمر يقبِّل رأسَ أبي بكر، بعد قِتال أهل الردَّة إذ مَنعوا الزكاة، حتى أتَوا بها صاغِرين".

وكأنما عمر قد وضَع بشفتيه شِفاهَ المسلمين جميعًا على ذلك الرأسِ الجليل، حينما انحنى عليه بالتكريم والتقبيل.

٣- جمع القرآن:

إذا حسَبتَ لأبي بكر بُعوث أسامة والردَّةِ وبعوثَ فارس والروم، فلا بدَّ أن يُحسَب له عمل آخر، لا يَدخل في باب البعوث، ولكنَّه أقوَمُ للدولة الإسلاميَّة من جميع البعوث؛ لأنَّه دستور هذه الأمَّة، التي لم تَقُم لها قائمةٌ بغيره؛ ألا وهو جَمع القرآن.

فلمَّا انقضَت مَوقعة اليمامة - المعركة الفاصلة في حروب الردَّة بقيادة خالد بن الوليد لمحاربة مُسيلمة الكذاب - لما انقضَتْ تلك المعركة وقد

خذَل اللهُ مُسيلِمةَ ومَن معه، وقُتل مُسيلمة وكان النَّصر والقضاءُ على الفِتنة، قُتل كذلك في هذه المعركة جماعةٌ كبيرة مِن حمَلَة القرآن – قيل :سَبعُمائة – فكَبُر الأمرُ على عمرَ بن الخطاب؛ خشية أن تأتي حروب الفُرس والروم على مَن بَقي من الحفَّاظ، فأشار على الخليفة بجَمْع القرآن، فأحجم الصِّدِّيق بادِئَ الأمر وقال :كيف أفعلُ شيئًا لم يَفعله رسول الله ﷺ؟ ! فقال له عمر :هو والله خير، فلم يزل يُراجِعه، حتى شرَح الله صدرَه لذلك الأمر.

أسنَد أبو بكر هذه المهمَّة إلى أحد كَتَبة الوحي؛ زَيْد بن ثابت، وقال له :

–"إنَّك رجلٌ شاب، عاقِل، وقد كنتَ مِن كَتَبة الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبَّع القرآنَ فاجمَعْه".

يقول زيدُ بن ثابت :"والله لو كلَّفني نَقلَ جبل من الجبال، ما كان أثقلَ علَيَّ ممَّا أمَرني به من جمع القرآن".

فتتبَّع زيدُ بن ثابت القرآنَ يَجمعه من جَريد النَّخل، ومِن الحجارةِ الرَّقيقة، ومن صدور الرِّجال، ونسَخَه في صُحُف، وظلَّت هذه الصُّحف عند أبي بكر حتى وفاته، ثمَّ عُمر طوال حياته، ثمَّ عند حَفصة بنتِ عمر بعد وفاة عمر.

ثانيًا – التحدِّيات الخارجية:

كان ذلك مُجمَل ما واجَه خليفةَ رسولِ الله ﷺ من تحدِّيات داخلية، من داخل الدولة الإسلاميَّة، إلَّا أنَّ هذه التحدِّيات كان لها محرِّكٌ خارجي؛ فقد كانت الممالكُ العُظمى المجاوِرةُ للإسلام آنَذاك؛ مملَكة الفُرسِ في الشَّرق، وكانت العراق تحتَ إمرتها، ومملكة الرُّوم في الشمال، وكانت الشَّام تحت

إمرتها، فلمَّا أصبحَت دولةُ الإسلام تمثِّل خطرًا على مُلكهم، كانت المؤامَرات، وإثارةُ الفِتن في محاولةٍ لهدم دولة الإسلام، فكان التحدِّي الأكبرَ لخليفة رسول الله ﷺ، هو التصدِّي لهذه المؤامرات خارجَ حدود الدولة الإسلاميَّة.

١- أمر العراق (مملكة الفرس):

لما انتهى الصدِّيق رضي الله عنه من حروب الردَّة وجمع العرب كلها للإسلام، وألَّف الله الكلمةَ - أرسَل خالدَ بن الوليد على رأس جيشٍ إلى العراق، وأمدَّه بالقَعْقاع بنِ عمرٍو، وأمرَهما أن يَستنفِرا مَن قاتل أهلَ الرِّدة، وألَّا يغزُونَّ معهما مرتدٌّ؛ لأنَّ رأيَه رضي الله عنه كان أنْ لا يُستعان بمرتدٍّ على غَزوٍ أبدًا.

وبدأَت الانتصاراتُ والفتوحات في بلاد العراق بقيادة سيف الله "خالد بن الوليد"، ففتَح الله عليهم :"الأُبُلَّة، ثمَّ الثِّنْيِ، ثمَّ الوَلَجَة، ثمَّ الحِيرَةَ، ثمَّ دُومةَ الجَنْدَل".

وهكذا تقلَّص ظِلُّ مُلك الفرس في عهد الصدِّيق رضي الله عنه عن كلِّ الأراضي الخصبة في غرب الفُرات، فصار حَدُّ مملكة فارس هو نَهر الفُرات.

٢- أمر الشام (مملكة الروم) :

في الوقت الذي كانت تَتوالى فيه الفُتوحات في العراق، ضدَّ مَملكة الفُرس، كانت عينُ الصدِّيق رضي الله عنه على بلاد الشام.

فجهَّز أربعةَ جيوش؛ ليرسلها إلى الشام، وأمَّر عليها :

* عمرو بن العاص، ووجَّهه إلى فِلَسطين.
* شُرَحْبيل بن حَسَنة، ووجَّهه إلى الأُردنِّ.
* يَزيد بن أبي سفيان، ووجَّهه إلى البَلْقاء (بلاد الشام)، ثمَّ أتبعه بأخيه معاوية.

* أبو عُبيدة بن الجرَّاح ووجَّهه إلى حِمْص .

وسارت الجيوش على بَرَكة الله كلٌّ إلى وِجْهته، وكان أبو بكر يُودِّعهم ماشيًا، ويوصيهم بما فيه صَلاحُ دُنياهم وأخراهم .

وصايا خليفة رسول الله ﷺ لقُوَّاده

ومما يُؤثَر عن الصدِّيق ﷺ وصيَّته العظمى ليَزيد بن سفيان، التي قال فيها :

- إنِّي قد ولَّيتُك لأبلُوَك وأَجْزِيَك، فإن أحسنتَ ردَدتُك إلى عمَلِك، وزِدتُك وأجزيتُك، وإن أسأتَ عزَلتُك، فعليك بتقوى الله؛ فإنَّه يرى مِن باطنك ما يرى من ظاهرك.
- إذا وعَظتَ فأوجِز؛ فإنَّ كثيرَ الكلام يُنسي بعضُه بعضًا.
- أصلِح نفسك يُصلِحْ لك الناس.
- صَلِّ الصلاة لأوقاتها، بإتمام ركوعها وسجودها والتخشُّع فيها.

كانت تلك وصايا الخليفةِ الإمام، ثمَّ تبدأ وصايا الخليفة القائدِ التي قال فيها :

- إذا قَدِم عليك رسلُ عدوِّك، فأكرِمْهم، وأقلِلْ لَبْثَهم أي :(لا تجعَلهم يَلبثون عندك طويلاً)، حتى يَخرجوا من مُعسكرك وهم جاهِلون أي :(لا يَعلمون من أسرارك شيئًا).
- اسمُرْ بالليل في أصحابك، تأتِك الأخبار وتنكشِفْ عنك الأسرار.
- أكثِر حرَسك وأكثِرْ مفاجأتهم في مَحارِسهم، بغير علمٍ منهم بك أي :(تفتيش مُفاجئ)، فمَن وجدتَه غفل عن محرسه، فأحسِن أدبه وعاقبه من غير إفراط.

- اصدُقْ في اللِّقاء أي :(لقاء العدو)، ولا تَجبُن فيجبن الناس.

فأيُّ طِراز من البشر كنتَ يا خليفةَ رسولِ الله ﷺ؟!

فلو تأمَّلتَ عزيزي القارئ تلك الوصايا، لَلاحَظت وصايا إمامٍ تقيٍّ، وقائدٍ محنَّك، وهذه هي المعادلة الصَّعبة، التي كان عليها أصحابُ رسول الله ﷺ؛ فقد كان لهم في رسول الله ﷺ قُدوةٌ حسنة ...

فبعد التوكُّل على الله وإقامة فُروضه، يكون هناك التخطيط والتدبير لكلِّ ما يَقتَضيه الأمر .

فما أحوجَنا في هذه الأيام إلى الاقتداء بِمِثل هذه القدوة ...ومَن أحسنُ قدوةً من "خير الأنام ﷺ وصَحبِه الكرام"؟!

موقعة اليرموك

لما بلَغ هِرقلَ ملِكَ الرُّوم أمرُ هذه الجيوش، أمَر بجمع جيوشه وخرَج جمعٌ كبير من الرُّوم، يَفوق بكثيرٍ جيوشَ المسلمين، فأرسل الأمراءُ بذلك إلى أبي بكر، فأرسل لهم قائلاً :"إنَّ مِثلَكم لا يُؤتَى مِن قِلَّة، وإنَّما يُؤتَون من الذُّنوب، فاحترِسوا منها".

وكتَب إلى خالد بن الوليد – أميرِ جند العراق – يأمره أن يَستخلف على جنده، ويأخذ معه نِصفه ويتوجَّهَ إلى الشام.

ولعلَّنا نلحَظ هنا أيضًا ما فعَله الصدِّيق ؛ أمرهم بتَقوى الله والبُعد عن الذُّنوب أولاً، ثمَّ أرسل خالدَ بن الوليد (أي :أخذ بالأسباب) ثانيًا.

ولما وصَل خالدٌ إلى الشَّام، أشار على الأمراء بتَوحيد الجيوش الأربعة تحتَ قيادةٍ واحدة .فاتَّفقوا على أن يكون هو القائد ...

وانتهَت المعركةُ بهزيمة الرُّوم شرَّ هزيمة.

وكانت هذه الموقعة هي الأخيرةَ في حياة الصدِّيق، وبها انتهَت خِلافتُه ﷺوالتي وإن قَصُرَت – عامان وثلاثة أشهر فقط – إلَّا أنَّ دولة الإسلام قد امتدَّت وتوسَّعَت .

فكانت ولايات الإسلام في عهده :ﷺ بالإضافة إلى المدينة(عاصمة الدولة):

- مكة المكرمة.
- الطَّائف.
- صَنعاء.
- حَضْرَموت .
- خولان.
- نجران.
- البحرين .
- جرش.
- دُومة الجَندَل.
- العراق (معظمها).
- الشَّام (معظمها).

شمائل الصدِّيق ﷺ

والآن أحبائي أحباب رسول الله ﷺ، وقبل أن نودِّع الصدِّيقَ ﷺ، ونغلق هذا الباب، تعالَوْا نُعرِّج على بعضٍ مِن شمائله؛ لتقرِّبنا أكثر من هذه الشخصيَّة العملاقة، ولتكون لنا فيها قدوةٌ ومنهاج.

وها هي بعضٌ من شمائله ﷺ:

١ – ربَّاني :

كان الصدِّيق ﷺ ربّانيًّا في كلِّ مَشاعره وسلوكه، يَعبد اللهَ كأنه يراه.

ذهب عمرُ بعد وفاته يسأل زوجتَه (أسماء بنت عُميس) :كيف كان أبو بكر يَعبد ربَّه حين يَخلو بنفسه؟ فأجابته قائلة :"كان إذا جاء وقت السَّحَر، قام فتوضأ وصلَّى، ثمَّ يظَل يصلِّي ...يتلو القرآنَ ويَبكي، ويسجد ويبكي، ويَدعو ويبكي، وكنت أشمُّ في البيت رائحةَ كبد تشوى".

فبكى عمر وقال : أنَّى لابن الخطاب مِن هذا؟ !

فإنَّ إجلاله ربَّه وتَوقيرَه كانا يَملآنِ نفسه روعةً وحياء من الله، وكان يَعلم علمَ اليقين أنَّ مِن تمام توقيره ربه، توقيرَ عِباد هذا الربِّ العَظيم؛ فهذا الرجل الربَّاني لا يُعطي النَّاسَ مِن ذات نفسه ما ينتظِرون؛ بل يُعطي ما يَقدر هو على إعطائه، وإنَّه ليَقدر على كثيرٍ وكثير، وهو ما لُوحِظ في تعامله مع النَّاس وشدَّة تواضعه، حتى بعد أن أصبح خليفةَ المسلمين.

٢ – تواضعه ﷺ :

كان الصدِّيق ﷺ شديدَ التواضع، التواضع الذي رفعه الله به؛ فكان لا يجد في نفسه غَضاضة أن يَحلِبَ شياهَ الأرامل، ويَطهُوَ طعامَ الأيتام – كما

أسلَفْنا – حتى بعد أن أصبح خليفةَ المسلمين، وهو ما ساقه أن يأتيَ امرأةً عجوزًا عمياءَ ليَسقيَ لها ويُصلِح ما أرادت.

وكان إذا خرج يودِّع جنودَه يمشي بجِوارهم وهم رُكْبان، ويقولون :يا خليفةَ رسول الله ﷺ تَمشي ونحن ركبان؟ ! فيقول :إنِّي أحتسِب خُطاي هذه في سبيل الله .

بساطة، ورحمة، وتفانٍ في أداء حقِّ الله.

٣– شجاعته رضي الله عنه:

لما سُئل عليُّ بنُ أبي طالب :رضي الله عنه مَن أشجع الناس؟

قال :أشجع النَّاس أبو بكر؛ لما اجتمع المشركون على رسول الله ﷺ بمكَّة، فهذا يجره وهذا يُتلتِلُه، وهم يقولون :أنتَ جعَلتَ الآلهة إلهًا واحدًا، فوالله ما دَنا إليه منَّا أحدٌ إلَّا أبو بكر؛ يَضرب هذا، ويجيء هذا، ويقول : أتقتلون رجلاً أن يقول :ربي الله؟ !

ثم قال علي :أمؤمن آلِ فرعون خير أم أبو بكر؟ واللهِ لساعة من أبي بكر خير من ملء الأرض مِن مؤمن آلِ فِرعون؛ مؤمن آل فرعون رجلٌ كتَم إيمانَه، وأبو بكر رجلٌ أعلن إيمانَه.

وقال علي رضي الله عنه أيضًا في شجاعة الصديق :رضي الله عنه ولما كان يوم بدر، جعَلْنا لرسول الله ﷺ عَريشًا، وقلنا :مَن يكون مع النَّبيِّ ﷺ لئلَّا يصِل إليه أحد من المشركين؟ فواللهِ ما دَنا منه أحد إلَّا أبو بكر شاهرًا سيفَه، وقال :لا يَقترب منه أحد إلَّا هوى .

٤– السباق للخير:

يقول عمر رضي الله عنه : "ما سابَقتُ أبا بكر إلى خير قطُّ إلَّا سبقني إليه".

ويقول علي ﷺ :"هو السَّبَّاق، والذي نفسي بيده ما استبَقْنا إلى خير قط إلَّا استبَقَنا إليه أبو بكر".

تُرى ما الذي حمل عمر وعليًّا أن يقولا مثل هذا القول؟

ما اجتمَعْنَ في امرِئٍ إلَّا دخل الجنَّة:

صلى رسولُ الله ﷺ ذات صباح، فلمَّا قضى صلاتَه سأل : «**أيُّكم أصبح اليوم صائمًا؟**».

قال عمر :أمَّا أنا يا رسول الله، فقد بِتُّ لا أحدِّث نفسي بالصوم، وأصبحتُ مفطرًا.

وقال أبو بكر :أنا يا رسول الله، بتُّ الليلةَ وأنا أحدِّث نفسي بالصوم فأصبحت صائمًا.

ثم سأل رسول الله ﷺ :«**أيكم عاد اليوم مريضًا؟**».

قال عمر :إنَّما صلَّينا الساعةَ، ولم نَبرَحْ، فكيف نعود مريضًا؟!

وقال أبو بكر :أنا يا رسول الله، أخبروني أنَّ أخي عبد الرحمن بن عوف مريضٌ وَجِع، فجعَلتُ طريقي عليه، فسألتُ عنه ثمَّ أتيتُ المسجد.

ثم سأل رسولُ الله ﷺ: «**فأيُّكم تَصدَّق اليوم بصدقة؟**».

قال عمر :يا رسول الله، ما بَرِحْنا معك قد صلَّينا، فكيف نتصدَّق؟

وقال أبو بكر :أنا يا رسول الله، دخلتُ المسجد فإذا سائل يسأل، وابنٌ لعبد الرحمن بن أبي بكر معه كِسْرة خبز، فأخذتُها وأعطيتُها السائل .

فقال رسول الله ﷺ:«**ما اجتمَعْن في امرئ إلَّا دخل الجنَّة**».

والأمثلة على سَبقه للخَير كثيرة، تتَّسع لها مجلَّدات، ولقد سُقنا بعضًا منها، فكان بحقٍّ السَّبَّاقَ لكلِّ خير ﷺ .

٥- كرمه ﷺ :

كان الصدِّيق ﷺ فريدًا في كرمه فكان إذا أعطى لا يُعطي بعضًا من ماله، كما يفعل الناس، ولا حتى شَطْر ماله، إنما كان إذا أعطى يُعطي كلَّ ماله...

والشواهد كثيرة نسوق منها :

- لما خرج مهاجرًا مع رسول الله ﷺ، خرج ومعه كلُّ ماله (ستَّةُ آلافِ دينار)، ولما عَلم أبوه "أبو قُحافة" بذلك، ذهب إلى منزله، وكان ضَريرًا، فسأل أسماءَ بنت أبي بكر :سمعتُ أنَّ أباك خرَج مع محمد، وأنه أعطاه كلَّ ماله، ولم يَترك لكم شيئًا، قالت أسماء :كلا، لقد ترَك لنا الكَثير، وجمَعت بعض الحصَوات، ووضَعَت عليها ثوبًا، ثمَّ أخذَت بيده وقالت :يا أبتِ، ضَعْ يدك على هذا المال، فوضع يده وقد أحدث صوتًا كصوت الدَّنانير، فاطمأنَّ وقال :لا بأس، إذا كان قد ترَك لكم هذا.
- وفي يوم تَبوك :لما أمَر رسولُ الله ﷺ بجَمع المال استِعدادًا لهذه الموقِعة الفاصلة – كما أسلَفْنا – قال عمر :اليومَ أسبِقُ أبا بكر، إن سبَقتُه يومًا، ثمَّ جاء بنصف ماله، فقال له رسول الله ﷺ :«**ما أبقيتَ لأهلك؟**»، قال :مِثلَه، ثمَّ يأتي أبو بكر بكلِّ ماله، فقال له رسول الله ﷺ :«**ما أبقيتَ لأهلك؟**»، قال :أبقيتُ لهم اللهَ ورسولَه .

فقال عمر :واللهِ ما أسبقه إلى شيء أبدًا.

هكذا كان جود وعطاء الصدِّيق ﷺ .

٦– عدله ﷺ :

كما كان الصدِّيق ﷺ عظيمًا في كرَمه، وسبَّاقًا لكلِّ خير، فقد كان في العدل صلبًا لا يَلين إلَّا للحقِّ وما أمر به الله ورسوله .

وها هي بعض من صور عدله ﷺ :

كان ﷺ يسوِّي بين رعيَّته في العطاء وقسمة المال، فكان إذا قدِم إليه مالٌ يَقسِمه على النَّاس ويسوِّي بينهم في القسم؛ الحر والعبد، الذكر والأنثى، الصَّغير والكبير فيه سواء.

تقول عائشة رضي الله عنها :قسَم أبي أوَّل عام الفَيءَ، فأعطى الحرَّ عشرة، والمملوك عشرة، والمرأة عشرة، وأمَتَها عشرة، ثمَّ قسَم في العام الثاني، فأعطاهم عشرين عشرين.

امتحان ابتُلي به الصدِّيق ﷺ

لقد كُتب على الصدِّيق ﷺ أن يبدأ خلافتَه بواقعة، امتُحِن بها ولاؤه للعدل وهديِ نبيِّه ﷺ امتحانًا عظيمًا، حين ذهَبَت إليه فاطمةُ بنت رسول الله ﷺ، تسأله قِطعةَ أرض باعتبارها ميراثَ أبيها.

فقال لها :سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**نحن مَعاشِرَ الأنبياء لا نورث، وما تركْناه صدقة**»، إنِّي والله لا أدَعُ أمرًا رأيتُ رسولَ الله ﷺ يصنَعه إلَّا صنعتُه، وإنِّي أخشي إن تركتُ شيئًا من أمره أن أزيغ.

هكذا وجَد الصدِّيقُ ﷺ نفسه بين ولاءين :ولائه لرسول الله ﷺ، في أحبِّ النَّاس إليه وهي ابنتُه، وولائه للقانون الذي جاء به رسولُ الله ﷺ بنفسِه، فاختار أن يَركَب الصَّعب، وانحاز للقانون والعدل الذي أَتى به رسول الله ﷺ .

وليس من العدل أن يَقدح قادِحٌ في ولاء الصدِّيق لرسول الله ﷺ، بما حرَم فاطمةَ رضي الله عنها مِن ميراث أبيها، فلَئِن حرَمها لقد حرَم عائشةَ مِثلها؛ لأنَّ الأنبياء في شريعة رسول الله ﷺ لا يورَثون، وما أراد أبو بكرٍ أن يَضِنَّ بميراث رسول الله ﷺ عن وارِثيه، ومنهم ابنتُه وأحبُّ النَّاس إليه، وإنَّما كان انحيازًا لما وصَّى به رسولُ الله ﷺ، فهو أَولى من المال ومن البنين.

٧- ورعه وبكاؤه رضي الله عنه وخوفه من الله:

كان الصدِّيق رضي الله عنه شديدَ الورِع والخوف من الله، وكان رجلاً بكَّاءً.

وإليك عزيزي القارئ بعض الشواهد :

- كان لخليفةِ رسول الله ﷺ غلامٌ جاءه يومًا بشيء فتناول منه لقمة، فقال الغلام :ما لك كنتَ تسألني كل ليلة ولَمَ تسألني الليلة؟

قال :حمَلني الجوع، من أين جئتَ بهذا؟

قال الغلام :إنِّي كنتُ تكهَّنتُ لرجل في الجاهلية، وما أُحسن الكِهانة، إلَّا أني خدَعتُه ...وقد لقيَني اليومَ فأعطاني بذلك؛ فهذا الذي أكلتَ منه!

فقال أبو بكر رضي الله عنه : إنَّك كِدتَ تُهلِكني، فأدخَل يدَه في حلقه فجعَل يتقيَّأ حتى أخرج كلَّ ما في جوفه، فقيل له : يرحمك الله، كل هذا من أجلِ لقمة واحدة؟!

قال :لو لم تَخرج إلَّا مع نَفْسي لأخرَجتُها ...فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول :«**كلُّ جسَد نَبت من سُحت فالنار أولى به**»، فخشيتُ أن يَنبت شيءٌ من جسدي من هذه اللقمة.

وهكذا فإنَّ خليفة رسول الله ﷺ لَيُؤثِر أن يشدَّ على بطنه الحجر

والحجرين، كما فعل مُعلِّمه ورسوله ﷺ، على أن يُدخِل في جوفه لقمة فيها شبهة ...

* قال أبو بكر ﷺ ، بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر :انطلق بنا إلى أمِّ أيمن نزورها، كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلمَّا انتهَيا إليها بكَتْ، فقالا لها :ما يبكيكِ؟ ما عندَ الله خيرٌ لرسول الله ﷺ، فقالت :إنِّي أعلم أنَّ ما عند الله خير لرسول الله ﷺ، إنَّما أبكي لأنَّ الوحي قد انقطَع من السماء، فهيَّجَتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها.

٨- زُهده ﷺ :

* لقد بايَع المسلِمون الصدِّيقَ ﷺ بعد رسول الله ﷺ، فكان لهم خليفة وإمامًا، وتحدَّته فِتنةُ الرِّدَّة فنَصَره اللهُ عليها نصرًا مؤزَّرًا، ورأى أبراج الرُّوم والفُرس تتداعى تحت خفق راياته الظافرة؛ كل هذا ولم تتسلَّل إلى نفسه هَمسةٌ بأنه خيرٌ من أحد، ولم يستحوذ عليه قَدرٌ من الزهو، بل الزُّهد في ملذَّات الحياة هو ما استحوذ عليه ...

فكان دومًا يُمسِك قلبه بيمينه، ويَجأر بدعاء رسول الله ﷺ : «**يا مقلِّب القلوب، ثبِّت قلبي على دينك**»، ويقول وهو يَبكي :"يا لَيتني كنتُ شجرةً تُعْضَد"، وإذا ذُكِّر بمقامه عند الله، وما بشَّره به رسولُ الله ﷺ من جنَّات النعيم، يقول :"واللهِ لا آمَن مَكر الله، ولو كانت إحدى قدَمَيَّ في الجنَّة".

* روي أنَّ أبا بكر استَسْقى، فأُتي بإناء فيه ماء وعسل، فلمَّا أدناه من فمه، بكى وأجهش بالبكاء حتى أبكى مَن حوله، ثمَّ مسح وجهَه وأفاق، فقالوا :ما هاجك على البكاء؟ قال :كنتُ يومًا مع النَّبي ﷺ، وجعل

يَدفع عنه شيئًا لا نراه، ويقول : «**إليكِ عنِّي، إليك عنِّي**»، فقلت له : يا رسول الله، أراك تَدفع عنك شيئًا ولا أرى معك أحدًا، فقال : «**هذه الدُّنيا تمثلَت لي بما فيها، فقلت لها :إليكِ عني، فتنحَّت وقالت :أما والله لئن انفلَت منِّي، لا ينفلت منِّي مَن سيأتي بعدك**»، فخشيتُ أن تكون لحقتني، فذاك ما أبكاني.

٩- الدقيق؛ وحدة العقل والروح مع رسول الله ﷺ:

كان من الأسماء التي عُرف بها الصدِّيق رضي الله عنه "الدقيق"؛ لأنَّه كان يَفهم ما لا يَفهمه غيره، فهو صاحب الفَهم الدَّقيق.

وكانت بينه وبين رسول الله ﷺ - كما نقول في عصرنا الحديث - كيمياء خاصَّة متجانِسة ومُؤتلِفة، فكان يُحسُّ بما يُحس به رسولُ الله ﷺ دون غيرِه من الناس، ويفهم مَغزى ما يقوله رسول الله ﷺ دون غيره من الناس .

فكانت وَحْدة القلب، والعقل، والشَّفافية مع رسول الله ﷺ، اختصَّ بها الصدِّيق رضي الله عنه .

وفيما يلي بعض الشواهد على ذلك:

* حب رسول الله ﷺ لأبي بكر:

كما كان أبو بكر يحبُّ رسولَ الله ﷺ، كان رسول الله ﷺ يحبه حبًّا جمًّا.

سُئل رسول الله ﷺ: يا رسول الله، أيُّ النَّاس أحب إليك؟

قال: «**عائشة**».

قالوا: إنَّما نَعني من الرِّجال.

قال: «**أبوها**».

وقال رسول الله ﷺ: «**ما أحد أعظم عندي يدًا من أبي بكر، واساني بنفسه وماله وأنكحَني ابنتَه**».

وقال ﷺ : «**ما لأحد عندنا يد، إلَّا وقد كافيناه، ما خلا أبا بكر، فإنَّ له يدًا يكافئه الله بها يوم القيامة**».

وكان عمر بن الخطاب يقول: «أبو بكر سيِّدنا، وخيرنا، وأحبُّنا إلى رسول الله ﷺ».

* موقفه يوم الحديبية:

وقد أسلَفْنا كيف كان موقف الصدِّيق رضي الله عنه يوم الحديبية؛ لما كان هو الوحيدَ من دون الصَّحابة كلِّهم الموافِقَ والمطابِقَ لموقف رسول الله ﷺ، ومقالته لعمر، التي طابقت ما قاله رسول الله ﷺ، من دون أن يراه أو يسمعه.

* يوم حجَّة الوداع:

في ذلك اليوم شاهدنا كيف أنَّ الصدِّيق رضي الله عنه لما نزلت الآية :{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: ٣] بَكى مِن دون الصَّحابة كلهم، وعلم أنَّها رِثاءٌ لرسول الله ﷺ، وقال :ما اكتمل شيء إلَّا وبدأ في النقصان، فقال له رسول الله ﷺ :«**صدقت**».

*قبيل وفاة رسول الله ﷺ:

وقد أسلفنا – لما جلس رسول الله ﷺ على المنبر وقال :«**إنَّ عبدًا خيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا، وبين ما عند الله، فاختار ما عند الله**»، فبكى أبو بكر وأجهش في البكاء وقال :"فديناك بآبائنا وأمَّهاتنا يا رسول الله"، وكان هو الوحيد الذي بكى وعلم أنَّما رسول الله ﷺ يَعني أنَّه هو العبد المخيَّر.

وتعجَّب النَّاس منه لماذا بكى؟ وعلموا بعد ذلك أنَّ رسول الله ﷺ هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلَمَهم به.

١٠- ثقافة الصدِّيق رضي الله عنه :

بالإضافة إلى ما تقدَّم من شمائلَ فريدةٍ للصدِّيق رضي الله عنه ، كان يتمتَّع بثقافة واسعة، ولعلَّ مِن أصدق العلامات على ثقافته هو تقديره للكلام، سواء في كلامه أو كلام غيره؛ فكان يتميَّز بقَصْد العبارة، ووَزن الكلام، وذَوق الخطاب، وعلمه الواسع بالأنساب.

*قصد العبارة:

لقد كان الصدِّيق رضي الله عنه أحرص النَّاس على كلِّ كلام يبدر من لسانه، وكان دائمًا قليلَ الكلام، كثير الاستماع؛ لذلك كان الاقتصاد في المقال أسبَقَ وصاياه إلى ولاته وعمَّالِه.

فقد قال لخالد بن الوليد :"أقلل من الكلام؛ فإنَّما لك من الكلام ما وُعي عنك".

وقال ليزيد بن أبي سفيان :"إذا وعظتَ فأوجِز؛ فإنَّ كثير الكلام يُنسي بعضُه بعضًا".

ولذلك على الرغم من أنه كان أقرب الصَّحابة إلى رسول الله ﷺ، وألزمهم به في نهاره وليله، إلَّا أنَّه لم يَروِ من الأحاديث النبويَّة إلَّا ما يقرب من المائة والأربعين حديثًا فقط، وما كان ذلك إلَّا لقلَّة كلامه.

*وزن الكلام:

أمَّا كلامه – رضي الله عنه رغم قِلَّته – فقد كان من أرجح ما قيل في موازين الكلام، سواء موازين البلاغة أو موازين الخلق والحكمة.

فله مِن الإيجاز في الكلام أمثِلة، تدلُّ الواحدة منها على ملَكة صاحبها، فيُغني القليلُ منها عن الكثير، ولعلك تَعلم معدن القول حين تسمع قوله :

–"احرص على الموت، توهَبْ لك الحياة".

–"أَصدقُ الصِّدق الأمانة، وأكذَب الكذب الخيانة".

–"الصبر نِصف الإيمان، واليقين الإيمانُ كله".

–"إذا فاتك الخير فأدرِكه، وإن أدركك فاسبقه".

فهي وما أُثر عنه من أمثالها كلماتٌ تتَّسم بالقَصد والسداد، كما تتَّسم بالبلاغة وحسن التعبير.

*لَباقة الخِطاب؛ ذوق الخطاب:

كانت للصديق رضي الله عنه لَباقة في الخطاب، إلى جانب هذه البلاغة في الكلام.

من أمثلة ذلك :

أنَّه سأل رجلاً يَحمل ثوبًا :أتبيع هذا الثَّوب؟ فأجابه :لا، عافاك الله،

فقال له :هلَّا قلتَ :لا، وعافاك الله!

فحين تَسمع إجابة الرَّجل، كأنه يقول :إنَّه لا عافاك الله، فكان مِن لَباقة الصدِّيق ﷺ أن قال له : الأفضل أن تقول :لا وعافاك الله، فهي تُعطي وضوحًا لا التِباس فيه، وتُعطي للخِطاب لَباقة وذوقًا.

*يروي الشِّعر ويحفظ الأمثال:

ومن السهل على مَن يمتلك هذا البيان في كلامه، أن يتتبَّع شواهد البيان في كلام الآخرين، ولعلَّ الصدِّيق قد ملك هذا البيان؛ لأنَّه طُبع عليه، فتتبعه في كلام البلغاء من الخطباء والشعراء، فكان يَروي الشِّعر ويحفظ الأمثالَ، وإليه تَرجع السليقة التي ظهرت في ذريته، ومنهم عبد الله وعبد الرحمن كانا يَنظِمان الشِّعر، وإن كان الصدِّيق ﷺ لم يَنظِم الشعر، ولكنه كان قريبَ السليقة ممَّن قالوه، ولو بالتذوُّق والحِفظ والرواية .

*علمه بالأنساب (التاريخ):

كان الصدِّيق ﷺ واسِعَ المعرفة بالأنساب، وهو ما يتشابه مع معنى التاريخ عندنا الآن.

فكان يَعلم النَّسَب المحيط بالمحامد والمثالِب في القبائل العربيَّة كافَّة، وهو أنفَعُ ما في علم التاريخ.

لما خرَج رسول الله ﷺ ليعرض نفسه على القبائل في أوَّل الدعوة، وكان معه أبو بكر وعلي بن أبي طالب .

يقول علي :فرُفِعنا إلى مجلس من مَجالس العرب، فتقدَّم أبو بكر فسلَّم، وكان مقدَّمًا في كلِّ خَير، وكان رجلاً نسَّابة أي :(يعلم الأنساب)، فقال : ممَّن القوم؟ قالوا :من ربيعة، قال :وأي ربيعة أنتم؟ أمِن هاماتها أم من لَهازِمها؟

قالوا :من هاماتها العظمى.
قال :وأي هاماتها العظمى أنتم؟
قالوا :مِن ذُهل الأكبر .
قال :فمنكم عوف بن ملحم، الذي يُقال فيه :لا حر بوادي عوف؟
قالوا :لا.
قال :فمنكم المزدلف الحر، صاحب العمامة الفَرْدة؟
قالوا :لا.
قال :فمنكم بِسْطام بن قيس، أبو القرى ومنتهى الأحياء؟
قالوا :لا.
فقال أبو بكر :فلَستم ذُهلاً الأكبر، إنَّما أنتم ذُهل الأصغر .

وهكذا كان عِلمه بأنساب كل قبيلة، ومَحامد السابقين منها ومَثالِبهم، لاسيَّما قريش ومَن جاورها .

ولهذا كانوا يقولون كلَّما سمعوا أبياتًا من الشُّعراء المسلمين يرون بها الهجاء على المشركين، كانوا يقولون :هذا تلقينُ ابن أبي قُحافه، وليس أحد سواه؛ لأنَّه كان أعلم النَّاس بالأنساب بغير نظير.

*مراجع ثقافته ﷺ:

كانت ثقافته في زمانه، هي ثقافة الفقيه الأديب المؤرِّخ؛ بما اصطلحوا عليه من مَعنى التاريخ في ذلك الزمان.

ولهذه الثقافة مَراجعها وهي :

- طبْعٌ سليم .
- ملاحَظة صادقة.
- خِبرة بالدنيا من طريق المعاملة والسياحة.
- إصغاء إلى الحسَن من القول والوثيق من الأخبار.

- علم بالأنساب والتواريخ.
- استيعاب للقرآن كله، ولفقه الدين كله.
- دراية بما سمع من رسول الله ﷺ.

ونحن لا ننتظر من كلِّ رجل تيسَّرت له هذه المراجع، أن يبلغ من الثقافة مبلغ أبي بكر، الذي تدل عليه أقواله وأعماله وخلائقه، ولكننا إذا علمنا أنَّ تلك مَراجعه وأنَّ ذلك مبلغه، فقد علمنا شيئًا آخر، هو أنَّه رجل خُلق من معدن العظمة والامتياز، ولم يُخلق كسائر الرجال.

الفصل الأخير من حياة الصدِّيق ﷺ

وبعد حياة مَليئة بالكِفاح، والتضحية بالمال والجهد والنفس، وقد منَّ الله على خليفة رسول الله ﷺ بالقَضاء على فتنة المرتدِّين، وكثرت الفتوحات الإسلامية في عهده، وساق الله على يديه الخيرَ الكثيرَ للإسلام والمسلمين.

بعد هذه الحياة الطويلة، مَرِض الصدِّيق وأُصيب بحُمى، وازداد عليه المرَض حتى أصبح لا يقدر على الخروج إلى الصلاة.

استخلافه لعمر بن الخطاب

ولما اشتدَّ المرض بأبي بكر، وأحسَّ بدنوِّ أجله، رأى أن يستخلف مِن بعده رجلاً يُكمل المسيرةَ؛ فلقد كان يخشى أن يموتَ، فيتورَّع عن هذا المنصب مَن هو أحقُّ النَّاس به لزُهده وورعه، ومِن ثَمَّ قد يتولَّاه مَن لا يستحقه، فيكون بذلك قد ضيَّع الأمانة.

ورأى الصدِّيقُ ﷺ أن يَستخلف عمرَ بن الخطاب.

عثمان يَكتب العهد

فبعد أن استشار الصدِّيقُ ﷺ الصَّحابةَ، وكلُّهم قال خيرًا في عمر، دعا عثمان بن عفَّان، وقال له :اكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما عَهد به أبو بكر بن أبي قُحافة، في آخر عهده بالدنيا خارجًا منها، وأوَّل عهده بالآخرة داخلاً فيها؛ حيث يؤمِن الكافر، ويوقِن الفاجِر؛ أنِّي استخلفتُ عليكم ...ثمَّ أُغشي عليه.

فكتب عثمان :أنِّي استخلفتُ عليكم عمرَ بن الخطاب، فلمَّا أفاق أبو

بكر قال لعثمان : اقرأ عليَّ، فقرأ عليه ما كَتب، فكبَّر، وقال :أراك خِفْتَ أن يَختلف الناس، إن افتُلِتَتْ نفسي في غشيتي؟ أي : (توفيتُ ولم أعد للحياة من غشيتي)، قال :نعم.

قال :جزاك الله خيرًا عن الإسلام وأهله، ثمَّ أمَر عثمانَ أن يَخرج على النَّاس بالكتاب، ثمَّ دعا عمر وأوصاه خيرًا بالإسلام والمسلمين.

أفرس النَّاس ثلاثة

يقول ابن مسعود :أفرَس النَّاس ثلاثة :

- أبو بكر حين تفرَّس في عمر فاستخلفه.
- وصاحبة موسى التي قالت: {يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ} [القصص: ٢٦].
- والعَزيز حين تفرَّس في يوسف، فقال لامرأته: {أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا} [يوسف: ٢١].

اللَّحظات الأخيرة في حياة الصدِّيق ﷺ

استمرَّ مرَض الصدِّيق ﷺ مدَّةَ خمسة عشر يومًا، لا يخرج للصلاة، وكان يأمر عمر بالصلاة بالنَّاس، وكان الصَّحابة يعودونه، وكان عثمان ألْزَمَهم له في مرضه.

* انظروا ماذا زاد في مالي؟

دعا أبو بكر ﷺ ابنته عائشة، وهو في مرضه الذي مات فيه، وقال لها : انظروا ماذا زاد في مالي منذ دخَلتُ الإمارة، فابعثوا به إلى الخليفة مِن بعدي ...

تُرى عزيزي القارئ، ماذا زاد في مال أبي بكر؟ !وهو الذي ضحَّى بكلِّ ماله في خدمة الدين ...

ها هو ذلك الميراث الذي خلفه أبو بكر، وزاد في ماله :

- بعير كان يَستسقي عليه الماء.
- مِحلَب، كان يَحلب فيه اللبن.
- عباءة كان يَستقبل فيها الوفود.

فلمَّا توفِّي الصديق، وتولى عمر الخِلافةَ، حملت عائشة هذه التَّركة إلى عمر، فما كاد يرى ويسمع، حتى انفجر باكيًا وقال :"رحِم الله أبا بكر، لقد أتعب مَن بعدَه"؛ كرَّرَها ثلاثًا .

* في أي يوم مات رسول الله ﷺ؟

فلمَّا كان يوم الاثنين، الثاني والعشرين من جمادى الآخرة، سنة ثلاث عشرة للهجرة، وقد بلغ الصدِّيق ثلاثة وستين سنة، سأل عائشةَ :في أيِّ يوم مات رسول الله ﷺ؟

قالت :في يوم الاثنين.

قال :فإن مِتُّ من ليلتي، فلا تنتظروا إلى الغد، فإنَّ أحبَّ الأيام إليَّ أقربُها من رسول الله ﷺ .

ثم قال :ففيم كفَّنتموه؟

قالت :في ثلاثة أثواب بيض.

قال :انظري ثوبي هذا، فاغسليه، واجعلي منه ثوبين آخرين.

فقالت :يا أبتِ، هذا ثوب قديم.

فقال :إنَّ الحيَّ أحق بالجديد، وإنما هو للمُهلة أي :(لفترة القبر).

*آخر ما قاله الصدِّيق رضي الله عنه :

ولما بدأ النَّزع الأخير، فقالت عائشة :

لَعمرُك ما يُغني الثَّراء عن الفتى = إذا حَشْرجَتْ يومًا وضاق بها الصَّدرُ

فنظَر إليها وقال:

– ليس كذلك يا أم المؤمنين، ولكنَّ قول الله أصدق :

{وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} [ق: ١٩].

وفاضت روحُه إلى بارئها وهو يقول :"اللهمَّ توفني مسلمًا وألحقني بالصَّالحين".

* غسله ودفنه:

وغسَّلته زوجتُه أسماء بنت عُمَيس، وصلَّى عليه عمر بن الخطاب والمسلمون، ونزل قبرَه عمرُ وعثمانُ وطلحةُ وابنه عبدُ الرحمن.

ودُفن بجانب صَديقه ورفيقه رسول الله ﷺ، وجعل رأسه عند كتفي رسول الله ﷺ.

* رثاء خليفة رسول الله ﷺ:

فلمَّا قُبض خليفة رسول الله ﷺ، ارتجَّت المدينة كيوم قُبض رسول الله ﷺ، فجاء عليُّ بن أبي طالب، ووقف على البيت الذي كان فيه أبو بكر وقال :"رحمك الله يا أبا بكر !كنتَ إلْفَ رسول الله ﷺ، وأنيسه ومستراحه، وثِقته وموضع سرِّه، وكنتَ أوَّل القوم إسلامًا، وأخلَصهم إيمانًا، وأشدهم يقينًا ."...

-"وكنتَ كما قال رسولُ الله ﷺ :ضعيفًا في بدنك، قويًّا في أمر الله تعالى، متواضعًا في نفسك، عظيمًا عند الله تعالى، قليلاً في أعين الناس، كثيرًا في أنفسهم، شأنك الحق والصدق والرِّفق".

-"فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، رضينا عن الله قضاءَه، وسلَّمنا له أمرَه، والله لن يُصاب المسلمون بعد رسول الله ﷺ بمثلك أبدًا، فلا حرَمَنا الله أجرَك، ولا أضلَّنا بعدك".

وسكتَ النَّاس حتى قَضى عليٌّ كلامَه، ثمَّ بكوا حتى علَت أصواتهم وقالوا: -صدقت.

أمَّا عمر بن الخطاب فقال :"لو وُزن إيمانُ أبي بَكر بإيمان أهل الأرض لرجح بهم".

* * * * * * * * * * * * *

فهذا هو الصدِّيق، الرَّفيق، الدقيق، الخليفة، الذي أنجز في أقلَّ من ثلاث سنوات ما أنجز؛ من إنفاذ بعثة أسامة وما لها من صعاب، وقمع الردَّة وما حولها من خطر، ووَطءِ حدود فارس والروم، وما لها من هيبة ومَنَعة، ولو أنَّ هذه الأعمال حُسبَت لثلاثين سنة، ولم تُحسب لثلاث سنوات، لجَلَّلتها جميعًا بالثَّناء والفخار.

فكانت الدَّولة الإسلاميَّة بمثابة أمانة، وما كان أحد ليتلقَّى تلك الأمانة خيرًا من تلقي الصدِّيق ﷺ لها، منذ أن تلقَّاها بيدٍ مِن رسول الله ﷺ، حتى سلَّمها بيَدٍ إلى عمر بن الخطاب .

فهذا هو الصدِّيق ...لا يرفع الكاتِبون من قدره بما يسطِّرون عنه وعن فضائله، إنَّما يرفعون من أقدار أنفسهم، حين يؤهِّلونها للحديث عن هذا الرجل الشامخ العظيم.

فرحمة الله عليك يا خليفة رسول الله ﷺ

عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه

والآن عزيزي القارئ، وبعد أن استمتَعْنا بصُحبة الصدِّيق رضي الله عنه ، واقتطفنا من بُستانه، ها نحن نَهبط في بستانٍ آخر؛ هو بستان الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه...

فما أروعَها من صحبة، صحبةُ الأخيار!

فهذا هو الفاروق الذي إذا ذُكر العَدل؛ فقد علَّم البشريَّةَ معنى العَدل، وإذا ذُكر الزُّهد؛ فهو شيخ الزَّاهدين، وهو الإمام العابِد الأوَّاب، هو الفاروق الذي تَطيب المجالسُ بذِكره، إنَّه الكبير في بَساطة، البسيط في قوَّة، القويُّ في عدل ورحمة ...إنَّه الرجل الذي أنجبَتْه جزيرة العرب، وربَّاه الإسلام، إنَّه الرجل الذي أعطى العالمَ كلَّه قُدوَة لا تَبْلى.

وسنحاول في هذه الصَّفحات القادمة أن نلتقي بالرَّجل الذي لم تُسعِدنا الأقدار باللقاء معه في دُروب المدينة، فلنأخُذ من المشهد المكتوب ما فاتَنا من المشهد الحي .

أجَل، نعيش لحظات في رِحاب عمر، بين يدَي القوي الأمين، المعلِّم الذي ليس له بين العالَمين نظير، أَنجبُ مَن تخرَّج في مَدرسة الحبيب المصطفى ﷺ، فلنَقْضِ في معيَّته لحظات، تَرفع من قَدر حياتنا.

وعُمر من الطِّراز الذي تَغمُرك الهيبةُ وأنت تقرأ تاريخَه المكتوب، والهيبةُ كلُّ الهيبة وأنت تُجالس ذاته وشخصَه بالمشهد المكتوب من تاريخه، والذي لا يَكاد يختلف عن المشهد الحيِّ، إلَّا في غياب البطَل عن حاسَّة البصَر وحدَها، أما الأفئدة والبَصائر، فتحسُّ وهي تُطالع سيرتَه أنَّها تُعانِقه وتُجالسه، وترى رأيَ العين جَلائلَ الأعمال بيَدِ أستاذ عظيم. فلنقتَرِبْ من هذا الطَّود العظيم، نُجالِسُه، لنَزداد به علمًا، ولنرتفع به قَدرًا رضي الله عنه... وأرضاه.

مَن هو عمر بن الخطاب ﷺ؟

نسَبُه :

هو عمر بن الخطاب بن نُفيل بن عبد العُزَّى بن رِيَاح بن عبد الله بن قُرْط بن رَزَاح بن عَدِيِّ بن كعبِ بن لُؤيِّ بن غالب بن فِهر العدوي القرشي، ويَلتقي مع رسول الله ﷺ في كَعبِ بن لؤي.

ميلاده :

وُلد ﷺ في السنة الثالثةَ عشرة من عام الفيل، أي :بعد ميلاد رسول الله ﷺ بثلاثة عشرَ عامًا.

وصفه وصفاته :

- كان الفاروق ﷺ رجلاً قويًّا، مفتولَ العضلات، مُشرَبًا بالحُمْرة، أصلَع، أيسَر، غليظَ القدَمين والكَفَّين، عريضَ المنكِبين، فارهًا شامخًا عِملاقًا، إذا سار مع قومٍ كان أعلاهم رأسًا، وإذا وقف بدا وكأنَّه راكبٌ مِن فَرْطِ طوله.
- عُرف الفاروق ﷺ منذ صغره بالشَّجاعة، والمصارَعة، وقوَّة الشخصية؛ فقد ورث من طِباع أبيه، صرامةً لا تَعرِف الوهن، وحسمًا لا يؤرجحه التردُّد، فكان كما نَعَتوه :إذا تكلَّم أسمَع، وإذا مشى أسرَع، وإذا ضرب أوجَع.
- بالإضافة إلى الشَّجاعة والحسم والإقدام كما عُرف عن الفاروق ﷺ ، أنَّه كان دبلوماسيًّا من الطِّراز الأول، فكان من أشراف قريش، وإليه كانت السِّفارة في الجاهليَّة؛ وذلك أن قُريشًا كانت إذا وقعَت بينهم وبين غيرهم حربٌ، بعَثوا سفيرًا، فكانوا يرضَون به ﷺ ويبعَثونه سفيرًا؛ أي :(ممثِلاً لقريش يحادث الأعداء ويتفاوض معهم نيابة عن قريش).

إسلام الفاروق ﷺ

لقد كان عمر بن الخطاب ﷺ معروفًا بحِدَّة الطَّبع، وقوَّة الشَّكيمة، وكان قبل إسلامِه من أشدِّ النَّاس عَداوة للإسلام والمسلمين، حتى قيل :إنَّ عَداوته للإسلام تكاد تُعادل أذى قريشٍ بأسرها، حتى شرَح الله صدرَه للإسلام، فصارت مُعاداتُه للوثنية تكاد تُعادِل مقاومةَ الإسلام بأسْرِه.

وقد أظهرَت قصَّة إسلامه المعدِنَ الحقيقيَّ للفاروق عمر ﷺ ، فكان يُشبِه ثمرة الفاكهة التي تميَّزَت بحُلو الطعم، وطيب الرائحة، إلَّا أنَّ لها قشرةً خشنة صُلبة من الخارج، تُخفي ما بداخلها من حلوِ الطعم وطِيب الرائحة ...

زيارة المهاجرين إلى الحبشة

كان عمر ﷺ متأثِّرًا بخروج المهاجرين وتَرْك أهليهم وديارهم، وقد حَزن على فِراق كثير منهم، فذهَب يومًا ليرى صديقًا له قرَّر الهجرةَ إلى الحبشة – عامِر بن أبي رَبيعة – وزوجته، فلمَّا ذهب وجد الزوجةَ ولم يجد الزوج، رآها تتهيَّأ للرحيل والهجرة، فسألها وينبوعُ الرحمة في نفسه يتحرَّك :أتنطَلِقون يا أم عبد الله؟ قالت المرأة ثائرةً :نعم، واللهِ لنَخرجنَّ في أرض الله، فقد آذيتمونا وقهرتمونا، ننطلق حتى يجعل الله لنا فرَجًا، قال عمر وقد تأثَّر بكلامها : صَحِبكم الله، وقد رأت أم عبد الله – بإحساس المرأة – في وجهه رقَّةً وحزنًا.

فلمَّا عاد زوجها، وحدَّثتْه بما حدث، وما أحسَّت من رِقَّة عمر وحزنه .

فقال لها زوجُها :أراك تطمعين في إسلام عمر؟ !قالت :نعم، فردَّ عليها : واللهِ لا يُسلم حتى يُسلِم حِمارُ الخطَّاب !كناية عن استحالة إسلامه، قالها

الرجل مِن شدَّة ما كان يَحدث من عمر مِن اضطهادٍ وأذًى للمسلمين، غير أنَّ إحساس المرأة الداخليَّ كان أقوى وأصدق من حُكم الرجل.

عمر يقرِّر قتلَ رسول الله ﷺ

أمَّا عمر فجلس يفكِّر فيما سمع من هذه المرأة، ثمَّ قرَّر أن يقتل رسولَ الله ﷺ؛ إذ لولاه ما رحَل هؤلاء الصحب عن ديارهم !فتوشَّح سيفَه وذهب يريد رسول الله ﷺ، وبينما هو في الطَّريق لقيه نُعيم بن عبد الله، فقال له : أين تريد يا عمر؟ فقال :أريد محمدًا هذا الصَّابئَ، الذي فرَّق أمْرَ قريش، وسفَّه أحلامَها، وعاب دينها، وسبَّ آلهتها، فأقتله.

هنا أحسَّ نُعيمٌ بالخَطر على رسول الله ﷺ، وكان قد أسلَم ولم يُعلِن إسلامه، فأنهى الحوارَ بعبارة تَلْوي زِمام عمر وتَثْنيه عمَّا كان ينوي القيام به، فقال له :واللهِ غَرَّتْك نفسُك من نفسك يا عمر !أترى بني عبد مناف تارِكيك تمشي على الأرض وقد قتلتَ محمدًا ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتُقيم أمرَهم؟ !قال عمر :وأيُّ أهل بيتي؟ قال :أختك فاطمة وابن عمك زوجُها سعيد بن زيد، فقد أسلَما وتابَعا محمدًا على دينه .

وانكسر الغلاف الصلب

فرجع عمر واتَّجه إلى بيت أخته وزوجها، وكان عندهما خَبَّابُ بن الأرتِّ، ومعه صَحيفة يُقرِئهما ما فيها من القرآن، فلمَّا دنا عمرُ من الباب، سمع قراءةَ خبَّاب، فدقَّ الباب، فلمَّا سمعوا صوتَ عمر، اختبأ خبَّابٌ في رُكن من أركان البيت، ودخل عمر وقال :ما هذه الهينَمةُ أي :(صوت كلامٍ لا يُفهم) التي سَمعتُها؟ فقالت فاطمة :ما سَمعتَ شيئًا، فقال :بلى، لقد أُخبِرتُ أنَّكما تابَعتما محمدًا على دينه، ولطم زوجَ أخته – سعيد بن زيد – فلمَّا

قامت فاطمة لتُدافع عن زوجها، أصابتها منه لطمةٌ أدمَتْ وجهها، فلمَّا رأت الدَّم، قالت :يا بن الخطاب ما أنت فاعلٌ فافعل، فقد اتَّبعنا محمدًا، وشَهِدنا أنَّه لا إله إلَّا الله، وأن محمدًا رسول الله...

والآن عزيزي القارئ، تدقُّ اللَّحظة الحاسمة، مؤذنة بالتحوُّل العظيم، وكاشفة عن الجوهر النَّقي التَّقي لهذا الرجل العظيم ...

فكان هذا الدَّم الذي تَقطَّر من وجه أخته، بمثابة السِّكِّين الحادَّة التي كسَرَت هذا الغلافَ الصُّلب وتلك القشرةَ الخشنة، لتظهر حقيقة وحلاوة ما بداخل الثَّمرة من حلو الطعم وطيب الرائحة ..."عمر بن الخطاب".

فما أن رأى الدَّم يَقطر من وجه أخته، حتى رقَّ قلبُه لها، وندم على ما فعل، ودخل وجلَس وقال لها :أعطيني هذه الصَّحيفة التي سمعتكم تَقرؤونها، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، قالت له أخته وقد طمعت في إسلامه :يا أخي، إنَّك نَجِس على شِرْكك، وإنَّه لا يَمَسُّها إلَّا الطَّاهر، فقم فاغتسل، فقام فاغتسل وأخذ الصَّحيفة وقرأ: {طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى * إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى} [طه: ١ - ٣]، وظلَّ يَقرأ حتى انتهى إلى قوله: {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي} [طه: ١٤].

عمر ينشرح صدره للإسلام

ولما انتهى من قِراءة الصحيفة، اغرورقَتْ عيناه بالدموع وقال :ما أَحسَن هذا الكلامَ وأكرَمَه !فخرج خبَّابٌ مِن مَخبئه وقال :يا بن الخطَّاب أبشِر، إنِّي لأَرجو أن يكون الله قد خصَّك بدعوةِ نبيِّه؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : «**اللهمَّ أعِزَّ الإسلام بعمر بن الخطاب أو عمرِو بن هشام** (أبو

جهل)، **أو بأحبِّهما إليك**»، فقال عمر :فدُلَّني يا خبَّاب على محمد.

فأخذ عمرُ سيفَه وتوشَّحه، ثمَّ سار حيث رسولُ الله ﷺ وأصحابُه، فضرب عليهم البابَ، فقام رجل يَنظر مِن ثَقبِ الباب فرآه متوشِّحًا سيفه، فقال :يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشِّحًا سيفه، فقال حمزةُ :افتح الباب، فإن كان يريد خيرًا بذَلْناه له، وإن كان يريد شرًّا قتَلْناه بسيفه.

فلمَّا دخَل عمرُ على رسول الله ﷺ، لقيه رسول الله ﷺ وجذبه بقوَّة وقال : «**ما جاء بك يا بن الخطاب؟ فواللهِ ما أرى أن تَنتهي حتى يُنزل الله بك قارعة**»، فقال عمر :يا رسولَ الله، جئتُك لأشهد أن لا إله إلَّا الله وأنَّك رسولُ الله، فكبَّر رسولُ الله ﷺ تكبيرةً عرَف منها أصحابُه أنَّ عمر أسلَم.

-وأسلم عمر وكان مُكْمِلاً عِدَّة أربعين مسلمًا.

وكالات الأنباء تنقل خبر إسلام عمر

فلمَّا أسلم عمر رضي الله عنه سأل :أيُّ قريشٍ أنقَلُ للحديث؟ "وكالة أنباء واسعة الانتشار" - كما نُسمِّيها في أيامنا - فقيل له :جَميل بن مَعمَر الجُمَحي، فراح إليه عمر رضي الله عنه وقال له : يا جميل، إنِّي قد أسلمتُ، فلم يَرُدَّ عليه كلمتَه حتى قام عامدًا إلى المسجد لِنَشر هذا الخبر "خبر عاجل" ! ونادى بأعلى صوته :يا قريش، إنَّ ابن الخطَّاب قد صَبَأ، وعمرُ خلفه يقول : كَذب، ولكنِّي أسلمتُ وآمنتُ بالله، وصدَّقتُ برسوله.

أعمال الفاروق ﷺ في صدر الإسلام

وانتقل في لَمح البصر رجل كان يَقف في أقصى مجاهل الوثنيَّة إلى أقصى رحاب الهدى، وبنفس القوَّة ونفس الأصالة، بدأ القلق الذَّكي في الطبيعة العمرية الفريدة من أُولى لحظات إسلامه، فكَّر كيف يصرع الباطلَ الذي طالما توهَّمه حقًّا، وكيف يقتلع جميعَ الأشواك التي ملأ بها طَريقَ رسول الله ﷺ وصحبِه؛ من سُخرية وأذًى، كيف يقتلعها ويَغرس مكانها أزاهيرَ ورياحين؟

وها هي بعض من الأزاهير والرياحين التي زرعها الفاروق عمر ﷺ :

١ – الدعوة تَخرج من مكمنها :

وما هي إلَّا لحظات منذ إسلامه ﷺ حتى بدأ يفكِّر كيف يَنصر هذا الدِّين؛ فقد كان المسلمون قبل إسلام عمر ﷺ لا يستطيعون أن يُصلُّوا عند الكعبة آمِنين، فما أن أسلَم عمر حتى قال لرسول الله ﷺ :ألَسنا على الحقِّ في مماتنا ومحيانا؟ ويجيبه رسول الله ﷺ« :**بلى يا عمر، والذي نفسي بيده، إنَّكم على الحقِّ إن متُّم وإن حَييتُم**»، يقول عمر :

–"ففيم الاختفاءُ إذًا؟ والذي بعَثك بالحقِّ، لتَخرجنَّ ولنَخرجنَّ معك" .

وخرَج رسولُ الله ﷺ والمسلمون معه في صَفَّين؛ عمر في صفٍّ، وحمزة في صفٍّ آخر، حتى وصَلوا إلى المسجد الحرام، وطاف رسولُ الله ﷺ والمسلمون معه، وصلَّوا مطمئنِّين، ثمَّ رجَعوا إلى دار الأرقم .

وبهذه الخطوات التي استَحثَّها عمر ﷺ ، بدأ الزَّحف الطويل المبارك الذي استمرَّ ألفًا وأربَعَمائةِ عام ولا يزال ...

٢ – القصاص من نفسه:

وبعد هذا الخروج العلني للدَّعوة من مَكمنها، على مرأًى ومَسمَعٍ من قريش، فهل يكتفي عمر ﷺ بهذا؟ لا، فهناك عمل كثير وقدير سيواصله حتى يحسُّ أنَّه طهَّر نفسَه من كلِّ آثام الجاهلية، وليستريح وجدانُه الحي أنْ ضرَب مسلمًا لإسلامه، ولم يَضرب كافرًا لكُفره، لِيَشعر أنه وَفَّى لله دَينه وقد ضرَب ولم يُضرَب، وآذى أُناسًا ولم يُؤذِه أحد، وتذكَّر أنه بالأمس كان كفَّارُ قريش يأخذهم الزَّهو؛ لأنَّ عمر يَضربُ أصحابَ محمد ﷺ ...فليمنَح المسلمين اليومَ زهوًا مِثلَه، بأن يشاركهم في العذاب، ولْيَأخُذْهم الزَّهوُ بأنَّ عمر الجسورَ العملاق المهيب، يُضرَب كما يُضربون، ويُضطهَد كما يُضطهَدون، فلن يظل اضطهاد قريش وَقْفًا على بلال وخبَّاب وعمَّار وإخوانهم من الفقراء والمستضعفين، فليرفع من قِيمة العذاب الذي يَلقاه إخوانه بأيِّ حال :

- فذهب إلى رسول الله ﷺ وقال له :بأبي أنتَ وأمِّي يا رسول الله، فوالله ما تركتُ مجلسًا كنتُ أجلس فيه بالكفر، إلَّا أظهرتُ فيه الإيمان، غير هائب ولا خائف.
- ثم راح يفكِّر، في أيِّ أهل مكة أشدَّ عداوة لرسول الله ﷺ، فتذكَّر أبا جهل، فانطلَق إليه ودقَّ عليه بابَه، فخرج أبو جهل وقال :مرحبًا يا ابن أختي، ما جاء بك؟ قال :جئتُ لأخبرك أنِّي قد آمنتُ بالله وبرسوله محمد، فضرب أبو جهل البابَ في وجهه، وقال :قبَّحك الله، وقبَّح ما جئتَ به !
- ثم مرَّ بأشراف قريش في دُورهم متحدِّيًا، رجاءَ أن يَخوض أحدُهم معه معركة، ولكنهم جميعًا يتحاشَونه.
- وأخيرًا، لينال قِسطًا من العذاب الذي عانى منه إخوانُه من المستضعفين،

قرَّر أن يَلقى أهلَ الكفر جميعًا وهم مُجتمِعون عند الكعبة ...ولا يكاد يُبلِغهم بإسلامه حتى ثاروا عليه، يَضربونه ويَضربهم، فجاء خالُه وقال : إنِّي أجَرتُ ابنَ أختي، فانكشَف النَّاس عنه، إلَّا أنَّهم ما زالوا يَضرِبون المستضعَفين من المسلمين، فقال لخاله :جِوارك مردودٌ عليك، فقال له : ما شئتَ فافعل، فما زال يَضرِب ويُضرَب حتى أعزَّ الله به الإسلامَ والمسلمين.

وهكذا هدأَتْ حاسَّة العدل عنده، لما أحسَّ بالقِصاص من نفسه.

٣– عمر الفاروق:

لقي رسولُ الله ﷺ عمرَ ﷺ بعدما رأى منه ذلك، فنظر إليه وقال في رِضًا واستبشار« :**الفاروق؛ فقد فَرَّق اللهُ به بين الحقِّ والباطل** » .

وأصبح يُلقَّب "بالفاروق عمر".

أمَّا قريش فقد أصابَتْهم كآبةٌ لم يُصبهم مِثلُها؛ يقول ابن مسعود :"ما زلنا أعزَّةً منذ أسلَم عمر".

وقال أيضًا :"إنَّ إسلام عمر كان فَتْحًا، وهِجرته كانت نصرًا، وإمارتُه كانت رحمة، ولقد كنَّا ما نُصلِّي عند الكعبة حتى أسلَم عمر، فلمَّا أسلم قاتَل قُريشًا حتى صلَّى عند الكعبة وصلَّينا معه".

٤– هجرته ﷺ :

واستمرارًا لهذا النَّهج العُمري الذي لا يَعرف لِينًا ولا هوادة مع أعداء الله، فكان في هجرته شديدًا على الكفَّار، رحيمًا على المؤمنين الضُّعفاء، فكان بحقٍّ كما قال الله تعالى :{مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ} [الفتح: ٢٩].

فلمَّا أَذِن رسولُ الله ﷺ للمسلمين بالهِجرة، كانوا يتسلَّلون خُفْية، إلَّا عمر ﷺ ، لما أراد أن يُهاجِر وقَف أمام المشركين مَوقفًا، أذلَّ فيه أُنوفَهم، وأظهر عَجزهم، وألقى الرُّعبَ في نفوسهم.

فلمَّا هَمَّ بالهجرة تقلَّد سيفَه، ومَضى إلى الكعبةِ والملأُ مِن قريش بفِنائها، فصلَّى ركعتين بعد أن طاف بالبيت سَبعًا، ثمَّ وقف وقال :"شاهَت الوُجوه ! مَن أراد أن تَثكُلَه أمُّه، أو يُيتَّم ولدُه أو تُرمَّل زوجته، فلْيَلقني وراءَ هذا الوادي ...إنِّي مهاجِر"، فلم يَجرؤ أحدٌ مِن قريش أن يَتبعه، ولكن تَبعه زُمرةٌ من المستضعَفين من المسلمين، كان من بينهم أختُه فاطِمة وزوجُها سَعيد بن زيد، وعيَّاش بن أبي ربيعة، وهشامُ بن العاص وغيرهم.

ولقد كان لِعُمر ﷺ في رِحلة هِجرته مَواقِفُ كثيرة تَفيض بالعطف والرَّحمة على مَن تَبِعوه من المستضعَفين، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

عياش بن أبي ربيعة

لما قدم عيَّاشُ بن أبي ربيعة مع عمر ﷺ نزَل بقِباءَ، فقَدِم إليه أبو جَهل والحارثُ؛ وهما إخوةٌ له من الأمِّ، فقالا له :إنَّ أمك قد نذَرَت ألَّا يمَسَّ شَعرَها مشط، ولا تَستظلَّ بشمس حتى تَراك، فرَقَّ لها، فقال له عمر ﷺ: يا عياش، إنَّه والله لا يُريدك القوم إلَّا ليَفتنوك عن دينك فاحذَرْهم، فواللهِ لو آذى أُمَّك القمل لامتشَطَت، ولو اشتدَّ عليها الحرَّ لاستَظلَّت، فأبى عيَّاش إلَّا الخروجَ معهما لِيَبَرَّ قسَم أمِّه، فقال له عمر :أما وقد فعلتَ ما فعَلت، فخذ ناقتي هذه، فإنَّها ناقة نَجيبة ذَلول، فالْزَم ظَهرها، فإن رأيتَ مِن القوم ريبًا فانجُ عليها وعُدْ إلينا.

فخرج معهما، حتى إذا كانوا ببَعض الطَّريق قال له أبو جهل :يا ابن

أمِّي، واللهِ لقد استَغلظتُ بعيري هذا، أفلا تُعقِبُني على ناقتك هذه؟ فقال : بلى، فأناخ وأناخا لِيَتحوَّل عليهما، فلمَّا استوَوْا بالأرض عدَوَا عليه فأوثَقاه وربَطاه، ودخلا به مكَّةَ وقالا :يا أهل مكة، هكذا فافعَلوا بسُفهائكم، كما فعَلْنا بسَفيهنا هذا.

٥- مواقف الفاروق مع رسول الله ﷺ:

وهكذا أصبح الفاروق عمر ﷺ ركنًا هامًّا من أركان الدَّعوة إلى الله، التي يَقودها الحبيب المصطفى ﷺ، فكان سندًا هامًّا، وجنديًّا شجاعًا تحت إمرةِ رسول الله ﷺ.

فقد شهد مع رسول الله ﷺ المشاهدَ كلَّها؛ مِن بَدرٍ إلى تبوك، مُرورًا بأُحدٍ والأحزاب والحُديبية وفتح مكة وحُنين ...

وفي كلِّ هذه المشاهد كان للفاروق دَور هامٌّ وبارِز، وقد يكون محوريًّا في كثير من الأحيان ...

*للاستزادة برجاء الرجوع إلى الجزء الأول من هذا الكتاب؛ "حياة خير الأنام"؛ للمؤلف .

وقد تميَّزت مساهَمات الفاروق ﷺ بالشَّجاعة والإقدام، وسَدادِ الرَّأي، وحُسن البصيرة، والشَّفافية والفِراسة، وكان كثيرًا ما يكون لرأيه أكبرُ الأثَر في دفع مَسيرة الدَّعوة إلى الله.

ثمَّ كانت وفاةُ رسول الله ﷺ، التي زلزَلَتْ جميعَ الصَّحابة، وقد كان أكثرُهم تأثُّرًا الفاروقَ عمر – ﷺ كما أسلفنا .–

ولتبدأ مَرحلة جديدة في الدَّعوة إلى الله ...

٦– مواقفه في خلافة الصدِّيق ﷺ:

ويستمرُّ العطاء العمري بعد وَفاة رسول الله ﷺ، وقد أسلَفنا موقفه ﷺ يوم السَّقيفة، ورفْضَه الخِلافةَ؛ إذ بسَطَ إليه أبو بكر يَمينه ليُبايعه، فقال عمر : بل إيَّاك نُبايِع؛ فأنت أفضلُ القوم، قال أبو بكر :أنت أقوى منِّي.

قال عمر : إنَّ قوَّتي لك مع فَضلِك، فلا أؤمَّر على قوم فيهم أبو بكر . وبايَع أبا بكر، وبايعَه النَّاسُ على أثره.

ولما تولَّى الصدِّيقُ أمرَ الخلافة، كان عمر ﷺ أعظمَ مُشير له، وكان له عونًا وسنَدًا في كلِّ ما واجه خِلافته من تحديات.

ولما كان الصدِّيق في النَّزع الأخير من حياته، لم يرَ غير عمر أهلاً للخِلافة من بعده، فعَهِد له بها، ونِعمَّا فعل الصدِّيق ﷺ .

* * * * * * *

خلافة الفاروق عمر ﷺ

والآن أعزَّائي، أدعوكم لِنَعيش اللَّحظات القادمةَ في كنَف أمير المؤمنين الخليفة "عمر بن الخطاب" ﷺ ، وقد آلَت إليه الخِلافةُ التي ظَلَّ يَهرب منها –لما عهد إليه أبو بكر بها – وقد قَبِلها مُكرَهًا وكارِهًا، ولولا أن يكون باعتذاره عنها في هذا الظَّرف الحرج هروبٌ من واجبٍ سيَسأله الله عنه غدًا، لرفَض السُّلطان وهرب من الإمارة.

فها هو الخليفة عمر بن الخطاب، "عُمر الحاكم" الذي هو حُجَّةُ الله على كلِّ حاكم ...فإذا قال حاكِمٌ ما ساعةَ حسابِه :يا ربِّ، عجَزتُ !قال الله له :ولِماذا لم يَعجز عمر؟!

فإلى كلِّ حاكِم من حُكَّام هذه الأمَّة ...نصيحةٌ متواضعة من عبدٍ فقير، أهمَّه ما آلَت إليه أحوالُ هذه الأمَّة مِن ضَعفٍ وهوان :أنصح كل حاكم أن يَقرأ كلَّ ليلة قبل أن يَأوي إلى فِراشه بعضَ صفحاتٍ مِن سِيرة الفاروق عمر، ﷺ لعلَّ الله يُعلي من شأن هذه الأمَّة، وتعود إلى سابِق عهدها من عِزَّةٍ وكبرياء وتَحضُّر؛ فالعدل في شَرع عمر ﷺ ، هو أساس الحكم ...

فلْنَرَ كيف بدأ الفاروق حكمَه ...

أول خطبة للخليفة عمر بن الخطاب ﷺ

فلنطالِع هذه الخطبة القيِّمة التي استَهلَّ بها الفاروقُ ﷺ ، عهدَ خلافته، ووضَع فيها الدستورَ الذي سيَحكمه، هو ومحكوميه.

فقد بلَغ مِن لين أبي بكر ﷺ ، أنَّ الصِّبيان كانوا إذا رأَوه يَسعون إليه ويقولون :يا أبتِ ..يا أبتِ !فيَمسَح رؤوسَهم.

وبلغ من هَيبة عمر ﷺ، أنَّ الرجال كانوا إذا رأَوه تَفرَّقوا وتَركوا مجالسَهم بالأفنِيَة هَيبة منه.

فلمَّا بلغ ذلك عمر، صاح في الناس :الصَّلاةَ جامعةً، فحضَروا، فجلس على المنبر حيث كان أبو بكر يضَع قدميه، فلمَّا اجتمَعوا قام ووقف على الدَّرجة السُّفلى من المنبر – الدرجة الأدنى من حيث كان يقف أبو بكر ...

أضع خدِّي على الأرض لأهل العفاف

فحَمد اللهَ، وأثنى عليه بما هو أهله، وصلَّى وسلَّم على رسول الله ﷺ، ثمَّ قال :

–"بلَغَني أنَّ النَّاس هابوا شِدَّتي، وخافوا غِلْظَتي، وقالوا :قد كان عمر يشتدُّ ورسولُ الله ﷺ بين أظهرنا، ثمَّ اشتدَّ علينا وأبو بكرٍ وَليُّنا مِن دونه، فكيف وقد صارت الأمورُ إليه؟ ألَا مَن قال ذلك فقد صدَق؛ فإنِّي كنتُ مع رسول الله ﷺ عَونَه وخادِمَه، وكان عليه السلام مَن لا يبلغ أحدٌ صِفتَه من اللِّين والرَّحمة، فكان حقًّا {بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [التوبة: ١٢٨] ، فكنتُ بين يدَيه سيفًا مَسلولاً، حتى يُغْمِدَني أو يدَعني فأَمضي، فلم أزَل مع رسول الله ﷺ على ذلك حتى توفَّاه الله، وهو عنِّي راضٍ.

ثمَّ وَلِي أمرَ المسلمين أبو بكر، فكان مَن لا تُنكِرون دَعتَه وكرَمه ولينه، فكنتُ خادِمَه وعونَه، أخلِط شِدَّتي بلِينه، فأكون سيفًا مسلولاً حتى يُغمِدني فأمضي، فلم أزل معه كذلك حتى قبَضه الله وهو عنِّي راضٍ".

"ثمَّ إنِّي قد وُلِّيت أمرَكم أيُّها الناس، فاعلَموا أنَّ تلك الشِّدَّة قد أُضعِفَت؛ إنَّما تكون على أهل الظُّلم والتعدِّي، فأمَّا أهلُ السَّلامة والدِّين والقصد، فأنا أَلْيَنُ لهم مِن بعضهم لِبَعض، ولستُ أدع أحدًا يَظلِم أحدًا أو يتعدَّى عليه حتى أضَع خدَّه على الأرض، وأضع قدَمي على الخدِّ الآخَر حتى يُذعِن

بالحق، وإنِّي بعد شِدَّتي تلك أضَعُ خَدِّي على الأرض لأهل العَفاف وأهل الكَفاف" .

لكم عليَّ خصال فخذوني بها

"ولكُم عليَّ أيها النَّاس خِصال أَذكُرها لكم، فخُذوني بها:

- لَكُم عليَّ ألَّا أجتبيَ شيئًا مِن خَراجكم، ولا ممَّا أفاء الله عليكم إلَّا مِن وجهه.
- ولكم عليَّ إذا وقع في يدي، لا يخرج مني إلَّا في حقه.
- ولكم عليَّ أن أَزيد عَطاياكم وأرزاقَكم إن شاء الله، وأسُدَّ ثغوركم.
- ولكم عليَّ ألَّا أُلقيكم في المهالك، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى تَرجعوا إليهم".

"فاتَّقوا اللهَ وأعينوني على أنفسكم بكفِّها عنِّي، وأعينوني على نَفسي بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكَر، وإحضاري النَّصيحةَ فيما ولَّاني الله أمركم ."...

الوعد العمري

وبهذه الكلمات الحاسِمة، قطَع عمر ﷺ ، على نَفسه العهدَ والوعدَ، بأنَّ شدَّته قد أُضعِفت ولكنَّها ستكون على أهل الظُّلم والتعدِّي، وأنَّ النَّاس سيَنعمون بالعدل والكَرامة ورغد العيش ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

فلقد كان ورسولُ الله ﷺ حيٌّ سيفًا مسلولاً على كلِّ ما هو باطِل، يَضرِب به رسولُ الله ﷺ ما يَشاء، وهو نَفس السَّيف الذي كان في يد خليفةِ رسول الله ﷺ.

أمَّا اليوم، فقد صار هو السَّيفَ والضاربَ معًا، والمسؤولَ عن كلِّ شيء. وهو لم يَعُدَّ نفسه مَسؤولاً أمام النَّاس، ولا أمام التاريخ، ولا أمام أيِّ شيء من هذه المصطَلَحات ...بل هو مَسؤول أمام الحقِّ المبين، الذي لا تَخفى عليه خافيةٌ في الأرض ولا في السماء ..

* * * * * * * * * * * * *

القواعد العُمَريَّة للحكم

لقد وضَع الفاروقُ عمر ﷺ ، لنفسه قواعدَ للحُكم، وهذه القواعد وإن كانت قد صلَحَت في عهده، إلَّا أنها – كما أسلَفْنا – تَصلح لكلِّ زمان ومكان.

ولقد لخَّصنا هذه القواعد في ثلاثة مَحاور :

- مراقبته لنَفسه، وسياسته مع أهله.
- مسؤوليَّته تجاه النَّاس.
- مسؤوليَّته تجاه ولاته.

أولاً – مُراقبته لنفسه وسياسته مع أهله

مراقبته لنفسه :

كان الفاروق عمر ﷺ ، يرى أنه لا بدَّ أن يبدأ مسؤوليَّته تجاه النَّاس بأن يَبدأ بنفسه وأهله ...

فهو كحاكم، قد حرَم نفسَه، لا من الطيِّبات المشروعة للحاكِمين فحَسْب، بل من الطيِّبات المشروعة للمواطِن العادي، فكان أوَّلَ مَن يَجوع إذا جاعوا، وآخِرَ مَن يَشبع إذا شَبِعوا، فكان يَعيش في أدنى مُستوَيات عيش العامَّة من النَّاس، ويقول :"كيف يَعْنيني شأنُ النَّاس، إذا لم يُصِبْني ما أصابهم".

ففي عام الرَّمادة، وكان عام مَجاعةٍ بالمدينة، أمَر يومًا بنَحْر جَزور وتوزيع لَحمه على أهل المدينة، فقاموا بالتوزيع واستَبْقَوْا لأمير المؤمنين أطيَب أجزاء الذَّبيحة.

فلمَّا رأى عمرُ ﷺ ، هذا على مائدته قال :مِن أين هذا؟ قالوا :من الجَزور الذي ذُبِح اليوم، فقال :"بئس الوالي أنا، إن طَعِمتُ طَيِّبها وتركتُ للناس كراديسَها"؛ أي :عِظامها، ثمَّ أمر خادِمَه أَسْلَمَ وقال :"ارفَعْ هذه الجَفنةَ وأتني بخُبزٍ وزيت".

ولم يَسْلُك سُلوكَه تجاه الأحياء وحدَهم، بل وتجاه الأموات أيضًا، فكان يَرفض أن يَظفَر بنَعيم لم يظفَرْ به إخوانُه الذين سبقوه إلى الله، واستُشهدوا في سبيله قبل أن يُمَكَّن للإسلام والمسلمين.

حين زار الشَّامَ جيءَ له بطَعام طيِّب مختلِفٍ ألوانُه، فرمَقه بعينين باكيتين وقال :"كل هذا لنا، وقد مات إخوانُنا فقراء، لا يَشبعون من خُبز الشَّعير" .

سياسته مع أهله :

١ – ضَعوا عمر وقومه في موضعهم:

ولم يَقتصر هذا النَّهج عليه فحَسْب؛ بل على أهله أيضًا، فلم تَكُن القَرابةُ مِن أمير المؤمنين تَعني الأَثَرة والحَظْوة، إنَّما تَعني العَرَق والشظف.

فحين أفاء الله على المسلمين في عَهده خيرًا كثيرًا، وامتلأ بيتُ المال، أشار عليه نفَرٌ من صحبِه، أن يقوم بإحصاء النَّاس ورَصْد أسمائهم في ديوان؛ حتى يَنالوا جميعًا رواتبَهم السَّنوية في نظامٍ مُحكَم.

فلمَّا جلسوا يُدوِّنون الأسماءَ، بادِئين ببَني هاشِم ثمَّ بآل أبي بكر، ثمَّ بَني عَدي "آل عمر"، فلمَّا طالَع الفاروقُ ﷺ ، هذا الكتابَ ردَّه إليهم وأمَرهم أن يُقدِّموا على آل عمر كَثيرين غيرَهم، اقترح أسماءَهم، وذكر عائلاتهم وقال :"ضَعوا عمر وقومَه في مَوضِعِهم".

وعَلم بَنو عديٍّ بهذا، فذهبوا إليه، راجين أن تَظلَّ أسماؤهم في المقدِّمة كي يَنالوا من المال أكثرَ، وقالوا له :ألسنا أهلَ أميرِ المؤمنين؟ فأجابهم عمرﷺ:"بَخٍ بَخٍ بني عَدي، أرَدتُم الأكلَ على ظهري، وأنْ أهَبَ حسَناتي

لكم؟ !لا واللهِ، لتَأخُذُنَّ مكانكم ولو جئتم آخِرَ النَّاس".

٢– لا وِلاية لِقرابة:

كان أميرُ المؤمنين الفاروقُ عمر ﷺ، يَرفض تمامًا أن يولِّي أحدًا من أقاربه أيَّ مَنصب، وقد رفَض إلحاحَ أصحابه لكي يُولِّي ابنَه عبدَ الله منصبًا من مَناصِب الدولة، وقد كانوا في إلحاحِهم مَدفوعين بحِرصهم الشَّديد على الانتِفاع بمَواهبه النَّادرة، ولكنَّ عمر ﷺ، رفض كما رفَض عند موتِه أن يُرشِّحه للخلافة وقال :"حَسْب آلِ عمر يُحاسَب واحد منهم ...هو عمر"، ولطالما كان يذكر النَّاس ممَّن يلحون عليه ويذكِّروه بما لِعبدِ الله مِن عَدْلٍ وتَقوًى، فيَرُد عليهم :"إنَّ عبد الله ليس هو التَّقيَّ العادل وحده"، فهناك مِن المسلمين نُظَراءُ له في العدل والتقوى، فإنْ هو آثَره عليهم يكون قد حابَى وجامَل.

إنَّ عمر ﷺ، رجلٌ قدوة، فإذا استَعمل اليومَ صالِحِي أهلِه، فأيَّانَ يذهب إذا جاء مِن بعده حُكَّامٌ يُسرِفون في تَوليَةِ أهليهم، ويَقولون :قد فعل هذا عمر؟!

لذلك وضَع مبدأً جليلاً فقال :"من استعمَل رجلاً لمودَّة أو قرابة، لا يَحمله على استِعمالِه إلَّا ذلك، فقد خان اللهَ ورسولَه والمؤمنين" .

فالأمر ليس قَصرًا – كما نقول في أيَّامنا هذه – على أهل الثِّقة والمودَّة، إنَّما هو لأهل الخِبرة والكَفاءة ...

فما أحوجَ الأمَّة إليكَ اليوم يا أمير المؤمنين!

٣– سياسته مع أبنائه :

لم يكن هذا الحَزم وهذه المساوة قَصْرًا على عموم أهله فحَسْب؛ بل كانت على أقرَبِ النَّاس وأعزِّهم عليه، وهم أبناؤه :عبد الله وحفصة.

بَخٍ بخ ...يا ابن أمير المؤمنين

اشترى عبدُ الله بن عمر إبلاً وساقها إلى الحِمَى – مكان تابع للدولة يرعى النَّاسُ فيه إبلَهم بالمجَّان – فلمَّا سَمِنَت قدِم بها إلى السوق لِيَبيعَها، ويَخرج عمرُ إلى السوق في جَولة تفتيشيَّة، فيَرى إبلاً سِمانًا، تمتاز عن بقيَّة الإبل بنُموِّها وامتلائها، فيسأل :لِمن هذه الإبل؟ قالوا :إبل عبد الله بن عمر.

فقال :عبد الله بن عمر؟ !بَخٍ بخٍ يا ابنَ أمير المؤمنين، وأرسل في طَلَبه، فلمَّا أقبل عبد الله سألَه عمر ﷺ : ما هذه الإبل يا عبدَ الله؟ فقال :

إنَّها إبلٌ أنضاء – أي :هَزيلة – اشتريتُها بمالي، وبعَثتُ بها إلى الحِمى، أُتاجر فيها، وأَبتغي ما يَبتغي المسلِمون.

فقال عمر في تَهَكُّم لاذِع :ويقولُ النَّاس حين يرَونها في الحِمى :ارعَوْا إبلَ ابنِ أمير المؤمنين، اسْقُوا إبلَ ابنِ أمير المؤمنين، وهكذا تَسمَنُ إبِلُك ويَربو رِبحُ ابن أمير المؤمنين، ثمَّ صاح :يا عبد الله بن عمر، خُذ رأسَ مالِك الذي دفَعْتَه في هذه الإبل، واجعل الرِّبح في بيت مالِ المسلمين.

إنَّ عبد الله لم يَأتِ أمرًا مُنكرًا، إنَّما استثمَر مالَه الحلالَ في تِجارةٍ حلال، وهو مَن هو؛ بدِينه وأخلاقِه فوقَ كلِّ شُبهة، لكن لأنَّه ابنُ أمير المؤمنين، يَحرمه أميرُ المؤمنين ممَّا هو حق له، مظنَّة أن تكون بُنوَّته لعُمر قد هيَّأَت له مِن الفرص ما لا يتوفَّر لغيره من النَّاس .

أبوه أحَبُّ إلى رسول الله ﷺ من أبيك

كان الفاروقُ في تَوزيع العطايا، يُفضِّل المهاجِرين الأوَّلين، ويُعطي أبناءهم دون ذلك، وفضَّل يومًا أُسامةَ بن زيد على ابنه عبد الله بن عمر، فسأله عبد الله:

– يا أمير المؤمنين، فضَّلتَ عليَّ أُسامةَ بن زيد وهو ليس بأقدَمَ منِّي سِنًّا، ولا أسبَق منِّي هِجرة، ولا شَهِد مِن المشاهد ما لم أشهد؟!

قالها عبدُ الله ليس طمعًا في مال زائل، ولا حبًّا في دُنيا يُصيبها، وإنَّما ليعلم إن كان هناك ضَعف في إيمانه أو تَقصيرٌ منه يَعلمه الفاروقُ وهو لا يَعلمُه، قد ميَّز أسامةَ عنه، فيَردُّ عمرُ ﷺ، عليه قائلاً:

– صدقتَ، ولكنِّي فعلتُ ذلك لأنَّ أسامة كان أحَبَّ إلى رسول الله ﷺ منك، وكان أبوه" زيد بن حارثة "أحبَّ إلى رسولِ الله ﷺ من أبيك.

هكذا كان المعيار عند الفاروق ...السَّبق وليس القرابة.

أقاربي في مالي ...وليس مال المسلمين

ولا عجب إن طال هذا النَّهجُ أمَّ المؤمنين حَفصة بنت عمر ، وصَل إلى المدينة يومًا بعضُ أموال الأقاليم، فذهَبَت إليه ابنتُه أم المؤمنين حَفصة لتأخذ نَصيبَها، وتقول مُداعِبة :يا أميرَ المؤمنين، حقُّ أقاربك في هذا المال؛ فقد أوصى الله بالأقربين، فيُجيبها جادًّا :يا بُنيَّة، حقُّ أقاربي في مالي، أمَّا هذا فمال المسلمين ...ولا حقَّ لي فيه.

وخلاصة القول في سياسته مع أهله هي :

إنَّ عمر ﷺ ، هو حاكِم لا يَدْرأ أهلَه عن أن يَكونوا أهلَ حظوظ ومَزايا فحَسْب، بل إنَّه يَضطرُّهم إلى أن يَعيشوا معه فوق صراطٍ أحَدَّ مِن الشفرة، وأرَقَّ من الشعرة؛ فعمر يَجوع ويتقشَّف في مَطعمه وملبسه، ويَحمل أهلَه معه على ذلك .

فإنَّ القرابة من أمير المؤمنين – كما أسلفنا – لا تَعني الأثَرَة والحَظْوة، إنَّما تَعني العَرَق والشظف.

وقد يضَع البَعضُ هذا السلوكَ من الفاروق ﷺ ، تحت باب الزُّهد والتقشُّف، لكن الحق أنَّ الأمر أبعَدُ وأعمقُ من هذا؛ فمُحرِّكه الرَّئيسُ هو خوفُه من الله، ووفاءٌ لما عاهد اللهَ عليه من مسؤوليَّته تجاه هذه الأمة .

ثانيًا – مسؤوليته تجاه النَّاس

في خِطابه الأوَّل للنَّاس بعد تولِّيه الخِلافة، قطَع عمر على نفسه عهدًا ووعَد فيه بالآتي :

- أنَّه دائمًا في جانِب المظلوم ضدَّ الظالم؛ "أضَعُ خَدَّه على الأرض وأضع قدَمي على الخدِّ الآخر حتى يُذعِن بالحق".
- الرَّخاء والعدل والمساوة :"إذا وقَع في يدي خَراجُكم، لا يخرج منِّي إلَّا في حقِّه، ولكم عليَّ أن أَزيد عَطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله" .

فكان هذا الوعد العُمَري للنَّاس أجمعين، نعم للنَّاس أجمعين، أي :كل رَعاياه، وكل مَن هو تحت إمرَته لا يفرِّقهم لون ولا عرق ولا دين...

أفعال ...لا أقوال

فلم تكن مَقالة عمر ﷺ، مجرَّد كلام يريح به النَّاس، ويعطيهم أحلامًا زائفة، ولكنَّها أفعال وأعمال مَجيدة سجَّلها التاريخ بأحرف من نور ...

ولك عزيزي القارئ بعضٌ من هذه النماذج، وهي بعض قليل من جمع كثير لا يتَّسع المجالُ لذكرها جميعًا:

أتَحمِل عنِّي أوزاري يوم القيامة؟

خرَج عمر ﷺ مع أَسْلَمَ – غلامٍ له – في اللَّيل يتفقَّد أحوالَ النَّاس، فلمَّا كان بأطراف المدينة، رأى نارًا تُوقد، فقال عمرﷺ ، : يا أسلم، إنِّي أرى ها هنا رُكبانًا قَصر بهم الليلُ والبرد، انطلِق بنا، فلمَّا دنَوْا إذا بامرأة معها صِبيان، وقِدْرٍ مَوضوع على النَّار، والصِّبيانُ يتَصايَحون (يبكون)، فقال عمر للمرأة :ما بال هؤلاء الصِّبية يتصايحون؟ قالت :الجوع، قال :وأي شيء في هذا القِدْر؟ قالت :ماء أُسكِتهم به حتى يناموا، واللهُ بينَنا وبين عمر !فقال : يَرحمُكِ الله، وما يُدري عُمرَ بكم؟ فقالت :يتولَّى أمرَنا ثمَّ يَغفُل عنَّا؟ !

فقال عمرُ لأسلم :انطلِق بنا، فأخَذا يُهرولان حتى أتَيا دارَ الدَّقيق، فأخرج عِدْلاً(جِوَالاً) من دَقيق ومقدارًا مِن سَمن، وقال لأسلم : احمِلْه على كتفي، فقال أسلَم :أنا أحمله عنك يا أميرَ المؤمنين ...كرَّرها ثلاثًا وعمرُ ما زال يقول : احمله على كتفي، وبعدَ الثالثة قال له عمر مُغاضِبًا :أتَحمِل عنِّي أوزاري يومَ القيامة؟ !وحمَله عمرُ وانطلقا إلى المرأة .

وهناك أخرَج عُمر من الدَّقيق شيئًا، وجعل يَنفخ تحتَ القِدْر، حتى طَها الطَّعامَ بنفسه، وانتظر حتى طَعِم الأطفالُ وشَبعوا، ولم يزَلْ معهم حتى رأى الصِّبيةَ يَلعبون ويَضحكون ثمَّ ناموا في هدوء.

فلمَّا قام وهمَّ بالانصراف، قالت له المرأة :جزاك الله خيرًا، واللهِ إنَّك أولى بهذا الأمر مِن ابن الخطَّاب، فقال لها :قولي خيرًا، إنَّكِ إذا جئتِ أميرَ المؤمنين، وجَدتِيني هناك إن شاء الله ...

أيُّ طِرازٍ من الحكَّام أنتَ يا أمير المؤمنين؟ !لا يَهدأ لك جَفْن حتى تُطعِم أطفالاً يَبكون جوعًا ...ولا تدَع أحدًا من عُمَّالك يقوم بهذا؛ لا لشيء إلَّا أنَّك تَخاف اللهَ، وتعلم أنه لا يحمل أوزارَك عنك إلَّا أنت.

لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام

وهذه زَهرة أخرى من بُستان الفاروق ﷺ، الغنيِّ بالزُّهور والرَّياحين، التي ما أحوَجَنا إليها اليوم ...

قَدِم إلى المدينة بَعضُ التجَّار، وخيَّموا عند مَشارفها، فاصطَحب أميرُ المؤمنين عبدَ الرحمن بن عوف ليَتفقَّدا أمرَ القافلة، فلمَّا كان الهزيعُ الأخير من الليل، قال عمرُ ﷺ، لعبد الرحمن بن عوف :فلْنُمضِ بقيَّةَ الليل هنا نَحرس ضيوفَنا، وبينما هما جالِسان إذ سَمِع عمر بكاءَ طفل، فمَضى يُسرِع صَوْبَه، فلمَّا اقترب قال لأمِّه :اتَّقي اللهَ وأحسِني لصبيِّك!!

وتكرَّر هذا الأمر عدَّة مرَّات، وفي الأخيرة قال لها :ويحَكِ !إنِّي لأراكِ أمَّ سوء، ما لصَبيِّك لا يقَرُّ (لا يَهدَأ) منذ الليلة؟!

قالت وهي لا تَعرف مَن تُخاطب :يا عبدَ الله، قد برَمتني مِن الليلة، إنِّي أَحمِله على الفِطام فيأبى ...فسألها عمر :ولِم تَحملينه على الفِطام؟

قالت :لأنَّ عُمر لا يَفرِض أي :(لا يُعطي راتبًا) إلَّا للفَطيم.

قال :وكم له مِن العُمر؟ قالت :بِضعةُ أشهر، قال :ويحَكِ لا تعجليه ...

ثمَّ ذهَب ليُصليَ الفَجرَ، وما يَستبينُ النَّاسُ قراءتَه مِن غلَبة البكاء، فلمَّا سلَّم، قال :يا بؤسًا لعمر، كم قتَل من أولاد المسلمين ! ثمَّ أمَر مناديًا يُنادي في المدينة :"لا تُعجِلوا صِبيانكم عن الفطام؛ فإنَّا نَفرض لكلِّ مَولود في الإسلام" !ثمَّ كتَب بهذا إلى جميع وُلاته في الأمصار ...

هذا هو الفاروق الذي هَزَّ مَعاقل كِسرى وقَيصر، يُؤرِّقه بكاءُ طِفل حتى يَشْرَق بالدُّموع وهو يصلِّي بالناس، ثمَّ لا يُعالِج واقعةَ هذه الحالة وحدَها، بل يضَع في التوِّ واللَّحظة قانونًا يَستوعب كلَّ حالاتها المشابهة.

اهتمام بمشاكل النَّاس، وممارسة خارِقة لمسؤوليَّة الحاكم تجاه النَّاس .

أشبعِ النَّاسَ مما تشبع منه

ذات يوم يتلقَّى الفاروق ﷺ، من أحد ولاته" عُتبة بن فَرْقد" وكان واليًا على أذربيجان، هديَّة من الحلوى، فلمَّا وُضِعت بين يدَي عمر ﷺ، سأل الرسولَ الذي جاء بها :ما هذا؟ قال حلوى يَصنعها أهلُ أذربيجان، فذاقها عمر ﷺ، فوجد لها مذاقًا شهيًّا، فعاد يسأل الرسولَ :أوَكلُّ النَّاس هناك يَطعمون هذا؟

قال الرجل :لا، وإنَّما هو طعام الخاصَّة.

فأعاد عمر إغلاقَ الوعاء جيدًا، وقال للرجل :خُذ حِملَك هذا، وارجع به إلى عتبة وقل له :عُمرُ يقول لك :اتَّقِ اللهَ، وأشْبِع النَّاسَ ممَّا تَشبع منه ...

هكذا كان حال الفاروق عمر ﷺ، – كما أسلَفْنا – أوَّل مَن يَجوع إذا جاع قومُه، وآخِرُ مَن يَشبع إذا شَبِعوا .

السياسة الاقتصادية للفاروق ﷺ

ما زِلنا عزيزي القارئ، مع مسؤوليَّة الفاروق ﷺ، تجاه النَّاس ...

فقد كانت مسؤوليَّته تجاه أموال الأمَّة شيئًا يحيِّر العقول، ويبهر الأفئدة.

وفيما يلي ملخَّص للقواعد الاقتصادية التي وضَعها الفاروق، وجعل منها أسلوبًا ومنهاجًا.

١ – الحفاظ على المال العام:

لم يكن غريبًا ولا مستغربًا أن يكون الفاروق ﷺ، الزَّاهِد العابِد الأوَّاب حريصًا كلَّ الحرص على كلِّ درهم من أموال المسلمين .

وها هي بعض الأمثلة على ذلك :

لقد أسرفنا في هذا المال:

يقول عبد الله بن عامر بن ربيعة :صَحِبتُ عمر بن الخطاب من المدينة إلى مكَّة في الحجِّ، ثمَّ رجَعْنا، فما ضُرب له فُسطاط ولا خِباء، ولا كان له بناء يَستظل به؛ إنَّما يُلقي كِساءً على شَجرة فيَستظِلُّ تحته، وسأل عمر : كم أنفَقنا في حَجَّتِنا هذه؟ قالوا :خمسة عشر دينارًا، فقال :لقد أسرَفْنا في هذا المال ...

هكذا كان فاروق الأمَّة، وُضعَتْ تحت عتبة خزائنه أموالُ كِسرى وقَيصر، ثمَّ يخرج إلى الحجِّ وسطَ صحراء مُلتهِبة فلا يُهيِّئ لنفسه من ضرورات الرِّحلة شيئًا؛ يذوق من وقدة الحرِّ، وقيظ الجبال، مثلما تذوَّقه كافَّة النَّاس، وينفِق خلالَ الرِّحلة كلها خمسة عشر دينارًا، ثمَّ يقول :لقد أسرفنا!

راتب أمير المؤمنين:

كان الفاروق ﷺ ، قبل أن يَلي أمرَ المسلمين تاجرًا يكسب عيشَه ورِزقَ أهله من التجارة، فلمَّا تفرَّغ للخِلافة، فرَض لنفسه راتبًا يَعيش به هو وعائلته على مستوى الكفاف، وكان مع الأيام، تَزداد تَبِعاتُه واحتياجاته ونفَقاته، فكان يرفع كلَّما هَبَّ الرَّخاء جميعَ المسلمين، ولكنَّه لم يُفكِّر أن يَزيد نفسَه دِرهمًا ...حتى سَمِع أصحابُه أنَّ أمير المؤمنين يَقترض ليعيش، فاجتمع نفَر منهم، واتَّفقوا أن يحدثوه، ويَطلبوا إليه أن يَزيد في راتبه، لكنَّهم تهيَّبوا لأنَّهم يعرفون ردَّة فعله في هذه المسألة.

فطلبوا من أمِّ المؤمنين حَفصة بنت عُمر أن تستطلع أمر أبيها ...فلمَّا ساقت حَفصةُ له الحديثَ، قال لها :لقد كنتِ زوجةً لرسول الله ﷺ، فماذا

كان يَقتني من الملبس؟ قالت :ثوبين اثنين، قال :فما أطيب طُعمةٍ رأيتِه يأكلها؟ قالت :خُبز شعير طري مثرد بالسمن .

قال :فما أوطَأُ فِراش كان في بيتك؟

قالت :كِساء خشن، كنَّا نبسطه في الصيف، فإذا كان الشِّتاء بسَطْنا نِصفه وتدثَّرنا بنِصفه أي :(كان نِصفه فراشًا ونصفه غطاء).

قال :يا حفصة، إنَّ مَثَلي ومثَل صاحِبَيَّ – رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، – كثلاثة سلَكوا طريقًا، فمضى الأوَّل وقد تزوَّد فبلغ المنزِل، ثمَّ تبعه الآخَر، فسلك طريقَه فأفضى إليه ...ثمَّ الثالث، فإن لزِم طريقَهما ورَضي بزادِهما لحِق بهما، وإن سلَك غيرَ طريقهما لم يجتمِعْ بهما.

لقد أتعبت من سيأتي بعدك:

في يومٍ شديد الحَرِّ، أطَل عثمان بن عفَّان مِن بناية له بالعالية، فرأى رجلاً يَسوق أمامَه بعيرين صَغيرين، والهواء السَّاخِن يغشاه !فقال محدِّثًا نفسه :ما على هذا الرجل لو أقام بالمدينة حتى يُبْرِد؟ ثمَّ قال لخادمه :

انظر مَن هذا؟ فنظر فقال :هذا أمير المؤمنين معمَّمًا بردائه يَسوق بَكْرين أمامه، فأخرج عثمان رأسَه من كوَّة صغيرة متوقيًا سخونةَ الرِّيح ونادى :ما أخرجك هذه السَّاعةَ يا أمير المؤمنين؟ !أجاب عمر :بَكْران من إبل الصَّدقة تخلَّفا عن الحِمَى – المرعى – وخشيتُ أن يَضيعا فيَسألني اللهُ عنهما ...

قال عثمان :يا أميرَ المؤمنين، هلمَّ إلى الظِّلِّ والماء، ونحن نَكفيك هذا الأمر، فقال له عمر :عُد إلى ظِلِّك يا عثمان، ومضى إلى سبيله، والحَرُّ يَكاد يَصهر الصَّخرَ، فقال عثمان :مَن أراد أن يَنظر إلى القويِّ الأمين، فلينظر إلى عمر، ثمَّ استطرد قائلاً :واللهِ لقد أتعَبتَ مَن سيأتي مِن بعدك يا عمر.

٢- الاستثمار الذكي للمال:

لم يكن الفارق عمر ﷺ، يحافِظ على أموال الأمَّة فحَسْب، بل يُعنى بالعمل على تنميتها وزيادة الدَّخل القومي.

وفي هذا السبيل قام بعمل الآتي:

الأرض لِمن يَزرَعها :

كان الفاروق ﷺ، يقاوِم فِكرةَ توزيع الأرض المنتجة على الفاتحين؛ لأن ذلك يُنشِئ طبقةً محتكِرة، وفي نفس الوقت عاجِزةً عن خِدمة الأرض، غير خبيرة بزِراعتها، فكان يَترك الأرضَ تحت أيدي زارِعيها، مكتفيًا بالزَّكاة التي تُدفع لبيت المال، ثمَّ ينال كلُّ فرد من أفراد الأمَّة حظَّه منها.

استصلاح الأراضي :

ليس ذلك فحَسْب؛ بل كان ﷺ ، يشجِّع على إحياء الأرض البُور التي لا صاحِب لها ...والتي قال فيها رسولُ الله ﷺ : «**مَن أَحيا أرضًا ميتةً فهي له**»، فكان يَسُنُّ القوانينَ التي بموجبها يُعطي الأرضَ لِمن يضَعون أيديَهم عليها؛ لاستِصْلاحها وزراعتِها، ويَمنحُهم فرصةً مدَّتها ثلاث سنوات، فإن رأى أنَّهم يُهمِلون استِصلاحها وزِراعتها، يأخذها منهم، ويُعطيها لغيرهم ممَّن يَقدر على إحياء الأرض، وتحويلها إلى حَقلٍ أو بُستان أو مَرعًى؛ ولذلك اهتمَّ بشقِّ القنوات المائيَّة؛ ليَزيد من رُقعة الأراضي الزراعيَّة، ولِيَنعم النَّاس بخيراتها.

الاهتمام بالثروة الحيوانيَّة :

كان الفاروق ﷺ ، يُعنَى بالثَّروة الحيوانية، فيُخصِّص للماشية مَرعًى خصبًا رَحيبًا – الحِمى – لِيَرعى النَّاسُ فيه ماشيتَهم بغير مقابل، وكثيرًا ما كان يَخرج منتصفَ النَّهار، واضعًا ثوبَه فوقَ رأسه لِيَقيَه من حرارة الشَّمس، قاصدًا أرضَ الحِمى ليتَفقَّدها ويُحذر العامِلين بها من أن يَسمَحوا لأحد أن يَعضُد شيئًا من شجَرها، أو يضرب فيها بفأس.

٣– سِياستُه في الخَراج

كان الفاروق ﷺ ، يأمر عمَّاله أن يتقاضَوُا الزكاةَ والخَراج في رِفقٍ وعَدل ورحمة ...

حُمل إليه يومًا مالٌ وَفير من أحد الأقاليم، فسأل عن مَصدره وعن سرِّ وفْرَته، فلمَّا علم أنه من الزَّكاة التي يَدفَعها المسلمون، والجِزيةِ التي يَدفعها أهلُ الكتاب، قال :إنِّي لأظنكم أهلَكتُم النَّاس، قالوا :لا واللهِ ما أخَذنا إلَّا صفوًا عفوًا، قال :بلا سواط ولا نواط؟ قالوا :نعم، قال : الحمد لله الذي لم يَجعل ذلك عليَّ ولا في سلطاني.

٤– الثروة في خدمة الإنسان:

ونحن نتحدَّث عن الثروة وعن الدَّخل القومي أيَّامَ عمر ﷺ ، فإنَّنا لا نتحدَّث عن أموال شَحيحة ومَوارِدَ ضحْلةٍ، فإنَّ عمر لم يَمُت إلَّا وهو يحرِّك يديه القويَّتين الأمينتين في أضخم الدُّخول يومئذ، بعد أن آلَت إلى الإسلام مُعظمُ ممتلَكات الرُّوم والفُرس، وقد انعكس هذا الثراءُ على دَخْل الفرد، فكان هناك لكلِّ فرد راتِب سنَوي يكفيه، في كلِّ أقطار الدولة الإسلاميَّة، فكان دَخْل الفرد بين ألفٍ وخَمسِمائة، وألفَي دينار، ولكلِّ مولود أكثرُ مِن مائةٍ كلَّ شهر ذَكَرًا كان أو أنثى.

وكان ﷺ ، يأمر أن تُقسَم خيراتُ كلِّ بلد على أهلِها أولاً، فإن بلَغوا كفايتَهم، رُفع إلى عاصِمة الدولة نَصيبُها، وكان ﷺ، يُنزِل غضَبَه الشَّديد على كلِّ والٍ حرَم أهلَ ولايته لكي يَرفع إلى المدينة خراجًا كثيرًا، يظنُّ أنَّه يَكسِب رِضا أمير المؤمنين.

فالثَّروة عند عمر في خِدمة الإنسان، وليس الإنسان في خِدمة الثَّروة ...

الرخاء والعدل والأمن للجميع

ما زِلنا عزيزي القارئ مع المحور الثَّاني من القواعد العُمَرية في الحكم : "مسؤوليَّته تجاه النَّاس".

لم يكن الاستِمتاعُ بهذا الرَّخاء والأمن والعدل قصرًا على دِينٍ دون باقي الأديان، ولا لونٍ دون غيره، ولا عِرق دون سواه، إنَّما كان الخيرُ للجميع؛ مسلِمين وغير مسلمين، رجالٍ ونساء، صغارٍ وكبار .

وهاك بعض الشواهد على ذلك :

أخَذناها منك في شبابك، نردها في شيبتك:

رأى الفاروق ﷺ ، شيخًا ضريرًا، يسأل على باب، فلمَّا علم أنَّه يَهودي، قال له :ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال :أُسأل الجِزيةَ والحاجَةَ والسِّنَّ، فأخذ بيَدِه وذهب به إلى منزله، فأعطاه ما يَكفيه ساعتَها، وقال له : أخَذناها منك في شبابك، نَردُّها في شيبتك، ثمَّ أرسَل إلى خازِن بيت المال وقال له :انظر إلى هذا ونُظرائه، فواللهِ ما أنصَفْناه؛ أكَلنا شبيبتَه (شبابه) ثمَّ نَخذُله عند الهِرَم !ولم يَكتفِ بذلك فحَسْب؛ بل أرسل إلى كلِّ الأمصار : أن يُعفى من (الجزية) كلُّ مَن عليه دَين يَستغرِق مالَه، وكلُّ مَن عجَز عن

دفعها؛ فبالرغم من أنَّ الجزيةَ كانتْ تُؤخَذ منهم عن يدٍ وهم صاغِرون، فإنَّ عُمرَ رأى ألا يؤدِّيَها إلا مَن يَقدر عليها.

اضرب ابنَ الأكرمين:

سابَق ابنٌ لعَمرِو بن العاص "والي مصر" رجلاً قبطيًّا، فسَبَق القبطيُّ ابنَ رئيس الدولة، فرفع ابنُ عمرٍو يدَه ولطَم القِبطيَّ، وقال له :أتَسبِقني وأنا ابنُ الأكرَمين؟

فما كان من القِبطي إلَّا أن أتى أميرَ المؤمنين في المدينة، وهو يعلم عِلمَ اليقين، أنَّه ما قطَع هذه المسافاتِ ولا تَحمَّل ما تحمَّل من وَعْثاء السَّفر، إلَّا لأنَّه يَعلم أنَّه لن يجد إلَّا العدلَ والإنصافَ هناك.

فلمَّا شكا لأمير المؤمنين ما حدث، أرسل الفاروقُ ﷺ، إلى والي مِصر أن يَحضُر هو وولدُه، فلمَّا حضَرا، بدأ مَجلس الحكم، ولما تيقَّن أميرُ المؤمنين من صحَّة الشكوى، قال للقبطي :خُذ هذه العَصا واضرِب بها ابنَ الأكرَمين، فرفع القبطيُّ العصا وضرَب ابنَ والي مصر حتى أثخَنه، فقال عمرُ :أدِرْها على صلعة عَمرو؛ فواللهِ ما ضربك إلَّا بسلطان أبيه.

قال القبطي :يا أميرَ المؤمنين، قد استوفيتُ، وضربتُ مَن ضربني.

ثم اتَّجه الفاروقُ ﷺ ، إلى عَمرِو بن العاص، وقال كلمةً وَعاها التاريخ، وما زال يُردِّدها القاصي والدَّاني حتى يومِنا هذا، قال :"متى استَعبدتُم النَّاسَ وقد ولدَتْهم أمَّهاتُهم أحرارًا؟."!

هكذا كان منظور الفاروق ﷺ ، لما نسمِّيه في أيامنا هذه "المواطَنة"، فكان النَّاس في الوطن الواحد، كلُّهم سواء في الحقوق والواجبات، لا يفرِّقهم دِينٌ ولا لَونٌ ولا عرق ...

أكرِّرها ولا أمَلُّ من تَكرارها :ما أحوجَنا إليكَ وإلى نَهجك القويمِ في هذه الأيام ...يا أمير المؤمنين.

مسؤوليَّته تجاه كل كائن حي تحت إمرته:

لم يَقتصِر اهتِمامُ الفاروق ﷺ، على الإنسان فحَسْب؛ بل كان على كلِّ كائن حي تحت إمرتِه، إنسانًا كان أو حيوانًا أو نباتًا ...

لذلك قام بإصلاح الطُّرق وتَمهيدها، وكان يقول :"لو أنَّ دابَّة عثرت في شطِّ الفرات لخشيتُ أن أُسأل عنها" .

ليس هذا فحسب، بل يراعي حقوقَ الحيوان؛ فقد روي أنَّه رأى رجلاً يُحمِّل جملَه ما لا يُطيق، فنَهَره وزجَره.

وكان يُدخل يدَه في جرح البعير ليُداويه ويقول : إنِّي خائف أن أُسأل عمَّا بك.

ثالثًا – مسؤوليته تجاه وُلاته

والآن عزيزي القارئ، ننتقل إلى المحور الثالث من القواعد العُمَرية في الحكم ...وهو مسؤوليَّته ﷺ ، تجاه الوُلاة والعُمَّال الذين يتولَّون أمورَ النَّاس في البِلاد البعيدة والقريبة، فكان لأمير المؤمنين ﷺ ، أُسلوبه ومنهاجه في تعامله ومباشرة مسؤولياته تجاه عمَّاله ...

نلخصها فيما يلي :

١ – الشروط العمرية لاختيار الولاة:

كان الفاروق ﷺ ، يختار وُلاتَه في حِرص شديد، حِرص مَن يَختار مصيرَه؛ فإنَّه يَعدُّ نفسه مسؤولاً عن كلِّ خَطأ يَرتكبه أحدُ وُلاته، عَلِم به أم لم يعلم، ومِن ثمَّ فهو يُعمِل فكره، ويَستخير ربَّه، ويستشير صَحْبَه، ويستأني

ثمَّ يستأني قبل أن يَختار عاملَه.

كان يقول لأصحابه : أرأَيتُم إن استَعملتُ عليكم خيرَ مَن أعلم، ثمَّ أمَرتُه بالعدل، أيُبرِئ ذلك ذمَّتي؟

قالوا :نعم، فيقول :كلَّا ...حتى أنظر في عمله، أعَمِل بما أمَرتُه، أم لا؟ ويقول :"أيُّما عامِلٍ لي ظلَم أحدًا، وبلَّغَني مَظلمتَه ولم أُغيِّرها، فقد ظلمتُه".

إنَّ عمر رضي الله عنه ، يريد مِن وُلاته أن يُباشِروا مسؤولياتهم على نَفس المستوى الذي يباشِر فيه مسؤولياته ...

لذلك كان يَشترط في ولاته الآتي :

الشرط الأول :

ألَّا يكون راغبًا في المنصب، طامحًا إليه، وكان يرفض كلَّ مَن يسعى إلى مَنصب أو يَطلبه، وكان في ذلك يقتدي برسول الله ﷺ في قوله : «**إنَّا واللهِ لا نولِّي هذا الأمرَ أحدًا يَسأله أو يَحرِص عليه**»، فالذين يَطلُبون أن يكونوا حُكَّامًا ووُلاة، لا يُقدِّرون مسؤوليَّةَ الحكم تمامًا، وإلَّا هربوا منه وزهدوا فيه.

الشرط الثاني :

أن يكون ممَّن يَنطبِق عليهم وصفُ "القوي الأمين"، فكان لا يَكاد يختار الواليَ، حتى يأخذ بيَده ويُبلِّغَه "خطاب التكليف"؛ كما نقول هذه الأيام، وما به من أوامِرَ ونَواهٍ.

أما الأوامر فيقول له :

- تُقيم فيهم الصَّلاةَ.
- تَقسِم بينهم بالعدل.

- تحكم بينهم بالعدل.

أمَّا النَّواهي فيقول له :

- لا تركب دابَّة مهطمة.
- لا تلبس ثوبًا رقيقًا.
- لا تأكل طعامًا رافهًا.
- لا تُغلق بابَك دون حوائج النَّاس.

فإنَّه ﷺ ، يَنهى عمَّاله عن هذه الطيِّبات المباحة؛ ليَعيشوا دائمًا على مستوى الفرد الكادِح الفقير، ويَكونوا خُدَّامًا للناس، لا سادةً عليهم؛ فهو لا يُريد لهم أن يُفتَنوا، أو يُترَفوا، أو يَنالوا باسْم الحكم أيَّ امتياز.

الشرط الثالث :

أن يكون صاحِبَ خُلُق وتواضُع؛ فالفاروق ﷺ ، لا يريد لوُلاته أن يفقدوا وَجاهتَهم، ولكنَّه يُريد الوجاهةَ المشروعة، التي لا بَغيَ فيها ولا غُرور؛ فهو يريدهم أن يتفوَّقوا على النَّاس بأناقةِ النَّفس، لا بأناقة اللباس .

وقد لخَّص هذه المواصفات في قوله :"أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميرَهم، بدا وكأنه أميرُهم ...وإذا كان فيهم وهو أميرُهم، بدا وكأنه واحدٌ منهم".

فهذا ما يريده الفاروقُ ﷺ ، أُمراء في أخلاقهم وتواضُعهم، وليس في تبذُّخهم وعُلوِّهم ...أمراء يشارِكون النَّاسَ، ولا يتميَّزون عليهم بغير العمل الصَّالح والجهد المبذول.

٢– المراقبة العُمَرية للولاة :

ولا تَقف مسؤوليَّة عمر ﷺ، عن وُلاته عند حُسن اختيارهم وتوجيههم فحَسْب، بل تنهض إلى أن يَجعل الواليَ تحت رقابة دائمة ومستمرَّة ..رقابة مزدوجة؛ مِن الفاروق ومن مَحكوميه (عموم الشعب).

وفي سبيل ذلك كان يقوم بعمل الآتي :

- يَدعو كلَّ وُلاة الأمصار في مَوسم الحجِّ من كل عام؛ ليَعرف منهم أحوالَ الرعيَّة .وكذلك يستمع من النَّاس رأيهم في ولاتهم، وإن كان هناك شكوى أو تقصيرٌ من أيٍّ منهم، وكان يقف فيهم خطيبًا ويقول :

–"أيُّها النَّاس، إنِّي واللهِ لا أبعث عمَّالي إليكم ليَضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالَكم، ولكن أبعثهم إليكم ليُعلِّموكم دينكم وسنَّةَ نبيكم، فمَن فُعل به سوى ذلك، فليرفَعْه إليَّ، فوالَّذي نفسي بيده لَأمكِّننَّه من القِصاص".

- يُحقِّق بنفسه وعلى الفور في كلِّ شكوى يشكوها مواطن من حاكِم، وأن يتتبع في يقَظة تامَّة سلوك وُلاته في كلِّ الأمصار.

وها هي بعض الشواهد على ذلك :

* يسأل وفْدًا من أهل حِمص عن واليهم "عبد الله بن قرط" فيقولون : خير أمير، لولا أنَّه بنى لنفسه عُلِّيَّة (بناء عاليًا) يكون فيها.

يقول عمر :عُليَّة !يتشامخ بها على النَّاس؟!

ثم يرسل إليه رسولاً، ويقول له :ابدأ بعُليَّتِه فأحرق بابَها، ثمَّ ائتِ به إليَّ.

فلمَّا قدم الرسولُ جمع حَطبًا وأحرق البابَ، كما أمره الخليفة، فذهب النَّاسُ إلى الأمير يقولون : إن ها هنا رجلاً يحرق باب دارك !فقال دَعوه؛ فإنَّه رسول أمير المؤمنين، ثمَّ دخل عليه فناوله كتابَ أمير المؤمنين، فلم يضَعِ الكتاب من يده، حتى ركب قاصدًا المدينة، فلمَّا رآه عمرُ امتنع عن لقائه

ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع يَستقبله، ويختار للقائه مكانَ "الحَرَّة" حيث تعيش إبل الصَّدقة وأغنامُها ...

وهناك يأمره عمرُ أن يخلع حُلَّتَه ويلبس مكانها لِباسَ الرُّعاة، ثمَّ ناوله دَلوًا وقال له :"اسقِ هذه الإبلَ وارعَها يا عبدَ الله"، ثمَّ تركه، وبعد حينٍ استَدعاه، قال له :"يا بن قرط، متى كان عهدُك بالإمارة؟"، قال :مَليًّا أي (زمانًا) يا أميرَ المؤمنين، قال :"فلهذا بنَيتَ العُلِّية، وأشرَفتَ بها على النَّاس، ومنهم الأرملةُ واليتيم؟!"، ارجع إلى عمَلِك، ولا تَعُد لما فعلتَ أبدًا .

هذا مَوقف الفاروق ﷺ ، مِن رجل شَهِد له قومه بأنَّه خير أمير، وقد ميَّز نفسه بدارٍ عالية ..ولا تعليق لنا !

* وقد أسلَفنا نبَأَه مع حاكِم مِصر وفاتحِها "عمرو بن العاص"، وقصَّته مع القبطي الذي ضربه ابنُه ...ثمَّ ذهب إلى المدينة ليَشتكيَ من ابن الوالي، وكيف أنَّ عمرﷺ حقَّق في الأمر وأعطى كلَّ ذي حق حقَّه ...

وهناك من الأمثلة الكثير والكثير مما لا يتَّسع المجال لذكرها جميعًا.

٣– الثَّواب والعِقاب :

فقد كان الفاروق ﷺ ، يَتبع في منهجه مع ولاته سياسةَ الثَّواب والعِقاب ...

فكما كانت مواقفه صارِمة وحازمة مع كلِّ مَن يُخطئ من ولاته، إلَّا أنه كان يذوب حنانًا وغِبطة، حين يَثبُت أنَّ أحدًا من الولاة بريءٌ مما نُسب إليه، أو عمل عملاً محمودًا.

- ذات يوم تلقى شكوى ضد أحد ولاته "سعيد بن عامر الجمحي" تتضمَّن ثلاثة مآخِذ عليه :

أولها : أنَّه لا يخرج إلى النَّاس حتى يتَعالى النهار.

ثانيها : أنَّه لا يجيب أحدًا بالليل.

ثالثها : أنَّه يغيب عن النَّاس كلَّ شهر يومًا، لا يَرى أحدًا، ولا أحد يراه.

فاستدعاه عمر رضي الله عنه ، وسأله عن هذه الشكاوى، فكان ردُّه كالآتي :

أما عن الأولى : (أنَّه لا يَخرج إلى النَّاس حتى يَتعالى النَّهار)، فقال: واللهِ يا أمير المؤمنين، ليس لأهلي خادِم، فأنا أَعجن معهم عَجيني، ثمَّ أجلس حتى يَختمِر، ثمَّ أخبز خبزي، ثمَّ أتوضَّأ وأخرج إليهم.

أمَّا عن الثانية : (أنه لا يجيب أحدًا بالليل) ، فقال :واللهِ إنِّي جعلتُ النَّهارَ كله لهم، وجعلتُ الليلَ لله عزَّ وجلَّ.

أمَّا عن الثالثة: (أنَّه يغيب عن النَّاس كلَّ شهر يومًا، لا يراه أحد)، فقال :ليس لي خادم يَغسل ثيابي، ففي هذا اليوم أغسِلُها وأنتظرها حتى تَجِف، ثمَّ أخرج إليهم آخر النَّهار.

فقال عمر : رضي الله عنه الحمد لله الذي لم يُخيِّب فِراستي.

- أرسل أميرُ المؤمنين "عُميرَ بن سعيد" واليًا على حِمص، فمكَث هناك عامًا، لا يُرسِل خراجَها ولا يصِل منه أيُّ أنباء، فأرسل عمرُ إليه يَستدعيه، فوصل إلى المدينة، وقد ظهر عليه الجهد والإعياء من طول السفر .

فسأله عمر، وقد آلَمه ما رآه عليه من جهد وإعياء :ما شأنك يا عمير؟

قال :ألست تراني صحيحَ البدن، طاهر الدَّم، معي الدُّنيا أجرها بقرنيها؟

قال عمر :أجئتَ ماشيًا؟

قال :نعم.

قال عمر :ألم تجِد من يتبرَّع لك بدابة تركبها؟

قال :إنَّهم لم يفعلوا، وإنِّي لم أسألهم.

قال عمر :فماذا فعلتَ فيما عهدناه إليك؟

قال :أتيتُ البلدَ الذي بعثتَني إليه، فجمَعتُ صُلَحاء أهله، وولَّيتهم جِبايةَ فَيئِهم وأموالِهم، حتى إذا جمَعوها، وضَعتُها في مواضعها، ولو بقي منها شيءٌ لأتيتك به ...

قال عمر :فما جئتني بشيء؟

قال :لا.

قال عمر :جَدِّدوا لعُمير عهدًا.

هكذا تحمَّل الفاروق ﷺ مسؤوليَّتَه تجاه وُلاته؛ في اختيارهم، ومراقبتهم، قدر مراقبته لنفسه؛ فإنَّهم المرآة التي تعكس منهجَه وأسلوبَه في الحكم.

فكان هذا عزيزي القارئ هو المنهاجَ العمري للحُكم، وما به من قواعد حقَّقت الأمنَ والعدلَ والرَّخاء للنَّاس أجمعين ...

الإنجازات العمريَّة

كان من الطَّبيعي، بل مِن المحتَّم بعد إرساء هذه القواعد العمريَّة للحكم، أن تكون هناك إنجازاتٌ عظيمة، وصَفها البعضُ بالتاريخية، ووصَفها آخرون بالمعجزة؛ فقد أسَّس الفاروق ﷺ الدولةَ الإسلاميَّة بمفهومها العصري، وبكلِّ أركانها وآليَّاتها، هذه الدولة التي امتدَّت أطرافُها في عصره شرقًا وغربًا ...

وقد لخَّصنا الإنجازات العمريَّة في قسمين :

- **إنجازات خارجية (الفتوحات)** .
- **إنجازات داخلية (تأسيس الدولة)**.

الفتوحات العمريَّة

ما إن تولَّى الفاروق عمر ﷺ خلافتَه للمسلمين حتى واجَه تحدِّياتٍ عظيمةً من القوَّتين العُظميَين في ذلك الوقت، وهما :مملكة الفرس، ومملكة الروم .

أمر مملكة الفرس في عصر الفاروق ﷺ

الخِلافات تهدِّد مملكةَ الفُرس:

انشغل الفُرس عن المسلمين باختلافاتهم الدَّاخلية، بعد ما لاقوه من هزائم على يد المسلمين في عهد أبي بكر ﷺ، واختلفوا على مَن يلي مُلكهم، ثمَّ اتَّفقوا أخيرًا على ولاية بوران بنت كِسرى، وأن يقوم بأمرها رستم، حتى يَجدوا رجلاً من بيت كِسرى يصلح للمُلك.

ولما تولَّى رستم، جهَّز الجيوشَ لقِتال المسلمين، إلَّا أنَّه لاقى هزائمَ متلاحِقة على أيدي المسلمين، حتى صار السَّواد الأعظم من العراق للمسلمين، وهو ما زاد الشُّقَّة والخِلاف بينهم، وانقسموا إلى قسمين :قسم يريد رستم، وآخر يريد الفيرزان، وهو ما زاد من ضَعف الفُرس، وساعد على مزيد من الانتصارات للمسلمين .

ورأى الفُرس أنَّ مُلكَهم آخِذٌ في الاضمِحلال، ثمَّ الزَّوالِ إذا لم يتَلافَوُا الأمرَ ويسعَوْا إلى إزالة الاختلافات بينهم.

تتويج يَزْدَجرد، واستِنفار الفُرس ضد المسلمين :

اجتمع كُبراء الفُرس عند رستم والفيرزان وقالوا لهما :إنَّه لم يساعد

المسلمين، ويُكسِبهم الظفرَ علينا إلَّا تفرُّقُكم وتَخاذُلكم، فعَليكم أن تَحسِموا أمرَ هذا الصِّراع، وإلَّا ضاع مُلك الفُرس.

وانتهى الأميران إلى هذا القول، وبحثًا عن رجلٍ من آل كِسرى يَصلح لولاية الملك، فوجَدا ابنًا لكسرى يسمَّى يزدجرد، فتوَّجاه مَلِكًا.

وبدأ يزدجرد عهدَه بتجهيز جيوش جرَّارة؛ لحماية ثُغور البلاد، واستِرْداد ما فُقد منها، ليس ذلك فحَسْب، بل هدَّد بالوصول إلى المدينة – عاصِمة الدَّولة الإسلاميَّة – ونجَح في تجييش أكثرَ من ١٠٠ ألف جنديٍّ لهذا الغرض.

والله لأضربنَّ ملوكَ العجم بملوك العرب :

وكان هذا هو التحدِّيَ الأكبر الذي واجَهه الفاروق ﷺ في أوَّل عهده .

فلمَّا عَلِم بأمر هذه الجيوش وتلك الحشود قال :"واللهِ لأَضرِبنَّ ملوكَ العَجَم بملوك العرب"، وكتب إلى المثنَّى بن حارثة "أمير جيوش العراق" .

وأمره بالانسِحاب من أرضِ العجَم حتى تَجتمِع الجيوش، فأنزل المثنَّى جيشَه على حدود بلاد الفُرس في انتظار الغيث.

استنفار في صفوف المسلمين

وكتب عمر إلى عمَّاله أن يَبعثوا كلَّ مَن له نَجْدة أو فرَس أو سِلاح أو رَأْي، وخرَج إلى الحجِّ (سنة ١٣ هجرية)، ولما رجَع وجد أفواجًا قد أتَتْ إلى المدينة، ومَن كان أقربَ إلى العراق انضمَّ إلى المثنَّى.

هل يقود عمر الجيوش أم لا؟

فلمَّا اجتمَع عند عُمر جيشٌ عظيم، خرَج بهم من المدينة، واستَخلف عليها عليَّ بن أبي طالب، ونزل بضِرار – موقِعٍ قُربَ المدينة – فعَسكر به

والمسلمون لا يَعلَمون قصدَه، فسأله عثمانُ بن عفَّان عن حرَكتِه، فأعلمَهم بأنَّه سيتوجَّه إلى العراق، واستشارهم، أيُقيم ويولِّي قيادةَ الجيش لغيره؟ أم يقود الجيشَ بنفسه؟ فأشار أصحابُه بالمقام وتوليةِ رجلٍ من أهل الشَّهامة والنجدة أميرًا على الجيش.

قيادة سعد بن أبي وقَّاص ووصية الفاروق

وانتَخب الفاروقُ ﷺ لقيادة هذا الجيش العظيم سعدَ بن أبي وقَّاص – خالَ رسول الله ﷺ – فولَّاه ووصَّاه :

وصايا الخليفة الإمام :

وكان فيما قاله وصيَّةً له ولجنوده :

- "يا سعد ابنَ أمِّ سعد، لا يغُرَّنَّك مِن الله أن يُقال :خالُ رسول الله ﷺ، وصاحبُ رسول الله ﷺ؛ فإنَّ الله لا يَمحو السيِّئ بالسيِّئ، ولكنه يَمحو السيِّئَ بالحسَن، وليس بين الله وبين أحدٍ أنسابٌ إلَّا بطاعته، فانظر إلى الأمر الذي رأيتَ رسولَ الله ﷺ يَلزمُه فالْزَمْه".
- "فإنِّي آمُرُك ومَن معك من الأجناد بتقوى الله على كلِّ حال؛ فإن تقوى الله أفضل العُدَّة على العدوِّ".
- "وآمُرُك ومَن معك أن تَكونوا أشدَّ احتراسًا منكم مِن عدوِّكم؛ فإن ذنوب الجيش أخوَفُ عليهم من عدوِّهم".
- "إنَّما ينتصر المسلمون بمَعصية عدوِّهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوَّة؛ لأنَّ عددَنا ليس كعددهم، وعُدَّتنا ليست كعدتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، فإن لم ننتصر عليهم بفضلنا أي :(بتقوى اللهِ والقرب منه)، لم نَغلِبْهم بقوَّتنا".

- "اسْتَحيوا من الله، لا تَعملوا بالمعاصي وأنتم في سبيل الله، واسألوا اللهَ العونَ على أنفسكم، كما تَسألونه النَّصر على عدوِّكم".

وصايا الخليفة القائد :

- انتهى الفاروق ﷺ من وصاياه كإمامٍ للمسلمين، عليه نُصحهم وإرشادهم، ثمَّ بدأ وصاياه كقائد عَسكري، فكانت أوامره العسكرية :
- "ترفَّقْ بالمسلمين في سَيرهم، حتى يَبلُغوا عدوَّهم والسَّفر لم ينقص من قوتهم".
- "أقِم بمن مَعك في كلِّ جمعة أي : (كل أسبوع) يومًا وليلة حتى تكون لهم راحة، يُحْيُون فيها أنفسهم، ويَرمون سلاحَهم وأمتعتهم".
- "نحِّ منازلهم أي : (أبعِدْ معسكراتهم) عن أهل الصُّلح والذمَّة، حتى لا يُؤذي أحدًا من أهلها؛ فإنَّ لهم حُرمةً وذِمَّة".
- إذا وطئتَ أرضَ العدو :

-"تكن لك عيونٌ عليهم؛ لا يَخْفَ عليك أمرُهم"؛ (ما نسميه الآن مخابرات عسكرية).

-"أكثِرْ مِن الطلائع (كتائب استِطلاع)، وثبِّت السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا إمدادهم".

-"اختَرْ للطَّلائع أهلَ البأس والرأي من أصحابك".

- إذا عايَنْتَ العدوَّ، فاضمُم إليك أقاصيَك وطلائعَك وسراياك، ثمَّ لا تُعاجِلْهم بالمناحَرة، حتى تُبصِرَ عَورة عدوِّك ومَقاتِلَه، وتعرف الأرضَ كلَّها كمعرفة أهلها".

-"واللهُ وليُّ أمركم، ووليُّ النَّصر لكم على عدوِّكم، والله الْمُستعان" .

الدروس المستفادة من وصايا الفاروق ﷺ لسعد بن أبي وقَّاص :

ولنا مع هذه الوصايا العمريَّة العظيمة والعميقة وَقفةٌ ونَظرة؛ فما أحوجَنا هذه الأيام لتدبُّرها.

ولقد استخلصنا منها ما يلي :

أولاً : أنَّ مفتاح النَّصر والتفوُّق هو تقوى الله والخوف منه وتجنُّب معاصيه، وقد لاحَظْنا أنَّ في جميع المنازَلات التي جرَت بين المسلمين والمشركين بدايةً من بدر وحتى عصرِ الخُلفاء الراشدين، وما تلاه في القرون الأولى للإسلام، كانت نِسبة المسلمين إلى أعدائهم في أفضلِ الأحوال ١:٣، وكانت تصل إلى ١:٢٠ ، أو تزيد في كثيرٍ من الأحيان، وكان النَّصر دائمًا للمسلمين ...ترى لماذا؟

لأنَّ "تَقوى الله كانت هي أفضَلَ العُدَّة على العدوِّ"؛ كما قال أمير المؤمنينﷺ ، وكان المسلمون آنذاك يؤمنون بذلك ويعملون به.

ثانيًا :مع هذه التَّقوى، وهذا القُرب من الله هناك دائمًا إعداد جيِّد ودَقيق، وقد لاحَظنا ذلك من وصاياه ﷺ لسَعد بن أبي وقَّاص :كيف يتعامل مع جنوده، وكيف يتصرَّف مع العدوِّ قبل أن يلقاه (استخبارات وخلافه)...، ثمَّ كيف يكون اللِّقاء والمناحرة .

والاستعداد هنا يكون على قدر الاستطاعة، وعلى قدر ما هو مُتاح، لا على قدر قوَّة العدو وإمكانيَّاته – التي قد تكون أكبرَ بكثير من قوَّتنا – عملاً بقوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ} [الأنفال: ٦٠].

وبهذين العامِلَين :تقوى الله أوَّلاً، ثمَّ الإعداد الجيد، والأخذ بكلِّ ما هو مُتاح من أسباب ثانيًا – يكون دائمًا النَّصر والفتح .

ثالثًا : إذا نظرنا إلى ما آلَت إليه أوضاعُ الأمَّة هذه الأيَّامَ من ضعف وهَوان، نجد أنَّ تفسيرها يَكمُن في مقولة أمير المؤمنين ﷺ :

-"عَدَدُنا ليس كعدَدهم، وعدَّتنا ليست كعُدَّتهم، فإذا استوينا في المعصية كان لهم الفَضل علينا في القوة" .

فالأمر ببَساطة شديدة أنَّنا هذه الأيام لم نتَساوَ في المعاصي مع عدوِّنا فحَسْب، بل تفوَّقْنا عليه في ارتكاب المعاصي والبُعد عن الله، فكان من الطَّبيعي أن تكون لهم الغلَبة بقوَّتهم التي تَفوق قوَّتنا .

ليس ذلك فحسب؛ بل إنَّنا لم نَعُدَّ العدَّةَ، ونُطوِّر من أنفسنا، ونأخُذْ بأسباب القوَّة؛ من عِلم وتكنولوجيا وتفوُّق ...

فيا ليتَنا نُعيد قراءةَ هذه الوصايا العُمَريَّة، ونتَّقي اللهَ حقَّ تُقاته، ونعمل بجدٍّ وإخلاص، ونبذل قُصارى جهدنا؛ حتى تَنهض هذه الأمَّة ويَنعم أهلها ...

الانتصار العظيم ونهاية مملكة الفرس

وتحرَّك سعدُ بن أبي وقَّاص ومعه ثلاثين الفاً؛ ليواجِه يزدجرد ومعه مائة ألف ، وكانت معركة القادسيَّة، وهي أعظمُ وقعات المسلمين مع الفُرس، قُتِل فيها مَشاهيرُ الفُرس وكِبار قوَّادهم .

وبعد تَمام النَّصر أمَر سعدٌ بجَمْع الأسلاب والغنائم، فقسَمها وبعَث بالخُمس والبِشارةِ إلى أمير المؤمنين.

وكان عمرُ ﷺ يَخرج كلَّ يوم من المدينة يتَنسَّم الأخبارَ، حتى يرُدَّه حرُّ الظَّهيرة، فلمَّا جاء البَشيرُ لاقاه عمر وهو يَسير سيرًا حثيثًا، فسأله عمرُ :مِن أين؟ فأخبره الرَّجل أنَّه آتٍ من قِبَل سَعد، فقال له :يا عبدَ الله، حدِّثني، قال :هزَم اللهُ المشركين، وعمرُ يُهرول وراءه والرَّجل لا يعرفه، حتى دخَل المدينةَ، فرأى النَّاسَ يُسلِّمون عليه بإمرةِ المؤمِنين، فقال البَشيرُ :هلَّا أخبرتَني رَحِمك الله !فقال عمر :لا بأس عليك يا أخي.

ثمَّ توالَت الانتصاراتُ، وتمَّ فَتْح المدائن – عاصِمة مَملكة الفُرس – ودخولُ البيت الأبيض – بيت كِسرى – وتتحقَّق نبوءة رسول الله ﷺ.

* للاستزادة : ارجع إلى الجزء الأول من هذا الكتاب :"حياة خير الأنام"؛ للمؤلِّف.

ولما قدِم البشير على عمر ﷺ بذَخائر كِسرى قال :إنَّ قومًا أدَّوْا هذا لَذَوو أمانة، فقال له عليٌّ :إنَّك عفَفْتَ فعفَّتِ الرَّعيَّة .

وتمَّ بعد ذلك فَتْحُ نهاوَنْد وهمزان وأذربيجان وخُراسان، وغيرها.

كان هذا ما فعله المسلِمون في عَهْد عمر ﷺ في بلاد الفُرس، ذات الشَّوكة العظيمة ...

أمر مملكة الرُّوم في عصر الفاروق ﷺ

في الوقت الذي كانت تَتوالى فيه الانتصارات للمسلمين وتُحطَّم شَوكة مَملكة الفُرس، كانت عَينُ أمير المؤمنين ﷺ على القوَّة العُظمى الأخرى، والتي تُمثِّل تهديدًا كبيرًا لدولة الإسلام؛ وهي مَملكة الرُّوم، وكان الصِّدام مع الرُّوم قد بدَأ في عَصْر النبوَّة، واستمرَّ في عصر الصدِّيق ﷺ ، فكان من الضَّروريِّ أن يُكمِل الفاروقُ ﷺ ما بدأه صاحباه.

فتح بلاد الشام

بعد مَوقعة اليَرموك الشَّهيرة والتي كُسرَتْ فيها شَوكة الرُّوم، حينئذ بلَغ المسلمين أنَّ فلول الرُّوم لحقوا بفحل، وأنَّ مددًا عظيمًا من قِبَل ملك الرُّوم أتى دِمشقَ، فكتب أبو عُبيدة بن الجرَّاح إلى أمير المؤمنين يَستشيره بأيِّ البلدين يبدأ؟ فكتب إليه أن يرسل إلى فحل فرقةً تشغل مَن بها، وأن يَسير هو إلى دِمشق، ففعل أبو عُبيدة ما أمر به أميرُ المؤمنين، وتمَّ فَتْح دِمشق وسواحلها، ثمَّ تلاه فتح حِمْص، ثمَّ حلب.

فتح بيت المقدس

أمَر الفاروقُ عُمرُ ﷺ عَمْرَو بنَ العاص، الذي كان على الأُردنِّ، أن يَسير إلى أَجنادين، وقد تجمَّع بها جيشٌ عظيم من الرُّوم، عليهم داهية منهم اسمه "أرجلون"، فحاصَره عمرٌو حِصارًا شديدًا، ثمَّ لم يزَل يتجسَّس حتى عرف مأخذه، فحارَبه وهزمه، وانتهى به الأمرُ إلى إيلِياء (بيت المقدس)، فسار عمرٌو وراءَه وحصَره هناك، فطلب أهلُه الصُّلحَ على أن يكون المتولِّي للعقد هو عُمرَ بنَ الخطاب ﷺ بنفسه، فكتب عمرٌو إلى الخليفة بذلك.

أمير المؤمنين في أول زيارة للشام

فعزَم عمر ﷺ السَّفر إلى الشَّام – وهي الزِّيارة الأولى له إلى الشَّام – ليتَسلَّم مفاتيحَ بَيت المقدس، وطلب أن يُقابل عمَّالَه بالجابية (بلد بدِمَشق)، فقابلوه هناك، ثمَّ جاءه أهلُ إيلياء (بيت المقدس) مُستأمِنين، فصالحَهم وكتَب لهم أمانًا.

بنود الصُّلح :

هذا ما أعطى عبدُ الله عمرُ بنُ الخطاب أميرٌ المؤمنين أهلَ إيلياء من الأمان :

- أمانًا لأنفسهم وأموالهم.
- أمانًا لكَنائسهم وصُلباهم.
- لا تُسكَن كنائسُهم، ولا تُهدم، ولا يُنقَص منها .
- لا يُكرَهون على دينهم.
- لا يُضارُّ أحدٌ منهم.
- من أحبَّ من أهل إيلياء أن يَسير بنفسه وماله مع الرُّوم، فإنَّهم آمِنون على أنفسهم وأموالهم، حتى يَبلُغوا مأمنهم.

أمير المؤمنين في بيت المقدس

وبعدها توجَّه أميرُ المؤمنين إلى بيت المقدِس، ولما دخَل المدينةَ، دخل كنيسةَ القيامة، وجلَس في صَحنِها، ولما حان وقتُ الصلاة قال للبَطْرِيَرْكِ : أريد الصَّلاة، فقال له :صَلِّ موضِعَك، فامتنع عمرُ ﷺ ، وصلَّى على الدرجة التي كانت على باب الكنيسة منفرِدًا.

فلمَّا قضى صلاتَه، قال للبطرِيَرْك :لو صلَّيتُ داخلَ الكنيسة، لأخذَها المسلمون بعدي وقالوا :هنا صلَّى عمر، ثمَّ كتب لهم :ألَّا يُجَمَّعَ على الدَّرجة، ولا يُؤذَّن عليها .

بناء المسجد الأقصى

ثمَّ قال عمر للبطريرك :أرِني موضعًا أبني عليه مسجدًا، فقال :على الصَّخرة – التي عرَج منها رسولُ الله ﷺ في ليلة الإسراء والمعراج – فلمَّا وصَل إليها عمرُ ﷺ وجد عليها رَدْمًا كثيرًا، فشرَع في إزالته، واقتدى به المسلِمون، فزال لحينِه، ثمَّ أمر ببناء المسجد.

الإسلام والمواطَنة

ولقد كان لهذه الزِّيارة التاريخيَّة لأميرِ المؤمنين إلى بيت المقدس، وما بها من أحداث – الردُّ الدَّامغُ على كلِّ من يُريدون تَشويه صورة الإسلام وسماحتِه؛ فهذا الفاروقُ عمر ﷺ يُعطي أصحابَ الدِّيانات الأخرى كلَّ الحقِّ في العيش بأمنٍ وسلام؛ أمْن على أنفسِهم وأموالهم، وعلى دينهم وكنائسهم، ولهم كل الحقوق كما للمسلِمين؛ فهذه هي المواطَنة، وهذا هو الإسلام الصَّحيح، الذي أراد البعضُ أن يُبغِّض صورتَه بأفكارٍ مَغلوطة ما أنزَل الله بها من سلطان.

الزيارة الثانية إلى الشام؛ (مِن قدَر الله إلى قدَر الله)

وفي زيارته الثَّانية إلى الشَّام، تلقَّى أمير المؤمنين وهو في طَريقه أنباءً عن وباء انتشر في الشَّام، وهو طاعون عَمواس، فاستشار صحبَه من المهاجرين والأنصار، أيَمْضي لوجهه، أم يرجع؟ فاختلفوا عليه، فمِن قائلٍ :خرَجتَ لوجهِ الله فلا يَصُدنَّك عنه هذا، ومِن قائل :إنَّه بلاءٌ وفناء، فلا نرى أن تَقْدَم عليه، فأخذ عمرُ ﷺ بالرأي الثَّاني، ونادى في النَّاس :إنِّي عائد إلى المدينة، فقيل :أفِرارًا مِن قدَر الله؟ فقال :"مِن قدَر الله إلى قدَر الله".

فسَمِع بهم عبدُ الرحمن بن عوف، فجاءهم وقال :سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول :«**إذا سَمِعتم بهذا الوَباء ببلد، فلا تَقدَموا عليه، وإذا وقَع ببلد وأنتم فيه، فلا تَخرُجوا فِرارًا منه** ».

وانصرَف عمرُ ﷺ بالناس إلى المدينة .

الفاروق يطوف على المسلمين في بُلدانهم

رأى أميرُ المؤمنين بعد استشارة أصحابِه أن يَطوف على المسلمين في بُلدانهم لِيَنظر في أحوالهم؛ فسار عن المدينة، واستخلف عليها عليَّ بن أبي طالب، وجعل طريقَه إلى أيلة، فلمَّا دنا منها، راكبًا بَعيرَه وعلى رَحْله فروٌ مَقلوب، فلمَّا تلقَّاه النَّاسُ ولم يَعرِفوه من شدَّة تواضعه وزهده، قالوا :أين أمير المؤمنين؟ قال :أمامكم، يعني: (نفسَه).

ثم قَدِم إلى الشَّام، فقسَم المواريث، ورتَّب أمورَ المسلمين في كلِّ مناحي الحياة .

بلال يؤذِّن لأول مرة بعد رسول الله ﷺ

ثم قيل له :لو أمرتَ بلالاً فأذَّن، وكان بلال ﷺ قد استقرَّ بالشَّام بعد وفاة رسول الله ﷺ؛ لأنَّه لم يَستطع العيشَ بالمدينة وقد غاب عنها رسولُ الله ﷺ، ولم يؤذِّن بعدها، فأمَره عمر بالأذان فأذَّن ...

فما بقي أحدٌ أدرك رسولَ الله ﷺ إلَّا بكى، وكان عمر ﷺ أشدَّ النَّاس بكاء، وقد تذكَّروا تلك الأيامَ التي كان فيها رسولُ الله ﷺ بين أظهرهم .

وبعدها عاد الفاروق ﷺ إلى المدينة.

فَتْح مصر

استأذن عَمرُو بن العاص أميرَ المؤمنين ﷺ أثناء زيارته للشَّام في فَتْح مصر، وذكَر له خيرَها وأنَّها قوةٌ عُظمى لمملكة الرُّوم، فسيَّره عمرُ ﷺ بجيشٍ كبير، ثمَّ أتبَعَه الزُّبيرَ بن العوَّام .

فاقتحَموا باب أليون، وساروا إلى الإسكندريَّة ونزَلوا في عين شمس المطرية : (على فَرعٍ من فُروع النيل)، وتمَّ فتح الإسكندرية، ثمَّ نزل المسلمون على الفُسطاط الذي ضرَبه عَمرٌو، واختَطُّوا حولَه خيامهم، وأسَّس عَمرٌو بمدينته مسجدَه المشهورَ – مسجد عمرِو بن العاص – وبعد هذا الفَتح ارتحَل الرُّومُ، وأبقى المقوقِسَ على رياسة قومه .

وبفتح مِصر انتهى ما فعَله المسلمون مع الرُّوم في عهد عمر بن الخطاب ﷺ؛ فقد أخَذوا ولايتَين عظيمتَين؛ الشام ومصر، وجزءًا مهمًّا من جنوب بلاد الرُّوم (الأناضول) ...

وهكذا أضعَفوا شوكتَهم وأزالوا دولتهم.

وهكذا عزيزي القارئ، امتدَّت أطرافُ دولة الإسلام في عهد أمير المؤمنين

عمر بن الخطاب ﷺ مِن عاصمتِها المدينة المنوَّرة، حتى بلغَت بلادَ السِّند وما وراء النَّهر شرقًا، وإلى مصر والشام غربًا، وإلى خليج العرب جنوبًا، وإلى بحرِ الخزر وأرمينية وروسيا شمالاً.

وكان مفتاح كل هذه الانتِصارات - كما أسلفنا - هو تَقوى الله وتجنُّب المعاصي، مع التخطيط الجيِّد والأخذ بكلِّ الأسباب.

* * * * * * * * * * * *

الإنجازات الداخلية (تأسيس الدولة)

كنَّا قد أسلفنا أنَّ الفاروق ﷺ لما تولَّى الخِلافةَ، وضَع لنفسه أُسسًا وقواعدَ للحُكم، وكان على رأسها مسؤوليَّاته تجاه النَّاس.

فكان الإنسانُ هو المحورَ الرَّئيسي والمحرِّكَ الأساسي لاهتمام أمير المؤمنين ﷺ؛ لأجلِ هذا لم يَدَّخِر جهدًا لِيَجد كلُّ إنسان العَيشَ الكريم الطيِّب تحت إمرته، ونقول :الإنسان، كل إنسان؛ لا يُفرِّق بينهم دينٌ أو لون أو عرق، بل هم جميعًا متَّحدون في إنسانيَّتهم وفي حقوقهم وواجباتهم .

ويُعتبر الفاروق ﷺ هو مؤسِّسَ الدولة الإسلاميَّة؛ فهو مؤسِّسها قبل ولاية الخِلافة بسِنين؛ بل كان مؤسسًا لها منذ أسلَم فجهَر بدعوة الإسلام، وأعزَّها بهيبته وعُنفوانه.

وكان مؤسِّسًا لها يومَ بسَط يدَه إلى أبي بكرٍ فبايَعه بالخِلافة، وحسَم الفتنةَ التي أوشكَت أن تَعصِف بأركانها .

ومؤسِّسًا لها لَمَّا جاء للخلافة لِيَضَع الأساسَ ثمَّ أقام عليه البناءَ للدولة في بَراعة واقتدار في ذلك العصر من البداوة البادية، وهي قُدرةٌ تَروع وتَدهَشُ لو شاهَدتَها من مَلِك تربَّى على الملك، فأَولى أن تَروع وتَدهش من رجلِ البادية الذي يُقدِم على أمرٍ لم يكن له به سابقةٌ أو معرفة، كأنه راجَعَ تاريخَ عشرين دولةً مُستفيضةَ الملكِ راسخةَ العُمران ليُؤسِّس دولة الإسلام.

فأسَّس الفاروقُ الدولةَ الإسلاميَّة بمفهومها العصري، ووضَع لها أركانها ومؤسَّساتها :

- المؤسسة (السلطة) القضائية.
- المؤسسة (السلطة) التشريعية؛ نظام الشورى.
- المؤسسة (السلطة) التنفيذيَّة؛ الدواوين.

وسنَعرِض فيما يلي لهذه الإنجازات التي تمَحورَتْ على تأسيس دعائم الدولة بمؤسساتها الثلاث :

أولاً – المؤسسة (السلطة) القضائية :

كان العدل أساس الحكم عند الفاروقﷺ ؛ لذلك جعل السُّلطةَ القضائية هي السلطة العليا في الدَّولة، فكانت سلطة القاضي تَعلو على سلطة الخليفة نفسه.

وفي سبيل ذلك قام بعمل الآتي :

- فَصل القضاء عن سُلطة الحكم.
- إقامة المحاكم في كلِّ ولاية.
- تعيين القُضاة يتمُّ حسب شروط مُحكمة، وقد أسلفنا كيف كان ﷺيختار الولاةَ وأصحابَ المناصب العليا في الدولة .
- منع وسائل الدَّخل غير المشروع؛ فقرَّر الرواتب المناسبة لكلِّ قاضٍ، وكانت تصِل إلى أكثر من ٥٠٠ درهم شهريًّا.
- لا يسمح للقاضي بالبيع والشراء والتجارة.

رسالة الفاروق لأبي موسى الأشعري

لما قرَّر الفاروق ﷺ إرسالَ أبي موسى الأشعري كقاضٍ إلى إحدى الولايات، أرسل له هذه الرِّسالة، التي تُعتبر وَثيقة قضائيَّة بالِغةَ الأهمية ... قال فيها :

- "أمَّا بعد :فإنَّ القضاء فريضة مُحكَمة، وسُنَّة متَّبَعة، فافهَمْ إذا أُدلي إليك، وأنفِذْ إن تبيَّن لك، فإنه لا يَنفع حقٌّ لا نفاذَ له" .
- "آسِ (ساوِ) بين النَّاس في مجلسك ووجهِك، حتى لا يَطمَع شريفٌ في

حيفك أي :(مجاملتك له)، ولا ييئَس ضعيفٌ من عدلك".

- "البيِّنة على مَن ادَّعى، والدَّليل على من أنكر" .
- "الصُّلح جائز بين المسلمين، إلَّا صلحًا أحلَّ حرامًا، أو حرَّم حلالاً".
- "لا يمنعك قضاءٌ قضيتَه بالأمس، فراجعتَ فيه نفسك وهُديتَ لرُشدك، أن ترجع إلى الحقِّ، فمراجعة الحقِّ خيرٌ لك من التمادي في الباطل".
- "المسلمون عُدول في الشَّهادة بعضهم على بعض، إلَّا مجلودًا في حدٍّ، أو مجربًا عليه شهادة زور، أو ظِنِّينًا في ولاء أو قَرابة".
- "أبعد عنك الشُّبهات، وإياكم والعلق والضجر، والتأذِّي من النَّاس، والتنكر للخصوم في مواطن الحق" .

وفي قراءة دقيقة وعميقة لهذه الرِّسالة، وما سبقها من قواعد عُمَريَّة في اختيار القضاة واستقلالهم – نرى أنَّ الفاروقَ ﷺ قد سبق عصرَه بكثير، في وضع هذه القوانين والقواعِد القضائيَّة المحترمة، والتي بدأت الأمم المتقدِّمة تتبعها بعد عهود من التجربة.

لا سلطان فوق سلطان القضاء

كان أمير المؤمنين لا يتأبَّي، إذا عارضه أحدٌ وطلب أن يَحكم بينهما آخرون، بل كان يرحِّب في غِبطة؛ لأنَّه سيجد عونًا على الحقِّ إن كان مُحقًّا، وهَدْيًا إلى الصَّواب إن كان مخطئًا.

فكان يجلس – وهو أمير المؤمنين – في رحابة أمام القاضي ليَحكم بينه وبين مَن اختلف معهم.

وهاك بعضًا من هذه الشواهد التي تُكتب بحروف من ذهب :

- كان للعباس بن عبد المطلب دارٌ إلى جنب مسجد المدينة، فلمَّا أراد عمر ﷺ أن يوسِّع المسجد، قال للعباس :أعطِنا إيَّاها نُزوِّدها

في المسجد، وأقطع لك أوسَع منها، فأبى العبَّاس، فقال عمر :فهَبْها لنا، فأبى، وقال العباس :اجعل بيني وبينك مَن يقضي بالحقِّ، فقال أميرُ المؤمنين :مَن تختار؟ قال العبَّاس :حُذيفة بن اليمان، وبدلاً من أن يستدعي أميرُ المؤمنين حذيفةَ انتقل هو والعبَّاس إليه ...فحُذيفة الآن يمثِّل سلطةَ القضاء، التي هي أعلى من سلطة الخليفة نفسه.

وأمام حُذيفة جلس عُمر والعبَّاس، وقصَّا عليه الخِلافَ بينهما، وكان حكم حُذيفة لصالح العبَّاس، وقال لعمر :ما أرى أن تُخرجه من داره حتى تُرضيَه .

وعن حيثيَّات الحُكم قال حذيفة :إنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول :

«**إنَّ نبيَّ الله داود عليه السلام، أراد أن يَزيد في بيت المَقدس، فوجد بيتًا قريبًا من المسجد، وكان هذا البيتُ ليَتيم فطلَبه منه فأبى، فأراد داود أن يأخذه قهرًا، فأوحى الله إليه :أنَّ أنْزَهَ البيوت عن الظُّلم لهو بَيتي**»، فلمَّا قُضي الأمر، قال العبَّاسُ لعمر :لا تَزال تُريد أن تَغلبني على داري؟ فقال عمر :لا، وترَكه، قال العبَّاسُ لحذيفة :أما وإنْ قضيتَ لي، فإنِّي أجعَلُها صدَقةً للمسلمين لِيَزيدوها في مَسجد رسول الله.

- كان بين عمر رضي الله عنه وبين أُبيِّ بن كَعب خُصومةٌ، فقال عمر :اجعَلْ بيني وبينك رجلاً، فجعل بينهما زيدَ بن ثابِت، فأتَياه، فقال عمر :أتيناك لِتَحكم بيننا، فلمَّا دخَلا عليه، وسَّع له زيدٌ عن صَدر فراشه وقال :ها هنا أمير المؤمنين، وها هنا أُبَي، فقال له عمر :هذا أوَّل جَوْرٍ جُرْتَ في حكمك ...ناديتَني بأمير المؤمنين وناديتَه باسمه، وميَّزتني عنه في المجلِس ! ولكنِّي أجلس مع خَصْمي، فجلسا بين يديه، فادَّعى أُبَيٌّ وأنكَر عُمر، فقال زيدٌ لأُبَي :اعْفُ أميرَ المؤمنين من اليَمين، ولكنَّ عُمر أَبَى ألَّا يَحلف، ثمَّ أقسم .

والأمثلة كثيرة لا يتَّسع المجالُ لذِكرها جميعًا .

وهكذا كان أمير المؤمنين، لا يضَع القوانينَ والدساتيرَ لتكون منهاجًا لعامَّة النَّاس فحَسْب؛ بل كان هو أوَّلَ من يُطبَّقُ عليه القانون، ويأبى إلَّا أن يُعامَل مُعاملةَ المواطن العادي، إذا ما انتهى الأمر إلى القَضاء.

نكرِّر ونَزيد :ما أحوجنا هذه الأيام إلى مثلك يا أمير المؤمنين !

ثانيًا – المؤسَّسة (السلطة (التشريعية)؛ نظام الشورى

إنَّ المشاوَرة لفَنٌّ عَسير، وقد كان عمر ﷺ عَبقريَّ هذا الفنِّ، فهو واضِع دستور الشُّورى في الدَّولة الإسلاميَّة، وقد كان كل ما ورَد في كِتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ هو الدستورَ الذي يَحكم عُمرَ ﷺ ويَحتكم إليه، ولكنَّه كان يَحترِم الشُّورى والمعارضةَ في كلِّ الأمور الطَّارئة والقضايا الجديدة التي لم يأتِ فيها مِن الله ولا مِن رسوله ﷺ بيانٌ واضح وفاصِل.

وكان يَنتهج في ذلك أرقى درجات الشُّورى، ويَستمع إلى الرَّأي والرأي الآخَر؛ فالرأي عنده ليس الْتِماسًا للموافقة، بل الْتِماس للحقيقة، ولطالَما كان يقول للناس :"لا تقولوا الرَّأي الذي تظنُّونه يُوافِق هوايَ، وقولوا الرَّأيَ الذي تَحسَبونه يوافق الحقَّ".

فالشُّورى والمعارضة عند أمير المؤمنين، هما جَناحا الحُكم الصَّالحِ القويم، وهما رِئَتا كلِّ حُكم سديد.

فكان ﷺ قبل أن يَسُنَّ قانونًا أو يتَّخذَ قرارًا، كان لا بدَّ أن يُشاوِر أصحابَه من أهل الحِنكة والنُّضج والتجرِبة، ليس ذلك فحسب؛ بل كان يَلتمس الرَّأيَ عند أهل الحِدَّة والنَّشاط ممَّن يُناقضون أولئك في الشُّعور والتفكير، فكان إذا أعياه الأمرُ المعضِلُ دعا الأحداثَ (صِغارَ السِّن)

فاستشارهم؛ لحِدَّة عقولهم، ويسمع من مُعارِضيه قبل مؤيِّديه، ثمَّ يكون القرارُ فيما فيه خَيرُ ومصلحة النَّاس أجمعين.

ورغم أنَّ المؤسسات الديمقراطية مِن برلمانات وغيرها، لم تكن يومَئذ قد ظهرَت، إلَّا أن الشُّورى ظهرَتْ وظفرَت بخَيرِ فرص الازدهار في عصر أمير المؤمنين عمر ﷺ.

وهاك بعض الشواهد التي تجلَّت فيها مظاهرُ الشُّورى والمعارضة في عصر الفاروق عمر ﷺ:

- لما فُتحت العراق وتَحرَّرَتْ من حُكم الفُرس، رأى عمرُ ﷺ ألَّا يَقسِم أراضيَها الزِّراعيَّة بين المجاهدين، وأن تظلَّ كما هي في أيدي أصحابها المزارِعين، ويكتفيَ بأخذ الخَراج منهم؛ لِيُردَّ إلى بيت المال، ويُقسَم بين النَّاس جميعًا، وكان حُجَّته في هذا الرَّأي :

– أنَّ تقسيم الأراضي على المجاهدين سيُقعِدهم عن الجهاد.

– أنَّ إنتاج الأرض سيَضعُف لقلَّة خِبرة المجاهدين بالزراعة .

– أنَّ ذلك سيُنشِئ طبَقة من الإقطاعيِّين المحتكِرين.

وعارَضه في هذا الرَّأي نفرٌ من الصَّحابة، وأيَّده آخَرون، فدعا فريقًا منهم (مؤيِّدين ومُعارضين) لمُناقَشة الأمر، وخشي أن يجامِله أحد في رأيه بوصفه أمير المؤمنين، فبدأ الحوار قائلاً :"إنِّي دعوتُكم لتشاركوني أمانةَ ما حُمِّلتُ من أموركم؛ فإنِّي واحدٌ كأحَدِكم، وأنتم تُقِرُّون بالحق، خالَفني مَن خالفني ووافَقني مَن وافقني، ولستُ أريد أن تتَّبِعوا هَواي، فواللهِ لئن كنتُ نطَقتُ بأمرٍ أريده، فما أريد إلَّا الحقَّ".

وكان الاتِّفاق على الرأي الذي فيه الحق والخير للجميع، وهو أن تَبقى الأرض بيدِ زارعيها .

- في ذات يوم يصعَد المنبرَ ليحدِّث النَّاسَ في أمرٍ جليل، فبدأ خطبتَه بعد حَمْد الله بقوله :"اسمعوا يرحمكم الله"، ولكن نَهَض أحد المسلمين

قائمًا ويقول :"واللهِ لا نَسمع، واللهِ لا نَسمع".

فيسأله عمر في لهف :ولمَ يا سَلْمان؟ "سلمان الفارسي" .

فيجيبه : ميَّزتَ نفسك علينا في الدنيا، أَعطيتَ كلاً منَّا بُردة واحدة وأخذتَ أنت بُردتين ...

فيقول الخليفة : أين عبد الله بن عمر؟

فنهَض ابنُه عبد الله وقال :هأنذا يا أمير المؤمنين.

فيسأله عمر على الملأ :مَن صاحب البردة الثانية؟

فيجيب عبد الله :أنا يا أمير المؤمنين.

ويتوجَّه عمر بن الخطاب إلى سَلمانَ والناسِ معه فيقول :إنِّي كما تَعلمون رجلٌ طُوال، ولقد جاءت بُردتي قَصيرة، فأعطاني عبدُ الله بردتَه، فأطَلْتُ بها بردتي ...

فقال سَلْمان :الحمد لله، الآن قُل نَسمَعْ ونُطِعْ يا أمير المؤمنين.

أيَبلُغ النَّاسُ من حريَّة المعارضة، أن يُحدِّدوا للحاكم عدَد أثوابه وملابسِه بهذه اللَّهجة الصَّارمة؟ ! أمر لم يَعرف التاريخ له نظيرًا.

- يخطب النَّاس يومًا فيقول :"لا تَزيدوا مُهورَ النَّاس على أربعة أَواقٍ، فمن زاد أَلقيتُ الزيادة في بيت المال" .

فتَنهض سيِّدة تقول :ما ذاك لك.

فيَسألها الخليفة :ولم؟

فتجيبه :لأنَّ الله تعالى يقول : {وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا} [النساء: ٢٠].

فتهلَّل وَجه عُمر وهو يقول عبارتَه المأثورة :"أصابت امرأة، وأخطأ عمر" .

- يدور ذات يوم حوارٌ بينه وبين واحد من النَّاس، ويتمسَّك الآخر برأيه

ويقول لأمير المؤمنين :"اتَّق الله يا عمر"، ويكرِّرها عدَّة مرَّات، فيقوم أحد أصحاب الفاروق ويقول للرجل :صَه، فقد أكثرتَ على أمير المؤمنين، فيقول له عمر :"دَعْه، فلا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها" .

أجَل، فلا خير في النَّاس إذا لم يقولوا ما يرونه حقًّا، ولا خيرَ في الحاكم إذا لم يسمع منهم ويُصغِ إليهم.

فلم يكن الفاروق ﷺ يبطش بمعارضيه ولو مرَّةً واحدة، وإلَّا باءَت الشُّورى في عهده بخِذْلان كبير، لكنَّه على النَّقيض من ذلك، أقصى عنه أهل المجامَلة والمداهنة، ورفع مكانًا عليًّا أولئك الذين يناقِشون ويعارضون، وكان فرحه بكلمة جَريئة مُحقَّة يُجابَه هو بها، أو يُجابِه بها أحدٌ من ولاته، يَفوق كلَّ فرح ...

وهكذا أخضَع عمر ﷺ للشورى كلَّ خطَّة وكلَّ قرار، وأعطى المعارضة كلَّ تَوقير وكلَّ إكبار، ولم يجعل الشُّورى وَقفًا على بِطانة أو فريق من النَّاس، بل احترمها كحقٍّ مبرَّر لأفراد الأمَّة كلها، ذكرًا أو أنثى، كبيرًا أو صغيرًا.

فلقد كان الفاروق ﷺ دائمًا يقدِّر الشَّعبَ، ويهيِّئه ليكون هو الحاكم الحقيقي، ويتركه شعبًا قويًّا صلبًا ...ولقد فعل.

ثالثًا – المؤسسة (السلطة) التنفيذية

لما امتدَّت الدَّولة الإسلاميَّة وترامَت أطرافها، أصبحت الحاجَة مُلِحَّة إلى ضَبط الأمورِ لِتَسيير حرَكة الحياة، فكان اهتمامُ أمير المؤمنين بتنظيم أمور الدَّولة من خلال نِظامٍ دَقيق، وضَع له القوانينَ والمعاييرَ التي تَحكُمه، والتي لم يَسبِق إليه أحَد، فكما كان إسلامُه فَتْحًا، كانت خلافته سَبْقًا، سبَق به عصرَه وزمانه ...

أوَّلِيَّات عُمر

نَدرَ أن تَجِد في الدَّولة الإسلاميَّة نظامًا لم يكن للفاروق ﷺ فيه أوَّليَّة ... فقد افتَتح تاريخًا واستَهلَّ حضارة، وأنشأ حُكومة ورتَّب لها الدَّواوين، ونظم فيها شؤون القضاء والإدارة، واتَّخذ لها بيت المال ...وصنَع كلَّ شيء في الوقت الذي ينبغي أن يُصنَع فيه، فكانت بحقٍّ – كما سمَّاها البعض – "أوَّليات عمر".

وسنعرض فيما يلي لبعض هذه الأوليات، وما كان لها من أثَر في حياة النَّاس وتقدُّم الأمَّة :

١ – التأريخ للمسلمين :

كان العرب يؤرِّخون بالأحداث الكبيرة في حياتهم؛ كعام الفيل وخلافه، أو كانوا يَستخدمون السَّنةَ الفارسيَّة أو الرومانية، إلَّا أنَّهم لم يكن لديهم نظام محدَّد للتأريخ ...

فلمَّا قَدِم إلى عمر ﷺ صكٌّ مكتوب عليه "شعبان"، قال :كيف نعلم أنَّ المقصود شهر شعبان الحاليُّ أم الماضي؟ فعقد مَجلسًا للشورى، حضره كِبار الصَّحابة، وعرض عليهم مسألةَ تحديد التاريخ؛ حتى لا تقَع الأخطاء

في العقود والمعاملات، فقال البعض :نؤرِّخ من ميلاد رسول الله ﷺ، وقال آخرون :مِن مَبعثه ﷺ، وأشار البعض على أن يؤرَّخ من هِجرته ﷺ، فاستحسن عمر رضي الله عنه الرَّأيَ، واستقرَّ الأمر على أن تكون بداية التأريخ من بداية هِجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأرَّخوا من شَهر محرَّم .

٢- العَسُّ في الليل:

كان الفاروقُ عمر رضي الله عنه أولَ من يُعسعِس بالليل؛ ليَتفقَّد أحوالَ النَّاس ويعلم عن كَثْبٍ مَشاكِلَهم ومَطالبهم وأحوالهم، وكان إذا علِم أنَّ هناك مشكلة أو حاجة في منزلٍ ما يُعلِّم عليه، وفي الصَّباح يذهب إلى أصحاب المنزل لِيَتعرَّف أكثر عن حاجاتهم ويقضيها لهم، وفي كثير من الأحيان يؤدِّي هذا إلى سَنِّ قوانينَ، أو إصدار أوامر يكون فيها الخير والرخاء للأمة.

٣- تمصير الأمصار (تخطيط المدن):

كان الفاروق عمر رضي الله عنه أوَّلَ مَن أمر باختيار الأماكن المناسِبة للمعيشة، وتخطيطها لإقامة مدن جديدة .

تخطيط الكوفة

مكثَت المدائنُ قاعدة (عاصمة) أعمال العِراق مُنذ فُتحت، ولما رأى عمر رضي الله عنه من العرب الذين نزلوا بها تغيُّرًا في ألوانهم، وضعفًا في أجسادهم، علم أنَّها ليست بدار المقام، أي : إنَّ أحوالها ومناخها لا يُلائم العربَ وطبيعة أجسادهم .

فكتَب إلى سَعد بن أبي وقَّاص، أن ابعث سَلْمان الفارسي وحُذيفة بن اليمان للبحث عن مكانٍ آخر، على أن يكون برِّيًّا بَحريًّا ليُلائم طَبيعة العرب.

فأرسلهما سعد، كل واحد مِن جهة، فاجتمعا بالكوفة، فاستحسَناها وصَلَّيا بها، ودعَوَا الله أن يجعلها مَنزِل الثَّبات، ثمَّ رجَعا إلى سَعد وأخبراه باختيارهما، فاستشار عمر، فأذن لهم بالبناء فيها .

فدعا سعد أبا الهيَّاج بن مالك – مخطِّط الكوفة – فجعل النهج (الشارع) الأعظَم أربعين ذراعًا، وما يليه ثلاثين، وما بين ذلك عشرين، والأزقَّة سبعة أذرع، ليس دون ذلك .

وكان أول شيء أُسِّس فيها هو المسجد، ثمَّ بدأ بِناء المنازل، على ألَّا يَعلو البنيان على ثلاثة أبيات (ثلاثة طوابق)، وبذلك تمَّ بِناء الكوفة، والمدينة مبنية على الشَّاطئ الغربي لنَهر الفُرات، وكله حدائق نَخل ملتفَّة، يمتدُّ سَوادُها امتدادَ النظر.

وبعد إتمام تَخطيطها وبنائها، أمَر الفاروق بنَقل العرب الذين بالمدائن إليها –بعد أن خيَّرهم بين البقاء بها أو الانتِقال إلى الكوفة.

وبعد تأسيس الكوفة أمَر أميرُ المؤمنين "عتبةَ بن غزوان" بتأسيس مَدينة البَصرة على نفس النظام.

التقسيم الإداري للعراق

وتمَّ تَقسيم العراق إداريًّا إلى قسمين :

- قسم أعلى (شمال) وعاصمته الكُوفة، ووالِيها سعد بن أبي وقَّاص.
  وكان يتبع الكوفة مِن بلاد الفرس بعد فتحها :الباب، وأذرَبِيجان، وهمَذان، والرَّي، وأصبَهان، والموصل.
- وقِسم أسفل (جنوب) وعاصمته البصرة، ووالِيها عتبة بن غزوان.
  وكان يتبع البصرة :خُراسان، وسِجِسْتان، وكَرْمان، وفارِسُ، والأهواز.

أبو المدن

وكما في العِراق، كذلك في مِصر تمَّ بِناء الفسطاط والجيزة، وهكذا في باقي البلدان التي تمَّ فَتحُها، حتى لُقِّب أمير المؤمنين عمر ﷺ أنَّه "أبو المدن" .

الخدمات العامة للمدن

لم يكتفِ أمير المؤمنين ﷺ بالإذن بالبِناء لتلك المدن فحَسْب؛ بل كان يخطِّط موقع المدينة، وأفضل الأماكن لبِناء المنازل، مع تَوفير الخدمات العامَّة لأهلها، فكان يبني بها مسجدًا، ومَشفًى (مستشفى)، وكان يختار للمشفى أكثر الأماكن الملائمة وأصحَّها لهذا .

فكان يأمر بوضع قِطعة لحم في كلِّ الأماكن المقترَحة لبناء المشفى، وينتظر عدَّة أيام، ثمَّ ينظر أيها تعفَّنَت أسرع، ويكون الاختيار للمكان الذي مكَثَت فيه قِطعةُ اللَّحم مدَّةً أطول حتى تتعفَّن؛ وهو ما يعني أنَّها أقلُّ الأماكن تعرُّضًا للبكتيريا والميكروبات، وعليه يكون هو المكانَ المختار لبناء المشفى ...

أيُّ عبقريَّة هذه التي حَباك الله بها يا أميرَ المؤمنين؟ !

وكذلك يوفِّر كلَّ ما تحتاجه المدينة من خدمات أخرى؛ كالمحاكم وبيت المال والمغفر وغيرها ...

٤ – استصلاح الأراضي وشق الأنهار:

كان أمير المؤمنين ﷺ أوَّلَ من أَولى اهتمامًا كبيرًا بتطوير الزِّراعة واستصلاح الأراضي، وأصدر – كما أسلفنا – بهذا الشَّأن قانونًا عامًّا، بأنَّ مَن يُصلِح الأراضي البور، أينما وُجدَت في جميع أنحاء الدَّولة، فإنَّ ملكيَّتها

تَؤول إليه، وإذا لم يُصلِحها في غضون ثلاث سنوات تُردُّ منه.

إنَّ اهتمامه ﷺ بالزِّراعة والأراضي جعله يهتمُّ أيضًا بإدارة الرَّي؛ مثل إقامة السدود، وبناء القَناطر لتوزيع المياه، وشقِّ فروع للأنهار حتى تصِل المياه إلى الأراضي البور واستصلاحها .

٥- إصلاح الطرق وتمهيدها:

كان أمير المؤمنين ﷺ أوَّلَ من اهتمَّ بإصلاح الطُّرق وتمهيدها؛ لما في ذلك من أثَر بالغ في تَسهيل الاتصالات بين المدن والقرى، ويساعِد على انتعاش الزِّراعة والصناعة والتجارة.

وهو القائل :"لو أنَّ شاة تعثَّرت في شطِّ الفرات لخشيتُ أن أُسأل عنها".

ولم يكن ذلك فحسب؛ بل بنى استِراحات بين مكَّة والمدينة لراحة الحُجَّاج والمعتمِرين، وبنى في كلِّ استراحة دارًا للضِّيافة.

النَّقل البحري

ولم يقتصر اهتِمامه ﷺ على النَّقل البرِّي فقط؛ بل تطوَّر أيضًا إلى النَّقل البحري، فقد أمر بشقِّ قناة تصِل ما بين نهر النِّيل والبحر الأحمر، كانت بداية هذه القَناة الفُسطاط ثمَّ إلى بلبيس ثمَّ إلى البحر الأحمر، فكانت السُّفن تنقل المؤن والبضائعَ مِن مصر إلى المدينة في سهولة ويسر ...

لله دَرُّك يا أمير المؤمنين!

٦- تدوين الدواوين (الوزارات):

كان أمير المؤمنين ﷺ أوَّلَ مَن نظم الحركة الإداريَّة للدولة بإنشاء

الدواوين (الوزارات) في شتَّى المجالات :

في المجال الاقتصادي :

لما زاد المال وأفاء اللهُ على المسلمين في عهده خيرًا كثيرًا، قام بعمل الآتي :

*إنشاء ديوان العطاء (وزارة المالية):

وكان من اختصاصه :

- تسجيل أسماء النَّاس؛ لتسهيل توزيع الأموال، وقد كلَّف لهذه المهمَّة عَقِيلَ بن أبي طالب، وجُبيرَ بن مُطعِم، ومَخرَمةَ بن نَوفَل، وكانوا أعلَمَ النَّاس بالأنساب، وكان قد أمرهم أن يَبدؤوا ببَني هاشِم، ثمَّ آل أبي بكر، ولما رآهم وضَعوا آلَ عمر بعد آل أبي بكر، رفَض ذلك – كما أسلَفْنا –وقال :"ضَعوا عُمر وقومَه في موضِعهم"، وأمر بوضع أناس آخرين قبل آل عمر.
- يحصل كلُّ مسلِم من هذا الدِّيوان على مخصَّصات ماليَّة مستمرَّة (رواتب)، سواء كان رجلاً أو امرأة، كبيرًا أو صغيرًا، حتى الطِّفل الرَّضيع كان له راتب، وقال :"لئن بَقيتُ ليَأتينَّ الرَّاعيَ بجبل صنعاء حظُّه من هذا المال".
- منح عَطايا مِن هذا الدِّيوان للفقراء من غير المسلمين، وقد أسلفنا، كيف أنَّه أعطى اليهوديَّ العجوز الذي كان يسأل النَّاس وقال له : –"أخَذْناها مِنك في شبابك، فلنردَّها لك في شيبتك" .
- يُقرِض هذا الدِّيوانُ كلَّ مَن له حاجة، وبدون فوائد؛ قَرْضًا حسنًا.

*** إنشاء بيت المال : (البنك المركزي):**

لما ورَد على المدينة أموالٌ عظيمة من الخَراج، لم يكن هناك مكان معيَّن لحِفظ المال، وكان المال يوزَّع على المسلمين في وقته، ولكن عندما كَثر المال، شاوَر عمر ﷺ الصَّحابةَ، فكان الرَّأي بأن يؤسِّس بيتًا للمال؛ ليكونَ أوَّل خِزانة كبيرة في دار الخِلافة .

*** الدِّقَّة في اختيار العمال:**

كان الفاروق – ﷺ كما أسلفنا – شديدَ الحذر والتأنِّي في اختيار عمَّاله، خاصَّة عمَّاله على الأموال، فكان يأمر العامِلَ منهم بتَقديم كشفٍ بكلِّ ما يمتلك عند استلامه للمنصب "إقرار ذمَّة ماليَّة" – كما نسمِّيه في أيَّامنا هذه – ويراجِع هذا الكشف كلَّ عام.

*** في المجال العسكري :**

أنشَأ أمير المؤمنين ﷺ ديوانَ الجند، ما نسمِّيه "وزارة الدِّفاع" في أيَّامنا هذه، ومن مهمَّتها :

- إنشاء معسكرات حربيَّة للتدريب.
- جعل التجنيد إجباريًّا، مع وجود احتياطي جاهز للاستدعاء.
- إنشاء عيادات طبيَّة خاصَّة بالجند في المعسكرات.
- تسجيل أسماء ورواتب كل جندي في سجلٍّ خاص بديوان الجند.

دواوين في مجالات أخرى :

- أُنشئت في عهد عمر بالإضافة لما سبق، دَواوينُ أخرى في مجالات شتَّى، منها :

- ديوان القضاء .
- ديوان البريد.
- ديوان النَّقل والطُّرق .
- مصنع لصكِّ العملة.
- دار الحبس (الشرطة) للعقاب .

٧- أوليات عمر في العبادات:

- أوَّل من وسَّع المسجد النبوي.
- أول من أمر بصلاة التراويح (عشرين ركعة).
- أول من وضع مقام إبراهيم.
- أول من لُقِّب بأمير المؤمنين؛ حيث كان أبو بكر يُلقَّب بخليفة رسول الله، فلمَّا كان عمر لَقَّبه النَّاس بخليفة خليفة رسول الله، فوجد عمر أنَّ هذا قد لا يكون ملائمًا، وخاصَّة فيمن سيأتي من بعده، فطلب أن يُلقَّب بأمير المؤمنين.

والآن عزيزي القارئ، ألا تشعر بالفَخر والعزِّ بهذا الطِّراز الرَّاقي من الحكَّام، الذي سبق عصره وزمانه، وأنشأ منظومة متكامِلة للحكم، ما زالت الأمم تَعمل بها إلى يومنا هذا؟!

لله درك يا أمير المؤمنين....

* * * * * * * * *

الشمائل العمريَّة

والآن عزيزي القارئ، فلنُعرِّج على بعض من شمائل الفاروق عمر ﷺ التي هي امتداد لشَمائل معلِّمه الأكبر، ومعلِّم البشريَّة كلها، الحبيب المصطفى ﷺ؛ لعلَّنا نَقتبس من نورها ما نضيء به الظُّلمة التي تَعيشها الأمَّة، ويكون فيها ما يُعلي من شأنها، ويقرِّبها من بارئها ومولاها ...

١ - زهده ﷺ :

لقد كان الزُّهد وأمير المؤمنين ﷺ هما وَجهَين لعملة واحدة، فإذا ذُكر الزُّهد ذُكر عمر، وإذا ذُكر عمر ذُكر الزُّهد، فقد كان ﷺ خَشِنَ العيش، خشن المطعم، يرقع ثوبَه، ويحمل القِرْبةَ على كتفيه مع عظيم هيبته.

وقد أسلفنا كثيرًا من الشواهد التي تدلُّ على زُهده في معرض حديثنا عن أسلوبه في الحكم، ومحاسبته لنفسه وولاتِه.

وهاك المزيد من شواهد زهده ﷺ :

- **لعلِّي أدرك عيشهما الرخي:**

قالت حفصة لأبيها :يا أمير المؤمنين، اكتسيتَ ثوبًا هو أليَن من ثوبك، وأكلتَ طعامًا هو أطيب من طعامك؛ فقد وسَّع الله عليك من الرِّزق وأكثر من الخير !فقال لها :إنِّي سأخاصمك إلى نفسك، أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يَلقى من شدَّة العيش، وكذلك أبو بكر؟ !فما زال يَذكرهما حتى أبكاها، فقال لها :"أما والله لأشاركهما في مثل عيشهما الشديد، لعلِّي أُدرِك عيشهما الرخي".

- يقول أنس بن مالك :"نظرتُ في قَميص عمر، فإذا بين كميه أربع رقاع، لا يشبه بعضُها بعضًا".

● لما تَولَّى عمرُ ﷺ الخِلافةَ قال :"لا يحلُّ لي مِن مال الله إلَّا حُلَّتان؛ حُلَّة للشتاء، وحُلَّة للصيف، وقوت أهلي كرجل من قُريش ليس بأغناهم، ثمَّ أنا رجل من المسلمين".

● **أوَكلَّما اشتهيتَ اشتريت؟ !**

يحدِّثنا جابر بن عبد الله فيقول :رأى عمر ﷺ لَحمًا معلَّقًا في يدي، فسألني :ما هذا يا جابر؟ قلت :هو لَحم اشتهيتُه فاشتريتُه، فقال :أوَكلما اشتهيتَ اشتريتَ؟ !أما تخاف أن يُقال لك يوم القيامة: {أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا} [الأحقاف: ٢٠]؟!

● **ما يمنعك من طعامنا؟**

زاره يومًا حَفصُ بن العاص، وكان عمر ﷺ جالسًا إلى طعامه، فدعا إليه حفصًا، لكن حفصًا لما رأى القَديد اليابس الذي يَأكل منه عمر ﷺ لم يأكل، فقال له عمرﷺ :ما يمنعك من طعامنا؟ فقال :إنَّ طعامك جشب غليظ، وإنِّي راجع إلى بيتي فأصيب طعامًا ليِّنًا قد صُنع لي، فقال عمرﷺ : أتراني عاجزًا عن أن آمر بشاة، فيُلقى عنها شعرها، وآمُرَ بدَقيق فيخبز خبزًا رقاقًا، وآمر بصاعٍ من زيت فيُلقى في سعن، ثمَّ يُصب عليه الماء فيصبح كأنَّه دمُ غزال، فآكلَ هذا وأشرب هذا؟ ! فقال حفص : إنِّي أراك عَليمًا بطيب العيش، فقال عمرﷺ : "والَّذي نفسي بيده، لولا أن تَنقُص حسناتي لشارَكتُكم في لِين عيشكم، ولو شئتُ لكنتُ أطيبَكم طعامًا، وأرفهَكم عيشًا، ولكننا ندَعُه ليوم تَذهَل كلُّ مُرضعة عمَّا أرضَعَت، وتضع كلُّ ذات حمل حملها" .

فهكذا كان أمير المؤمنينﷺ ، عَزَله حياؤُه من الله عن كلِّ ترَف، بل عن كلِّ راحة في الدنيا، وأبى أن يصيب وأهلُه من الطَّعام إلَّا تَقوُّتًا، ومن العيش إلَّا كَفافًا، ولو شاء أن يظفر بالمناعِم المباحة على كثرتها لظفر بها

جميعًا ...لكنَّه الزُّهد وبطولةُ الروح وعظَمة النَّفس.

٢– عدله ﷺ :

أمَّا عن العدل، فحدِّث ولا حرَج، فإذا تحدَّث النَّاس عن العدل، وعن أكثر أهل الأرض عدلاً، لكان أوَّل اسم يَقفز للأذهان هو عمر بن الخطاب ﷺ، فكأنَّه كان عَدلاً يَمشي على الأرض، إنَّ اللهﷻ هو العَدل المطلَق، لكنَّه جعل مِن عِباده مَن يقيم العدلَ في الأرض وبين النَّاس، وقد لخَّص ابنُ عبَّاس هذه الحقيقة حين قال:

– "أكثِروا ذِكر عُمر؛ فإنَّكم إذا ذَكرتم عمر ذكرتم العدلَ، وإذا ذكرتم العدل ذكرتم اللهَ تبارك وتعالى".

- كنَّا قد أسلَفنا في معرض حديثنا عن السلطة القضائيَّة وأسلوب أمير المؤمنين ﷺفي الحُكم عن بعض الأمثلة التي تجلَّى فيها عدله؛ مثل قضيَّة القبطي الذي ذهب من مصر إلى المدينة؛ لِيَشتكيَ إليه مِن ابنِ عمرو بن العاص والي مصر، وهو يعلم عِلم اليقين أنَّه لن يجد سوى العدل والحق .

وكذلك ما ذَكرناه من أنَّه لا يتأبَّى أن يجلس أمامَ القاضي في خصومة مع أحد النَّاس، وهو أمير المؤمنين، ويَقبَل بالحكم سواء كان في صالحه أو ضدَّه ...

وإليك عزيزي القارئ المزيد من تلك الشواهد :

- **عليك بدفع ديته:**

أرسل عمر ﷺ إلى امرأة غاب عنها زَوجُها، ودارت حولها الشُّبهات، فقيل لها :أجيبي عمر، فقالت :يا ويلتى، ما لي ولِعمر؟ !

وبينما هي في الطَّريق، فَزِعَت فضربها ألَمَ الولادة، فدخَلت دارًا فألقت

ولدَها، فصاح صيحتَين ثمَّ مات، فاستشار عمرُ أصحابَ رسول الله ﷺ، فأشار بعضهم أن ليس عليك شيء، وصَمت عليٌّ، فأقبل عليه عمر وقال له :ما تقول يا أبا الحسَن؟ قال :إن كانوا قالوا برأيهم فقد أخطأ رأيُهم، وإن كانوا قالوا في هواك فلم يَنصحوا لك، أرى أنَّ دِيَته عليك؛ فإنَّك أنت أفزعتها فألقَتْ ولدها في سبيلك.

فقبِل أميرُ المؤمنين برأي عليٍّ، ودفَع الدِّيَةَ .

• أأنت عمر؟

ذات يوم وأمير المؤمنين رضي الله عنه جالس مع أصحابه، اقتحم المجلسَ رجلٌ مَكروبٌ تَغشاه وعثاء السَّفر، ويتَّجه صَوب عمر ويقول له في مرارة : أأنتَ عمر؟ ويل لك مِن الله يا عمر !ثمَّ يمضي، ويحاول البعض اللِّحاق به للفَتك به، ولكن عمر يناديهم ويأمرهم أن يعودوا، ويهرول هو وراء الرَّجل، ولما أدركه عاد به وسأله :"وَيْلي مِن الله لِماذا يا أخا العرب؟!"، فيجيبه الرجل : لأنَّ عُمَّالك ووُلاتك لا يَعدِلون، بل يَظلمون، ويسأل عمر :أيّ !عمَّالي تَعني؟ فيقول الرجل :عامِل لك في مصر اسمه عياض بن غَنْم، ولما سمِع عمرُ تفاصيلَ الشَّكوى أمر بعِياض ليأتيَ إلى المدينة؛ ليَسمع منه وليعاقبه إن كان يستحق العقاب.

• لقد قضيت بالحق :

اختصم رجلان؛ أحدهما مسلم والآخر يهودي إلى عمر رضي الله عنه فرأى الحقَّ لليهودي فقضى له عمر، فقال اليهودي :والله لقد قضيتَ بالحقِّ، فقال له عمر :وما يدريك؟ قال اليهودي : واللهِ إنَّا لنجده مكتوبًا في التوراة :ليس قاضٍ يقضي بالحقِّ إلَّا كان عن يَمينه ملَك، وعن شِماله ملَكٌ يُسدِّدانه

ويُوفِّقانِه ما دام مع الحقِّ، فإذا ترك الحق عرَجا وتَركاه .

- **والله ما نسيتها:**

رَوى إياس بن سَلمة عن أبيه قال :مَرَّ عمر بن الخطاب ﷺ في السُّوق ومعه الدِّرَّة فخفَقني بها خَفقةً فأصابت رفَّ ثوبي، وقال :أمِط عن الطَّريق، فلمَّا كان العام المقبِل لقِيَني فقال :يا سلَمة، تُريد الحجَّ؟ فقلتُ :نعم، فأخذ بيدي وانطلَق بي إلى منزله، فأعطاني سِتَّمائة درهم وقال : استَعِن بها على حجَّتك، واعلم أنَّها بالخفقة التي خفَقتُك عامَ أوَّل، قلت :يا أميرَ المؤمنين، والله ما ذكَرْتُها حتى ذكَّرتَنيها، قال :"وأنا واللهِ ما نَسيتُها بعد".

- **حكمتَ فعدَلتَ فأمِنتَ فنِمت، يا عمر:**

لما أتاه الهُرمُزان مُمثِّلاً لِكسرى، ليُعلِن استسلامَ دولة الفرس، فذهبوا به إلى مَنزله فلم يَجِدْه، ثمَّ خرَجوا ليجدوه مُفترشًا الأرضَ في المسجد وفي يده الدِّرَّة، فقال الهرمزان : أين حُرَّاسه وأين حُجَّابُه؟ فقالوا :ليس له حُرَّاس ولا حُجَّاب، فقال :يَنبغي أن يكون نبيًّا، فقالوا :يَعمل بعمَل الأنبياء، فقال قولتَه المشهورة :

-"حكَمتَ فعدَلتَ فأمِنت فنِمت، يا عمر" .

والأمثلة والشَّواهد كثيرة، لا يتَّسع المجال لذِكرها جميعًا.

٣- رحمته ﷺ :

لقد كان العدل والرَّحمة من صِفات الفاروق ﷺ الأصيلة؛ فالرَّحمة كانت من صفاتِه التي وازنَت فيه العدلَ أحسَن مُوازَنة، فما كان عدلُه إلَّا رحمةً بالضُّعفاء والمحتاجين، فكان بحقٍّ – كما أسلَفْنا – يُشبه الثَّمرةَ حُلوة الطعم، طيِّبة الرائحة، ولكن لها غُلاف خشن جاف .

وليس أدلَّ على ذلك من أنَّ إسلامه كان مقرونًا برحمته لامرأتين ضعيفتين، رآهما في حالة من الشَّكوى والضعف وهما :أم عبد الله التي كانت تتهيَّأ هي وزوجها للهِجرة إلى الحبشة، فرقَّ قلبه لهما، والثانية :أخته فاطِمة التي لطمها لَمَّا عَلم بإسلامها فكان الدَّمُ الذي تَقطَّر من وجهها – كما أسلفنا – هو السكِّين الحادَّ التي كسرَت هذا الغلاف وتلك القشرةَ الجافَّة؛ ليتدفَّق يَنبوعُ الرَّحمة الذي بداخله.

والأمثلة والشواهد على رحمته ﷺ كثيرة، نذكر منها :

- كنَّا قد أسلفنا قصَّته ﷺ مع المرأة التي كانت تَغلي الماءَ لتلهي الأطفالَ الجياع حتى يناموا، ويذهب ويحمل لها الدَّقيقَ والسَّمن، ويَطهو لهم الطعامَ، وينتظر حتى يأكلوا ويناموا .
- وكذلك أسلفنا قصَّةَ المرأة التي كانت تحاوِل فِطامَ رضيعها قبل ميعاده؛ لتحصل على الرَّاتب الذي قرَّره عمر لكلِّ طِفل بعد فطامه، ويبكي عمر ﷺويقرِّر صَرف الرَّاتب لكلِّ مولود.

وهاك المزيد من هذه الشواهد :

عُمر يقبِّل ولده

استعمل عمر ﷺ رجلاً من بني أسد على عمل، فدخل ليسلِّم عليه، وأثناء اللِّقاء دخل على عمر أحد أولاده فداعبَه وقبَّله، فقال الأسدي : أتقبِّل ولدك يا أمير المؤمنين؟ فواللهِ ما قبَّلتُ ولدًا لي قط، فقال عمر :إن لم ترحم أولادك، وقد نزَع الله من قلبك الرحمة، فأنت بأولاد النَّاس أقلُّ رَحمةً، لا تَعمل لي عملاً أبدًا، وأعفاه من منصبه.

بشِّر صاحبك بغلام

في إحدى الليالي كان عمر ﷺ يدور حولَ المدينة ليتفقَّد أحوال الرعيَّة، فرأى خيمةً لم يرَها من قبل فأقبل نحوها، فسمِع أنينًا من الخيمة، ثمَّ نادى فخرج منها رجل، فقال له :مَن أنت؟ فقال :رجلٌ من البادية، وقد أصابَتْنا الحاجة، فجئتُ أنا وأهلي نطلب رفد (طعام) عمر، فقد علمنا أنَّه يرفد ويراعي الرعيَّة، فقال عمر :ما هذا الأنين؟ قال :هذه زوجتي تتألَّم من آلام الولادة، فقال :وهل عندكم مَن يتولَّى رعايتها وتوليدها؟ قال :لا، قال عمر : وهل عندك نفقة لإطعامها؟ قال :لا، فقال عمر :انتظر سآتي لك بالنَّفقة وبمن يُولِّدها، وهُرِع عمر إلى بيته، وكانت فيه زوجتُه أم كلثوم بنت عليِّ بن أبي طالب، فنادى :يا ابنة الأكرمين، هل لكِ مِن خيرٍ ساقه الله إليكِ؟ فقالت :وما ذلك؟ قال :هناك مِسكينة فقيرة تتألَّم من الولادة في طَرف المدينة، قومي وأعدِّي ما تحتاجه المرأة للولادة، وقام هو يأخذ الطَّعامَ ولوازم الطَّبخ وحمله على كتفه .

ولما وصَلا إلى الخيمة، دخلَت أمُّ كلثوم لتتولَّى عمليَّة الولادة، وجلس عمر خارج الخيمة مع زوجها؛ لِيُعِدَّ لهما الطَّعام، ولما وضعت المرأة، نادت أمُّ كلثوم من داخل الخيمة :يا أميرَ المؤمنين، بشِّر صاحبَك أنَّ الله أكرمه بغلام، وأنَّ زوجته بخير .

فلمَّا سمِع الرجل منها :"يا أمير المؤمنين" تراجَع إلى الخلف مُندهشًا، فلم يكن يَعرف أنَّه الخليفة عمر بن الخطاب، فتبسَّم عمر وقال له :اقترب اقترب يا أخا العرَب، نعم أنا عمر بن الخطاب، والتي ولَّدَت زوجتَك هي أمُّ كلثوم بنت علي بن أبي طالب، فخَرَّ الرجل باكيًا وهو يقول :آل بيت النُّبوَّة يولِّدون زوجتي، وأمير المؤمنين يَطهو لي ولزوجتي ! فقال عمر :على رِسلك يا أخا العرب، خُذ هذا وسآتيك من بيت المال بما يُصلحك، وسيُفرَض للوليدِ حقُّه .

لئن انطلقت لأغاروا علي

كان ﷺ يشفِق على الأطفال ويَحنو عليهم.

حدَّث سِنان بنُ سلمة :أنَّه كان في صباه يَلتقط البلحَ في أصول النَّخل مع بعض الصِّبية؛ إذ أقبل عُمر فتفرَّق الغِلمان وبقي هو في مكانه، فرأى ما مع الصَّبي من البلح وسَعِد به، فقال الصَّبي :يا أمير المؤمنين، أترى هؤلاء الصِّبية، لئن انطلقتَ لأَغاروا عليَّ وانتزَعوا ما معي، فمشى معه عُمر حتى بلَغ بيتَه.

رحمته ﷺ بالحيوان

لم تكن رحمته ﷺ قاصرةً على الإنسان من رعيَّتِه فحسب، بل كانت على الحيوان كذلك، فهو القائل :"لو أن دابَّة عثرَتْ في شطِّ الفرات لخشيت أن أُسأل عنها" .

عذبت بهيمة في شهوة عمر؟

في يوم اشتهى عمرُ ﷺ الحوتَ (سمك)، فذَهب يَرفَأُ (خادمٌ لعمر) في طلَب الحوت، وأخذ راحلتَه وسار بها ليلتين مُدبِرًا، وليلتين مُقبِلاً، وجاءه بالحوت.

ثم أخذ يرفأُ يَغسل الدابَّة، فنظر إليها عُمر فرأى عرقًا تحت أذنيها، فقال له :"عذَّبتَ بهيمةً في شَهوةِ عمر؟ لا واللهِ لا يَذوقه عمر، عليك بحُوتِك"، ورفض أميرُ المؤمنين أن يأكل ما اشتهَتْ نفسه لما رأى أن الدَّابَّة قد أُجهِدت في رحلتها هذه .

كان هذا بعضَ قليلٍ من الأمثلة والشَّواهد على رحمته ﷺ بكلِّ كائن كان تحت إمرته، إنسانًا كان أو حيوانًا.

٤ – تواضعه ﷺ :

لا شيء يميِّز الطَّبائعَ البشريَّة المتفوقة السويَّة مثلُ بُعدها عن الغرور، وإن كان هناك رجل لا بدَّ للغرور أن يقتحم حصونَه المنيعة لفرط مزاياه، وروعة أمجاده لكان هو الفاروق عُمر ﷺ ، وعنده من الأسباب التي تدعو إلى الزَّهو والفخار :

- فهو يَدخل الإسلامَ في حفاوةٍ بالِغةٍ من رسول الله ﷺ وصحبه.
- وهو يرى كيف أصبَح الإسلام دينًا جَهْوَريَّ الصوت، صادح الكلمة في اليوم الذي اعتنقه فيه، وأصبح المسلمون يَرُجُّون مكَّةَ بتكبيرهم بعد أن أصبح عمر بينهم.
- وهو يرى رسول الله ﷺ ينعَتُه "بالفاروق"، بعد أن فرَّق الله بإسلامه بين الحقِّ والباطل .
- وهو يرى أنه يَقترح على رسول الله ﷺ بعضَ آرائه، فينزل الوحي مؤيدًا له ويصير قرآنًا يُتلى.
- ثمَّ يصبح خليفة للمسلمين وأميرًا للمؤمنين، يَفتح الله على يديه بوابات العالم لدين الله، ويتحطَّم غرور القوى العظمى من فُرس ورومان.

ومع كلِّ هذا، فلم يجد الغرورُ لنفسه سبيلاً، على العكس؛ فقد كان قمَّة في التواضع والانكسار إلى الله.

وهاك بعض الشواهد على تواضعه ﷺ :

سمع الله قولَها فوق سبع سموات

يَخرج عمر ﷺ من المسجد ومعه الجارودُ العَبْدي، وفي الطَّريق يقابل امرأةً، فسلَّم عليها وردَّت عليه السلام ثمَّ قالت له وهو مُصغٍ مبتسِم :هيهِ يا

عمر، عهدي بك وأنت تسمَّى عُميرًا تُصارع الفِتْيان في سوق عكاظ، فلم تذهب الأيام حتى سُمِّيتَ أميرَ المؤمنين، فاتَّق الله في الرعيَّة، واعلم أنَّه مَن خاف الموت خشي الفوت، فبكى عمر.

فقال الجارودُ للمرأة :لقد اجتَرَأْتِ على أمير المؤمنين وأبكَيتِه.

فقال عمر :أما تَعرف مَن هذه؟ هي "خَوْلة بنت حَكيم" التي سَمِع الله قولَها فوق سَبع سمواتٍ وهي تُجادِل رسولَ الله ﷺ في زوجها وتَشتكي إلى الله، فعُمرُ واللهِ أَحرى أن يسمع كلامَها ...

يراعي امرأة عجوزًا عمياء

خرج عُمر ﷺ في سواد الليل فرآه طَلحة، فذهب عمر يَدخل بيتًا، ثمَّ خرج منه ليدخل بيتًا آخر، فلمَّا أصبَح طلحة، ذهَب إلى ذلك البيت، فإذا بعجوز عمياء مُقعَدةٍ، فقال لها :ما بالُ هذا الرَّجل يأتيكِ؟ قالت :إنَّه يتعاهدني مِن كذا وكذا، يأتيني بما يُصلحني ويُخرِج عنِّي الأذى، فقال طَلحة : ثَكلتك أمُّك يا طَلحة، أعثَراتِ عُمر تَتَّبع؟!

فكان أمير المؤمنين يتعهَّد المرأة العجوز العمياء، يُنظِّف لها بيتَها، ويطهو لها طعامَها، ويُجهِّز لها كلَّ ما تحتاجه.

أي عبد هو أعبد منِّي؟

قدِم على عمر وفدٌ من العِراق وفيهم الأحنَف بن قَيس في يومٍ شديد الحرِّ، وعمر متعمم بعمامة تَقيه من الحرِّ، يطلي بعيرًا من إبل الصَّدقة بالقَطِران – لعلاجه من قَرْح أصابه – فقال :يا أحنف، ضَع ثيابَك وهلمَّ فأعِنْ أميرَ المؤمنين على هذا البعير؛ فإنَّه من إبل الصَّدقة فيه حقُّ اليتيم، والأرملة، والمسكين، فقال رجل من القوم :يغفر الله لك يا أميرَ المؤمنين،

فهلَّا تأمر عبدًا من عَبيد الصَّدقة فيَكْفيك؟

فقال عمر :وأيُّ عبد هو أعبَد منِّي ومِن الأحنف؟ إنَّه مَن وَلِي أمرَ المسلمين يجب عليه ما على العَبد لسيِّده من النَّصيحة وأداء الأمانة ...

أردت أن أعرف نفسي قدرها

ينادي عُمر :ﷺ الصَّلاةَ جامعةً، فلمَّا اجتمع النَّاس، صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلَّى على رسوله ﷺ ثمَّ قال" :أيُّها النَّاس، لقد رأيتني أرعى على خالاتٍ لي من بني مخزوم، فيقبضن لي القبضةَ من التَّمر والزَّبيب، فأظلُّ يومي وأي يوم"، ثمَّ ينزل مِن على المنبر بين دَهشة المجتمعين وتساؤلهم ...

ويتقدَّم عبد الرحمن بن عوف ويقول له :يا أميرَ المؤمنين، ماذا أردتَ من هذا؟ ما زِدتَ أن قَمِئتَ أي : (عِبتَ) نفسَك؟ !فيقول عمر :"إنِّي خلَوتُ بنفسي فحدَّثَتْني :أنت أميرُ المؤمنين، مَن ذا أفضلُ منك؟ !فأردتُ أن أعرِّف نفسي قدرها" .

البريد على وشك الرحيل

يَخرج أميرُ المؤمنين ﷺ وهو يَرتدي بردةً بها إحدى وعشرون رقعة، ويقرع أبوابَ الدور، ويطلب من النِّساء اللواتي غاب أزواجهنَّ في ميادين القتال، أن يجلسن وراء الأبواب ويُمْلين عليه رسائلهنَّ لأزواجهنَّ، ويقول لهنَّ : أسرعوا فإنَّ البريد على وشك أن يرحل.

هل لكُنَّ في السوق حاجة؟

وهو نفسه أمير المؤمنين ﷺ يقول لهنَّ :اذكُرنَ لي حاجاتِكنَّ، ومَن كانت لها في السُّوق حاجة، فلتَذكُرها أو لِتُرسِل معي خادمَها إن كان لها

خادم؛ فإنِّي أخاف أن تُخدَعن في البيع والشِّراء، ثمَّ يَمضي إلى السوق ووراءَه سِربٌ طويل من الخدم، وهناك يَشتري بنَفسِه لِيُلبِّيَ حاجات هؤلاء النِّساء اللاتي غاب عنهنَّ أزواجُهنَّ.

فهذا هو الفاروق عمر ﷺ في تواضُعه وبساطته، التي تَكشف الحماقة الكبرى التي يخوض فيها كلُّ من يأخذه الزهو والصلف بمنصبٍ يناله، أو نصر يبلغه، أو ثروة يَجمعها، فما الصلف إلَّا عِبء ثَقيل يحمله المخدوعون به، أمَّا البساطة الصَّادقة التي عاشَها عمر ﷺ فتلك هي السَّعادة حقًّا، التي يتمثَّل فيها رجوع النَّفس إلى جوهرها، وتفوُّقها على كلِّ صلفٍ وغرور.

٥- خوفه ﷻ من الله:

مع أن الفاروق عمر ﷺ كان يحمل أعباء الأمَّة بأسرها، إلَّا أنه لم يَنسَ أبدًا حظه من العبادة التي يتزود بها في السفر إلى ربه جلا وعلا .وما كان شيء يحركه سوى خوفه من الله ﷻ .

وهاك بعض الأمثلة والشواهد على ورعه وخوفه من الله:

عبادته

- كان الفاروق ﷺ يصلِّي ما شاء الله له أن يصلِّي، حتى إذا كان آخر اللَّيل يوقِظ أهلَه ويقول : الصَّلاةَ ..الصلاة.
- وكان أكثر النَّاس صيامًا، وأكثرهم قيامًا.
- وكان يقول :"لئن نِمتُ بالنَّهار لأضيعنَّ الرعيَّة، ولئن نِمتُ بالليل لأضيعنَّ نفسي، فكيف بالنَّوم مع هذين؟
- وكنَّا قد أسلفنا في معرض حديثنا عن أسلوبه ﷺ في الحُكم، كيف كان خوفه من الله وورعه، لما كان يَخرج في حرِّ الصيف ليلحق بإبل الصَّدقة الشاردة، وكذلك ما فعله مع ابنه عبد الله لما رأى إبلاً له سمانًا ...

بَخٍ بخٍ بني الخطاب!

يقول أنَس بن مالك :خرجتُ مع عمر ﷺ يومًا، حتى دخل حائطًا (بُستانًا)، فسمعتُه وهو يقول :"عمر بن الخطَّاب أمير المؤمنين، بَخٍ بخ بني الخطاب !لتَتقينَّ الله أو ليُعذبنَّك شديدًا".

ما حبسه الله عن نبيِّه وعن أبي بكر إرادة شر لهما!

يقول ابن عباس :دعاني عمر فأتيتُه، فإذا بين يديه نِطع وعليه ذهَب منثور، فقال :هلمَّ فاقسم هذا بين قومك، فالله أعلم حيث زَوى (أبعد) هذا عن نبيِّه ﷺ وعن أبي بكر، وأعطاني إياه، لِخَير أم لِشر؟

قال ابن عباس :فأكببتُ أَقسِم، فسمعتُ صوت بكاء، فإذا صوت عمر يَبكي ويقول :"والذي نفسي بيده، ما حبسه عن نبيِّه ﷺ وعن أبي بكر إرادةَ شرٍّ لهما وأعطاه عمر إرادةَ خير له" .

يا ليتني هذه التبنة!

روي أنَّ عمر ﷺ أخذ تبنة من الأرض فقال" :يا ليتني كنتُ هذه التبنة، ليتني لم أكُ شيئًا، ليت أمِّي لم تلدني."!

الفقراء لهم الجنَّة!!

لما قدِم عمر ﷺ الشَّامَ، صُنع له طعام لم يُرَ مثلَه من قبل، فلمَّا أُتي به، قال :هذا لنا، فما لفقراء المسلمين الذين باتوا لا يَشبعون من خُبز الشعير؟ ! فقيل له :الفقراء لهم الجنَّة ...

فاغرورقَتْ عينا أمير المؤمنين وقال :"إن كان حظُّنا في هذا، ويذهب

أولئك بالجنَّة، فلقد بانوا بَوْنًا بعيدًا"؛ أي :(فازوا فوزًا مبينًا).

{إنَّ عذاب ربك لواقع * ماله من دافع}

كان الفاروق ﷺ كثيرَ البكاء، حتى حفرَت الدُّموع خطَّين أسودين على وجهه، وكان يمرُّ بالآية في وِرده فيَبكي وقد يغشى عليه، قرأ في يوم: {إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ * مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ} [الطور: ٧، ٨]، فبكى وأُغشي عليه، ومرض ثلاثة أيام.

ماذا تقول لربك غدًا؟!

يخرج عمر ﷺ يومًا فيلقاه رجلٌ ويقول له :يا أمير المؤمنين، انطلق معي فأَعِدْني على فلان؛ فقد ظلَمني، فرفع عمرُ دِرَّته وخفَق بها على الرَّجل وقال له :تَدَعون أمير المؤمنين وهو مُعرِض لكم مُقبل عليكم، حتى إذا شُغل بأمرٍ من أمور المسلمين، أتيتُموه :أعِدْني ..أعدني، فانصرف الرجلُ غضبانَ أسِفًا، فقال عمر :عليَّ بالرجل، فلمَّا عاد ناوله الدرَّة وقال له :خذ واقتصَّ لنفسك منِّي، قال الرجل :لا واللهِ ولكنِّي أدَعها لله، وانصرف.

فعاد عمر إلى بيته فصلَّى ركعتين، ثمَّ جلس يحاسِب نفسه ويقول :

-"ابنَ الخطاب، كنتَ وَضيعًا فرفعك الله، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنتَ ذليلاً فأعزَّك الله، ثمَّ حملك على رِقاب النَّاس، فجاءك رجل ليَستعديَك فضربتَه، فماذا تقول لربِّك غدًا إذا أتيتَه؟."!

ماذا تقول لربِّك غدًا؟ !هذه هي العبادة التي تُمثِّل دِينَ عمر ﷺ ومنهاجه.

لا وِزر ولا أجر

يقول عمر لأبي موسى الأشعري :يا أبا موسى، هل يسرُّك أنَّ إسلامنا مع رسول الله ﷺ، وهِجرتنا معه، وشهادتنا وعمَلَنا كلَّه يُردُّ علينا، لقاءَ أن نَنجوَ كفافًا لا لَنا ولا علينا؟ فيجيبه أبو موسي :لا واللهِ يا عمر، فلقد جاهدنا وصُمنا وصلَّينا، وأسلم على أيدينا خَلقٌ كَثير، وإنَّا لنرجو ثوابَ ذلك.

فيجيبه عمر باكيًا :"أمَّا أنا، فوالَّذي نفسي بيده، لوددتُ أنَّ ذلك كله يُردُّ عليَّ، ثمَّ أنجو كفافًا رأسًا برأس، لا وِزر ولا أجر".

أفٍّ لهم مِن بعدك يا أمير المؤمنين!

يقول عمر رضي الله عنه لعبد الرحمن بن عوف :"يا عبد الرحمن، لقد لِنتُ للناس، حتى خشيتُ اللهَ في اللِّين، ثمَّ اشتددتُ عليهم حتى خشيتُ اللهَ في الشدَّة، وايمُ الله، لأَنا أشدُّ منهم فرَقًا وخوفًا، فأين المخرج؟."!

فيقول ابن عوف :أفٍّ لهم مِن بعدك يا أمير المؤمنين!

خوفه على المال العام

كانت الدُّنيا تقوم ولا تَقعد إذا سمِع رضي الله عنه أنَّ درهمًا واحدًا من أموال المسلمين قد اختُلِس، أو أُنفق في ترَف أو إسراف، وكان يُقسم :"لو أنَّ بعيرًا من إبل الصَّدقة ضاعت على ضفاف دِجلة أو الفرات، وعمر بالمدينة لخاف أن يَسأله الله عنه يوم القيامة".

لخفت أن أكون أنا هو!

كل هذا الخوف من الله، رغم ما بشَّره به رسولُ الله ﷺ، إلَّا أن هذا الخوف كان مُلازمًا له ﷺ ، حتى إنَّه كان يقول :"لو نادى منادٍ :أيُّها النَّاس، إنَّكم داخلون الجنَّةَ كلُّكم إلَّا رجلاً واحدًا لخفتُ أن أكون أنا هو، ولو نادى مُنادٍ :أيُّها النَّاس، إنَّكم داخلون النَّار كلكم إلَّا رجلاً لرجوتُ اللهَ أن أكون أنا هو".

هكذا كان خَوف الفاروق ﷺ مِن الله، فكان يَعبد اللهَ كأنَّه يراه؛ وهذا هو حال المحسِنين كما أخبرَنا رسول الله ﷺ...

٦- كرمه ﷺ:

إنَّ الكرم كان سِمة عامَّة من سِمات أصحاب رسول الله ﷺ، وهم بذلك يَقتدون بمعلِّم البشرية ﷺ، وعمرُ بن الخطاب ﷺ كما هو عَهده دائمًا يرنو إلى الأعلى والأرقى في كلِّ فَضيلة، فكان في كرمه كذلك يصبو إلى أعلى الدَّرجات؛ لينال الأجرَ والثَّواب من الله ﷻ.

- روي عن الأعمش أنَّه قال: كنتُ يومًا عند عمر بن الخطاب، فأُتي باثنين وعشرين ألف درهم، فلم يَقم من مجلسه حتى يفرقها، وكان إذا أعجبه شيء من ماله تصدَّق به، وكان كثيرًا ما يتصدَّق بالسكَّر، فلمَّا سُئل عن ذلك قال: إنِّي أحبُّه، وقد قال تعالى:
- {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [آل عمران: ٩٢].
- يقول أسلَمُ مولى عمر ﷺ :ما رأيتُ أحدًا قط بعد رسول الله ﷺ من حين قُبض، كان أجدَّ ولا أجودَ مِن عمر، أي : إنَّه لم يكن أحدٌ أجدَّ

منه في الأمور، ولا أجوَدَ منه في الأموال.

٧- فِراسته وفصاحته ﷺ :

لقد امتنَّ الله على الفاروق ﷺ بنِعمة الفِراسة والفِطنة، وهو أهلٌ لهذا الفَضل، فحياته كلُّها مكرَّسة لله، منذورة لطاعته وخدمة خَلقه، وكان ذكاؤه سِنادًا للحق لا للباطل، وهو ذَكاء الفِطرة السويَّة، فكان عمر كثيرًا ما يقول عن نفسه :"لست بالخِبِّ (المخادِع)، ولا الخبُّ يَخدعني"؛ وهي عبارة تصوِّر طبيعةَ نبوغه وذكائه؛ فهو ليس ذكاءً عدوانيًّا هجوميًّا، ولكنَّه ذكاءُ مقاومةٍ وبطولات، وهذا هو الحدُّ الفاصِل بين الدَّهاء المحمود، والدَّهاءِ المذموم، أو بين الفَهم الصَّحيح والخبث القَبيح .

يقول رسولُ الله ﷺ مشيدًا بهذه الفِطنة :« **إنَّ الله جعل الحقَّ على لِسان عمر وقلبه** ».

القرآن يؤيِّد فطنة عمر

لذلك وافَقه اللهُ في كثير من المواقف، فأنزل القرآنَ موافقًا لرأيه.

مقام إبراهيم

يقول عمر ﷺ لرسول الله ﷺ يومًا :يا رسولَ الله، أليس هذا مَقام أبينا إبراهيم؟ فيقولُ رسول الله ﷺ : «**نعم**»، فيقول عمر :فلو اتَّخذنا منه مُصلًّى؟

فما هي إلَّا أيَّام حتى ينزل الوحي بالآية: {وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ

وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ} [البقرة: ١٢٥].

ومثل هذه الواقعة كثير؛ مثل آية الحجاب، وأسارى بَدر وغيرها...

ومن أجلِ ذلك جعَله رسولُ الله ﷺ من مصادر التشريع حين قال :

- «**إنِّي لا أدري مقامي فيكم، فاقتَدوا باللَّذَين مِن بعدي؛ أبي بكرٍ وعمر**» .

وهاك بعض الأمثلة والشواهد على من فراسته وفصاحته :

- **وقع في قلبه أنَّه أبو مسلم:**

كان الأسودُ العَنْسيُّ قد ادَّعي النُّبوة باليمن، فبعث إلى أبي مُسلم الخولاني – الذي لم يؤمن به ولا بنبوَّته – فأتاه بنار عَظيمة، ثمَّ ألقاه فيها، فلم تَضُرَّه النَّار !فقيل للأسود :لا بدَّ أن يرحل، وإلَّا أفسد عليك مَن تبعك، فأمره بالرَّحيل، فقدم إلى المدينة، فلمَّا دخل المسجدَ يصلِّي، بَصُر به عمرُ رضي الله عنه ، وكان قد وقَع في قلبه أنَّه أبو مسلم، فقام إليه وسألَه، ولما علم أنَّه هو أبو مسلم اعتنَقه وبكى، وقال :"الحمد لله الذي لم يُمِتني حتى أراني مِن أمَّة محمد ﷺ مَن صُنِع به كما صُنع بإبراهيم الخليل" .

- **هلَّا سافرت معه:**

يقول الفاروق رضي الله عنه : " أحَبُّكم إلينا قبل أن نَراكم أحسَنُكم سيرة، فإذا تكلَّمتم فأبيَنُكم مَنطقًا، فإذا اختبرناكم فأحسنُكم فعلاً" .

فالمظاهر العابِرُة عنده، لا تَكفي للحُكم على الآخرين :

يَسمع واحدًا يُطْري آخَر ويمتدحه قائلاً :إنَّه رجلُ صِدْق، فيسأله عمر : هل تعاملتَ معه بالدِّرهم والدينار؟ يقول الرجل :لا، يقول عمر :هل

سافرتَ معه؟ يقول الرجل :لا، يقول عمر :هل كانت بينكما خصومة يومًا؟ فيقول الرجل :لا.

فيقول عمر :"إذًا لا عِلم لك به، لعلَّك رأيتَه يَرفع رأسَه في المسجد ويَخفِضه".

وهكذا الفاروق ﷺ في معرفته بالنَّاس لا يَكتفي بتمحيص جانبِ العبادة فيهم، على الرغم من عُلوِّ مكانة العبادة والعابدين عنده، إنَّما يطل على الشخصيَّة بكلِّ جوانبها ...

• لا تكونوا أعوانًا للشيطان عليه:

يأتيه رجل يَسعى ذات يوم، ظانًّا أنه يَحمل إليه بشرى، فيقول :

يا أميرَ المؤمنين، رأيتُ فلانًا وفُلانةَ يتَعانقان وراء النَّخل، فيُمسك عمرُ بتَلابيبه ويَعلوه بمِخفَقتِه ويقول له :هلَّا سترتَ عليه ورجوتَ له التوبة؛ فإنَّ رسول الله ﷺ قال : «**مَن ستَر على أخيه، ستَره الله في الدُّنيا والآخرة**»، وكان ﷺ يوصي النَّاسَ فيقول :"هكذا فاصنَعوا، إذا رأيتم أخًا زَلَّ زلَّة فسَدِّدوه، وارفُقوا به، وادْعوا اللهَ أن يتوب عليه، فلا تكونوا عونًا للشيطان عليه".

• الاعتراف ليس دائمًا سيد الأدلَّة:

لقد دَرَج العُرف والقانونُ على اعتبار الاعتراف هو سيِّدَ الأدلَّة؛ وهذا حق، ولكنَّ أمير المؤمنين يُقرِّر بفِطنته أنه ليس كذلك دائمًا، فلا بدَّ للاعتراف لكي يُؤخَذ كدليل ألَّا يُعزل عن الظُّروف التي تُحيط به، فلربَّما يجيء نتيجة خَوف أو إكراه، وعندئذ يَفقد قيمتَه.

يقول عُمر ﷺ :"ليس الرَّجل بمأمون على نفسه، إن أجعتَه أو أخَفتَه أو حبستَه، أن يُقِرَّ على نفسه بما لم يفعل".

- **المال في مَنظور عمر:**

يقول الفاروق ﷺ عن المال" :ألا إنِّي ما وجدتُ صلاحَ هذا المال إلَّا في ثلاث :أن يؤخَذ في حقٍّ، ويُعطَى في حقٍّ، ويُمنع من باطل ...ألا وإنَّما أنا في مالكم هذا كوالي اليتيم، إن استَغنيتُ استَعففتُ، وإن افتَقرتُ أكَلتُ بالمعروف".

- **أعلم أنَّك حجر لا تضر ولا تنفع:**

ومن فِطنته ﷺ أنّه لم يكن يؤمن بشيء يَنفع أو يضُرُّ غير ما عُرفت أسباب نفعه وضره، فكان ينظر إلى الحجر الأسود فيقول كلَّما استلمه : "إنِّي أعلم أنَّك حجَر لا تضرُّ ولا تنفع، ولولا أنِّي رأيتُ رسولَ الله ﷺ يقبِّلك ما قبَّلتُك".

وسمع أنَّ النَّاس يأتون الشَّجرةَ التي بايَع رسولُ الله ﷺ تحتَها بيعة الرِّضوان، فيُصلُّون ويتبرَّكون بها، فأمر أن تُقطع مخافة عودة النَّاس إلى الوثنيَّة والتوكل على الجماد .

- **الفصاحة والحكمة في رسائله وأقواله المأثورة:**

إنَّ للفاروق ﷺ فصاحةً وحِكمة في رسائله إلى وُلاته وعمَّالِه.

وقد أسلَفْنا رسالتَه إلى أبي موسى الأشعري، موضحًا فيها منهجَ القَضاء الذي يَنبغي أن يتَّبعه .

ورسالته إلى سعد بن أبي وقَّاص، موضحًا فيها كيف يتعامَل مع جنوده، ومع أعدائه ...وغيرها من الرسائل، التي أدلى فيها عمر ﷺ برأيه في مَشاكل شتى؛ في القضاء والعمارة والجهاد وفي أمانة الحكم، وفيها وبَيْن سطورها تتألَّق بديهته ونبوغه .

وهاك باقة من الأقوال المأثورة للفاروق عمر :

نصائح عامَّة

-"الذي لا يَعرف الشرَّ أحرى أن يقع فيه".

-"أعقل النَّاس أعذرهم للناس".

-"لا يُعجبنَّكم مِن الرجل طنطنته، ولكن مَن أدَّى الأمانة إلى مَن ائتمنه، وسَلِم النَّاسُ من لسانه ويده".

-"ليس خيركم مَن عمِل للآخرة وترك الدُّنيا، أو عمِل للدنيا وترَك الآخرة، ولكن خيركم مَن أخذ من هذه ومن هذه".

-"إنَّ المتوكِّل الذي يُلقي حبَّةً في الأرض ويتوكَّل على الله".

-"لا يَقعدْ أحدكم عن طلَب الرِّزق ويقول :اللهمَّ ارزقني !وقد علمتم أنَّ السماء لا تمطِر ذهبًا ولا فضَّة، وأنَّ الله يرزق النَّاسَ بعضَهم من بعض".

- كلما رأى رجلاً منكِّسًا رأسه ليُظهِر التخشُّع صاح به :

"ارفع رأسَك؛ فإنَّ الخشوع لا يَزيد على ما في القَلب، فمَن أظهر للنَّاس خشوعًا فوق ما في قلبه فإنَّما أظهر للنَّاس نِفاقًا إلى نِفاق" .

-"علِّموا أبناءكم الرَّميَ والسِّباحةَ وركوب الخيل".

نصائح صحية

-"إيَّاكم والسِّمنة؛ فإنها عقلة"؛ أي :(مقيِّدة كالقيد أو العقال).

-"إيَّاكم والبِطْنة؛ فإنَّها مَكسَلة عن الصلاة، ومَفسَدة للجسم ومؤدية للسقم" .

-"عليكم بالقصد في قُوتِكم أي : (عدم الإفراط في الأكل)؛ فهو أبعد من

السَّرف، وأصح للبدن، وأقوى على العبادة".

وهكذا كان ذَكاء عمر ﷺ وفِطنتُه وفَصاحته، لا تَعمل لخِدمة صاحبِها وإنَّما تعمل لله، ومع الله في سَبيل الخير والرحمة؛ فلقد كان ذَكاءَ رجلٍ أوَّاب؛ مِن الله مَأْتاه، وإلى الله مَردُّه ومُنتهاه.

٨- كراماته ﷺ :

إنَّ الكرامات من الأشياء التي امتنَّ الله بها على أوليائه الصَّالحين؛ فلقد كان الفاروق ﷺ مشهورًا بين معاصريه بمكاشفة الأسرار الغيبيَّة؛ إمَّا بالفِراسة أو الظنِّ الصَّادق أو الرُّؤية أو النَّظر البعيد؛ وكلها إلهامات مِن الله، ولقد امتنَّ الله على الفاروق ﷺ بباقة من الكرامات.

نذكر منها :

- **يا ساريةُ، الجبل!**

وجَّه الفاروقُ جيشًا، وعلى رأسه رجل يُقال له :ساريةُ بنُ حِصْن، وبينَما كان ﷺ يَخطب بالمدينة خُطبةَ الجمعة، فالتفتَ من الخطبة وجعل يُنادي : يا ساريةُ، الجبَلَ !يا ساريةُ، الجبلَ؛ ثلاثًا، فلم يَفهم السامعون مُرادَه، فلمَّا قُضيت الصَّلاة سأله عليُّ بن أبي طالب :ما هذا الذي ناديتَ به؟ !فقال : وقَع في خَلَدي أنَّ المشركين هَزموا إخوانَنا، وأنَّهم يمرُّون بجبل، فإن عدَلوا إليه قاتَلوا مَن وجَدوه وظفروا، وإن جاوزوه هلَكوا، فخرَج منِّي هذا الكلام، وبعد شهر جاء البَشير، فسأَله عمر، فقال :يا أمير المؤمنين، كِدْنا نُهزَم، فبينما نحن كذلك؛ إذ سَمِعنا مُناديًا وكأنك تَصيح بنا :يا ساريةُ الجبلَ؛ ثلاثًا، فأسنَدْنا ظهورَنا للجبل، فهزَمهم اللهُ وفتح علينا بالنَّصر .

• **مِن عمر بن الخطاب إلى نهر النيل:**

لما فُتِحت مِصر، أتى أهلُها عمرَو بن العاص فقالوا :يا أمير، لِنيلنا هذا سُنَّة، لا يَجري إلَّا بها !قال :وما ذاك؟ قالوا :إذا كانت اثنا عشرةَ ليلة خلَت من هذا الشَّهر، عمَدْنا إلى جاريةٍ بِكرٍ من أبَويها، فأرضَيْنا أبويها وجعَلنا عليها مِن الحليِّ والثِّياب أفضلَ ما يكون، ثمَّ ألقيناها في النِّيل، فقال لهم عمرٌو :إنَّ هذا لا يكونُ في الإسلام، والإسلامُ يَهدِم ما قبلَه، ثمَّ كتَب إلى عمر بن الخطاب بذلك.

فكتَب عمرُ إليه :إنَّك أصبتَ بالذي فعَلتَ، وإنِّي قد بَعَثتُ لك بِطاقةً داخِلَ كتابي هذا، فألْقِها في النِّيل، فلمَّا قَدِم كِتابُ عُمر، أخذ عمرٌو البطاقةَ، فإذا فيها :"مِن عبد الله عمرَ بن الخطَّاب أميرِ المؤمنين إلى نيل أهلِ مصر، أمَّا بعد :فإنَّك إن كنتَ تجري بأمرك فلا تَجْرِ ولا حاجةَ لنا بك، وإن كنتَ تَجري بأمر الله الواحد القهار، فهو الذي سيُجريك، ونسأل اللهَ تعالى أن يُجريَك"، فألقى عَمرٌو البطاقةَ في النِّيل، فأصبَحوا وقد أجرى الله النيلَ سِتَّة عشَر ذِراعًا في ليلة واحدة، وقطَع الله هذه السُّنةَ السيِّئة عن أهل مصر إلى اليوم .

٩– حبُّه ﷺ لرسول الله ﷺ، وحبُّ رسول الله ﷺ له:

لقد كان حبُّ عمر لرسول الله ﷺ حبًّا لا حدود له، فكان عمرُ يحبُّ رسولَ الله ﷺ حُبَّ إعجاب، ويؤمن به إيمانَ إعجاب، سمِع عمر مرَّةً رسولَ الله يناديه بكلمة «**يا أخي**» فظلَّ يَذكُرها مدى الحياة، لما استأذن رسولَ الله ﷺ في العُمرة فأذِن له، وقال : **يا أخي**، «**لا تَنسَنا من دعائك**»، يقول عمر بعدها كلَّما ذكرها :"ما أُحِبُّ أنَّ لي بها ما طلَعَتْ

عليه الشَّمسُ من قوله :يا أخي ."!

وهاك بعض الشواهد على حبِّه لرسول الله ﷺ :

- **الآن الآن يا عمر:**

دخل عمر رضي الله عنه على رسولِ الله ﷺ وقال : يا رسولَ لله، لأنتَ أحبُّ إليَّ مِن مالي وولدي، فقال له رسول الله ﷺ : «**لا يَكتمل إيمان المرء، حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه التي بين جنبيه**»، فقال عمر : فإنَّه الآن واللهِ، لأنتَ أحب إليَّ مِن نَفسي يا رسولَ الله، فقال رسولُ الله ﷺ : « **الآنَ الآن يا عمر، يَكتمل إيمانك**».

- **يتناوب مع جاره مصاحبة رسول الله ﷺ:**

كان عمر رضي الله عنه يَحرص كلَّ الحِرص على ألَّا تفوته لَحظة ولا طَرفة عَين بعيدًا عن رسول الله ﷺ، ليَستمتِع برؤيته وينهل من علمه، فكان يقول : "كنت أنا وجاري الأنصاري، نتناوب النزولَ على رسول الله ﷺ؛ فينزل يومًا وأذهب أنا إلى عملي، وأنزِل يومًا ويذهب هو إلى عمله، فإذا نزلتُ جئته بخبر ذلك اليوم من وحيٍ وغيره، وإذا نزَل هو فعل ذلك" .

- **أبوها أحبُّ إلى رسول الله ﷺ من أبيكِ:**

في يوم كانت زوجة عمر رضي الله عنه تراجِعه، فلمَّا سألها :كيف بها تفعل ذلك؟ قالت : أأنتَ خير من رسول الله ﷺ؟ !فإنَّ ابنتك تراجِع رسولَ الله ﷺ، فذهب عمر مغاضبًا إلى حَفصة وقال لها : أما تراجعين رسولَ الله

ﷺ؟ !فلا تنظري إلى عائشة؛ فإنَّها أحبُّ إلى رسول الله ﷺ منكِ، وأبوها أحبُّ إلى رسول الله ﷺ من أبيكِ.

- **حبُّه لآل بيت رسول الله:**

كما كان حبُّه ﷺ لرسول الله ﷺ جمًّا، كان حبُّه كذلك لآل بَيت رسول الله ﷺ، وقد أسلفنا أنَّه عند تقسيم العطايا كان لآل رسول الله ﷺ النَّصيب الأوفى والمكان المقدَّم بين الصَّحابة.

- **وهل أنبت الشَّعر على الرأس غيركم؟**

كان أمير المؤمنين يَنتظر الحُسين بن علي ﷺ ، وفي الطَّريق وهو ذاهب إليه، لقيه ابنه عبد الله بن عمر، فسأله :من أين جئتَ؟ قال :استأذنتُ على عمر فلم يَأذن لي، فرجع الحُسين ولم يذهب إليه، ثمَّ لقيه عمر فسأله معاتبًا :ما منعك يا حُسين أن تأتي؟ قال :قد أتيتُك، ولكن أخبرني عبدُ الله بن عمر أنَّه لم يؤذن له عليك فرجعتُ، فعزَّ ذلك على عمر وقال :أأنت عندي مِثله؟ !كرَّرها ثلاثًا، وهل أنبَتَ الشَّعرَ على الرأس غيركم؟

- **الآن طابت نفسي**

كسا عمرُ ﷺ أصحابَ رسول الله ﷺ، فلم يكن في الأكْسِية ما يَصلُح للحسن والحسين، فبعَث إلى اليمن فأَتى لهما بكِسْوة تَصلح لهما، ولما رآها وهما مُرتَدِيانها قال :الآن طابت نفسي.

- **يَستسقي بالعباس**

كان عمر كثيرًا ما يَستسقي بالعباس بن عبد المطلب ويقول :"يا أللهَ،

كنَّا نَستسقي برسولك فتَسقينا، ورسول الله ﷺ لم يَعد بيننا، فذلك عَمُّ رسول الله ﷺ نَستسقيك به فاسقنا" .

- **لَإسلامُك أحب إليَّ من إسلام الخطاب**

كان يُسعِد الفاروقَ ﷺ كلُّ ما يُسعد رسولَ الله ﷺ؛ ففي يوم فتح مكَّة، لما دخَل العبَّاس ومعه أبو سُفيان إلى خيمة رسول الله ﷺ، ثمَّ دخَل عمر فقال :يا رسول الله، هذا عدوُّ الله أبو سفيان، فدَعني أضرب عُنقَه، فقال العبَّاس :مهلاً يا عمر، إنِّي قد أجرتُه، فواللهِ لو كان رجلاً من رجال بني عَديٍّ (آل عمر) ما قلتَ هذا !فقال عمر :مهلاً يا عبَّاس، فوالله لَإسلامك أحَبُّ إليَّ من إسلام الخطَّاب لو أسلَم؛ لأنَّ إسلامَك كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطَّاب .

حب رسول الله ﷺ لعمر

وكما كان عمر ﷺ يحبُّ رسولَ الله ﷺ، كان رسولُ الله ﷺ يحبُّه حبًّا كبيرًا .

وها هي باقة من مَناقِب الفاروق ﷺ وما ورد عن رسول الله ﷺ في حقِّه :

- قال رسول الله ﷺ : «**إنَّ أهل الدَّرجات العُلا ليَراهم مَن تحتَهم، كما ترون النَّجمَ السَّاطع في أُفق السماء، وإنَّ أبا بكر وعمر فيهم، وأنعَما**».
- وقال ﷺ : «**لو كان بَعدي نبي لكان عمر بن الخطاب**» .

- وقال ﷺ : «**بينما أنا نائم، رأيتُ النَّاس عُرضوا عليَّ وعليهم قُمُص** جمع [قَميص]، **منها ما يَبلغ الثُّدِيَّ، ومنها ما يبلغ دونَ ذلك، وعُرض عليَّ عمرُ وعليه قَميص اجترَّه**»، أي :طويل يجرُّه خلفه، فقالوا :فما أوَّلتَه يا رسولَ الله؟ قال : «**الدِّين**».
- وقال ﷺ : «**بينما أنا نائم؛ إذ رأيتُ قدحًا فيه لبن، فشربتُ منه حتى ارتويتُ، ثمَّ أعطيتُ فَضلي لعمر بن الخطاب**»، قالوا :وما أوَّلتَه يا رسولَ الله؟ قال : «**العِلم**».
- وقال ﷺ : «**يا بن الخطَّاب، والذي نفسي بيده، ما لقيك الشَّيطان سالِكًا فجًّا، إلَّا سلَك فجًّا غيرَ فجِّك**».

وهذا قليل مِن كثير من مَناقبَ كثيرة للفاروق رضي الله عنه، يصعب رصدها جميعًا.

١٠- ثقافته رضي الله عنه :

- إذا تحدَّثنا عن ثَقافة عمر، جاز لنا أن نقول: إنَّه كان رجلاً وافِر الحظِّ مِن ثقافة زمانه، إنَّه كان أديبًا، مؤرِّخًا، فقيهًا، مشاركًا في سائر الفنون، مدربًا على الرياضة، خطيبًا مطبوعًا على الكلام.
- من ناحية الأدَب فيه وناحية الدين معًا، حثُّه على تعلُّم العربية، ومعرفة قواعد النَّحو؛ لأنَّه قِوام العربية.
- من المشهور عن عمر أنَّه كان عليمًا بتاريخ العرب، ومَفاخر أنسابها، جنح إلى ذلك بطبعه ونقله عن أبيه.
- لم يَقصر عِلمَه ونصائحه على علم الدِّين، ولا علم الأدب واللغة فقط، بل تناول كلَّ ما عرَف من معارف زمانه فقال: «تعلَّموا من النجوم ما يدلُّكم على سبيلكم في البرِّ والبحر».

- كان عمرُ يَعرف جغرافية الشَّرق كأحسن ما يعرفها رجل في وطنه، وكذلك علم الحساب والرياضيات.
- في الخَطابة: كان له فَم يمتلئ بالكلام، وكان جهوريَّ الصوت، واضحَ النُّطق، سليم الشفتين في إخراج الحروف.

كان هذا عزيزي القارئ ملخَّصًا لشمائل عمر بن الخطاب ﷺ، وإن تعدَّدت الأسماء والمسميات لهذه الفضائل التي ازدهرَتْ في نفسه وسلوكه، وإن كان هناك محرِّكٌ لهذه الفضائل، فمحرِّكها الأساسي ومَبعثها الأول هو خَوفه من الله، وحبُّه واتِّباعه لمعلِّم البشرية رسول الله ﷺ .

وإن كنَّا نجزئها ونقول :عَدْل عمر، ورَعُ عمر، فِطنة عمر، فإنَّما نفعل ذلك لنُعلِّم أنفسنا، ونُعين أنفسنا على استيعابها وتحصيلها.

أمَّا هذه الفضائل والشمائل، فهي صاحبها نفسه؛ هي عمر بن الخطاب ﷺ وأرضاه .

* * * * * * * * * * * *

الفصل الأخير من حياة الفاروق

بعد عُمْر طويل، وسنوات من الكِفاح والطَّاعة والبذل والتضحية، وبعد عشر سنوات وستَّة أشهر من خِلافة المسلمين، وقد بلَغ أمير المؤمنين من العُمر ثلاثة وستين عامًا – أحسنَ الفاروق بدنوِّ أجله ...

ليُسطِّر الفصل الأخير من حياته العامرة ...

الحج الأخير

فلمَّا كان ﷺ في حجَّته الأخيرة وهو بمِنًى، رفع يدَه إلى السماء وقال : "اللهمَّ ضعُفَتْ قوَّتي، وكبرَتْ سِنِّي، وانتشرت رعيَّتي، فاقبضني إليك غيرَ مضيِّع ولا مفرِّط في حقٍّ من حقوق المسلمين".

بشرى بالشهادة

وكان عمر ﷺ كثيرًا ما يدعو اللهَ قائلاً :"اللهمَّ ارزقني شهادةً في سبيلك، واجعل موتي في بلد رسولك".

ولقد بشَّره الحبيبُ ﷺ قبل ذلك بالشهادة :

- فعن أنس بن مالك أنَّ رسول الله ﷺ صعد أُحدًا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فضربه برِجله وقال : «**اثبُتْ أُحُد، ما عليك إلَّا نبي وصدِّيق وشهيدان**» .
- ورأى رسول الله ﷺ على عمر ثوبًا غسيلاً فقال له :«**أجديدٌ ثوبُك هذا أم غَسيل؟**»!، قال :غَسيل يا رسولَ الله، فقال : – «**البس جديدًا، وعِش حميدًا، وتوفَّ شهيدًا، ويعطيك الله**

قرَّةَ أعين في الدُّنيا والآخرة» .

رؤيا تنبئ بحضور أجلي

ولما عاد عمر ﷺ إلى المدينة، رأى رؤيا :"أنَّ دِيكًا ينقره نقرتين"، فلمَّا قصَّها على أسماء بنت عُميس قالت له :يقتلك رجل من العجم، فلمَّا كان يوم الجمعة، قام على المنبر، فحمد اللهَ وأثنى عليه، ثمَّ قال :رأيتُ رؤيا، لا أراها إلَّا تنبئ بحضور أجلي ...وقصَّ على النَّاس رؤياه، وما أوَّلَته أسماء بنت عُميس .

أيُّكم يحفظ قولَ رسول الله ﷺ في الفِتنة؟

قال عمر :ﷺ أيُّكم يَحفظ قولَ رسول الله ﷺ في الفِتنة؟

قال حذيفة :أنا أحفظ كما قال، قال رسولُ الله ﷺ : «**فِتنة الرَّجل في أهله، وماله وجاره، تكفِّرها الصلاة، والصَّدقة، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر**»، قال عمر ﷺ: ليست هذه، ولكن الفِتنة التي تَموج بالأمَّة كموج البحر .

قال حذيفة :يا أميرَ المؤمنين، لا بأس عليك منها، إنَّ بينك وبينها بابًا مُغلَقًا.

قال عمر :يُفتَح الباب أم يُكسر؟ قال :بل يُكسَر.

وكان هذا الباب هو عُمر نفسه ...الذي كان مُغلقًا لكلِّ الفِتن.

قصة استشهاده

أبو لؤلؤة يتوعَّد أميرَ المؤمنين:

خرج أميرُ المؤمنين يومًا يطوف بالسوق، فلقيه أبو لؤلؤة المجوسي – غلام المغيرة بن شعبة – فاشتكى من قلَّة الرَّاتب الذي يُعطيه إيَّاه شعبة، فسأله عمر :ﷺ وكم خَراجُك(راتبك)؟ قال :مائة درهم كل شهر، قال :ما صناعتك؟ قال :نجار، نقاش، حداد، فقال عمر :إنَّ خراجك كثير إلى جانب ما تقوم به من أعمال أي : (أعمال أخرى يتربح منها إلى جانب راتبه من المغيرة)، فانصرف ساخطًا وهو يقول :وسِع النَّاسَ عدلُه غيري، ورغم ذلك، فقد حدَّث عمر بعدها المغيرةَ في زيادة راتبه .

وبعد عدَّة ليالٍ، مرَّ أبو لؤلؤة فلقيه عمر ﷺ فقال له :قد بلَغني أنَّك تقول :لو أردتُ أن أعمَل رَحًى تَطحن بالرِّيح فعَلتُ؟ قال :نعم، قال : فاصنع لي رحًى، فالتفتَ إليه عابسًا وقال :لئن سَلِمتَ، لأصنَعنَّ لك رحًى يتحدَّث بها النَّاس في المشرق والمغرب، وانصرف .

فأقبل عمر على مَن معه وقال :لقد توعَّدني العبد آنفًا.

بداية المؤامرة:

لم تكن هذه الحادثة مع أبي لؤلؤة إلَّا سببًا ظاهرًا، يستر وراءه مؤامرة أكبر، وما كان أبو لؤلؤة إلَّا منفِّذًا للكيد الذي اتفق عليه كثيرون.

ففي مساء ذات اليوم، رأى عبدُ الرحمن بن أبي بكر أبا لؤلؤة ومعه اثنان آخران من المجوس (الهرمزان وجفينة) وواحد من يَهود المدينة، فلمَّا رأوه قادِمًا عليهم، وقد سمِع منهم هَمسًا أثار الرِّيبة والشك في نفسه، فلمَّا رأوه قاموا وقوفًا فسقط بينهم خنجر له رأسان، فحملوه وانصرفوا بشكلٍ زاد من شكوكه، فلمَّا أَخبر عمرَ بذلك، وطلب منه أن يأمر بقتله رفض عمر ذلك

وقال :أتقتلون رجلاً بالظنِّ؟!

الفوز بالشهادة:

فلمَّا كان الصَّباح خرج عمر ﷺ إلى الصَّلاة، وكان إذا مَرَّ بين صفَّين قال :استووا، حتى إذا لم يرَ فيهم خللاً تقدَّم فكبَّر وبدأ الصلاة.

فما أن بدأ في الصَّلاة، حتى دخل أبو لؤلؤة في النَّاس ومعه خِنجر حاد، وطعن أميرَ المؤمنين ستَّ طعنات وهو قائم يُصلِّي، ثمَّ طار بخنجره لا يمرُّ على أحد يمينًا ويسارًا إلَّا طعنه، حتى طعَن ثلاثة عشر رجلاً، مات منهم سبعة، فلمَّا رأى ذلك رجلٌ من المسلمين، طرح عليه بُرنسًا، فلمَّا ظن أنَّه مأخوذ نحَر نفسَه – ذبح نفسه – وكان عمر قد خَرَّ على الأرض ينزِف دَمًا، فتناول يدَ عبد الرحمن بن عوف وقال له :تقدَّم فصلِّ بالنَّاس، فصلَّى بهم عبد الرحمن صلاةً خَفيفة .

الأيام الأخيرة في حياة الفاروق

وبعد الصَّلاة حُمل عُمر ﷺ مغشيًّا عليه إلى مَنزله، وقد ظلَّ ثلاثة أيَّام في منزله يعالَج قبل أن ينتقل إلى جوار ربِّه.

مَن قتلني؟

وما أن أفاق عمرُ من غشيته حتى سأل عبدَ الله بن العباس :يا بن العباس، انظر مَن قتلني؟ فجال ساعةً ثمَّ جاء وقال :يا أميرَ المؤمنين، قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، قال عمر : قاتله الله، لقد أمرتُ به مَعروفًا وحدَّثتُ المغيرةَ في أمره، الحمد لله الذي لم يجعَل مَنيَّتي بيد رجل يدَّعي الإسلام؛ حتى لا يُحاجَّني بسجدةٍ سجَدها لله.

أتآمر النَّاس عَليَّ؟

ظنَّ عمر أنَّ له ذنبًا إلى النَّاس لا يعلمه، ولذلك تآمروا عليه مع أبي لؤلؤة لقتله، فدعا ابنَ عبَّاس وقال له : اخرج إلى الملأ من النَّاس واستقصِ عن هذا ...فخرج ابنُ عباس، لا يمر بملأ من النَّاس إلَّا وهم يَبكون، فكأنَّما فَقدوا أبكار أولادهم، فلمَّا عاد أخبر عمرَ بذلك، فرأى البِشْرَ على وجهه .

أصلَّى النَّاس؟

كان الفاروق عمر ﷺ يفيق من غَيبوبته وقتَ الصَّلاة، وينظر في وجوه الحاضرين ويسأل :أصلَّى النَّاس؟ فيقولون :نعم يا أميرَ المؤمنين، فيقول :لا إسلامَ لِمن ترَك الصَّلاة، ثمَّ يتوضَّأ ويصلِّي في الفِراش .

ضَع خدِّي على التراب:

وُضعَتْ وسادةٌ لعمر ﷺ ليضعها تحت رأسه، وفي رواية :كانت رأسُه في

حِجر عبد الله بن عمر، فقال له عمر :ضَع خدِّي على التراب، عسى أن يَنظر إليَّ ربِّي هكذا فيرحمني ...

فوضَع عبدُ الله رأسَ أبيه على الأرض، فقال عمر :ويلٌ لي وويلٌ لأمِّي إن لم يرحمني ربي .

أخشى هَوْل المطلع وحقوق الرعيَّة:

وبدأ النَّاس لما علِموا أنَّه ميِّت، فجاؤوه وجعلوا يُثنون عليه، فقال رجل منهم :أبشِر يا أميرَ المؤمنين، فبُشرى الله لك وصُحبة رسول الله ﷺ، وقِدم في الإسلام ما قد علمتَ، ثمَّ وليتَ فعدلتَ، ثمَّ شهادة اقتنيت، فقال عمر وهو يَبكي :"وددتُ أنَّ ذلك كفاف، لا لي ولا عليَّ، إنِّي أخشى من هَوْل المطلَعِ وحقوق الرعيَّة".

أتشهد لي بذلك؟

فلمَّا رأى ابنُ عباس عمرَ يَبكي، قال له :هوِّن عليك يا أميرَ المؤمنين؛ فقد حكمتَ بكِتاب الله، وقسمتَ بالسَّويَّة، فقال عمر :أتشهد لي بذلك عند ربِّك؟ فيقول ابن عبَّاس :نعم أشهد بذلك، فيرد عليُّ بن أبي طالب مِن على الباب :وأنا كذلك أشهد يا أميرَ المؤمنين .

الوصية الأخيرة:

لما أحسَّ الجميع بدنوِّ أجَل أمير المؤمنين، قالوا له :لو استخلفتَ؟ ! أي : (أَوْصِ بمَن تَستخلف مِن بعدِك).

فقال عمر :رضي الله عنه إن تركتُكم فقد تَرَكَكم مَن هو خير منِّي، وإن استخلفتُ فقد استخلَف عليكم مَن هو خير منِّي.

وما أجد أحقَّ بهذا الأمر من هؤلاء الرَّهط الذين توفِّي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم، وسمَّى الستَّة :عثمان وعليًّا والزُّبير وطلحة وسَعدًا وعبد الرحمن، ويَشهدهم عبدُ الله بن عمر، وليس له من الأمر شيء (مراقِب فقط)، فقيل له :لو أنَّك عهدت إلى عبد الله بن عمر؛ فإنَّه لذلك أَهْل؛ لدينه وفَضْله وسابق إسلامه، فقال عمر :لا أرغب فيها لأحد من بَيتي؛ فإن كان خيرًا فقد أصَبنا منه، وإن كان شرًّا فحَسْب آل عمر أن يُحاسَب منهم رجل واحد، ويُسأل عن أمَّة محمد.

ثمَّ أوصى عمر رضي الله عنه الخليفةَ مِن بعده بالأنصار خيرًا، وبأهل الأنصار خيرًا، وبالأعراب خيرًا، ثمَّ يوصي عليًّا ويقول :أنشدك الله يا علي، إن وليتَ من أمورَ النَّاس شيئًا أن تحمل بني هاشم على رِقاب النَّاس، ويوصي عُثمان : أنشدك الله يا عثمان، إن وليتَ من أمورَ النَّاس شيئًا أن تَحمل بَني أبي مُعيط على رِقاب النَّاس، ويوصي سعدًا : إن وليتَ من أمور النَّاس شيئًا أن تحمل أقاربك على رِقاب النَّاس .

في جوار صاحبيه

وبعد أن انتهى عمر رضي الله عنه من وَصاياه، نظَر إلى عبد الله بن عمر وقال له : انطلِق إلى أمِّ المؤمنين عائشة، فقل لها :يَقرأ عليك عمرُ السَّلامَ، ولا تقل : أميرَ المؤمنين؛ فإنِّي لستُ اليوم أميرًا للمؤمنين، وقل لها :يَستأذنُك عمر بن الحطاب أن يُدفن في جوار صاحبيه، فلمَّا ذهب عبد الله بن عمر إلى السيِّدة عائشة، وجدها تَبكي، فقال لها :يَقرأ عليك عمرُ بنُ الخطَّاب السَّلام، ويستأذنك أن يُدفَن في جوار صاحبيه، فقالت :واللهِ، كنتُ أريده لنفسي، ولأوثرنَّه به اليومَ على نفسي، فلمَّا أقبل عبدُ الله على أبيه، قال عمر :ما لديك؟ قال :الذي تحبُّ يا أمير المؤمنين، أَذِنَتْ.

قال :الحمد لله، ما كان شيء أهمَّ إليَّ من ذلك، فإذا أنا قضيتُ فاحملوني، ثمَّ سلِّم وقل :يَستأذن عمر بن الخطاب؛ فإن أذِنتْ لي فأدخِلوني، وإن ردَّتني، ردُّوني إلى مَقابر المسلمين .

شهيد، وفي بلد رسول الله ﷺ؛ كما كان يَرجو ويدعو الله ...

ويموت أميرُ المؤمنين، ويُحمل إلى حيث يَرقد صاحباه، وكما كانت رأس أبي بكر قد وُضعَت عند كتف رسول الله ﷺ، وضعت رأس عمر عند كتف أبي بكر .

الصَّحابة ينعون عمر رضي الله عنه

وهذه باقة من أقوال الصَّحابة في رِثاء أمير المؤمنين رضي الله عنه:

- يقول العبَّاس :كنتُ جارًا لعمر بن الخطاب، فما رأيتُ أحدًا من النَّاس كان أفضلَ منه، إنَّ ليله صلاة، ونهاره صيام وفي حاجات النَّاس .
- ويقول حُذيفة :كان الإسلام في زمَن عمر كالرَّجل المقبِل، لا يزداد إلَّا قُربًا، فلمَّا قُتل رحمه الله، كان كالرجل المدبِر لا يزداد إلَّا بُعدًا.
- أمَّا عليُّ بن أبي طالب، فنَعى عمر وقال :ما خلَّفتُ أحدًا أحب إليَّ أن ألقى اللهَ بمثل عمله مِنك، وايم الله إن كنتُ لأظنُّ أن يجعلك الله مع صاحبيك، وحسبت أنِّي كثيرًا أسمع رسول الله ﷺ يقول :«**ذهبتُ أنا وأبو بكر وعمر، ودخلتُ أنا وأبو بكر وعمر، وخرجتُ أنا وأبو بكر وعمر**» .

–وهكذا عزيزي القارئ، نعود بك إلى أرض واقعنا!!

بعد أن حلَّقنا معًا في صُحبة الأسطورة، الذي يَصعب أن يجود الزَّمان

بمثله؛ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

وكما قال ابن مسعود :لله درُّ ابن الخطَّاب !أي امرئ كان؟!

وفي النِّهاية، لا أجد ما أختِم به حديثي عن الفاروق عمر بن الخطَّاب ﷺخير ممَّا قاله ابنُ عباس في رثائه :"رحمة الله على أبي حَفص، كان واللهِ حليف الإسلام، ومأوى الأيتام، ومحلَّ الإيمان، ومنتهى الإحسان، ونادِيَ الضعفاء، ومَعقِلَ الخُلفاء، كان للحقِّ حِصنًا، وللنَّاس عَونًا، قام بحقِّ الله صابرًا محتسِبًا حتى أظهَر الدِّين، وفتح الدِّيار، وذُكِر اللهُ عزَّ وجلَّ على التِّلال والبِقاع، وَقورًا لله في الرَّخاء والشدَّة، شَكورًا له في كلِّ وقت، فأعقب الله مَن يُبغِضه النَّدامةَ إلى يوم القيامة".

رحمة الله عليك يا أبا حَفص.

رحمة الله عليك يا أميرَ المؤمنين.

عثمان بن عفَّان

والآن عزيزي القارئ، وبعد أن عِشنا مع الشَّيخين أبي بكر وعمر، فها نحن نهبِط في بستان آخر من بساتين هذه الصُّحبة العَطرة؛ إنَّه بستان "ذي النُّورين"، فهذا هو عثمان بن عفَّان الذي تَستحي منه ملائكة الرَّحمن، وهو من السَّابقين؛ السابقين في إسلامهم، وفي تضحياتهم، وفي أخلاقهم، وفي كرَمهم.

فتعالوا نعيش في الصَّفحات القادمة مع هذا الصَّحابي الجليل، من العشرة المبشَّرين، ثالث الخُلفاء الرَّاشدين؛ عثمان بن عفَّان ﷺ وأرضاه.

مَن هو عثمان بن عفَّان؟

نَسبه :

هو عثمان بن عفَّان بن أبي العاص بن أميَّة بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي القرشي.

مَولده:

وُلد بالطَّائف لستٍّ سنوات بعد عام الفيل (بعد مولد رسول الله ﷺ بستٍّ سنوات).

نشأته:

نشأ عثمان بن عفَّان ﷺ في نِعمة ورغد من العَيش، ولم يُعرف عنه أنه اختبر شظفَ العيش في طفولته أو في صِباه؛ فأبوه كان تاجرًا واسِع التِّجارة، وكان يحمل قوافلَه إلى الشَّام، وفي إحدى هذه الرحلات مات عن ثَروة عظيمة وترك ابنه "عثمان" بين الصِّبا والشَّباب ومعه هذه الثَّروة الطائلة،

والتي حافَظ عليها ونمَّاها، حتى ازدهرَت وأصبح من كبار أغنياء مكَّة .

أمَّا أمُّه فهي أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، وأمُّها أروى البيضاء بنت عبد المطلب (عمَّة رسول الله ﷺ)، ففي وراثته من جانب أمِّه جُنوحٌ إلى طبيعة التديُّن، التي اشتهر بها عبد المطلب وأبناؤه .

ولما مات أبوه تزوَّجَت أمُّه من عُقبة بن أبي مُعيط، وكان من أشدِّ النَّاس عداء وإيذاء لرسول الله ﷺ .

منافسة بني أمية لبني هاشم:

أما أميَّة وهو جدُّه لأبيه، فكان بينه وبين هاشم – وهو جد رسول الله ﷺ لأبيه أيضًا :منافسة ومنافرة، ولما احتدم الخِلافُ بينهما حكم على أميَّة بترك مكة والخروج إلى الشَّام لمدة عشر سنوات ...

ومن هنا كان العداء بين بني أميَّة وبني هاشِم، الذي يضرب بجذوره إلى الأجداد، وهذا العداء وهذه المنافرة كانا لهما أثرهما الشَّديد في مَسيرة دعوة النَّبي ﷺ، كما كان لهما أثرهما الكبير في حياة "عثمان" من جوانبَ شتَّى منذ يوم إسلامه، حتى يوم استشهاده، وسنعرض لها بالتفصيل.

* للاستزادة، ارجع إلى الجزء الأول من هذا الكتاب :"حياة خير الأنام"؛ للمؤلف.

وصفه :

كان عثمان بن عفَّان :رضي الله عنه رَبْعَةً؛ لا بالطَّويل ولا بالقصير، حسَن الوجه، مرتفع الأنف، رقيق البشَرةِ، أسمرَ اللون، كثيف الشَّعر .

أمَّا أخلاقه:

فقد أجمع معاصروه على صِفتين؛ هما الجمال والحَياء، وكان كذلك عَذْب الرُّوح، حلو الشَّمائل، محبَّبًا إلى كلِّ مَن يعرفه، حتى إنَّ نِساء قُريش كنَّ ينشدن لأطفالهنَّ ويقلن :

أحبَّك الرَّحمـــــن حبَّ قريش لعثمان

إسلامه:

كان عثمان بن عفَّان ﷺ من السَّابقين الأوَّلين في الإسلام؛ فقد كانت طبيعته السَّمحة وحياؤه من الله – الذي يرى آيات وجوده تَلمع في وجدانه، وتهزُّ مشاعرَه – هما ما كانا يقودان خُطاه نحو الحقيقة والنُّور، فلم يُعرف عنه أنَّه سجَد لصنم أبدًا طول حياته.

أحمد قد خرج بمكة

ذات يوم، وهو قادِم من الشَّام، جلس في مكان ظليل فغلبه النَّوم، فرأى في رؤياه أنَّ مناديًا وقف ينادي النائمين :هبُّوا أيقاظًا؛ فإنَّ أحمد قد خرج بمكَّة ...

ويعود عثمان ﷺ إلى مكَّة، وفي ذات اللَّيلة وهو بفناء الكَعبة بلغه أنَّ محمد بن عبد الله زوَّج ابنتَه رقيَّة من ابن عمِّها عتبة بن أبي لهَب، فحزن لذلك ونَدم أشدَّ النَّدم، أنه لم يَسبقه إليها، ولم يحظَ بخُلُقها الرَّفيع وبيتها العريق .

فدخل على أهله مَهمومًا، فوجد عندهم خالته "سعدى بنت كريز"، وكانت امرأة حازمة، عاقلة، وكانت تتكهَّن عند قومها، فلمَّا رأته مَهمومًا، وقد أسرَّ لها ما به وما رآه من رؤيا، فكشفَت عنه الهمَّ، وبشَّرته بظهور نبيٍّ يبطِل عبادةَ الأوثان، ويدعو إلى عبادة الواحد الدَّيَّان، ورغَّبته في ذلك

الدِّين، وبشَّرته أنَّه سينال عنده ما يبتغيه .

أجِب يا عثمان داعيَ الله

فخرج عثمان من بيته وهو يفكِّر فيما قالته خالته، فلقي أبا بَكر فحدَّثه بما قالَته خالتُه، فقال أبو بكر :واللهِ لقد صدقَتْ خالتُك فيما أخبرَتْك وبشَّرتك يا عثمان، وإنَّك لرجل حازم لا يَخفى عليك الحق، ولا يَشتبه عندك مع الباطِل؛ فإنَّ ما قالته خالتك قد تحقَّق، فلقد أرسل اللهُ رسولَه المرتقب، وبعَثه للنَّاس كافَّة بدين الهدى والحقِّ، فقال عثمان :ومَن هو؟ قال أبو بكر :إنَّه محمَّد بن عبد الله، قال عثمان :الصَّادق الأمين؟

قال أبو بكر :نعم .

وهنا لم يتردَّد عثمان ﷺ لحظة واحدة، وكأنَّه وجد ضالَّتَه التي ينشدها، فقال لأبي بكر :فهل لك أن تَصحبني إليه؟ قال :نعم، ومضيَا إلى رسول الله ﷺ، فلمَّا رآه رسول الله ﷺ قال له : « **أجِب يا عثمان داعيَ الله إلى جنَّته؛ فإنِّي رسول الله إليكم خاصَّة، وإلى الخلق عامَّة** » .

يقول عثمان :فواللهِ ما إن ملأتُ عينيَّ منه وسمعتُ مقالتَه حتى استرحتُ إليه، وصدَّقتُ رسالتَه، ثمَّ شهدتُ أنَّه لا إله إلَّا الله وأنَّ محمدًا رسول الله.

السَّابقون .. السَّابقون

وهكذا كان إسلام عثمان ﷺ مبكرًا فهو أحد الخَمسة أو السَّبعة الأوائل الذين سَبقوا إلى الإسلام، يوم كان رسول الله ﷺ يَدعو في إسرار وخفية، حتى دار الأرقم التي كان يَلتقي فيها بأصحابه مستخفين من قريش لم تكن وُجدتْ بعد، فكان إسلامه ﷺ قبل دخول دار الأرقم بن أبي الأرقم.

تحديات وتوابع إسلامه ﷺ

كنَّا قد أسلَفْنا ما كان بين بني أميَّة وبني هاشم من خِلاف وتنافُر ومنافَسة، فكان من الصَّعب، بل من المستحيل أن يتبع أحدٌ من بني أميَّة نبيًّا هاشميًّا، حتى إنَّه قال بعضهم :"كنَّا كفرَسَي رهان كتفًا بكتف، أمَّا أن يكون منهم نبي، فأنَّى لنا اللحاق بهم؟!"، فهم لا يعارِضون الرِّسالةَ المحمديَّة لأي سبب، سوى أنَّ رسولها من بني هاشم، وهنا تتجلَّى عَظَمةُ وتفوُّق وفضلُ عثمان ﷺ ، الذي تحدَّى كلَّ هذه العصبيَّات وسمع لصوت الحقِّ، ودخل الإسلام مبكرًا؛ وهو ما أحدث زلزالاً مدويًا في قومه من بني أميَّة، فكان غضبهم عليه جَمًّا، وكان أشدَّ غضبٍ لَحِقَ مسلمًا في ذلك الوقت ...

تعذيبه

فتعرَّض عثمان ﷺ من قرابته لكلِّ أنواع التَّعذيب، رغم مكانته في قومه.

- فهذا عمُّه "الحكم بن أبي العاص"، يوثقه بالحِبال والسَّلاسل ويصرخ في وجهه :أترغب عن ملَّة آبائك إلى دين محدَث؟ !والله لا أَحُلُّ وثاقك أبدًا، حتى تدَع ما أنت عليه من هذا الدِّين.
  ويجيبه عثمان في إصرار المؤمن الواثِق من ربِّه :"واللهِ لا أدَع دينَ الله أبدًا ولا أفارقه" .ويوالي عمه تعذيبَه ...ويوالي عثمان إصرارَه.
- ولم يَقتصر التعذيب على الجانب الجسدي فحسب؛ بل حاول بَنو قومه تقليب قريش عليه لتحاصِره بازدراءٍ مصطنع، آمِلة أن تذلَّ كبرياءه، وتهزَّ كرامته ...لكنَّه ﷺ كان قد نبذ وراءه عالمهم كلَّه بما فيه من غرور وباطل ...
- وتمادى قومه في محاصرته، ولكن هذه المرَّة محاصرة اقتصاديَّة، فحاولوا منعَ التجَّار التعاملَ معه والتأثير على تجارته؛ أملاً في أن

يرجع عن دينه ويتَّبع ملتهم .

لكنَّه قابَل كلَّ هذا بلا مُبالاة؛ لأنَّه عرف طريقَ الحق، وذاق حلاوةَ الإيمان، التي لا يؤثِّر فيها بيع ولا شِراء، فالأمر أكبر من ذلك وأزكى.

تعذيب قومه لرسول الله ﷺ

لم يقتصر إيذاء قرابة عثمان له فقط، بل كانوا أشد النَّاس أذًى لرسول الله ﷺ .

- فهذا الحكم بن أبي العاص "عم عثمان"، يتصدَّى لرسول الله ﷺ ويمشي وراءه يحاكيه (يقلِّده) في مشيته ...
- وهذا عُقبة بن أبي معيط "كان قد تزوَّج من أمِّ عثمان بعد موت أبيه" كان يتربَّص برسول الله ﷺ، حتى يَسجد في صلاته، فيُلقي على رأسه سَلا الشَّاة (أمعاء الشاة).

وغيرها من ألوان الإيذاء ...ذكرناها بالتفصيل في الجزء الأول؛ "حياة خير الأنام" .

ومع كلِّ هذا الإيذاء والتعنُّت من قرابة عثمان رضي الله عنه ، فلم يثنه ذلك عن اتِّباع الحقِّ والنور الذي اهتدى به، فكان فضله في إسلامه لا يدانيه أحد من السَّابقين الأوَّلين في الإسلام؛ فقد تحدَّى كلَّ الصِّعاب والإيذاء، وانتصر على عصبيَّته لصالح دينه ...

زواجه من رُقيَّة

أمر أبو لهب ابنَه عتبة ليطلِّق رُقيَّة، نكايةً برسول الله ﷺ، فما كاد عثمان يسمع بخبر طلاق رقيَّة، حتى استطار فرحًا، فقد كان – كما أسلفنا

-يرغب في الزواج منها، وندِم أنَّه لم يَسبق ابنَ أبي لهب إليها.
فبادَر عثمان يَخطبها من رسول الله ﷺ، فزوَّجه إيَّاها.

أول المهاجرين

كما كان عثمان ﷺ من أوائل الذين أسلموا، كان أيضًا أول المهاجرين إلى الله، فلمَّا رأى رسول الله ﷺ ألَّا قِبَل لأكثر الصَّحابة بهذا الأذى الذي أوغلت به قريش في تعذيبها لهم – أمرهم بالهِجرة إلى الحَبشة؛ إذ كان على رأسها يومئذ ملِك عادِل.

وكان عثمانُ أوَّلَ المهاجرين إليها ومعه زوجته رُقيَّة بنت رسول الله ﷺ، ووقف رسول الله ﷺ يودِّعهما بنظراته الحانية وقلبه الودود ويقول : «**إنَّك أوَّل مَن هاجر إلى الله بأهله بعد نبيِّ الله لُوط**».

ومكث هناك بالحبشة، حتى عاد إلى مكَّة بأهله لما اشتدَّ الحنين إلى رسول الله ﷺ، وظلَّ بمكَّةَ حتى أذِن الله لنبيِّه وأصحابه بالهِجرة إلى المدينة المنورة، فكان عثمان وزوجته مع المهاجرين، وبذلك يكون قد هاجر الهِجرتين.

ولقد عاش عثمان ﷺ الهجرةَ بأسمى معانيها، فكانت هجرة روح قبل أن تكون هجرةَ مكان ...

ذو النُّورين

بعد هِجرته ﷺ وزوجته إلى المدينة، ولما كان يوم بَدر، مرضَتْ رقيَّة مرضًا شديدًا، فأذِن رسولُ الله ﷺ لعثمان بالبقاء مع زوجته للعناية بها، ويوم أن ورد البَشير إلى المدينة بنصر المسلمين وهزيمة قريش ماتَتْ رقيَّة ...

وكما كانت غبطة عثمان بمصاهرة رسول الله ﷺ عَظيمة، كان حُزنه لانقطاع هذه الصِّلة بعد رحيل زوجته أعظم .

فلم يُرَ بعد رحيلها إلَّا محزونًا مَهمومًا بفقد زوجته، وانقطاع صِلته برسول الله ﷺ، فلمَّا رآه رسولُ الله ﷺ على تلك الحالة، سأله : «**ما لي أراك مهمومًا؟**»، قال :وهل دخل على أحد ما دخل عليَّ يا رسول الله؟ ماتت ابنة رسول الله التي كانت عندي، وانقطع ظهري، وانقطع الصهر بيني وبينك .

فطيَّب رسول الله ﷺ خاطرَه وزوَّجه أختَها أم كلثوم، وبقيَتْ معه حتى توفيت في السنة التاسعة للهجرة، ولما توفيت أم كلثوم قال رسولُ الله ﷺ : «**لو كان عندي ثالثة لزوَّجتُها عثمان**»، وفي رواية أخرى :«**لو أنَّ لي أربعين بنتًا لزوجتهنَّ عثمان، واحدة بعد واحدة** ».

ولذلك سُمِّي عثمان بن عفَّان رضي الله عنه "بذي النُّورين"؛ لأنه تزوَّج من رقيَّة وأم كلثوم بِنتي رسول الله ﷺ، ولم يُعلم أحد تزوَّج من بِنتي نبي غيره ...

أعماله من إسلامه إلى خلافته

منذ أن أعلنها لرسول الله ﷺ : "أشهد أن لا إله إلَّا الله وأنَّك عبده ورسوله"، وهب عثمان رضي الله عنه نفسَه ومالَه وحياته كلها لله ولهذا الدِّين ...

فلم يكن هذا الإعلان بالوحدانيَّة لله واتباع دين الإسلام إعلانًا باللِّسان فقط؛ بل كان بالقلب والرُّوح وكلِّ الجوارح، وفي سبيله تحدَّى كلَّ الصِّعاب والعصبيات، ونال من التعذيب والإهانة ما نال ...وضحَّى بكلِّ غالٍ ونَفيس، وظلَّ مخلِصًا لهذا الدِّين منذ أول لَحظة في إسلامه، حتى آخر نفَس في حياته ...

وهاك بعضًا من مواقفه وأعماله المجيدة التي تُكتب بأحرف من نور :

١ – بئر رومة:

لما هاجَر رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة، لم يكادوا يستقرُّون بها حتى فاجأتهم مشكلة ماء الشُّرب، فلم يجدوا في المدينة غير بئرٍ واحدة تُدعى "بئر رومة"، تَفيض بماء عَذْب، طيِّب المذاق استساغوا ماءها ... وكانت هذه البِئر يملكها رجل يهودي، يبيع ملء القِرْبة بمُدٍّ.

وتمنَّى رسول الله ﷺ لو أنَّ أحدًا من أصحابه يشتريها، وتفيض ماؤها على المسلمين بغير ثمَن، وهنا سارع "ذو النُّورين" رضي الله عنه ليحقِّق رغبةَ رسول الله ﷺ .

عبقرية تجارية

فعرض على اليهوديِّ أن يبيعها له، فطلب منه خمسين ألف درهم، فساوَمه عثمان ...وانتهى الأمر على أن يشتري نِصفها بعشرة آلاف درهم، على أن يكون لليهوديِّ يوم يبيع فيه الماء ويوم لعثمان، فوافق اليهوديُّ أملاً أن يجمع كثيرًا من المال في يومه، إلَّا أنَّ عثمان رضي الله عنه أفسَد عليه خطَّتَه، وجعل المسلمون يستسقون في يومه ما يَكفيهم يومين، وبلا مقابل.

وهكذا وجد اليهودي نفسَه قد خسِر سوقَه التي كانت رائجَة، فعاد ليعرض على عثمان أن يَشتري منه النِّصف الثاني بعشرة آلاف، فاشتراه، وفاضت البئر بمائها العَذْب تروي أهلَ المدينة بغير ثمَن ولا حِساب، وفاز عثمان رضي الله عنه بثَواب كلِّ مَن شرِب أو توضَّأ من هذا الماء .

٢ – توسعة المسجد النبوي:

عندما كَثر المسلمون، وصار المسجد يَضيق بهم، تمنَّى رسولُ الله ﷺ لو

يجد من أصحابه مَن يشتري رُقعةَ أرضٍ مجاورةً للمسجد كي تُضمَّ إليه، ومرة أخرى لم يكن غير عثمان ﷺ ليلبِّي رغبة رسول الله ﷺ في كلِّ غبطة، وذهب إلى أصحاب الأرض، واشتراها منهم بخمسة وعشرين ألف درهمًا، فكانت أوَّل توسِعة للمسجد النَّبوي، يتكفَّل بها السَّبَّاق للخير، أول المهاجرين ...عثمان بن عفَّان ﷺ.

٣- توسعة المسجد الحرام:

وبعد فتح مكَّة رأى رسولُ الله ﷺ أن يوسِّع المسجدَ الحرام، فعرض على أصحاب بيتٍ مُلاصِق للمسجد أن يتبرَّعوا به لغرض توسعة المسجد، فاعتذروا بأنَّهم لا يَملكون غيرَه، وليس لهم مال يشترون به سواه .

ومرة أخرى "ثالثة" لم يكن لها إلَّا عثمانﷺ ، فلم يكد يبلغ النَّبأ مسامعه، حتى سارع إلى أصحاب الدار واشتراها منهم بعشرة آلاف درهم.

٤- جهاده في سبيل الله:

لقد شهد عثمان ﷺ المشاهدَ كلَّها مع رسول الله ﷺ، ما عدا غزوة بدر لمرض زوجته رقيَّة - كما أسلفنا - ولما عاد رسولُ الله ﷺ من الغزوة وعلم بوفاة زوجته، واساه فضرب له بسهمه وأجره، فكان كمن شهِد بدرًا، وفيما عدا بدر فقد شهد المشاهدَ كلَّها؛ أُحُدًا والأحزاب، وخيبرَ والفتحَ، وحُنينًا وتَبوك ...

٥- مهمته يوم الحديبية "بيعة الرضوان":

في العام السادس للهجرة، عزم رسولُ الله ﷺ أمره وخرج بأصحابه إلى

مكَّةَ ليزور البيت الحرام، ولما علمَتْ قريش بذلك، خرجت في ثياب الحرب لقتاله .

واستأنف رسولُ الله ﷺ مسيرتَه حتى بلغ مهبط الحديبية على مشارف مكَّة، واستقرَّ بأصحابه هناك، وأخذت قريش تبعث برسلها ومندوبيها إلى رسول الله ﷺ؛ ليثبِّطوا عزمَه وليحملوه على الرجوع، لكنَّ مندوبيها كانوا يعودون دائمًا بغير الوجوه التي ذهبوا بها، بعد أن يستمعوا إلى رسول الله ﷺ وتَلين قلوبهم وتَخشع، إلَّا أن قُريشًا كعادتها أخذَتْهم العزَّة بالإثم .

هنالك رأى رسول الله ﷺ أن يبعث مِن عنده رسولاً لهم؛ ليؤكِّد لهم أنَّهم لم يأتوا غُزاة، بل زوَّارًا للبيت الحرام، فدَعا "خراش بن أمية الخزاعي" وانتدبه لهذه المهمة، بيد أن قُريشًا لم تكد تراه وتسمع كلامه حتى عقرَت بعيره، وهمُّوا أن يقتلوه لولا أن منعَتْه الأحابيش وأنقذَتْه، وعاد خراش وقصَّ على رسول الله ﷺ ما حدَث، وفي اليوم التالي بعثت قريش خمسين رجلاً من أشدَّائها، ليتحرَّشوا بالمسلمين، ويضربوا معسكرهم بالحجارة والنِّبال.

فرأى رسولُ الله ﷺ أنَّ الموقف متوتِّر ويُنذر بخطر، فقرَّر أن يبعث رسولاً آخر يردُّ قُريشًا إلى صوابها، فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى رؤوس قريش، فقال عمر :يا رسول الله، إن قُريشًا تعرف عداوتي إيَّاها وغلظتي عليها، وليس من بين القوم من أحد من بني عَدي ينصر لي، فلو بعثتَ عثمان إليهم فهو بينهم أعز منِّي أي : (عنده مَنَعَة من قرابته يَحمونه).

لا أطوف بالبيت حتى يطوف رسول الله

واختار رسولُ الله ﷺ عثمانَ رضي الله عنه لهذه المهمَّة المحفوفة بالمخاطِر؛ فقريش حاولت قتلَ رسول رسولِ الله ﷺ من قَبل، ولم تكتفِ بهذا بل أرسلَت

خمسين من رجالها يشاغبون رسول الله ﷺ وصحبه .

وسط هذه المخاطر حَمل عثمانُ أمرَ رسول الله ﷺ، ومضى إلى قريش لا يَعنيه أن يَرجع حيًّا أو يَقضيَ هناك شهيدًا، وبالفعل لم يَسلَم من سفاهة السُّفهاء وبطشهم ما أن علموا بدخوله مكَّة، لولا أنْ تصدَّى لهم قرابته وعشيرته.

وبدأ الحوار مع قريش، فبلَّغهم رسالةَ رسول الله ﷺ، فكان جوابهم :"إن شئتَ أنت أن تطوف بالبيت فطُف، أمَّا محمد وأصحابه فلا"، ويجيب عثمان :"ما كنتُ لأطوف بالبيت حتى يطوفَ رسولُ الله ﷺ ."

وهذه بيعة عثمان

وظلَّ عثمان بمكَّة ثلاثة أيَّام، في محاولات لإقناع قُريش بلا جدوى، وفي مُعسكر المسلمين أُشيع أنَّ عثمان قُتل، هنالك قرَّر رسول الله ﷺ أن يُري المشركين من تصميمه ومقدرته ما يردهم عن طُغيانهم، فدعا أصحابه إلى البيعة، وهناك تحت الشجرة تمَّت "بيعة الرِّضوان"، التي خلَّدها الله في قرآن يُتلى إلى يوم القيامة: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: ١٨]، ولما انتهى المسلمون من مُبايعة رسول الله ﷺ وضع يدَه اليُمنى على يده اليُسرى وهو يقول: «**وهذه بَيعة عُثمان**»، فلم يَبق أحدٌ من المسلمين، إلَّا وتمنَّى لو أنَّه صاحب هذه الحظوة وهذا التكريم...

ويعود عثمانُ سليمًا مُعافًى، وأرسلَت قريش سفيرًا جديدًا "سُهَيل بن عمرو" الذي أبرم مع رسول الله ﷺ صُلح الحديبية.

* للاستزادة: ارجع إلى الجزء الأول من هذا الكتاب: "حياة خير الأنام"؛ للمؤلف.

٦- موقفه في موقعة تَبوك "العسرة":

في العام التاسع للهجرة، ولَّى هرقل الإمبراطور الرُّوماني وجهَه المتآمِر صوب الجزيرة العربيَّة، وعنده رغبة شريرة في العدوان عليها والتهامِها، بعد أن ملأ الدِّين الجديد برسوله العظيم حياته وحياة بيزنطة قلقًا وخوفًا، ومن ثمَّ قرَّر هرقل الذي كان منتشيًا بنصره على الفُرس أن يَسير بجيشه الجرَّار إلى هذه الأمَّة الجديدة، وفعلاً استعدَّ للزحف...

ولما ترامَت الأنباءُ إلى رسول الله ﷺ، قرَّر أن يغزوهم قَبل أن يغزوه، فنادى أصحابَه وكان الصَّيف حارًّا، والبلاد تُعاني من الجدب والعُسرة، وصعد على المنبر، وحضَّ المسلمين على البَذل والعطاء لهذه المهمَّة الهائلة للجيش الكبير، فأعطى كلٌّ على قَدره، وسارعَت النِّساء بالحُلي يُقدِّمنه إلى رسول الله ﷺ، بيد أنَّ التبرعات جميعها لم تكن لتَفي كثيرًا من المتطلبات الهائلة للجيش الكبير، والذي عُرف "بجيش العُسرة"، وقال رسول الله ﷺ: «**من يجهِّز هؤلاء ويَغفر الله له**».

العسرة وعثمانها المعطاء

وما كاد عُثمان رضي الله عنه يَسمع نِداءَ رسول الله ﷺ، حتى سارع إلى المغفرة والرِّضوان، وقام رضي الله عنه بتقديم الآتي :

- تَجهيز الجيش كله حتى لم يَتركه بحاجة إلى خِطام أو عِقال.
- قدَّم للجيش تسعمائة وأربعين بعيرًا، وستين فرسًا ليُتِمَّ بها الألف.

- جاء إلى رسول الله ﷺ بعشرة آلاف دينار ووضعها بين يديه، فجعل رسول الله ﷺ يُقلِّبها بين يديه ويقول : «**غفَر الله لك يا عثمانُ ما أسررتَ وما أعلنتَ، وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة**».
- تبرَّع بسَبعمائة أوقيَّة من الذَّهب .

فلمَّا رأى رسول الله ﷺ منه كلَّ هذا العطاء قال : «**ما ضرَّ عثمانَ ما عَمل بعد اليوم، ما ضرَّ عثمانَ ما عمل بعد اليوم**».

وهكذا وَجدَتِ العُسرةُ الضاغطةُ عُثمانَها المعطاء .

ويَمضي رسولُ الله ﷺ على رأس جيشه المسلم، حتى وصلوا إلى تبوك (منتصف الطَّريق بين المدينة والشَّام)، وهناك تأتي الأخبار بفِرار هرقل وجيشه، نافضًا يده من محاولته اليائسة، بعد أن علِم بخروج رسول الله ﷺ وصحبه، وحمد رسولُ الله ﷺ ربَّه، وكفى الله المؤمنين القِتال، وعاد الجيش بكلِّ عَتاده لم ينقص منه شيء .

أسخى الأغنياء وأغنى الأسخياء

ويعود جيش العُسرة بكلِّ عتاده الذي أمدَّه به عثمان، فلم يفكر أن يستردَّ منه شيئًا ...لكنَّه ظلَّ كما هو دومًا؛ سريع التلبية لكلِّ إيماءة من رسول الله ﷺ تعني جديدًا من البذل، ومزيدًا من العطاء، فلم يقصر عن مَعونة يستطيعها في عُسرة أو مَجاعة، ملبِّيًا من نفسه داعيةَ النَّجدة والسَّماحة، فلم يضارعه في سخائه أحدٌ من أقرانه، فكان بحقٍّ أسخى الأغنياء، وأغنى الأسخياء .

٧- كتابة الوحي (أمين سر رسول الله ﷺ):

كان عثمان موضع سِرِّ رسول الله ﷺ؛ لِما كان له مِن صِدق وكِيَاسة ولُطفِ أداءٍ لما يؤتمَن عليه من رسالة أو سفارة .

ومن شواهد ثِقة رسول الله ﷺ به، أن جعله موضعَ سرِّه فيما يلي :

- أنَّ رسول الله ﷺ كان يكلِّفه بكتابة الوحي عند نزوله، وكان يناديه مداعبًا ويقول له وهو يُملي عليه :«**اكتُب يا عُثيم**»، وهو أُسلوب تَصغير، الغرض منه المداعبة والتدليل .
- أرسله رسولُ الله ﷺ إلى اليمن مستطلِعًا حين كانت إمارتها إلى عليَّ.
- استخلفه رسولُ الله ﷺ على المدينة في غزوة" ذات الرقاع."
- كان موضِع سِرِّ رسول الله ﷺ عند مرضه الذي توفِّي فيه، يُروى أنَّ رسول الله ﷺ في مرضه الأخير كان كثيرًا ما يُغشى عليه، وفي إحدى هذه المرات لما أفاق قال :«**افتحوا له**»، فلمَّا فتحوا إذا هو عُثمان، فلمَّا رآه رسول الله ﷺ قال :«**ادْنُه**»؛ أي : (أمَره أن يدنو منه)، فأكبَّ عثمان عليه فسارَّه بشيء، ثمَّ رفع رأسَه فقال : «**أفهمتَ ما قلتُ لك؟**»، قال :نعم يا رسولَ الله، سمعَتْه أُذناي ووعاه قلبي، ثمَّ أمره، فانصرف.

٨- مات رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنه:

كان بين الصَّحابة مَنزلٌ من مَنازل الفخر يَعتدون بها ويتعارفون عليها، وهي مَنزلة الرِّضا من رسول الله ﷺ إلى يوم وفاته، وهو ما يُقال في معرض

الثناء على رجل :إنَّه مات رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنه، وهكذا كان عثمانﷺ ، كان موضِع ثِقة وحبِّ رسول الله ﷺ إلى يوم وفاته، ومات رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنه ...

وكانت صدمته الكبرى يوم وفاة رسول الله ﷺ، كما كانت مع باقي أصحاب رسول الله ﷺ ...فقد مكَث عثمان ﷺ عدَّة أشهر بعد وفاة رسول الله ﷺ لا يكلِّم أحدًا، ولا يردُّ على أحد السَّلامَ، حتى إنَّ عمر قال لأبي بكر :إنِّي أخشى على عثمان، إنه لا يردُّ السَّلام!

٩– أعماله في خلافة أبي بكر:

وصارت الخِلافة إلى الصِّدِّيق، وهو الذي أسلَم عثمانُ على يديه، وطالت الصحبة بينهما من قبل الإسلام، وأَلْفَتْ بينهما تشابهًا كثيرًا في الطِّباع والأخلاق، فلم يكن مستغربًا أن يكون عثمانُ أقربَ المقرَّبين إلى الخليفة الجديد في أعمال سياسته، وأواصر مودَّته .

لو كتبت نفسك لكنت أهلاً لها

وكما كان عثمان أمينًا لسِرِّ رسول الله ﷺ، كان كذلك أمينًا لسرِّ خليفة رسول الله ﷺ، فلمَّا كان أبو بكر في سرير الموت، وأراد أن يكتب عهدَه الأخير، قال لعثمان :"اكتب :هذا ما عهد عليه أبو بكر بن أبي قحافة، في آخر عهده بالدنيا خارجًا منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها " –إنِّي استخلفتُ عليكم "...ثم أُغشي عليه.

فكتب عثمان :إنِّي استخلفتُ عليكم عمرَ بن الخطاب، فلمَّا أفاق أبو

بكر قال :اقرأ عليَّ مَن كتبت؟ قال :عمر بن الخطاب، قال أبو بكر :أراك خفتَ أن يختلف النَّاس إن افتُلِتَتْ نفسي في غشيتي؟ !قال :نعم، قال : بارك الله فيك، بأبي أنت وأمِّي، لو كتبتَ نفسَك لكُنتَ أهلاً لها.

وهكذا مضَتْ خِلافة أبي بكر، ومات وهو راضٍ عنه.

١٠- أعماله في خلافة عمر:

ثمَّ صارت الخِلافة إلى عُمر، ولم يكن عنده قريب أو بعيد، غير مَن يقرِّبه عمل أو يبعده عمل، ولم يكن للنَّاس عنده أقدار، غير أقدارهم عند الله ورسوله ﷺ، وكان يَستبقي عنده كبارَ الصَّحابة ليستعين برأيهم، وكان عثمان ممَّن بقي معه ولازمه.

وفيما يلي بعض من أعماله ﷺ في عصر عمر ﷺ :

◆ من أهل الشُّورى :

رَكَن عمر إليه في طلَب المشورة، وعمل بمشورته في :

- إحصاء النَّاس والأعطية.
- الفصل بين الإمامة والقيادة في ميادين القتال.

◆ أعطيت أكثر من هذا:

أصابت النَّاسَ في خلافة عمر سنةٌ مجدِبة، أخذَت الأخضرَ واليابس، حتى سمِّي هذا العام "عام الرَّمادة"، فلمَّا هُرع النَّاس إلى عمر يَشكون إليه سوء الحال، قال لهم :"إن شاء الله لا تُمسون غدًا حتى يأتيَكم فرَجُ الله".

فلمَّا كان الصَّباح، قدِمت قافلةٌ لعثمان قادمةٌ من الشَّام، وبها ألف بَعير محمَّلة بُرًّا وزيتًا وزبيبًا وكثيرًا من الخيرات، فأقبل عليه التجَّار وقالوا :بِعنا ما

وصَل إليك يا أبا عمرو، فقال :كم تُربحوني؟ قالوا :بالعشرة اثني عشر، قال : أُعطيتُ أكثرَ من هذا، قالوا :بالعشرة خمسة عشر، قال :أُعطيتُ أكثرَ من هذا .

قالوا :يا أبا عمرو، ليس بالمدينة تجَّار غيرنا، وما سَبقَنا إليك أحد، فمَن الذي أعطاك أكثر؟ فقال :إنَّه الله، أعطاني بكلِّ دِرهم عشرة، فهل عندكم مَن يَزيد؟ قالوا :لا يا أبا عمرو.

فقال :إنِّي أُشهد اللهَ، أنِّي جعلتُ ما حملَتْ هذه العِير صدقةً على الفُقراء، لا أبتغي درهمًا ولا دينارًا، وإنَّما أبتغي ثوابَ الله ورضاه .

◆ الرَّهط الذين مات رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم:

ولما حضرَت الوفاةُ عمرَ أَبى أن يَستخلف أحدًا في بادئ الأمر، ولما ألحَّ النَّاس عليه، راجع نفسَه في الاستخلاف مرَّة أخرى وقال :ما أردتُ أن أتحمَّلها حيًّا وميتًا، عليكم هؤلاء الرَّهط الذين قال رسولُ الله ﷺ عنهم : إنَّهم من أهل الجنَّة، ومات رسولُ الله ﷺ وهو راضٍ عنهم، وهم :(علي وعثمان، وعبد الرحمن وسعد، والزبير وطلحة)، فليختاروا منهم رجلاً، فإذا ولَّوا منهم واليًا فأحسِنوا مؤازرتَه وأعينوه .

وعلى هذا الوجه أبرأ عمرُ ذمَّتَه من قضية الاستخلاف.

١١- المبايعة على الخِلافة:

ويَرحَل عمرُ ﷺ بعد أن وضَع الأمانةَ في أعناق هؤلاء الرَّهط، فاجتمعوا للتشاور، واقترح عليهم عبد الرحمن بن عوف أن يَخلع أحدهم نفسَه، ويتنازل عن الترشيح ليكون صوتُه مرجحًا إذا قام خِلاف، فقال لهم: أيُّكم يُخرج منها نفسَه؟ فلم يجِبه أحد، فبادَر هو فخلَع نفسَه وقال: أنا أخلع

منها، وقد علم أنَّ الرِّضا عن خليفة بعد أبي بكر وعمرَ بَعيدُ المنال، ثمَّ بعدها تنازل الزُّبيرُ وتنازل سَعدُ بن أبي وقَّاص، وكان طلحةُ غائبًا.

وهكذا انحصر الاختيار بين عثمان وعلي، وفُوِّض عبد الرحمن بن عوف في اختيار أحدهما.

◆ علي وعثمان يؤثِر كلٌّ منهما الآخر

لقي عبد الرحمن عليًّا وعثمان كلاً على حدة، فقال لعلي: أرأيتَ لو صُرف هذا الأمر عنك، مَن كنت ترى من هؤلاء الرَّهط أحق به؟ قال: عثمان، ثمَّ لقي عثمان وسأله نفسَ السؤال: أي هؤلاء الرَّهط تراه أحق؟ قال: علي.

الاستِفتاء العام

كان على عبد الرحمن بن عوف أن ينجِز مهمَّتَه في ثلاثة أيام، كما أوصى بذلك عمر بن الخطاب، وكان عليه خِلال هذه المهلة القصيرة أن يُجري شورى واسِعة، واستفتاء عامًّا بين أصحاب رسول الله ﷺ جميعًا.

فنهض عبد الرحمن، يستشير النَّاسَ من غير أصحاب الشُّورى، ويجمع آراءَ المسلمين، عامَّتهم وقادتهم، جميعًا وأشتاتًا، سرًّا وجهرًا، حتى خلص إلى النِّساء في بيوتهنَّ، وحتى سأل الأطفالَ، وسأل الرُّكبانَ الوافدين على المدينة، فذكر بعضُهم عثمان، وبعضهم عليًّا.

الحكم الفصل

أرسل عبد الرحمن في طلَب عثمان وعلي، فقدِما إليه، فقال لهما: إنِّي سألتُ النَّاسَ عنكما، فلم أجِد أحدًا يعدل بكما أحدًا، ثمَّ أخذ العهد على كلٍّ منهما، لئن ولَّاه ليَعدِلنَّ ولئن وُلِّي عليه ليسمعنَّ وليطعَن.

ثمَّ خرج بهما إلى المسجد، وقد لبس عبد الرحمن العمامةَ التي عمَّمه بها رسول الله ﷺ وتقلَّد سيفًا، وبعث إلى وجوه النَّاس من المهاجرين والأنصار، ونودي في النَّاس كافة: الصَّلاة جامعة... وتراصَّ النَّاس حتى امتلأ بهم المسجد، وحتى لم يَبقَ لعثمان موضعٌ يجلس فيه إلَّا في أُخرَيات النَّاس، وكان رجلاً شديد الحياء.

ثمَّ صعد عبد الرحمن بن عوف مِنبرَ رسول الله ﷺ، فحَمِد اللهَ، ثمَّ قال: أيُّها النَّاس، إنِّي قد سألتكم سِرًّا وجهرًا، فلم أجِدْكم تَعدِلون بعَليٍّ وعثمانَ أحدًا... فقم يا علي، فقام وأخذ عبد الرحمن بيده وسأله: هل أنت مبايعي على كِتاب الله وسنَّة رسولِه، وفِعل أبي بكر وعمر؟ فقال عليٌّ: على كتاب الله وسنَّة رسوله، واجتهادِ رأيي.

ثمَّ قال عبد الرحمن: قم يا عثمان، فقام وأخذ بيده وقال: هل أنت مُبايعي على كتاب الله وسنَّة رسوله، وفِعل أبي بكر وعمر؟ فقال عثمان: اللهمَّ نعم...

فرفَع عبدُ الرحمن رأسَه إلى سقف المسجد، ويَدُه في يد عثمان وقال: اللهمَّ اسمع واشهد... اللهم إنِّي قد جعلتُ ما في رقبتي من ذلك، في رقبة عثمان.

فقام النَّاس إلى عثمان يُبايعونه، وكانت أوَّلَ يمينٍ شدَّت بالبيعة على يديه يمينُ «عليِّ بن أبي طالب»، ثمَّ تابع المسلمون جميعًا يبايعونه.

وهكذا حُمِّل عثمانُ رضي الله عنه أمانةَ الخِلافة ...وما أثقلها من أمانة!

١٢- التربية السياسية:

لقد مرَّ عثمان رضي الله عنه بفَترة من التربية السياسيَّة، لم تُهيَّأ لخليفة قبله ولا بعده، فهي أطولُ من الفترة التي تهيَّأت لأبي بكر مع رسول الله ﷺ، وأطول

من الفترة التي تهيَّأت لعمر مع رسول الله ﷺ وخليفته أبي بكر، ثمَّ هي أطول من الفترة التي تهيَّأت للخليفة الرابع "علي بن أبي طالب"؛ لأنَّ عليًّا أسلم وهو صبي، ومضت عليه سنوات قبل مشاركته في أعمال الرَّأي، وأعمال الفعل والإنجاز.

فكان قُربُ عثمان رضي الله عنه من صِناعة القرار في عصر رسول الله ﷺ ولِما بينَهما من مُصاهَرة ومودَّة وقرابة، وكذلك مع الشيخين من بعده – جعله يتمرَّس بشؤون الدَّعوة وشؤون الخِلافة، بكلِّ ما فيها من عَقبات ومشاكل وتحدِّيات، فكان اطِّلاعه هذا عُدَّة جامعة يستعدُّ بها لولاية الخِلافة، وتدبير شؤون المسلمين .

أعمال الخِلافة

وهكذا تبدأ الخِلافة الثَّالثة، ويبدأ عَصر جديد من عصور صدر الإسلام، بمعطيات جديدة، وأوضاع جديدة، وتحدِّيات جديدة .

فلننظر ما هي هذه الظروف وتلك التحدِّيات، وكيف تَعامل الخليفة الثالث رضي الله عنه معها؟

أول خطبة

ما أن أَعلن عبدُ الرحمن بن عوف تَولِّيَ عثمانَ رضي الله عنه أمرَ الخِلافة، وبعد تمام البيعة، توجَّه عثمان إلى المنبر، وعلى محيَّاه علامات الخشية من هول المسؤوليَّة .

فوقف على المنبر وقال :

-"أيُّها النَّاس، إنِّي حُمِّلت، وقد قبِلتُ، ألا إنِّي متَّبع ولست مبتدعًا".

-"ألا إنَّ لكم عليَّ بعد كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ ثلاثًا :

- اتِّباعَ مَن كان قبلي فيما اجتمَعتم عليه وسَنَنتُم .
- سَنَّ سنَّة أهل الخير، فيما لم تَسُنُّوا عن ملأ .
- الكفَّ عنكم إلَّا فيما استَوجبتُكم" .

-"ألا إنَّ الدُّنيا قد شهيت للناس، ومال إليها كثيرٌ منكم، فلا تركنوا إليها ولا تتقوا بها".

-"اعلموا أنَّكم في دار قلعة وبقيَّة أعمار، فبادِروا آجالَكم بخيرِ ما تقدرون عليه".

-"ألا وإنَّ الدُّنيا طُويت على الغُرور، فلا تغرنَّكم الحياة الدنيا، ولا يغرنَّكم بالله الغَرور".

وهكذا وضع عثمان رضي الله عنه الخطوطَ العريضة لحكمه.

رسائل إلى الولاة والأمراء

ثمَّ أرسل برسائل إلى الولاة، وأمراء الحرب، والأمناء على بيوت المال، قال فيها :

-"إنَّكم حُماة المسلمين وأُمناؤهم، وقد وضَع لكم عمرُ ما لم يغِب عنَّا، فلا يَبلُغنِّي عن أحد منكم تَبديلٌ أو تغيير".

-"أوصيكم بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وطاعة الله ورسوله" .

تحديات الخِلافة الثالثة

ويبدأ عثمان ﷺ خِلافتَه، ويتحمَّل الأعباء الثِّقال وهو يوشك على السبعين من عمره ...

ووسط كثير من النذر تقوم أصعب خلافة تولَّاها خليفة قط في صَدر الإسلام، يبدأ عثمان خلافتَه وهو مشفِق على نفسه وعلى أمَّته من تحدِّيات جسام :

- فهو يجيء على أثَر خليفتين ليس لهما نظير، وبخاصَّة بعد عشر سنوات عُمَريَّة، فرَض فيها الفاروقُ على الجميع منهجَه الصَّارم، وحَمَل ولاته على مثل ما حَمَل عليه نفسه من زُهد وتقشُّف.
- ويجيء والدَّولة تتَّسع رقعتها وتتلاطم تحت رايتها أجناسٌ شتَّى، متباينةُ الطبائع والغايات.
- ويجيء والدنيا قد فُتحت للمسلمين فتحًا عريضًا، حتى أصبحت دُخولهم من التجارة والفيء والعطاء تزيد بكثير عن احتياجاتهم، وانتقل الكثير منهم إلى طبَقة الأثرياء وكبار الأثرياء.

التمرد العام ونقض العهود

كما كانت ثورة المرتدِّين في أول خلافة الصديق مِحنة شديدة، نهض لها المسلمون جميعًا متشادِّين متآزرين، فقد ابُتلي عثمان في أوَّل خلافته بما يشبه تلك الثورة، ويَزيد عليه الخلاف في الداخل والتغيُّرات – السالف ذكرها – التي طرأت على الأمة .

فما هو إلَّا أن ذاع في ساحات المشرق والمغرب، عن مقتل عمر وتولِّي عثمان الخِلافة، حتى بدأت الفتن من كلِّ حَدب وصَوْب، لكأنَّما كان مقتل عمر هو إشارة البدء بين قوى التمرد .

فقد أغرى زعماءَ تلك الفتن ما علموه من أنَّ الخليفة الجديد رجل في السبعين من عمره، ولم يكن عثمان ﷺ مسموع البطولات كخالد بن الوليد أو علي بن أبي طالب، بل لم يكن اسمه يتردَّد كثيرًا خارج المدينة، لا لشيء إلَّا لأنَّ حياءه وهدوءَه كانا يَجنَحان به دومًا إلى الظِّل.

–كل ذلك أغرى المتمردين بالانتفاض :

- فقد نقَضَتْ دولةُ الرُّوم عهودَها السَّابقة، وقامت الانتفاضة المسلَّحة، وأغار الرُّوم برًّا وبحرًا بأسطولهم على الإسكندرية وفلسطين .
- قامت انتفاضات قوماً واحدة في أذربيجان وأرمنية.
- امتدَّت تلك الانتفاضات إلى كثير من المقاطعات الفارسيَّة، وما وراءها من الشعوب الآسيوية .

ولم يكن التمرُّد في تلك البقاع تمردًا من الشعوب؛ فلقد كان فرحها بالإسلام عظيمًا يوم ذهب إليها وحرَّرها من طغيان الفرس والروم، إنما كان التمرد من فلول تلك القوى، التي كانت تَملِك وتسود قبل الإسلام، وقد ضاع ملكها وسؤددُها .

ردَّة فعل ابن السبعين

ويُخيِّبُ ابنُ السبعين ظنونَ هؤلاء الحمقى من المتمردين، وأراهم أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ لا يُقاس أقدارهم بضَخامة الأجسام، ولا بما يَحملون فوق كواهلهم من سنين وأعوام؛ بل بما وقَر في قلوبهم من إيمان بالله وبوعده، وبرسوله ودينه.

فلم يأخذ الخليفة الثالث كثيرًا من الوقت في التفكير، فأصدر أوامرَه على الفور بإطفاء نار الفتنة، وقهر المتمرِّدين، ليس ذلك فحسب؛ بل أصدر أوامرَه أن يجاوز الفتحُ تلك البِقاعَ المتمرِّدة إلى حدودٍ أبعدَ منها، حتى لا تبقى تِلك البقاع أطرافًا للدولة يَسهُل عليها التمرُّد كلما تشاء، ولقد اختار عثمان ﷺ بنفسه قُوَّاد الجيوش التي ستقوم بهذه المهام.

فلقد كانت مِحنةً كمِحنة الردَّة أو أكبرَ منها؛ لاتِّساع ميادينها، وتباعد أطرافها، وكان عثمان ﷺ كفؤًا لها بالعزم والرَّأي والسرعة في تصريف الأمور، وإسناد كل عمل إلى مَن يحسنه ويسدد فيه أحسن سداد، ومن ثمَّ كانت الفتوحات التي أبهرت، بل أذهلَت الجميع، قريبًا وبعيدًا، عدوًّا كان أو صديقًا .

الفتوحات في عصر عثمان ﷺ

وبدأ الخليفة الكهل بمواجهة هذه التحدِّيات بعزمٍ وحزم، وكأنَّما قد حَلَّ بداخله روحُ الشباب؛ فقرَّر مواجهة كل الجبهات، ولقد رأى القُوادُ والجنودُ يومئذ الرُّوحَ المتألِّقة في خليفتهم الشيخ، فازدادوا استبسالاً وقوة ومضيًّا.

وفيما يلي عزيزي القارئ، نلخص مجمل الفتوحات في عهد "ذي النُّورين" عثمان بن عفَّان ﷺ :

١ – الجبهة الشرقية:

- بدأ عثمان ﷺ بمجابهة قوى التمرُّد في أذربيجان وأرمنية، اللَّتين

نقَضتا العهدَ الذي كانتا قد أبرَمَتاه من قبل.

أمَّا أذربيجان فسيَّر إليها الوليدَ بن عقبة، الذي كان واليًا على الكوفة؛ حيث كانت أذربيجان تابعة لولاية الكوفة، ففتح الله عليه، وغنم وطلب أهلها الصُّلحَ والمعاهدة، بنفس الشروط التي أنزلهم عليها حُذيفة بن اليمان لما فتحها .

وأمَّا أرمينية فأرسل إليها سلمان بن ربيعة في اثني عشر ألفًا، فشتَّت شملهم وغنم، وكما فعل أهل أذربيجان طلب أهل أرمينية الصُّلح.

- ولم يتوقَّف الزَّحف على البلاد المتمردة فحسب؛ بل امتدَّ إلى ما هو أبعد، فبعد الوليد بن عقبة تولَّى أمرَ الكوفة سعيدُ بن العاص، الذي فُتحت في عصره طبَرُسْتان، وكان معه من الجنود ستة آلاف، ولما طلَب من عثمان أن يُمِدَّه بمزيد من الجند، قال له عثمان :سأرسل إليك من الرجال ستَّة، ولكن كل واحد منهم يَعدل ألفًا، فأرسل إليه :الحسَنَ والحسين ابنَيْ علي، وعبدَ الله بن الزبير، وعبد الله بن عمرِو بن العاص، وعبد الله بن عُمر، وحذيفةَ بن اليمان؛ فكأنَّما ضاعَف له جندَه بهؤلاء الستَّة، فقاتل أهلَها ثمَّ طلبوا الصلح والعهد.
- وبنفس هذه الرُّوح وهذا المنهاج، أرسل عثمان ﷺ عبد الله بن عامر – والي البصرة آنذاك – إلى أهل فارس، لما انتفضوا وتمرَّدوا مع مَن تمرَّد، فقاتلهم وانهزموا ولبَّوْا الصلح والعهد، واستمرَّ زحفه إلى ما وراء بُؤَر التمرُّد، كما أمره الخليفة، وفتح إصْطَخْرَ ثمَّ سار لفتح خُراسان ومنها إلى قهستان ثمَّ إلى ضحارستان، حتى وصل إلى خُوارزم، وفي عهده قُتل يَزدَجرد آخِرُ ملوك الفرس .

ولما رجع عبد الله بن عامر، بعد أن فتح الله عليه هذه البلاد العظيمة، قيل له :ما فتَح الله على أحدٍ مثل ما فتح عليك، فقال :لا جرم، لأجعلنَّ شكري لله على ذلك أن أخرج معتمرًا من موقفي هذا، فأحرم بعمرة من نيسابور .

٢- الجبهة الغربية:

- وبينما جيش المسلمين يعود منتصرًا، وفي طريقه إلى الكوفة، جاءتهم الأنباء أن الرُّوم تتحرَّش بالشَّام، فأمر الخليفةُ الوليدَ بن عقبة - واليَ الكوفة آنذاك - أن يُسيِّر جيشًا قِوامُه عشَرةُ آلاف مُقاتِل، واختار لهذه المهمَّة رجلاً شجاعًا أمينًا هو "حَبيب بن مَسلَمة الفِهْري"، وهناك أقبل الرُّوم في جيش قوامه ثمانون ألفًا، ومع قلَّة جيش المسلمين، إلَّا أنَّ إيمانهم بالله وثِقتهم بنصره، هو ما أعطاهم من القوَّة والبأس ما تفوَّقوا به على عدوِّهم.

فقرَّر حبيب وحزم أمرَه أن يغزوَهم بليل قبل أن يُسفِر نور الصبح، فلمَّا سمعته زوجته "أم عبد الله"، وكانت مجنَّدة في جيش المسلمين، سألته :أين ألقاك إذا حَمي الوطيس؟ فأجابها الزوج القائد وكله إيمان وثِقة بنصر الله :في خيمة "الموريان" - قائد الرُّوم - أو في الجنَّة .

وتبدأ المعركة بين عشرة آلاف إلَّا قليلاً، مقابل ثمانين ألفًا أو يزيدون، وتنتهي بالنَّصر المبين للفئة القليلة على الفئة الكثيرة بإذن الله، ويذهب حبيب إلى خيمة "الموريان" قائد الرُّوم؛ لِيَجد امرأتَه قد سبَقَتْه إليها .

- وتستمر الفتوحات بعد ذلك، لتتعدَّى بُؤَرَ التمرُّد وتتوغَّل في بلاد الرُّوم، تفتح حِصنًا وراء حِصن، حتى بلغوا عَمُّورية، وطرطور، وأنطاكية .
- ويتلقى الخليفة الرَّابِض في المدينة أنباء من مصر أن الإسكندرية تتعرَّض لهجوم برِّي وبحري من قِبَل الروم، فيوجِّه "عمرو بن العاص" والي مصر آنذاك، كي يسير بجيشه إلى الإسكندرية، وهناك أوقع بالمغيرين شرَّ هزيمة، واستطاع أن يستأصل شأفتهم .
- وتستمر الفتوحات، ويزحف جيش المسلمين بأوامر خليفتهم عثمان بن عفَّان ﷺ إلى شمال إفريقيا؛ حيث أرسل جيشًا كبيرًا بقيادة "عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح"، وكان معهم عبد الله بن عمر، وعبد الله بن

الزُّبير، وأقبلَت جيوشُ البربر في أعداد ضخمة، قدَّرها البعضُ بمائتي ألف مقاتل، وقد أبلى المسلمون في هذه المعركة بلاء حسنًا، لا سيَّما عبد الله بن الزبير، الذي شهدَت منه هذه المعركةُ بسالةً مُنقطعة النظير . ويصِل جيشُ المسلمين إلى طرابلس، ومنها إلى طنجة وإفريقية (تونس) .

٣- ميلاد البحرية الإسلاميَّة:

كان عمرُ بن الخطاب ﷺ يَرفُض فِكرةَ ركوبِ البحر؛ لِما في ذلك من مُخاطرة، وقد حدَث في زَمنه مُحاوَلاتٌ لركوب البحر، ولكنَّها كانت مُحاوَلاتٍ لم يُصِبها النَّجاح وقُتل فيها خَلق كثير، وهو ما زاد من إصراره ورفضِه لهذه الفِكرة كلَّما ألحَّ عليه أحدٌ مِن الصَّحابة، وكان أكثرُهم إلحاحًا معاويةَ بن أبي سفيان، الذي كان يتَمنَّى غزوَ الرُّوم من البحر، وعمرُ لا يأذن له ...

ويجيء عصرُ عثمانَ ﷺ ، ويرى أنَّ الأسطول البحريَّ للروم الذي يتَّخذ من جزيرة قبرص مُنطلَقًا لعدوانه، قد أصبح خطرًا على الشَّام وفلسطين ومصر والقيروان، فكان على الخليفة أن يتَّخذ قرارًا، طالما عارضَه سلَفُه العظيم عُمر بن الخطاب؛ لأنَّه أصبح ضرورةً بعد أن تغيَّرَت الظروف والمعطيات، فعسير عليه أن يَمنع غزوَ البحر، وعسير مثله أن يُبيحه .

فإذا بالخليفة العظيم، الكهل، يبهر الدُّنيا كلها بمضاء عزمِه وروحه، ويخرج من العَسيرَين خيرَ مَخرج، وكتَب إلى مُعاوية يأذن له في بناء أول أسطولٍ بحري إسلامي، ولكن ما زالت مَخاوِفُ عمرَ تتردَّد في أعماقه، فقال لمعاوية :"لا تَنتخِبِ النَّاسَ ولا تُقرِعْ بينهم، فمن اختار الغزوَ (بحرًا) طائعًا فاحمِلْه وأَعِنه" .

وهكذا يُعلَن ميلادُ أوَّل أسطول بحري في الإسلام.

غزوة قُبرص

لَمَّا كانت جَزيرة قبرص – كما أسلفنا – خطرًا على الدَّولة الإسلاميَّة، ومُلتقًى تتربص فيه أساطيل الروم، فقد أذن الخليفة عثمان بن عفَّان لمعاوية بغَزْو قبرص بحرًا، وأمدَّه بجيشٍ كبير بقيادة عبد الله بن سعدِ بن أبي سَرح، وأطبَقَت القوَّتان العارِمَتان على الجزيرة فاستَسلمَت، ووقع الصُّلحُ الذي فرَضه المسلمون.

وهكذا أصبحَت قبرص تحت إمرة المسلمين، وانتهى الخطر القادم منها .

المرأة الصالحة

وفي هذه الغزوة تحقَّقت نبوءة قديمة لرسول الله ﷺ :

ذلك أنَّ رسول الله ﷺ كان يَقيل يومًا في دار "عُبادة بن الصَّامِت"، فنهض من نومه وهو يَضحك، فسألته "أمُّ حَرام بنت مِلحان" زوجة عبادة بن الصامت عمَّا أضحكه؟ فقال رسول الله ﷺ : «**أناس من أمَّتي عُرضوا عليَّ غُزاة في سبيل الله، يركبون ثَبَج هذا البحر مثل الملوك على الأسِرَّة**»، فقالت أمُّ حرام :ادْعُ اللهَ أن يجعلني منهم يا رسول الله، فقال لها رسول الله ﷺ : «**أنتِ منهم** ».

ونام رسولُ الله ﷺ ثانية، ثمَّ استيقَظ يضحك ويقول :«**أُناس من أمَّتي عُرضوا عليَّ غُزاة في سبيل الله، يركبون ثَبَج هذا البحر مثل الملوك على الأسِرَّة**»، فقالت أمُّ حَرام :ادْعُ اللهَ أن يَجعلني منهم يا رسولَ الله، فأجابها رسولُ الله ﷺ :«**أنتِ من الأوَّلين**».

وتمرُّ الأيام ...حتى جاءت غَزوة قُبرص هذه، وركب المسلمون سُفُنَهم الكبيرة الظَّافرة كالملوك فوق الأسِرَّة، وخرج مع الجيش في هذه الغزوة "عُبادة

بن الصَّامِت"، ومعه زوجته "أمُّ حَرام بنت مِلْحان" ...وتتحقَّق نبوءة رسول الله ﷺ، لقد ماتت أمُّ حَرام بعد انتهاء المعركة ودُفنَت هناك، وعُرِف قبرها فيما بعد بين النَّاس "بقبر المرأة الصالحة"، فكانت كما أخبرها رسولُ الله ﷺ **من «الأولين** ...» ولم تعِش حتى تَركب البحرَ مع الآخرين .

غزوة ذات الصواري

وجاءت غَزوة ذات الصَّواري، لتؤكِّد صَلابة الدَّولة الإسلاميَّة تحت قيادة الخليفة الثالث "عثمان بن عفَّان" رضي الله عنه .

فقد جمع قُسطنطينُ "إمبراطورُ الرُّوم" جيشًا جرَّارًا، وخرج على ظُهور خَمسِمائة سفينةٍ، زاحفًا على بلاد المغرب ليُلاقيَ عبدَ الله بن سعد بن أبي سرح، وجمع عبدُ الله جيشَه ونزل بسُفنهم في البحر، والتقى الجمعان في مَعركة غير متكافئة الأطراف؛ فالمسلمون ليس لديهم العدَد والعُدَّة مثل الروم، فدعاهم قائد المسلمين ليخرجوا إلى البرِّ ويقاتل الجيشان فوق الأرض الصلبة، التي يُتقِنون فنونَها، فأبَوا ذلك .

عندئذ فكَّر المسلمون في تَحويل البحر إلى أرض صلبة، ليُفسِدوا على الرُّوم تفوُّقَهم البحري، فأسرعت فِرقة من جيش المسلمين، فربطت سُفنَهم بسُفن الرُّوم بعد أن أدْنَوها منها، ثمَّ راحوا يتقاتلون بالسُّيوف، وكأنَّهم على الأرض، وانتصر المسلمون، وهرب قُسطنطين.

واستمرَّ المسلمون في غَزو البحر، ومع مرور الوقت يزدادون تَطوُّرًا وتفوُّقًا؛ فقد غزا "عبدُ الله بن قيس" قائدُ الأسطول البحري خمسين غزوة، بين شِتاء وصيف في البرِّ والبحر، ولم يَغرق أحد من جيشه .

امتداد الدَّولة الإسلاميَّة في عصر عثمان

وهكذا سارت جُيوش الخليفة الثالث "عثمان بن عفَّان" ﷺ تحت رايتها المنتصرة في كلِّ مكان، حتى قرعت أبوابَ قسطنطينيَّة غربًا، وفارس وكرمان وخراسان شرقًا، ومهَّدَت تلك الفتوحات لزَحف المسلمين، حتى بلغوا السودان والحبشة جنوبًا، والهند والصِّين شرقًا.

ولقد أخلفت تلك السَّنوات المتألِّقة لعثمان بن عفَّان ﷺ كلَّ الظُّنون، والتي أساء أعداءُ الإسلام به الظُّنون؛ فقد قام الخليفة الشيخ بأعبائه الجسام على أحسن ما يُقام بها في تلك الظروف الصَّعبة، وكان له ولا شك أكبر الفَضل في تَثبيت مهابة الدَّولة، بعدما أصابها من الوَهن والتخلخل بعد مَقتل عمر، وقد وَقَر في أخلاد الأمم المحيطة بها أنَّهم يُنازلون قومًا لا يَقدح في قوَّتهم موتُ خليفة، أو تبديلُ قائد، وأنَّهم مُنتصِرون لا مَحالة على اختِلاف القادة والرؤساء .

وكانت هذه الهمَّة من عثمان بن عفَّان ﷺ في عِلاج الأخطار الخارجيَّة حلاً نافعًا في تحدِّيات وشؤون الدَّولة الداخلية .

* * * * * * *

الإنجازات الداخلية في عصر عثمان ﷺ

لم يَشغَل عثمانَ بن عفَّان ﷺ الجهادُ الموصول والغزوات المتلاحقة عن اهتمامه بالدَّاخل .

وقد سجَّل له التاريخُ الأعمالَ الآتية :

١ – العمارة:

- واصل عثمان ﷺ ما بدأه سلَفُه عمر بن الخطاب ﷺ من إنشاء المدن وعمارتها.
- قام بتمهيد الطُّرُق للرَّبط بين المدن وإحياء التجارة والتواصل فيما بينها.
- قام بتدبير المرافق العامَّة لكلِّ مدينة، وتيسير التجارة؛ من بناء أسواق، وتيسير المواصلات وخلافه.
- إقامة الشُّرطة في المرافق؛ لحمياتها وتنظيم الأسواق.
- قام بتجميل مَدينة رسول الله ﷺ، يزيد في بنايتها وعمارتها، مبتدئًا بمسجد رسول الله ﷺ، فوسَّع فيه، وكان أوَّل من أدخل الحجارة المنقوشة والأعمدة المرصَّعة في بناء وتجميل المسجد النَّبوي، وأصبح للمسجد بعد التوسِّعة ستة أبواب.

٢ – ميناء جدة:

شهِد عَصر عثمان ﷺ تحويل مَدينة جدَّة إلى مِيناء بحري، كان له أكبر الأثر في إثراء التجارة وحركة النقل .

٣- الرخاء للجميع:

لقي النَّاس في عهد عثمان ﷺ من الرَّخاء والثَّراء ما لم يَحْظ به شعب على ظهر الأرض؛ فقد فُتحَت البلاد وزادت الدُّخول من التجارة والفيء والعطاء، فكان ينادي المنادي :

-"أيُّها النَّاس، اغدوا على أُعطياتكم"، فكانوا يغدون عليها ليأخذوها.

-"أيُّها النَّاس، اغدوا على أرزاقكم (رواتبكم)"، فكانوا يَغدون عليها ليأخذونها غزيرة وفيرة، حيث كان لكلِّ فرد من الأمَّة راتبُه .

-"أيُّها النَّاس، اغدوا على كِسوتكم"، فكانوا يغدون ليأخذوا الحُلَل السابغة.

-"أيُّها النَّاس، اغدوا على طعامكم"، فكانوا يغدون ليأخذوا السَّمن والعسل، وكلَّ ما طاب من طعام.

ولا عجب إذا علِمنا أنَّ عثمان ﷺ كان ينفِق من ماله الخاص قَبل الخِلافة وبعدها؛ لاستصلاح أمورٍ عامَّة من خصائص بيت المال .

* * * * * * *

مصحف عثمان

يَنفرد اليوم، "وبعد أكثرَ من ألفٍ وأربعمائة عام"، بين أعمال عثمان ﷺ، عمَلٌ يُوازِنُها جميعًا، يُذكر باسمه حيث يُذكر المصحف الشَّريف، ويَعلمه مَن يعلم أنَّ المصحف العثماني منسوب إليه.

فقليل من النَّاس يَعلمون اليوم أنباءَ الفتوحات التي فتَحها عثمان ﷺ ، وأنباء الغارات التي ردها ﷺ ، أمَّا عمله ﷺ في المصحف، فهو ماثِلٌ معلوم حيث يُقرأ المصحف، وحيث يُقال :"هذا مصحف عثمان"، وكل مصحف اليوم هو مصحف عثمان.

فلو لم يَذكر له التاريخ من جُلِّ أعماله العظيمة سوى جمعه للقرآن، وتوحيد المسلمين على مُصحف واحد ...لكفاه فَخرًا وعِزًّا، بأعظم حسَنة في تاريخ الإسلام .

رحلة القرآن من جريد النخل إلى مصحف عثمان

- نزَل القرآن على رسول الله ﷺ في آيات متفرِّقة، وفق ظروف وأسباب نزولها، وكان مِن بعض أصحاب رسول الله ﷺ نفَرٌ اختارهم؛ لِيَكتبوا الآياتِ أوَّلاً بأول.
- كان الصَّحابة يتَناقلون الآيات المنزَّلةَ، بعضهم يعتمد على ذاكرته فيَحفظها، والبعض الآخر سطَّر الآيات على جريد النَّخل وصفائح الحِجارة والجلود لحفظها .
- في عهد الخليفة الأول "أبي بكر الصدِّيق" ﷺ – كما أسلفنا – قرَّر بمشورة عمر بن الخطاب ﷺ أن يَجمع القرآنَ، لما قُتل عدد كبير من الحفَّاظ في اليمامة، وعَهِد إلى "زيد بن ثابت" بهذه المهمَّة؛ حيث كان

يَحفظ القرآنَ كلَّه، وكان أكثرَ كُتَّاب الوحي مُلازَمةً لرسول الله ﷺ، فجمَع زَيدٌ القرآنَ من صُدور الصَّحابة ومِن الألواح المكتوبة، جمعه في مُصحف واحد، مرتَّب السُّوَر والآيات، مَعروف البدء والمنتهى، وحُفظ هذا المصحف عند أبي بكر وبعده انتقل إلى عمر، الذي أوصى به أن يُنقل إلى بيت حَفصة بنت عمر "أم المؤمنين" عند وفاته .

- شَرَعت الفتوحاتُ في عهد عمر، وبلغت آمادًا أبعد في عهد عثمان، ومع هذا الفتح العظيم، دخل الإسلام شعوبًا مختلفة اللِّسان، ومع اختلاف الألسنة واللَّهجات اختلف النَّاسُ في قراءة القرآن، كلٌّ على حسب لَهجته ولسانه، ليس ذلك فحسب، بل أصبح مدعاة للخِلاف والشِّقاق .
- شهِد حُذيفة بن اليمان خلافًا مفزعًا بين أهل الشَّام وأهل العِراق، لما كان في فَتح أرمينيَّة وأذربيجان مع أهل العراق، ولما عاد حُذيفة من الغَزو، لم يدخل بيتَه حتى أتى الخليفةَ عثمان رضي الله عنه فقال له :"يا أمير المؤمنين، أدرِك النَّاسَ قبل أن يَختلفوا في الكتاب اختلافَ اليهود والنَّصارى" .
- لم يتوانَ الخليفة لحظةً واحدة، فأرسل إلى حَفصة يطلب منها المصحفَ الذي أودعه أبوها عندها، ثمَّ أمر زَيدَ بن ثابت، الذي قام بجمع القرآن في عهد أبي بَكر، ومعه عبد الله بن الزُّبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام – أمرهم أن يَنسخوا المصحفَ.
- وبعدما انتهَوْا من عَملهم الجليل، راجَعَها على ما يحفظه؛ فهو مِن كَتبة الوحي – كما أسلفنا – ويحفظ القرآنَ كلَّه، ثمَّ راجعها على ما يحفظه سائر الصَّحابة، فخلصَت النُّسخة المتَّفَق على قراءتها وترتيبِ آياتها.
- ثم أمَر عثمانُ هؤلاء الصَّحابةَ الأجلَّاء بأن يَنسخوا عددًا من المصاحف،

وأرسل لكلِّ إقليم من أقاليم الدَّولة بنسخة، ثمَّ أمر بكلِّ ما عدا هذه النُّسخ من مصاحف فجمعها، فدُفنت بين القَبر والمنبر، وفي بعض الروايات أنَّه أمر بها فأُحرقَتْ .

- ومضى الكاتبون في كلِّ إقليم يَنسخون لأنفسهم ولغيرهم مصاحفَ أخرى من هذا المصحف، الذي سمِّي يومئذ ولا يزال إلى يومنا هذا "مصحف عثمان".

* * * * * * * *

شمائل "ذي النُّورين"

لقد كان لعثمان بن عفَّان ﷺ من الشَّمائلِ الكثيرُ، وهي تَعبَقُ بالخَير والمروءة، ويفوح منها عبيرُ الرَّحمة، ولعلَّ أكبر وِسام على صَدره، هو ما قاله رسول الله ﷺ لما تُوفِّيَت زوجتُه الثانية "أمُّ كُلثوم" بنت رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ : «**لو أنَّ لنا ثالثةً لزوَّجناك إياها**»، فما هي الشَّمائل التي أهَّلَتْ "ذا النُّورين" لهذا الشَّرف، وذلك الفضل؟

فلنعرج على بعض من تلك الشمائل :

١ – الحياء :رجل تستحي منه الملائكة:

يقول رسول الله ﷺ :«**الحَياء شُعبة من شُعب الإيمان**»؛ فلقد كان الحياء هو أكثر ما تميَّزَت به شخصيَّة "ذي النُّورين"ﷺ ، فلو قُدِّر للحياء أن يكون رجلاً يَمشي على الأرض، لكان هو "عثمان بن عفَّان" ﷺ فلقد كان الحياء هو" عثمان"، وكان "عثمان" هو الحياء نفسه .

تقول أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها :كان رسول الله ﷺ مضطجعًا في بيتي، وقد انحسر رِداؤه عن إحدى ساقَيه، فاستأذن أبو بكر في الدخول عليه فأذن له، وهو على تلك الحال، فتحدَّث ثمَّ انصرف، ثمَّ استأذن عمر، فأذِن له وهو كذلك فتحدَّث وانصرف، ثمَّ استأذن عُثمان، فجلس رسول الله ﷺ بعد أن كان مضطجعًا وسَوَّى ثيابَه فدخل عثمان، فتحدَّث ثمَّ انصرف .

وبُعيدَ انصرافه سألت السيِّدة عائشة رسولَ الله ﷺ" :لِمَ لَمْ أَرَكَ تهيَّأتَ لأبي بكر ولا لعمر، كما تهيَّأت لعثمان؟ فيجيبها رسول الله ﷺ :«**إنَّ**

عُثمان رجل حَيي أي :(شديد الحَياء)، **ولو أذِنتُ له وأنا مضطجع لاستحيا أن يَدخل ولرجع دون أن أَقضي له حاجته، يا عائشة، ألا أستَحِي من رجل تَستحي منه الملائكة»**.

فلقد كان حَياء عثمان أصيلاً ممعنًا في الأصالة، وكان هذا الحياء طاقةً زاخرة فيه، تفرض احترامها على كلِّ مَن حوله، حتى الملائكة.

ولذلك قال رسولُ الله ﷺ:

- **«أرحَم أمَّتي بأمَّتي أبو بكر»**.
- **«وأشدُّهم في دِين الله عمر»**.
- **«وأكثرهم حَياء عثمان»**.
- **«وأقضاهم عَلي»**.

٢ – عدله:

أمَّا عن عَدله ﷺ فكان عدلاً تغلفه الرَّحمة.

قِصاص الدُّنيا أرحم من قِصاص الآخرة

فها هو عُثمان الرَّحيم يَغضب يومًا على خادم له، فيفرك أُذنه حتى يوجعه، ثمَّ سرعان ما يأ لم لأ لَم الخادِم، فيدعوه ويأمره أن يقتصَّ منه فيفرك أذنه ...ويَأبي الخادِم، فيأمره في حَزم، فيطيع الخادم، فيقول عثمان لخادمه : "اشْدُد يا غلام؛ فإنَّ قِصاص الدُّنيا أرحم من قِصاص الآخرة".

لا قَرابة في حدود الله

كان عُثمان ﷺ يُقيم الحدودَ على القريب والبعيد، فلا قرابة عنده في حدود الله .

فهذا الوليد بن عُقبة "أخوه لأمِّه"، وقد كان واليًا على الكُوفة، لما ثبت

عليه شُرب الخمر أقام عليه حَدَّ شارِب الخَمر، وأمر بجلده أربعين جلدة، وبعَزْله من منصبه .

٣- زهده:

رغم أنَّ عثمان ﷺ كان أكثر قومه مالاً وثَراء في الجاهليَّة وفي الإسلام، إلَّا أنَّه كان أكثرهم زُهدًا .

- **وهاك بعض الشواهد على زهده وعزوفه عن الدنيا، رغم ما له من مال وثراء :**
- يدخل بعضُ المسلمين مسجدَ المدينة، ليروا رجلاً قد نام فَوق حصاه، ورِداؤه تحت رأسه، ثمَّ ينهض من نومه، فيلاحظون أثَرَ الحصا في جَنبه ...فيقولون في تعجُّب :أمير المؤمنين ..أمير المؤمنين!

نعم، إنَّه العابِد الزَّاهد عُثمان بن عفَّان، وكان خليفة المسلمين.

- كان يطعم النَّاسَ طعامَ الإمارة، ويدخل بيته فيأكل الخلَّ والزَّيت.
- يقول عبد الله بن شداد :"رأيتُ عُثمان بن عفَّان يخطب الجمعةَ وعليه ثَوب بالٍ، قيمته أربعة دراهم، وإنَّه يومئذ لَأمير المؤمنين" .

٤ – كرمه:

كان "ذو النُّورين" ﷺ عظيمًا في جُوده وكرمه، جُود رجل لم يعد المال في نظره سوى هَشيم تَذروه الرِّياح، إلَّا إنْ أنفقه في سبيل الله، فيتحوَّل بهذه النَّفقة إلى خُلود حق وثواب باقٍ وعظيم.

ولنا على ذلك شاهد ودليل:

- لقد رأيناه – كما أسلفنا – يَشتري بئر رومة وحده، ويجهِّز جيشَ العُسرة بنفقات بالِغة، حتى قال رسولُ الله ﷺ : «**ما ضرَّ عثمان ما عَمِل بعد اليوم**»، وفي عام الرَّمادة لَمَّا قحط النَّاس، يَجود بقافِلة كاملة قوامها ألف بعير، محمَّلة بُرًّا وزيتًا وزبيبًا، ليأكل النَّاس ويَنعموا .
- ثمَّ نراه يوقِّع مع نفسِه مَوثقًا لا يُخلفه طوال حياته :وهو أن يعتِق كلَّ يومِ جمعة عبدًا يَشتريه من سيِّده بأيِّ ثمَن، ثمَّ يحرِّر رقبتَه ويهبه حريَّتَه، مبتغيًا بذلك وجهَ ربِّه الأعلى .
- يقيمُ الموائدَ كلَّ يوم بجوار المسجد النَّبوي ليأكل النَّاس .
- يقرِّر في رمضان من كلِّ عام درهمًا يوميًّا لكلِّ مواطن، وللأمِّ المرضعة درهمين – زيادة على الرَّاتب المخصص لهم – وذلك من ماله الخاص .
- لا يكاد يبصر التجَّار يَهمُّون باحتكار الأرزاق، أو بيعها بثمَن باهِظ، حتى يرسل قوافلَه لتعود محمَّلة، بما يفسِد عليهم احتكارهم ويسعد النَّاس .

٥ – رحمته:

أمَّا "عثمان" الرَّحيم، فقد كانت الرَّحمة تَشيع في حياته، كما يشيع الرِّيُّ في العود الأخضر الرَّيَّان، فكانت رحمته في كلِّ تصرُّفاته، ممَّا هو أمر عادي، إلى ما هو أمر مَصيري، يتوقَّف عليه حياته أو موته .

وهاك بعض الشواهد :

- فها هو الخليفة الشَّيخ، ينهض من اللَّيل ليصلِّي فيرفض أن يوقِظ أحدًا من خدمه كي يعدَّ له وَضوءه، ويتحامل على شَيخوخته

ويعد لنفسه الوضوء .

- وها هو "عثمان" الخليفة الذي يَرفض النَّجاة من سيوف قاتليه، إذا كان ثمَن هذه النَّجاة قطرات دم تُسفح من مسلم بريء.
- يدخل عليه "زيدُ بن ثابِت" وقد رأى المتمرِّدين يتَنادَوْن لحِصار داره فيقول له :"يا أمير المؤمنين، هؤلاء الأنصار بالباب يقولون : إن شئتَ كنَّا أنصارَ الله مرَّتين"، فيجيب الخليفة الرَّحيم :"أمَّا القِتال ..فلا، أُناشدكم الله وأسألكم به، ألَّا يُراق بسببي قَطرة دم واحدة" .

إنَّها الرَّحمة الجامعة، تُعطي بعطائها جلائلَ الأحداث وصغارها؛ فللخادم منها حظُّه وحقُّه في أن يَنعم براحة النَّوم، وإن أَضنى الخليفةُ نفسَه وشيخوخته في ظُلمة اللَّيل ...ولِقطرات الدَّم وأمْنِ وسلامة النَّاس حظُّها، وإن كان البديلُ هو حياةَ الخليفة نفسِه .

- ومن المواقف التي تجلَّت فيها رحمتُه ﷺ ما رواه موسى بن طلحة يقول :"سمعتُ عثمانَ بن عفَّان وهو على المنبر، والمؤذن يقيم الصلاةَ، وهو يستخبر النَّاس عن أخبارهم، وأسعارهم، وعن مرضاهم" .
- كان من الطَّبيعي لرجل وَسِعَت رحمتُه النَّاسَ جميعًا، أن يكون رحيمًا بذَوي رَحِمه وأقربائه ...

يقول الإمام علي عنه :"أوْصَلُنا للرَّحم عثمان".

٦- عبادته وخوفه من الله:

لقد كان عثمان ﷺ في عبادته طرازًا فريدًا :

- وصَف معاصروه عبادتَه فقالوا :"كان يصوم الدَّهرَ، ويقوم اللَّيل إلَّا هجعة في أوله".

- كان ﷺ يَقرأ القرآنَ كلَّه في ركعة واحدة، ثمَّ يوتر بها .
- وكان يقوم اللَّيلَ ولا يوقظ أحدًا من خدمه؛ كما أسلفنا.
- يقول عبد الله بن عمر في قوله تعالى: {أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ} [الزمر: ٩]، قال ابن عمر :إنَّه عثمان بن عفَّان، إنها شهادة من ابن عمر تتألَّق في ضوئها العبادة المثابرة التي كان عليها عثمانﷺ ؛ فقد كان ساجدًا قائمًا يرجو رحمةَ ربِّه.
- يقول عثمانﷺ : لو أنِّي بين الجنَّة والنَّار، ولا أدري إلى أيَّتهما يؤمر بي، لاخترتُ أن أكون رَمادًا قبل أن أعلم إلى أيَّتِهما المصير" .
- هكذا كان خوفه وتقواه؛ كان يحمل إشفاقًا من الآخرة عظيمًا، نراه في كثير من خُطبه التي كان يَخطبها للمسلمين، فكان يقول :

-"أيُّها النَّاس، اتقوا الله؛ فإن تَقوى الله غُنْم، وإنَّ أكيَس النَّاس مَن دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، واكتسب من نور الله نورًا لقبره" .

-"إنَّ الله أعطاكم الدنيا، لتطلبوا بها الآخرة، ولم يُعطِكُموها لتَركنوا إليها".

-"إنَّ الدُّنيا تَفنى، وإنَّ الآخرة تبقى، فآثروا ما يبقى على ما يفني" .

فلم يكن عثمان ﷺ عابدَ صَومعة؛ بل عابدًا يملأ الحياةَ سعيًا وجِدًّا وبذلاً ...وكان خوفه من الله، ومراقبته ملازِمة له في كلِّ عمل يقوم به .

٧- بشرى رسول الله ﷺ:

لقد بشَّر رسولُ الله ﷺ عثمانَ بالجنَّة - كما أسلفنا - مع العَشرة المبشَّرين بالجنَّة، واصطفاه ليكونَ من كَتَبة الوحي، كما بشَّره رسول الله ﷺ بالشَّهادة، كان يومًا يقِف على مُرتفع من جبَل أُحُد، ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فارتجف المكان الذي يَقفون عليه، فضربه رسولُ الله ﷺ بقدمه وهو يقول :"**اثْبُت أُحُد؛ فإنَّما عليك نبي، وصدِّيق، وشهيدان**".

٨- ثقافته:

كان من الضَّروري ونحن نتحدَّث عن شمائل "ذي النُّورين" أن نتعرَّف على ثقافته؛ لما لها من علاقة فيما يفكِّر وفيما يفهم .

لقد كان عثمان رضي الله عنه على عِلم بمَعارف العرب في الجاهليَّة ومنها الأنساب والأمثال وأخبار الأيَّام (التاريخ)؛ فلقد ساح كثيرًا في الأرض، فرحل إلى الشَّام والحبشة، وعاشر أقوامًا غير العرب، فتعرَّف من أطوارهم ما ليس يَعرفه كلُّ عربي في بلاده، وفي الترحال أيضًا جدَّد العمل بمعارف البادية؛ من مَطالع النجوم، وأخبار الرياح، وهي مَعارف القوافل من أبناء الصحراء.

وفي إسلامه :

كان كاتبًا يجيد الكتابة، فاعتمد عليه رسولُ الله ﷺ في تدوين الوحي، واعتمد عليه الصدِّيق في كتابة الوثائق الهامَّة؛ منها الوثيقة التي عَهِد فيها بأمر الخِلافة مِن بعده إلى الفاروق رضي الله عنه ...

وكان أفقَهَ المسلمين في أحكام الدِّين، وأحفظهم للقرآن والسنَّة؛ فقد روى عن رسول الله ﷺ قرابة المائة والخمسين حديثًا .

يقول محمد بن سِيرين :"كان عثمانُ أعلَمَ الصَّحابة بالمناسِك، وبعده ابن عمر".

وفي حسن الحديث :

فقد زوَّدَته معرفته بالأخبار والأنساب وسياحته في البلاد بزاد حسَن من مادَّة الحديث مع ذَوي الكلام من الرِّجال، يقول عبد الرحمن بن حاطب : "ما رأيتُ أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ أتمَّ حديثًا ولا أحسن من عثمان، إلَّا أنَّه كان رجلاً يهاب الحديث" ...وهو أمر طَبيعي أن يَهاب الحديثَ، وقد كان أشد النَّاس حياء .

فلم يكن حَديثه لغوًا ولا ثرثرة، ولقد كان رسول الله ﷺ يتوق إليها، تروي السيدة عائشة :أنَّها سَمِعَت رسولَ الله ذات ليلة يقول : «**لو معَنا مَن يحدِّثنا؟**»، فقالت :يا رسول الله، أفأبعث إلى أبي بكر؟ فسكت، ثمَّ قالت أفأبعث إلى عمر؟ فسكَت، ثمَّ بعث غلامًا له ليأتي له بعثمان، فأتى وناجاه رسول الله ﷺ طويلاً.

وفي الكتابة :

فقد كان يرسِل بالرسائل إلى عمَّاله، وولاته، وأمراء الحرب، وأمناء بيوت المال برسائل عدة .

وكان أسلوبه فيها هو ترجمان نفسه، فكانت كتابته لا كُلفة فيها، ولا مُجاملة، ولا إطناب، إلَّا الدَّعوة القويمة في استقامة وسهولة وبساطة .

وفي الخطابة :

فكانت على نَفس النَّهج من الكِتابة، في السهولة التي لا تَخلو من البلاغة والبيان، وتصِل إلى القلوب قبل أن تصِل إلى الآذان والعقول ...

وهكذا كانت شمائله ﷺ :

- يقوم ليلَه ضارعًا.
- يصوم نهاره خاشعًا .
- ينفق مالَه بغير حساب.
- ويحمل سيفَه إذا نودي للجهاد .

لله درك يا ذا النُّورين!

الفتنة

إنَّ التغيُّر الهائل الذي أحدثه الإسلام في خَريطة العالم المحيط به، وفي عقائده ونظمه، لم يكن ليمرَّ دون أن يعكس آثارَه بشكلٍ أو بآخر على الإسلام نفسه، في مجتمعه وفي دولته وخاصَّة في القادة والروَّاد الذين حملوا أعباءَ هذا التغيير العظيم.

لقد مزَّقت الفتوحاتُ العريضة يومئذ مُلكَ فارس والروم، وفي أقلَّ من أربعين عامًا أصبح أكثرُ من نِصف الكرة الأرضية قد سطَع فيه نورُ الحقِّ، ودان أهلُها بدين الإسلام واستقبَلوه بقلوبٍ فَرِحة، بعدما خلَّصهم من ظُلمِ واستعباد الفُرس والرُّوم.

وبقيتْ نِقمة الفلول المتبقية من تلك السلطات المنهارة، نارًا تَشحَذ ضِرامها تحت الرماد .

ولقد كان رسول الله ﷺ يستشفُّ من وراء الحجب تلك الانعكاساتِ المنذِرةَ؛ فروي عن ابن عمر أنَّه قال :قال رسولُ الله ﷺ :«**إذا مشت أمتي المُطَيطاء** – أي :الخُيلاء – **وخدَمَتها أبناء الملوك، فارسُ والروم، سُلِّط شرارُها على خيارها**»، وهو ﷺ بهذا يُشير إلى ردود الفعل المحتومة لفتحهم العظيم، ويهيِّئ نفوسهم لتأخذ حذرها .

النُّذر الأولى للفتنة:

ولقد كان اغتيال الخَليفة العظيم "عمر بن الخطاب" أُولَى ظواهر هذا الانعكاس الخَطير، وكان نذيرًا واضحًا بأنَّ ردود الفِعل لتلك الفتوحات الإسلاميَّة قد بدأت .

ولما مالَت شمس عُمَر للمَغيب، وجَدَت المؤامَرات المسعورةُ لنفسها مَنفذًا

عريضًا، فكانت الحروب المسلَّحة التي واجهَت المسلمين في بِقاع كثيرة في أوَّل خلافة عثمان بن عفَّان ﷺ والتي تَحدَّثنا عنها سالفًا، حتى إذا أحسنَت جيوشُ المسلمين تأديبَ المتمرِّدين وحطَّمَت جيوشَهم، وبدَّدَت آمالَهم في تسوُّر حدود الدَّولة الإسلاميَّة – ألقَوا سلاحهم صاغِرين مَدحورين، بيد أنَّهم لم يُلقوا ما في قلوبهم من غِلٍّ، وقرَّروا بعد فشَلِهم في ميادين القِتال أن يَلجؤوا إلى أسلوب آخر، وهو الائتمار بالدَّولة من الداخل، والتسلُّل بالفِتن إلى الصُّفوف الأولى من قادة المسلمين من كبار الصَّحابة، ثمَّ بين صفوف الجماهير في أقاليم الدَّولة ...وهكذا كانت النُّذر الأولى والتخطيط للفِتنة الكبرى.

العوامل المحرِّكة للفِتنة :

واجتمعت قوى الشرِّ، لتزرع بذورَ الفِتنة، وتنسج خيوطها، ولقد كانت هذه القوى ممثَّلة في الآتي:

١ – الإمبراطورية الرومانية :

التي فرَّط الإسلام عِقْدَها، ودفَعها داخل حدودها الضيِّقة.

٢ – الإمبراطورية الفارسية :

التي صنَع بها مِثلما صنَع بالرُّوم، والتي خَسِرَت كلَّ مصالحها وكنوزها ونفوذها.

ففي دولة الرُّوم كما في فارس، كان الكهَنَة، والقناصلة، وأشراف البلاط، والإقطاعيون مالكو الأرض، ومحتكِرو التجارة والثَّروات، كل هؤلاء جميعًا يَحملون للعرب والمسلمين حِقدًا يُضاهي ما فَقدوه من كنوز ونفوذ وسلطان .

٣- اليهود :

الذين أُجْلوا عن المدينة وشتَّتهم غَدرُهم عن البلاد؛ من يهود بَني قَينقاع وبني النَّضير الذين نُفوا إلى الشَّام، فاتَّخذوا منها - حتى بعد الفتح الإسلامي لها - مركزًا لصنع الفِتنة وتصييرها إلى كلِّ مكان.

فكما تحرَّك الرُّوم والفرس من الخارج، تحرَّك اليهودُ من الداخل، فلم يكن عَبثًا ولا صُدفة، أن يفِد من اليمن إلى المدينة في عهد عثمان ﷺ يهوديٌّ يقول :إنَّه درَس الإسلامَ وأحبَّه، ويعلن اعتناقه، ثمَّ يلعب هذا اليهودي - تحت قِناع إسلامه - أخطرَ وأفدح دور في تَمزيقِ وَحْدة المسلمين، وتَجهيز الفتنة المسلَّحة ...هذا هو "عبد الله بن سبأ"، الذي سنأتي على ذِكره ونشاطِه المخرِّب بشيء من التَّفصيل .

٤- المناخ العام :

إلى جانِب ما تقدَّم من عوامل رئيسية ومحركة للفتنة، كان هناك عوامل أخرى ثانويَّة، وقد شكَّلَت أو وفَّرَت المناخَ الذي ستعيش فيه هذه الفتن ...

ومن هذه العوامل :

- ظهور بعض العصبيَّات والقبليَّة والشُّعوبيَّة في كثير من أقاليم الدَّولة.
- كثرة الشكوى مِن الدَّهماء، ومتى سهلت الشكوى سهل البلاء، فالإعراض عنها مِحنة، واستجابتها مِحنتان؛ لأنَّها تُغري بالشَّكوى من جديد، وتَزيد البلاء .
- وفْرَة العيش، واستمتاع النَّاس بالدنيا وملذَّاتها؛ فبعد أن كانت نِعَم الحياة وطيِّباتها خاضعة لإرادة الترفُّع والزُّهد، أصبحت خاضِعة لإرادة الأنفس التي تَهْوي إلى الدُّنيا والترَف .
- وقوع أخطاء من بعض الولاة .

–فهذه العوامل، وإن كانت ليست هي المحرِّكَ الأساسي للفتنة، إلَّا أنَّها صنعت المناخَ العامَّ الذي استغلَّه صُنَّاع الفتنة .

ولقد شَحذَت هذه القوى أنيابَها في عهد عثمان ﷺ ، وركزَت جميعُها على تغذية الشكوك، وتوهين الوَلاء للدولة، وتصعيد الأزمات، وتحويل التوتُّر من طاقة تلتمس الطَّريق نحو الأفضل، إلى طاقة هدَّامة، وفوضى مخربة .

ظهور المعارضة

كان من الطَّبيعي بعد ما سلَف ذِكره من تغيُّرات طرأَت على المجتمع الإسلامي، ومن تغيُّر في الأمزجة والأولويات، مع ظهور أخطاء من بعض الوُلاة – كان طبيعيًّا أن تظهر بعض أنواع المعارضة .

وقد قسَّمناها إلى نوعين من المعارضة :

أولاً – المعارضة الحميدة أو المحمودة:

وهي معارضة تَهدف إلى صالِح الأمَّة، وتعمل على ما فيه خير البلاد والعباد؛ وذلك في حدود الكلمة الصَّادقة والنُّصح الأمين، وكان يقودها ثُلَّة من خيار الصَّحابة، منهم :علي بن أبي طالب، أبو ذر الغِفاري، عمَّار بن ياسر ...وغيرهم .

ثانيًا – المعارضة الخبيثة أو المذمومة :

وهي معارضة تبطِن غيرَ ما تعلِن، وتعمل على هَدْم الدَّولة، وزعزعة استِقرارها من الدَّاخل؛ وذلك بإنزال ضربات قاصِمة بالدِّين وبالدَّولة

وبالأمَّة، ويقودها ثُلَّةٌ من المنافقين في الدَّاخل، بدَعم وتحريض من قوى الشرِّ السَّابق ذكرها في الداخل والخارج.

ولعلنا نُطلِق عليها مؤامرة وليست معارضة ...

أولاً – المعارضة المحمودة

كان هناك بعض المآخِذ على حُكم عثمان ﷺ من بعض الصَّحابة.

وهذه المآخذ تمحورَت حول الآتي :

١– الوُلاة :فقد أُخذ على الخليفة، أنه عزَل نفرًا من الصَّحابة وعيَّن مكانهم نفرًا من أقاربه.

٢– موقفه من بعض الصَّحابة :فقد أُثير جدَل كبير حول بعض الإجراءات التي اتُّخذت ضد بعض الصَّحابة.

٣– مَوقفه من بعض الاجتهادات الدينيَّة واجتهاده فيها .

ونحن لسنا بصدد الدِّفاع، أو تَفنيد، أو الرد على تِلك المآخذ ...فقد قُتلَت بحثًا بين مُدافِع ومهاجم ...

ولكنَّنا نريد أن نُلقي الضوء على مُعارضة الصَّحابة الأجلَّاء – المعارضة المحمودة – وما حملَتْه من احترام ورغبة في الإصلاح، ومعارضة أو مؤامرة المنافِقين – المعارضة الخبيثة – وما حملَتْه من رَغبة في الهَدم والتدمير.

آداب المعارضة

لقد اختَلف بعضُ الصَّحابة مع خَليفتهم، ولكن مهما كانت حِدَّة المعارضة، أو حَجم الخِلاف بين الصَّحب الكرام، فإنَّها لم تَخرج عن روح الاحترام والودِّ والرُّقيِّ .

- فهذا الإمام علي ﷺ ، ومعه بعض الصَّحب الكِرام، يرون أنَّه لا حقَّ للطُّلَقاء في ولاية أمر المسلمين، "الطُّلقاء" هم أولئك الذين أسلموا يوم فَتح مكَّة، يوم أشرف رسولُ الله ﷺ على جموعهم المرتجفة وقال لهم :« **اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء**»، وكان من هؤلاء الأمراء الأمويون الذين يَدور حولهم الخلاف .

وفي المقابل كان الخَليفة عثمان بن عفَّان ﷺ يرى أنَّ الإسلام يجُبُّ ما قبله، وأنَّ التوبة تجُبُّ ما قبلها، ومع ذلك لم يتوانَ في عَزل من تثبت عليه إدانَة أو كَبيرة من الكبائر، حتى ولو كان ذا قرابة، كما فعَل – كما أسلفنا –مع الوليد بن عقبة والي الكوفة وأخيه من الأمِّ، لَمَّا ثبَت عليه شُرب الخمر، فجلده وأمر بعزله، رغم ما حقَّق من انتصارات .

- وهذا هو الصَّحابي الجليل "أبو ذَرٍّ الغفاريُّ" :استخلص من روح الإسلام منهاجًا في الزُّهد، وفي تَوزيع الثروات، وكان يرى أنَّ الأموال ودائع الله عند عِباده، استخلفهم فيها، ولكلٍّ أن يأخذ منها حاجتَه وضرورته ولا يزيد، وكان يرى أنَّ خلافة عثمان امتدادًا لأيام الوحي وأيام الشيخين .

وعلى الجانب الآخر :كان يرى كثير من الصَّحابة، أنه لا بأس في الاستمتاع بطيِّبات الحياة، ما دامت حلالاً، وقد أباح عثمان ﷺ ذلك، إلَّا أن أبا ذَر، وإن جاز أن يتَسامح تجاه الاستمتاع المعتدِل بالطيِّبات، إلَّا أنه لم يكن ليتسامح تجاه الإسراف والتَّرَف واكتِناز الأموال، فكان الصِّدام بين الفكرين .

وفي الشَّام حيث كَثر التَّرف والعيش الرَّغد، رفع أبو ذَر لواءَ المعارضة، وكان يتلو على النَّاس قولَه تعالى: {وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [التوبة: ٣٤]، وغيرها من

الآيات التي تحضُّ على عدَم الإسراف، وقد لاقَت دعوتُه قَبولاً عند النَّاس، ويحاول مُعاوية بن أبي سفيان – والي الشَّام – أن يهدئ من ثَورته دون جدوى، ولكن ظلَّ مَسلكه متَّسمًا بإجلال وتوقير الصَّحابي الجليل أبي ذَر، فكتب لعثمان :أنَّ أبا ذَر أفسد النَّاس بالشَّام، فاستدعاه عثمان، وعاد أبو ذر إلى المدينة، ودار بينهما حوار، ولم يُقنع أحدُهما الآخر، وانتهى الأمر بأن طلب أبو ذر من الخليفة أن يعيش بالربذة ...والتي ظَلَّ بها ليموت وحيدًا؛ كما أخبره رسول الله ﷺ .

- وهذا هو عمَّار بن ياسر :ينشب بينه وبين الخليفة اختِلاف حولَ بعض القضايا، ويَحتدُّ الأمر بين عمَّار وأحَد عمَّال الخليفة، فيناوله بالأذى والضَّرب، بغير أمر الخليفة ...ولما علِم الخليفة بذلك قال :"واللهِ ما أمرتُه، ولا رضيتُ بضربه، وهذه يدي لعمار فليقتصَّ منِّي" .
- وهذا عبد الله بن مسعود :يَختلف مع الخليفة، ويتفاقم الخِلاف بينهما، إلَّا أن الخليفة لا يكاد يَعلم بمَرَض "ابن مسعود"، وهو المرض الذي لَقي فيه ربَّه؛ فيخرج الخليفة إلى دار ابن مسعود، وقد غشاه ندَم عظيم، ويعتذر لابن مسعود ويُمعِن في الاعتذار، ولما توفِّي ابن مسعود وقف الخليفة على قَبره ودموعه تَنحدر من مآقيه، وهو يقول :"دَفنتم واللهِ خيرَ مَن بقي من أصحاب رسول الله".

وهكذا سارت "المعارضة المحمودة" في طريقها، تلحُّ على التغير والتحوُّل نحو ما تراه أفضل ...متوسِّلة بالحوار الدَّائب مع الخليفة .

ولكنه حوار لا يُفسِد للإيمان ولا للصُّحبة قضيَّة .

ثانيًا – المعارضة (المؤامرة) الخبيثة

وفي وسط هذا المناخ، وُجد نوع آخر من أنواع المعارضَة، التي وجدَت أنَّه الوقت الملائم لبثِّ سُمومها؛ فلمَّا كانت معارضة الصَّحابة تَهدف للبِناء والتعمير، كانت تلك المعارضة تَهدف للهَدم والتدمير؛ هدم الدَّولة بأركانها ومؤسَّساتها وقياداتها، ومن ثَمَّ فلنطلِق عليها – كما أسلفنا – "المؤامرة الخبيثة" .

عبد الله بن سبأ:

وكان رأس هذه الفِتنة وتلك المؤامرة، رجلاً يُدعى "عبد الله بن سبأ"، وكُنيته "ابن السوداء"، إنَّه رجل يهودي، وفد إلى المدينة من اليمن في ظروف مُريبة، وأبدى اعتناقَه للإسلام، ليس ذلك فحسب؛ بل انتحل الغيرة الشَّديدة على الإسلام وقِيَمِه وحرماته .

ابن سبأ يخطِّط لمؤامرته الكبرى :

ومنذ اللَّحظة الأولى بدأ يخطِّط لمؤامرته الكبرى :

- فألقى سمعه في المدينة لكلِّ كلمة وكل نَبأ، وبسمعه المرهَف سَمِع عن أخبار ما يدور بين الصَّحابة والخليفة من اختلافات.
- مضى يدرس في صَمتٍ ودَهاء كلَّ جوانب الحياة في المدينة، ويفحص مواقعَ الضَّعف والقوَّة.
- بدأ يتسمَّع أخبار الأقاليم والأمصار، ويتبيَّن أقدار الصَّحابة، وحظَّ كلٍّ منهم من نفوذ ومكانة.

ابن سبأ يشرع في العمل على خطته:

ولما جمع مادَّته، وعرف طريقه، وأتمَّ رسم خطَّته، شرع ابن سبأ على الفور في العمل والإنجاز :

- فبدأ يوجِّه مبادرتَه الأولى إلى الخليفة ذاته، وإلى شرعيَّة منصبه كخليفة، وعليه فلا بدَّ من اختيار شخصيَّة من الصَّحابة تُضاهي الخليفة في المنزلة، فكانت دعواه :"أنَّ عليًّا وَصِيُّ رسول الله ﷺ"، وأنَّه الأحق بالخِلافة، وأنَّ عثمان وثَب على هذا الأمر، وأخذ الحقَّ من صاحبه، وراح يُزكي دعوته هذه بطائفة من الأحاديث التي كان رسول الله ﷺ قد زَكَّى بها عليًّا، وهي كثيرة، بيد أنَّه في المقابل هناك من الأحاديث الكثيرة التي أَطرى بها أيضًا رسول الله ﷺ على عثمان .
- لم تَلق دعوته هذه آذانًا مُصغية في المدينة، حتى إنَّ الإمام عليًّا نفسه لما علم بذلك عنَّفه وسفَّهه، وحذَّر المسلمين من خبث نواياه .
- وعلى الرغم من ذلك، لم يَيئَس ابنُ سبأ وانطلق كالرِّيح يشعِل نارَ الفتنة في أقطار الإسلام؛ فذهب إلى البصرة، ولما علِم عبد الله بن عامر – والي البَصرة آنذاك – بوجوده وبالآراء غيرِ المقبولة التي يبثها، استدعاه وسأله : مَن أنت؟ قال :رجل من أهل الكتاب، وقد رغبتُ في الإسلام وفي جوارك، فنهره ابن عامر وقال له :ما يبلغني ذلك، اخرُج عنِّي، فخرج من البصرة إلى الكوفة، فأُخرج منها، فأتى الشَّامَ فأُخرج منها، ثمَّ أتى مِصرَ فعشَّش فيها، ثمَّ باض وفرَّخ...
- وخلال رحلاته تلك، نجَح في أن يَصطفي من المفتونين به أنصارًا، أطلقهم هم الآخرين ليبثُّوا نارَ الفِتنة في الآفاق ...ولتبدأ المؤامرة .

مؤامرة وليست ثورة :

وتبدأ التحرُّكات التي في ظاهرها حِرصٌ على الدَّولة، وفي باطنها الدَّمار الشَّديد والنقم على كل ما حولها.

وقد لاحَظنا أنَّ كثيرًا من الكُتَّاب يطلِق على هذه الحركات "الثَّورة"، وينعت مَن قاموا بها "بالثُّوَّار"، وهو وصفٌ جانَبَه التَّوفيق؛ فهؤلاء ليسوا ثُوَّارًا، وما كانت حركتهم بثورة؛ إنَّما هي المؤامرة بعينها، وإن كان لهم من وَصف أو نَعت، فهم شِرذمة متآمِرة ...

وإن كان لا بدَّ من ثورة تقوم ضد الخليفة، لكان أحقَّ بها أصحابُ رسول الله ﷺ الذين اختلفوا معه، ولكنهم على العكس من ذلك – كما سنرى – فقد كان ولاؤهم له، وحِرصهم على حياته، رغم ما كان بينهم من خلاف .

فلنُسَمِّ الأشياءَ بمسمَّاها الحقيقي؛ فهؤلاء متآمِرون متمرِّدون، وحركتهم ما هي إلَّا مؤامرة دُبِّر لها، وحرَّكتها قوى الشرِّ الخارجيةُ التي سَبق وأن أشرنا إليها .

بداية المؤامرة وخطَّة المتآمرين :

ويبدأ عبد الله بن سبأ في رَسم الخطة والمنهاج لأتباعه لتبدأ المؤامرة.

وكانت الخطة تتمحور في الآتي :

١– التظاهر بالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر :فقد رفع المتآمِرون هذا الشِّعارَ لاستمالة أكبر عدَد ممكن من الأتباع .

٢– تقليب النَّاس على الأمراء :فقد راحوا يَطعنون في الأمراء والولاة، ويجسمون أخطاء بعضهم، ويدحضون وجودَهم، ويحرِّضون بالخروج عليهم.

٣- المطالبة بعَزْل الخليفة :فقد طعنوا في شرعيَّته، وبدؤوا في نَشر فكرة ابن سبأ "أنَّ عليًّا وَصِيُّ رسول الله ﷺ"، وعليهم أن ينهضوا ليردُّوا الحقَّ إلى صاحبه .

وقد أحسن ابنُ سبأ ودعاتُه استغلالَ ما كان بين الخليفة وبعض الصَّحابة من خِلاف - كما أسلفنا - وكذلك أخطاء وسلوك بعض المسؤولين والولاة .

خطَّة عثمان رضي الله عنه في دحر المؤامرة

لما بلغَت أنباء تلك الحركات المدينة، استشار عثمانُ رضي الله عنه الصَّحابةَ، وبدأ في الإعداد لدحر هذه الفتنة.

وكانت الخطة تتمحور في ثلاثة محاور :

أولاً - إرسال رُسل إلى بُؤَر التوتُّر:

فاختار عثمان رضي الله عنه نفَرًا من الصَّحابة، الذين لا يُختلف في نزاهتهم، ولا أمانتهم وورَعِهم، وأرسلهم إلى بُؤَر التوتُّر لاستطلاع الأمر، ومعرفة حقيقة الوضع .

فاختار "محمد بن سلمة"، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأتمنه على مُحاسبة ولاته والتفتيش عليهم ...أرسله إلى الكوفة.

واختار "عبد الله بن عمر" الإمام التَّقي الورِع ... أرسله إلى الشَّام.

واختار "عمَّار بن ياسر" المجاهد العظيم ...أرسله إلى مصر.

- لاحِظ أن عمَّارًا كان على خِلاف مع عثمان، ولكنه كان خلافًا محمودًا؛ كما أسلَفْنا .

واختار "أسامة بن زيد" الحِب بن الحِب ...أرسله إلى البصرة .

وتوجَّه الرسل، كلٌّ إلى جِهته، وما أن وطئت أقدامهم تلك البلاد حتى اختفى المتآمِرون من السَّاحة، وظلَّ رسل الخليفة يَستطلعون الأمرَ، ويجمعون آراء النَّاس، فلم يجدوا شيئًا على الإطلاق، وعاد القوم كلهم، ولما عادوا قالوا للخليفة :"واللهِ ما علمنا عن أمرائك إلَّا خيرا" .

ثانيًا – إرسال رسائل إلى الأمصار :

ولم يكتفِ الخليفة بالتقارير التي وصلَتْه من رسله؛ بل أرسل برسائل إلى جميع الأمصار يقول فيها :"بلغني أن أقوامًا منكم يُشتمون، وآخَرين يُضربون، فمَن كانت له مَظلمة فليأتِنا في موسم الحج، وليأخذ بحقِّه حيث كان؛ منِّي، أو من عُمَّالي"، وأرسل مرسومًا إلى وُلاته أنَّه من كانت له مَظلمة، فليأتِ على نفَقة بيت المال في مَوسم الحج لعرض مظلمته ...ويأتي مَوسم الحج، ولم يأتِ واحد من النَّاس بمَظلمة واحدة ...وهو ما يدل على أنَّ الأمر لم يكن بهذا الحجم الذي صوَّره المتآمرون .

ثالثًا – دعوة ولاة جميع الأمصار للتشاور :

ثمَّ أرسل الخليفةُ إلى عمَّاله في جميع الأمصار ليأتوا في موسمَ الحج؛ لمناقشة الأمر، والتشاور، وأخذ التدابير اللازمة .

فلمَّا وصلوا جمَعَهم قال لهم :"وَيْحكم !ما هذه الشكاية، إنِّي والله لخائف أن تكونوا مصدوقًا عليكم" .

فقالوا :"ألم تبعث برسلك؟ ألم يرجع إليك الخبر من العوام؟ ألم يرجع إليك رسلك ولم يشافههم أحد بشيء؟!"، أي : لم يسمعوا شكوى من أحد، "والله ما صدقوا، ولا برُّوا، ولا نعلم لهذا الأمر أصلاً، ولا يَحِلُّ الأخذ بهذه الإشاعة".

فاستشارهم في السبيل لتَسكين هذه الفِتنة، فكانت آراؤهم على النحو التالي :

- قال سعيد بن العاص :تقطع رأس الفِتنة "عبد الله بن سبأ" وأعوانه، فكان رد عثمان ﷺ هذا هو الرأي، ولكنِّي لا أفعله، فقد رفَض رسولُ الله قَتْل "عبد الله بن أُبي بن سلول"؛ الذي كان زعيمَ المنافقين.
- وقال عبد الله بن سعد بن أبي سرح :استصلحهم بالمال، فرفض عثمان هذا الطَّرح.
- وقال معاوية :إنَّ هذا أمر دُبِّر بليل، ولا أصل لهذه الشَّائعات، وعرض عليه أن يصحبه إلى الشَّام؛ حيث تستقرُّ الأمور، فرفض الخليفة قائلاً : "لا أختار بجوار رسول الله ﷺ جوارًا آخر".

ويَنتهي اللِّقاء بقول عثمان لهم :"قد سَمِعتُ كلَّ ما أشرتم به، ولكلِّ أمرٍ بابٌ يؤتى منه، إنَّ هذا الأمر الذي يخاف منه على هذه الأمَّة كائن، وإنَّ بابه الذي يُغلق عليه ليُفتحنَّ، فلْنرُدَّه باللِّين والمواتاة، إلَّا في حدود الله، إنَّ رَحَى الفتنة دائرة، فطوبى لعثمان إن مات ولم يُحرِّكها"، ثمَّ نفَر ونفَر الأمراءُ إلى بلادهم، وصحبه معاوية لأنَّ طريقه إلى الشَّام يمرُّ بالمدينة.

وفي المدينة :يَجتمع عُثمان بكبار الصَّحابة، وفيهم علي وطَلحة والزُّبير وفي حضور معاوية، ويعود مُعاوية ليعرض عليه إمَّا أن يَصحبه إلى الشَّام، أو أن يرسل جيشًا من الشَّام يرابط بالمدينة؛ ليحافظ على حياة الخليفة، فيرفض الخليفة قائلاً :"أخشى أن يزحموا المدينة، وتضيق بهم على أصحاب رسولِ الله ﷺ من المهاجرين والأنصار"، فيقول معاوية :"إذًا سيقاتلون".

فيقول الخليفة العظيم في ثَبات :"حَسبي الله ونِعْم الوَكيل."!

ويغادِر معاوية المدينةَ، ويوصي كبارَ الصَّحابة قائلاً :"إنِّي قد خلَّفتُ فيكم شيخًا، فاستوصوا به خيرًا وكاتِفوه تكونوا أسعد منه بذلك"، ثمَّ مضى .

تَحرُّك المتمرِّدين إلى المدينة

ويستمرُّ المتآمرون في الحَشد وبثِّ السُّموم لتنفيذ مؤامرتهم .

وفي شوَّال سنة ٣٥ هجرية، يبدأ تحرُّك المتمردين، فخرج من مصر ستَّة آلاف فرد، ومثلهم من كلٍّ من الكوفة والبصرة، وخرَجوا مُظهِرين أنَّهم خرَجوا للحجِّ، وتمضي قوافلهم المسلَّحة حتى نزلوا جميعًا عند مَشارف المدينة، عازمين على عَزل الخليفة بالقوَّة المسلَّحة.

البحث عن قيادة شرعية

وبحثًا عن غِطاء شرعي لتحرُّكهم الآثِم، فكَّر المتآمِرون في أحد الصَّحابة الكبار ليكون قائدًا لهم، واختلفوا فيمن يكون هذا القائد، والذي يَلي الخِلافةَ بعد عثمان؛ فالكوفيُّون يريدون طَلحة بن عُبيد الله، والبصريون يريدون الزُّبيرَ بن العوَّام، والمصريون يريدون عليَّ بن أبي طالب، وتوقَّعوا أن يجدوا قَبولاً من هؤلاء الصَّحابة، معتمدين على ما بينهم وبين الخليفة من بعض الاختلافات.

ويذهب وَفْدٌ منهم؛ لِيَعرضوا الأمرَ على الإمام عَلي، فما أن عرف نبأَهم ورأى حشودَهم، حتى صاح فيهم بكلِّ عزمه وقال لهم :"لقد علم الصَّالحون أنَّكم مَلعونون على لِسان رسول الله ﷺ ! ارجعوا إلى بلادكم، لا صَبَّحكم الله"، ويذهب الوفد إلى كلٍّ من طَلحة والزُّبير، ليجدوا نفسَ الرد، بنفس العبارات، وبنفس القوَّة ...وهم لا يَعلمون أنَّ هؤلاء الصَّحابةَ جميعًا قد نَهلوا من مَنبع واحد وهو "مدرسة الحبيب المصطفى ﷺ"، ولا يَقومون بمِثل هذا العمل وإن اختلفوا مع خليفتهم!

أبو ذر والدرس القاسي للمتآمرين

وبعد أن خابَت ظنونُهم وآمالُهم بهذه الردود الحاسِمة القاطعة من علي وطَلحة والزُّبير، فكَّر المتآمِرون في عَرض الأمر – أمر القيادة – على أكثر الصَّحابة خِلافًا مع عثمان، والذي يَعيش في مَنفاه الاختياري في الرَّبَذة "أبو ذر الغفاري"، فما أن عرَضوا عليه هذا الأمر، إذا هو يلقِّنهم درسًا بالغ القَسوة، يذهلهم، ويزلزل أركانَهم، فيجيبهم بهذه الكلمات الزاجرة :

–"واللهِ لو أنَّ عُثمان صلَبني على أطول خشَبة، أو أطول حَبل، لسَمِعتُ وأطَعتُ، وصَبرتُ واحتسَبت، ورأيتُ أن ذلك خير لي" .

–"ولو سيَّرني ما بين الأُفُق، لسمعتُ وصبرتُ واحتسبت، ورأيتُ أن ذلك خير لي".

" –ولو ردَّني إلى مَنزلي، لسمعتُ وأطعتُ وصبرت واحتسبتُ، ورأيتُ أن ذلك خير لي" .

ويعود المتآمِرون يجرُّون أذيالَ الخَيبة....

المفاوضات

وبعد فشَل خطَّتهم في استقطاب كِبار الصَّحابة، يعود المتآمِرون إلى الإمام علي، ليعرضوا مطالبَهم على الخليفة وهي :

- عزل مروان بن الحكم؛ رئيس ديوان الخِلافة .
- عزل أُمراء الأمصار الذين تلاحقهم الشكاوى .

لكن الخليفة يرى أنَّه إن أصغى إلى مَطالبهم، سيكون خطرًا على هيبة الدَّولة وكرامتها، وهو ما يَشغَل باله إلى أبعد مدًى، فاشترط لتسوية الأزمة أن يرحل هؤلاء أولاً، وبعدما يعودون إلى بلادهم يقوم بعَزْل مروان، وعَزْل أمراء الأمصار الذين تلاحقهم الشكاوى، وأعطى عليًّا وعدًا صادقًا وعهدًا وثيقًا بذلك.

ويذهب إليهم الإمام عليٌّ ومعه محمَّد بن مَسلمة وسعد بن أبي وقَّاص، واستطاع الإمام أن يُقنعهم بالعودة والرَّحيل .

الكتاب المزعوم

فانصرف الجميع مُظهِرين الرُّجوعَ إلى بلادهم، وما هي إلَّا ثلاثة أيام، وإذا بالمدينة تروع ذات صباح بالمتمرِّدين الذين عادوا أدراجهم، زاحفين على المدينة ليحتلُّوا شوارعَها ...

ووسط استغراب وذُهول أهل المدينة، يَخرج الإمام عليٌّ إليهم، ليعرف لماذا نَكثوا العهدَ وعادوا؟ فتحدَّث إلى زعماء المصريين، فنشروا أمامَه كتابًا وقالوا :اعْتقَلْنا رجلاً في الطَّريق يَحمل هذا الكتاب، وعليه خاتَم الخليفة، وفيه أمر إلى والي مِصر بقتلنا وصَلْبنا ...

وتوجَّه الإمام إلى البصريِّين والكوفيِّين يسألهم عن سبب عودتهم، فقالوا : جئنا لنصرة إخواننا المصريين، ويتساءل الإمام في تعجُّب :لكنكم ذهبتم من طريق غير طريقهم، فكيف علِمتم بأمر هذا الكتاب؟ إنَّ هذا أمر دُبِّر بليل؛ أي :إنَّ هذا عمل كان مدبَّرًا له من قبل .

ويذهب الإمام إلى الخليفة ليَستجلي منه الأمر، فيردُّ عثمان قائلاً :"واللهِ ما كتبتُ ولا أَمرتُ، ولا علِمتُ بأمر هذا الكتاب"، فقال علي :صدَق عثمان ...

وقد كان لهؤلاء المتمرِّدين سابِقةٌ في التزوير، فحين عَزموا أمرَهم على الخروج إلى المدينة، دبَّر بعضُ زعمائهم حِيلةً يَحملون بها أكبرَ عدد من المسلمين على الخروج معهم، فزوَّروا كتابًا على لِسان "أم المؤمنين عائشة" وعلى لِسان "طلحة والزبير"، يَدعون المسلمين فيها إلى الزَّحف على المدينة لقِتال عثمان ...ولم تُعرف حقيقة تلك الخدعة الكاذِبة إلَّا بعد وقوع الواقِعة

واغتيال الخليفة، فلا يبدو غريبًا أن يكون الذين زوَّروا تلك الكتب، هم الذين افتعلوا وزوَّروا هذا الكِتابَ المزعوم .

لكنَّ الوقت لم يكن وقت حِوار ومناقشة ..إنَّها الفِتنة، وقد وصلَت إلى أقصاها، وظهر وجهُها القَبيح، ويبدأ المتآمِرون – كما أطلقنا عليهم سالِفًا –في إتمام المؤامرَة والتي أتقنوا تدبيرَها وإخراجَها.

بداية الحصار

ويمضون وقد صُمَّت آذانهم وعقولهم، يمضون إلى دار الخليفة ...صاحب رسول الله ﷺ، ذي النُّورين، العابد الأوَّاب، الحَيِي، يمضون إلى داره ليحاصِروه، مُطالِبين إمَّا بعزله أو قتله .

وفي ثَبات مُذهِل، رفض الخليفة أن يَعتزِل، لا حِرصًا على مَجد المنصب ولا جاهِه، وقد بلَغ من العمر أكثرَ من ثمانين عامًا؛ إنَّما لأنَّه رجل مسؤوليات من طِراز فريد، وهذا خُلُق كان مَخبوءًا تحت سِتار تواضعه وحيائه، وما كان لنا أن نراه ساطِعًا هكذا، إلَّا في أزمة ومِحنة كهذه؛ فلقد أدرَك الخليفة ببصره الثَّاقب أنَّ أهمَّ الواجبات وأقدَسَها وهو يرى المدَّ المتآمِر وقد بدا له جليًّا ووصَل إلى دار الخِلافة – أدرك أنَّ أهم الواجبات وأقدسها هو المحافظة على هَيبة الدَّولة وسلطانها؛ فهذه الفِتنة المخربة وهذا التمرُّد يَهدِفان إلى هَدْم كيان الدَّولة ودَحْر قيمتها؛ فأصبح الحِفاظُ على هيبة الدولة واجبًا مقدَّسًا، تحمَّل الخليفة العظيم مسؤوليَّاته وتَبعاته ...

ما أُحب أن أَلقى الله وفي عُنقي قطرة دم لمسلم

وتحفَّز المسلمون للدِّفاع عن خليفتهم، ورفعوا السِّلاحَ ضدَّ هؤلاء المتمرِّدين، ليردُّوهم عن غَيِّهم، وعرضوا على الخليفة العابد الأوَّاب :

١- أن يقاتل هؤلاء المتمرِّدين ...فيرد عليهم :

-"أمَّا القتال فلا، فواللهِ لا أكون أوَّل مَن يخلف رسول الله ﷺ في أمَّته بسَفْك الدِّماء، وما أحبُّ أن ألقى اللهَ وفي عُنقي قَطرة دَم لمسلِم" .

٢- أن يَفتحوا له مِن خَلْف الدَّار بابًا يَخرج منه، ويذهب إلى مكَّة أو الشَّام ...فيرد عليهم :

-"لا واللهِ، فلن أفارِق دارَ هِجرتي، ومجاورة رسول الله ﷺ ما حَييت".

هكذا صمد الشَّيخُ العظيم في استعلاء، ليواجِهَ مصيرَه المحتوم، ويصبر على حَقْن الدِّماء، ولو سالت دِماؤه، ويحافِظ على هَيبة الدَّولة، ولو كان الثَّمن هو حياته .

مخاطبة المتآمرين

وأحكم المتآمِرون حِصارَهم القاسيَ حَول دار الخَليفة، فمنعوه زُوَّارَه، ومنعوه الماء ...الماء الذي تتفجَّر به "بئر رومة" التي اشتراها في أوائل الهِجرة، وجعلها هديَّة للمسلمين، ليس ذلك فحسب؛ بل مَنعوه من الخروج إلى المسجد، وتهجموا عليه بشَتائم بَذيئة على ملأ من النَّاس، وظلَّ الخليفة مثابرًا، ويعمل كل جهده ألَّا تُراق قَطرة دم واحدة من أجله.

وظلَّ يخاطِب المتآمرين، فبعد أن مُنع الماء عنه، قال لهم :"أنشدكم الله، هل تَعلمون أنِّي اشتريتُ بئرَ رومة بمالي، ليَشرب منها النَّاس ماء عَذْبًا؟"، قالوا :نعم، قال :"فلِم تمنعوني أن أشربَ منها؟."!

ثم قال :"أنشدكم الله، هل تَعلمون أنِّي اشتريتُ أرضَ كذا، فزوَّدتها في المسجد؟"، قالوا :نعم، قال :فهل تَعلمون أحدًا مُنِع فيه الصَّلاة قبلي؟ !فلم

يجدوا ما يردون به.

ثمَّ قال :"أنشدكم الله، أتعلمون أنَّ رسول الله ﷺ قال عنِّي كذا وكذا" ...وعدَّد بعضَ مآثره .

فأثَّرَت مقالتُه في كثيرٍ منهم ...حتى قالوا :مَهلاً على أمير المؤمنين، وهنا يَصرخ بهم شياطينُ الفِتنة – ابن سبأ وأعوانه – ويشعِلوا وَقودها، وعثمان رضي الله عنه لا يَكلُّ من مخاطبتهم، وكلَّما سَدَّ عليهم بابًا من أبواب الفِتنة، فتحوا بابًا آخر .

مواقف خالدة لصحابة رسول الله ﷺ

ووسَط هذه المِحنة الكبرى التي أصابت الأمَّة، يظهر المعدن الأصيل لصَحابة رسول الله ﷺ، المؤيِّد منهم والمعارض – المعارَضة المحمودة – كما أسلفنا – فقد وقَف أصحابُ رسول الله ﷺ وَقْفة رجل واحد ضد هؤلاء المتآمرين.

وهاك بعضًا من مواقف الصَّحابة، والتي تكتب بأحرف من نور:

- ذكرنا سالفًا، ما كان من ردَّة فِعل علي بن أبي طالب، والزُّبير بن العوَّام، وطلحة بن عُبيد الله، وردهم القاطِع الزَّاجر لهؤلاء لما عرضوا عليهم قيادةَ حركتهم، وكان الرد الأشد قسوة عليهم، قد جاء من أشدِّ الصَّحابة خِلافًا مع عثمان رضي الله عنه، جاء من أبي ذَرٍّ الغفاري .

- **الإمام علي :**

–كان الإمام عليٌّ هو مرسالَ السَّلام بين الخليفة والمتآمرين من أول الأمر وحتى نهايته.

–ويقف الإمامُ علي في وَجْه المتآمرين، لما مَنعوا عن الخليفة الماءَ والخروج إلى

المسجد ويقول لهم :"يا أيُّها النَّاس، إنَّ الذي تفعلون لا يشبه أمرَ المؤمنين، ولا أمر الكافرين، فلا تَقطعوا عنه الماء"، فيردون عليه في عِناد وصلف :والله، ولا قطرة ماء، فينصرف مغاضبًا.

– ولما اشتدَّ الحِصار جاء الإمام إلى دار عُثمان، وقد أمر ابنَيه الحسَنَ والحُسَين ألَّا يُغادِرا البابَ، وقال للحسَن :ادخُل إلى أمير المؤمنين وقل له :إنَّما جئتُ لنصرتك، فمُرني بأمرك، فدخل الحسَنُ ثمَّ خرج، وقال لأبيه :يقول لك أميرُ المؤمنين :لا حاجة لي في قِتال وإهراق الدِّماء، فنزع عليٌّ عِمامتَه السَّوداء، فرمى بها بين يدي الباب، وجعل ينادي: {ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ} [يوسف: ٥٢].

- **عبد الله بن عمر :**

ويرسِل عُثمانُ إلى عبد الله بن عمر ليستشيره في الأمر، ويقول له :"إنَّ هؤلاء القوم يريدون خَلْعي؛ فإن أجبتُهم تركوني، وإن أبَيتُ قتلوني، فماذا ترى؟".

يردُّ ابنُ عمر قائلاً : أرأيتَ إن خلعتَ نفسك، ستبقى في الدنيا مخلَّدًا؟

قال الخليفةُ :لا.

قال ابن عمر : أرأيتَ إن لم تَخْلع نفسك، هل ينقص من عمرك شيئًا؟ هل يَملكون الجنَّة والنار؟!

قال الخليفة :لا.

قال ابن عمر :إذًا، لا تَسُنَّ هذه السُّنَّة في الإسلام، ولا تَخْلع قَميصًا ألبَسَكه الله .

ويفرح الخليفة برأي ابنِ عمر، ويَذكر وصيَّةَ رسول الله ﷺ حين قال له « :**يا عثمان، إنَّ الله مقمِّصك قَميصًا؛ فإن أرادك المنافِقون على خَلْعه**

فلا تخلَعْه حتى تلقاني»، ولقد قَمَّصه الله بقميص الخِلافة .

- **أبو هريرة:**

ويقِف أبو هريرة شاهِرًا سلاحَه، مدافِعًا عن خليفة المسلمين، فيقول له الشيخ العابد الأوَّاب عُثمان عفَّان :"أيسرُّك أن تَقتل النَّاسَ جميعًا وأنا معهم؟ أما إنَّك والله لو قتلتَ رجلاً واحدًا لكأنَّما قتلتَ النَّاس جميعًا" .

- **عبد الله بن مسعود:**

يعاوده بعض أولئك المتآمِرين في مرَض موته، وأثناء حديثهم يتهدَّدون الخليفةَ بالموت، ورغم ما بينه وبين الخليفة من خِلاف، إلَّا أنَّه زجَرهم وقال لهم :"أما إنَّكم إن قتلتموه، فلن تصيبوا مثله" .

- **عمَّار بن ياسر:**

عندما حاصَر المتآمِرون الخليفةَ ومنَعوا عنه الماء، غضب عمَّار – رغم خِلافه العميق مع عثمان – وصاح فيهم قائلاً :"يا سبحان الله !أتمنعون الماءَ عمَّن اشترى بِئر رومة ووهبها للمسلمين؟!"، ويحمل قِربةَ الماء بنفسه إلى دار الخليفة، متحدِّيًا الحِصارَ، وغير مبالٍ بالأخطار، ويُدخِل الماءَ إلى الخليفة ليشرب ويتوضَّأ، وظلَّ هكذا كلَّ يوم، حتى استُشهد الخليفة ...

والأمثلة كَثيرة على وقوف الصَّحابة وثباتِهم إلى جانِب خليفتهم، ولولا إصرارُ الخليفة وحِرصه على السَّلامة وعدم إهراق الدِّماء لكان الأمر غير الأمر، والمقال غير المقال .

وقد أظهرَت هذه المواقف وغيرها أنَّ الخِلاف بين الخليفة وهؤلاء الصَّحب الكرام ما كان ليطغى على جَلال الصُّحبة التي جمعَتْهم في الله إخوانًا .

الفصل الأخير

طال الحِصار ثمَّ طال ...حتى صار أهلُ المدينة من طول إيلافهم له، يروحون ويَغدون، ويحيون حياتهم العاديَّة في رتابتها المألوفة، ويستمرُّ الحصار أربعين يومًا، والخليفة عنده في الدَّار من المهاجرين والأنصار أكثر من سبعمائة، وعدد كبير من مَواليه، لو تركهم لَمَنعوه .

فقال لهم :"أقسِم على كلِّ مَن لي عليه حق، أن يكفَّ يدَه وأن ينطلق إلى مَنزله"، وقال لرقيقه :"مَن أغمد سيفَه فهو حُرٌّ".

فانطلق النَّاسُ إلى مَنازلهم، نازلين على رَغبة الخليفة الملحَّة في عدم القتال وإراقة الدِّماء .

ولكن ظلَّ على أبواب داره ثُلَّةٌ من شباب الصَّحابة، خَفُّوا بسلاحهم لافتداء الخليفة، وعلى رأسهم الحَسَن والحسين ابنا علي، ومعهم عبد الله بن الزُّبير، وعبد الله بن عمر وآخرون .

أمَّا المتآمرون، فخافوا أن يَطول عليهم الأمر، فتأتيهم جُنودٌ من الأمصار، وقد وردَت أنباء عن تحرُّك جيش من الشَّام أرسله معاوية، فراحوا يتهيَّؤون للضَّربة الأخيرة .

أفطِر عندنا غدًا يا عثمان

ويتلقَّى عُثمانُ ﷺ دعوتَه إلى الجنَّة؛ ففي الأمسية السَّالفة لاستشهاده، بعد أن صلَّى من اللَّيل ما صلَّى، وقرأ من القرآن ما قرأ، وألقى نفسَه بين يدي ربِّه ضارعًا مبتهلاً، أوى إلى فِراشه ونام، وفي منامه يرى رسولَ الله ﷺ يقول له :«**أفطِر عندنا غدًا يا عثمان**»، وأصبح عثمان يحدِّث النَّاسَ بما رأى، وما سمِع، وقد أبهجَتْه تلك الرُّؤيا، وكان أكثرَ النَّاس يقينًا بصدقها،

فأصبح ذلك اليوم صائمًا، فليس أمامه سوى وقت قَصير لكي يتهيَّأ لموعده مع الحبيب ﷺ ورحلة الخلود .

مهاجمة الدار

ولما ضاقَت الصُّدورُ المكتومة لزعماء الفِتنة، وخشوا أن تَدور عليهم الدَّائرة، أمروا بمهاجمة الدار، لكنَّ الثُّلَّةَ الطَّاهرة من الشباب تحت إمرة الحَسَن والحُسَين وابن الزُّبَير وابن عمر، أبلَت بلاءً حسنًا، حتى ردَّتْهم عن الأبواب صاغرين .

وهنا يزدادون حُمقًا، ويهيِّئ لهم شيطانهم فِكرةً أخرى، وهي أن يتسوَّروا الدارَ المجاورة للخليفة، ويتسلَّلوا منها إلى داره .

لا أخلع قميصًا ألبسنيه الله

وينجح بعضُهم في التسلُّل إلى داخل دار الخليفة، ويقول قائل منهم لعثمان :اخلعها وندَعك، ويردُّ الخَليفة :"واللهِ لا أخلع قَميصًا ألبسَنيه الله" ! فخرج الرجل وجاء آخر، وقال كما قال الأول فرجع، فجاءهم عبد الله بن سلام وقال لهم :"يا قوم، لا تسلُّوا سيف الله فيكم، فوالله إن سلَلمتوه لا تَغمِدوه !ويلكم !إنَّ سلطانكم اليوم يقوم بالدِّرة؛ فإن قتَلتموه لا يقوم إلَّا بالسَّيف !ويلكم إنَّ مدينتكم مَحفوفة بالملائكة؛ فإن قتلتموه لتَتركَنَّها" .

ولكنَّهم صاروا صُمًّا، عُميًا، لا يفقهون .

دَعْ لِحيتي، لقد كان أبوك يوقرها

وما هي إلَّا لحظات، حتى كانت الخطَّة قد أُنجزَت، وفجأة رأى الخليفة أمامَه أولئك المتسوِّرين، ورأى محمَّد بن أبي بكر يتقدَّمهم، وكان ممَّن غُرِّر

بهم، وخُدعوا بهؤلاء المتآمرين، ويمسِك لحيتَه بيده ويهزها متوعِّدًا، فيقول له الخَليفةُ في هدوء العارفين المؤمنين بالله وقَدَره :"يا ابن أخي، دَعْ لِحيتي، فوالله لقد كان أبوك يوقِّرها، ولو رآك في مكانك هذا لاستَحى مما تَصنع" .

وهزَّت هذه الكلمات محمد بن أبي بكر، وارتدَّت يده في خُشوع، وكأنَّما قد فاق من غيبوبته، وانطلق مسرعًا خارج الدار يسوق أمامه أولئك الذين كانوا تسوَّروها، ويحاول ردهم عن غيِّهم .

وجنَّ جنون زُعماء الفِتنة، وهزمهم موقفُ محمد بن أبي بكر، وتراءى لهم مصيرهم الأسود .

الفوز بالشهادة

فقفزوا على دار الخَليفة واقتحموا عليه خلوتَه، ليقترفوا جريمتَهم النَّكراء، والخليفة في هدوء وسَلام يقرأ القرآنَ، فلم يقاوِم ولم يتحرَّك من مجلسه، ولم يتخلَّ عن مُصحفه، ولعلَّه لم يُحِسَّ باقتحامهم !

ولم يَزِد على أن قال حين أصابوا كفَّه :"واللهِ إنَّها أول يدٍ خطَّت المفَصَّل، وكتبت آيات القرآن"، ويسيل الدَّم على المصحف، فيضمه إلى صدره حتى لا تَطمس الدِّماءُ بعضَ آياته وهو يُسْلِم الرُّوحَ، ويتمدَّد جثمانه الطاهر، وكتاب الله لصيقه وصديقه .

وكان استشهاد الخليفة الثالث في الثامنَ عشرَ من ذي الحجة سنة 35 هجرية، وقد بلغ من العمر ٨٢ عامًا، وكان الاغتيال بين العَصر والأصيل، فكان لروحه الطَّاهرة وقتٌ كافٍ لبلوغ مَوعدها على مائدة الإفطار في الجنَّة مع رسول الله ﷺ وصاحبيه.

* * * * * * * * *

وتنتهي حياة الخَليفة الثالث، وقد كان همه ألَّا تَسقط راية الخِلافة من يَمينه وهو على قَيد الحياة، وألَّا يَلقى اللهَ حين يلقاه وعلى يده أو في عُنقه قَطرة واحدة من دِماء المسلمين، ولقد ظفر بمبتغاه ليلقى اللهَ بقلب سليم .

والحق أنَّ اغتيال عثمان بن عفَّان ﷺ كشف تمامًا عن حقيقة المؤامرة، وحقيقة مَن تزعَّموها، كما كشف عن تلك الكثرة المخدوعة من النَّاس، الذين لم تَكن تنقصهم النَّوايا الحسنة، بيد أنَّهم خُدعوا وغُرِّر بهم، فساروا وراء حفنة من المتربِّصين بالإسلام، فكانت الفاجِعة التي لم تَنتهِ باغتيال الخليفة فحَسب، بل فتحت كلَّ أبواب الفِتن على مصراعَيها؛ ليكتويَ بها المسلمون وقتها، وحتى يومنا هذا ...

ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم.

رحمك الله يا ذا النُّورين
يا من تَستحي منه ملائكة الرحمن
رحمة الله عليك يا عثمان بن عفَّان

علي بن أبي طالب

والآن عزيزي القارئ، ها نحن نهبِط في بُستانٍ آخر من بساتين هذه الصُّحبة العَطرة، إلَّا أنَّ بستاننا هذه المرَّة غير أي بستان، فهو بستان يانِع الزُّهور، طيب الرِّيح، ملأ الكونَ عِطرُه، وما زِلنا نشتمُّ من عِطره إلى يومنا هذا، وسيظل ينشر عطرَه عبر العصور والأزمان .

إنه التَّقيُّ النَّقي، الذي تربَّى على يد رسول الله ﷺ، وكان صِهرًا لرسول الله ﷺ – أبو السِّبطين، أبو الحَسَنين، رمز المروءة والشَّجاعة والعلم، الابنُ البارُّ للإسلام .

فتعالوا نعيش الصَّفحات القادِمة في رحاب خاتم الخلفاء الرَّاشدين، الإمام علي بن أبي طالب، رضي الله عنه وأرضاه.

نسَبه :

هو عليُّ بنُ أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مَناف، وهو ابنُ عمِّ رسول الله ﷺ، وأمُّه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف .

فجَمَع الفَضلَ كله، فهو أول هاشِمي من أبوين هاشِمِيَّين، فاجتمعَت له خُلاصة الصِّفات التي اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة، وهي في جملتها : النُّبل والشَّجاعة، والمروءة والذَّكاء .

فأبوه أبو طالب:

الذي كانت قُريش كلُّها تَنظر إليه نظرتها إلى زعيم، الكلُّ يحبُّه ويَهابه ويحترمه، لا لمكانته في قريش فحَسْب؛ بل لما يَحمله من نفس كريمة، وخِصال عظيمة، ولقد كان لأبي طالب وقفات بطوليَّة تجاه الإسلام؛ فقد

وضَع على كاهله، دون أعمام رسول الله ﷺ جميعًا، ودون بَني هاشم كلِّهم – عِبءَ مُناصرة رسول الله ﷺ، ومقاومة قريش.

فقد صمد لقريشٍ وأحبط كلَّ مكايدها، ولما يئسَت مِن ثَنْي رسول الله ﷺ عن دعوته، وثَنْي أبي طالب عن مُناصرته، لجأت إلى عمل تأباه تَقاليد العرب وأخلاقهم، لجأت إلى مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب.

وانْحاز بنو هاشِم وبنو عبد المطلب إلى أبي طالب، وأقاموا معه في شِعْبهم، ولبثوا في الحِصار الظَّالم قرابة ثلاثة أعوام، حتى أكَلوا من ورَق الشَّجر ليَدْرؤوا به الجوع، وأبو طالب صامِد، يرفض كلَّ محاولة تحاولها قريش .

لقد أحبَّ أبو طالب في ابن أخيه كلَّ الفضائل التي كان يعشقها ويقدِّسها، ومات أبو طالب، واشتدَّ أذى قريش لرسول الله ﷺ، حتى إنَّه ﷺ قال: «**ما نالت منِّي قريش شيئًا أكرهه، حتى مات أبو طالب**».

فمِن صلب هذا الوالد العظيم جاء عليٌّ رضي الله عنه ، ولم يكن عليٌّ ابن هذا البَطل فحسب، بل كان حفيدًا لبطل آخر .

ذلكم جدُّه عبد المطلب :

وعبد المطلب هو مَن حفَر بئر زَمزم، الذي كانت الأقدار الرحيمة منحَتْه إسماعيلَ عليه السلام وأمَّه هاجر وسط صحراء لاهبة، ثمَّ طمرته الصخور والرمال .

إنَّه الرجل الذي وصَفوه بأنَّه يُطعم النَّاسَ في السَّهل، والوحوشَ في الجبال، وتجلَّت عظمة إيمانه في موقفه من أبرهة عندما غَزا مكَّة ليهدم الكعبةَ، لما أَلقى على مسامعه كلمته المأثورة :

-"أمَّا الإبل فهي لي، وأمَّا البيت فللبيت ربٌّ يَحميه"، وبعدها يتَّجه إلى الكعبة، ويناجي اللهَ في إيمان الواثِق بنصره.

إن إيمان عبد المطلب كان نقيًّا تقيًّا؛ لقد كان يقبع حول الكعبة أكثرُ من ثلاثمائة صنم، لم يَدعُها عبد المطلب لتنجي الكعبة؛ فلم يُنادِ هُبَل، ولا اللاتَ، ولا العُزى، إنما نادى الله، وتضرَّع إلى الله، وقد وجد تضرُّعُ عبد المطلب استجابةً عاجلة من الله؛ إذ سلَّط عليهم أضعفَ جنده "طيرًا أبابيل".

وهو عبد المطلب الذي عندما بُشِّر بمولد حفيده "محمد بن عبد الله" ﷺ حمَله فوق ذراعه، وذهب إلى الكعبة، وصلى حمدًا لله، وسمَّاه محمدًا، وعامله في طفولته معاملة الصَّديق، وكان يقول لأبي طالب وهو يضع يدَه على حفيده :"يا أبا طالب، سيكون لابني هذا شأنٌ فاحفظه، ولا تدَعْ مكروهًا يصِلُ إليه"، ولقد حفظ أبو طالبٍ العهدَ، ورعى ابنَ أخيه رعايةً تامَّة، حتى آخر لحظة في حياته.

*للاستزادة من أخبار أبي طالب وعبد المطلب، ارجع إلى الجزء الأول "حياة خير الأنام"؛ للمؤلف .

وهكذا أخَذ عليٌّ رضي الله عنه الفضائلَ كلها، وورث المكارمَ جميعها من أبيه وجدِّه؛ فقد ورث عنهما قوَّة البذل والعزم والعقيدة؛ فلقد جاء من أصلاب قوم عُرفوا بأنَّهم حُماة العقيدة وحُماة الفضائل وسَدنة الخير، أمَّا علي رضي الله عنه فزاد عليهم بأنَّه عَرَف حقيقة الله واهتدى إليه .

نشأته :

وُلد عليٌّ رضي الله عنه لثلاثين عامًا بعد ميلاد النَّبي ﷺ، وكان أصغر أبناء أبوَيه، وأكبَرُ منه جَعفر وعَقيل وطالب، وظلَّ في بيت أبيه حتى سِنِّ السابعة من

عمره، ولما أصاب القحط قُريشًا، وكان أبو طالب قد تقدَّمَت به السِّن، ولم يعد قادرًا على الكَسب، فأهاب رسولُ الله ﷺ بعمِّه العباسِ أن يأخذ ولدًا من أولاد عمه، ويأخذ هو ولدًا ليَكفُلَه، حتى يَرفع عن عمه كاهل هذا العِبء، وكان عَقيل أحَبَّ أبناء أبي طالب إليه، فلمَّا عَرضوا عليه الأمر قال لهم :دعوا عقيلاً وخذوا ما شئتم، فأخذ العباسُ جعفرًا، وأخذ رسول الله ﷺ عليًّا، وكان في السابعة من عمره .

في بيت رسول الله ﷺ :

ويَنتقل عليٌّ رضي الله عنه إلى دار رسول الله ﷺ لتزدهر وراثتُه المجيدة بين يدَي خير مُعلِّم ومُربٍّ، ومع خير أم "السيدة خديجة" رضي الله عنها؛ فعوضه إيثار رسول الله ﷺ عن إيثار أبيه، وكذلك خديجة منحَتْه الحب والعطف، قدر ما منحت أبناءها .

ويعيش علي في بيت رسول الله ﷺ، وقد صارت حياتُه بعد ذلك تطبيقًا كاملاً لمنهج رسول الله ﷺ، حياة لم يكن لها صبوة، ولا شهوة، ولا هفوة، حتى لهو الأطفال لم يكن لحياة علي بن أبي طالب فيه حَظٌّ ولا نصيب، وكأن المقادير كانت تدَّخر سمعَه ووجدانه لكلمات أخرى ستغيِّر وجه الأرض ووجه الحياة.

وصفه :

- **في طفولته :**

صحَّ من أوصاف علي رضي الله عنه في طفولته أنه كان طفلاً مبكِّر النَّماء، وسابقًا لأنداده في الفَهم والقدرة؛ لأنَّه أدرك وهو في العاشِرة من عمره شيئًا

من الدَّعوة النبويَّة، والتي يصعب فهمها والتنبُّه لها، على كلِّ مَن كان في مثل هذه السِّن المبكرة .

- **في تمام رجولته :**

قال واصِفوه :إنَّه كان رَبْعة أميَلَ إلى القِصَر، آدمَ – أسمر – شديد الأدمة، أصلَع مبيضَّ الرأس واللِّحية، ثقيل العينين، حسَن الوجه، واضح البشاشة، عريض المنكبين، ضخم عضلة السَّاق، ضخم عضلة الذراع، يتكفَّأ في مشيته على نحوٍ يُقارب مِشية رسول الله ﷺ .

وكانت له قوَّة جسديَّة بالغة، فربما يمسك بذراع الرجل، كأنه أمسك نفَسه فلا يَستطيع أن يتنفَّس، وقد يزحزح الحجر، لا يزحزحه إلَّا رجال، ويحمل البابَ الكبير الذي يَعْيَا بحمله الأشِدَّاء .

واشتهر عنه ﷺ أنه كان لا يُبالي الحرَّ والبرد، ولا يحفل بهما، ولما سُئل في ذلك قال :إنَّ رسول الله ﷺ بعث إليَّ، وأنا أرمَدُ العين يوم خيبر، فقلت :يا رسول الله، إنِّي أرمدُ العينين، فقال:« **اللهمَّ أذهِب عنه الحرَّ والبرد**»، **فما وجَدتُ حرًّا ولا بَردًا منذ يومئذ.**

وليس هذا انعِدامَ حسٍّ بالصَّيف والشتاء، إنما هي مناعة قويَّة اختصه بها الله .

- **إسلامه:**

ويَنشأ عليٌّ ﷺ في بيت رسول الله ﷺ، ويتعلَّم من خير خَلْق الله كلَّ مَكارم الأخلاق، ولما كان في العاشِرة من عمره، وبدأ الوحيُ ينزل على رسول الله ﷺ، كانت السيدة خديجة أوَّلَ مَن أسلم، ويدخل عليٌّ ﷺ يومًا على رسول الله ﷺ، ليجده يصلِّي ومن خلفه السيدة خديجة، وبعد

أن أتمَّا الصلاة، يسأل عليٌّ رسولَ الله ﷺ :ماذا أراك تصنع؟ !ويجيب رسول الله ﷺ : «**إنِّي أُصلي لربِّ العالمين**»، فيقول له :وما ربُّ العالمين؟ فيقول رسول الله ﷺ :«**إنَّه إلهٌ واحد، لا شريك له، له الخَلق، وبيده الأمر، يُحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير**» .ويدعوه للإسلام، فيرد علي :دعني أفكِّر.

وظلَّ عليٌّ ليلتَه يفكِّر فيما قاله له ابن عمه، ومربِّيه، ومثله الأعلى، وفي الصَّباح يقف عليٌّ بين يدَي رسول الله ﷺ ليعلنها : أشهد أن لا إله إلَّا الله، وأنَّك رسول الله، ليكون أوَّلَ مَن أسلم من الغلمان، ويكون كما وصفه أنس بن مالك :"ابن الإسلام الأول" .

ولتنطلق مَسيرة علي بن أبي طالب، المسلم، القوي الأمين، الذي لم يَسجد لصنم أبدًا، وكانت أول سجدة سجدها لله رب العالمين .

أعماله ومواقفه
مع بداية الدَّعوة

وتبدأ الدَّعوة في مَهدها، وعلي ﷺ شاهِد عليها مع ثُلَّة من الأولين من الصَّحابة الأطهار، وصارت دار الأرقم على الصَّفا مكانَ لقائهم، يَلتقون فيها خفية، فيَتلو عليهم رسولُ الله ﷺ ما يتنزَّل به الوحي على قَلبه، ويصلِّي بهم، لم يغِب عليٌّ ﷺ عن دار الأرقم أبدًا، ولم يَفُته من مشاهدها مشهدٌ واحد .

وقد أُشرب قلبه جمال القرآن، وجلاله، وأسراره، هذا الذي كان يشهد نزولَه آية آية، حتى صار جديرًا بأن يقول وهو صادق :

-"سَلوني وسلوني عن كِتاب الله ما شئتم، فواللهِ ما مِن آية من آياته، إلَّا وأنا أعلم أنَزلَت في ليلٍ أم في نهار" .

دليل لكلِّ قاصد باب الحبيب

فمنذ طفولته الباكرة، حمل عليٌّ ﷺ الإسلامَ في قلبه، وحمل معه أعباء الرِّجال؛ فقد كان يقابل كلَّ غريب، يراه يريد معرفة رسول الله ﷺ والسماع إليه، فيدله على مكانه ...كما فعل مع أبي ذَرٍّ الغفاري، حين أقبل إلى مكَّة يريد رؤيةَ رسول الله ﷺ لما سمع عنه، وكان أبو ذر يتكتَّم سرَّه، فلمَّا قابله عليٌّ أخذه إلى بيته، ومكث عنده ثلاث ليالٍ، يخرج في كلِّ يوم بحثًا عن دليل يوصله إلى رسول الله ﷺ، وهو لا يخبِر عليًّا بمقصده، ولا علي يسأله، فلمَّا كانت الثالثة سأله علي :ألا تحدِّثني عمَّا جاء بك إلى مكَّة؟ فقال أبو ذر :إن أعطيتَني مِيثاقًا أن ترشِدني إلى ما أطلب فعلتُ، فأعطاه عليٌّ ما أراد من مِيثاق، فأخبره بمقصده، وأنه يبغي لقاءَ النَّبي

الجديد، فقال علي :"والله إنَّه لرَسول الله حقًّا، فإذا أصبحنا فاتبعني حيثما سِرتُ؛ فإن رأيتُ شيئًا أخافه عليك، وقفت مكاني أريق الماءَ، فإن مضيتُ فاتبعني، حتى تَدخل مدخلي"، وفي الصَّباح مضى عليٌّ بضيفه ليلقى رسولَ الله ﷺ ...وكان إسلام أبي ذر، ومن ورائه قَبيلة غفار وقبيلة أسلم ...

فما أشجَعه وما أذكاه من فتًى "علي بن أبي طالب رضي الله عنه"!

يا أبتِ آمنت بالله ورسوله

ولطالما شهدَت شِعابُ مكَّة رسولَ الله ﷺ وعليًّا يصلِّيان معًا، بعيدًا عن أعيُن القرشيين وأذاهم، وقد عثر أبو طالب عليهما يومًا وهما يصلِّيان، فقال لعلي :أي بني، ما هذا الدِّين الذي أنت عليه؟ فقال :يا أبتِ، آمنتُ بالله ورسوله، وصدَّقتُه فيما جاء به، وصلَّيتُ معه واتَّبعتُه، فقال أبوه :أما إنَّه لم يدعك إلَّا إلى خير، فالْزَمْه .

أنا نصيرك يا رسول الله

وبعد ثلاث سنوات من الدَّعوة في السِّرِّ، كان أمرُ الله لرسوله بالجَهر بها، وكانت البداية بأن أمرَ الله رسولَه ﷺ، أن يدعوَ أهلَه وعشيرته، {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} [الشعراء: ٢١٤]، فدعا رسولُ الله ﷺ عشيرتَه من بَني هاشم، وكانوا نحو ٤٥ فردًا، دعاهم إلى طَعامٍ عنده، فلمَّا طَعِموا، قام رسول الله ﷺ وقال لهم بعد الحَمدِ لله والثَّناء عليه : «**إنَّ الرائد لا يَكذب أهلَه، واللهِ الذي لا إله إلَّا هو، إنِّي رسولُ الله إليكم خاصَّة وإلى النَّاس عامة، والله لتموتُنَّ كما تنامون، ولتبعثُنَّ كما تَستيقظون، ولتحاسبُنَّ عمَّا تعملون، وإنَّها الجنَّة أبدًا أو النَّار أبدًا**»، فقال أبو لهب معارِضًا :"هذه

واللهِ السَّوأة، خُذوا على يديه قبل أن تأخذها غيرُكم" .

وهنا نَهض عليٌّ ﷺ، وهو ما زال صبيًّا، وما منعته طفولته الباكرة أن يعلم أنَّه قوة لها جوارٌ يَركَن إليه المستجير، ولم يَهَب شيوخَ وكبار قومه، الذين رفعَتْهم آدابُ القبيلة البدويَّة إلى مقام الخشية والخشوع، فما تردد أن نَهض ليصيح :"أنا نصيرك يا رسولَ الله، أنا عونك، أنا حرب على مَن حاربت"، فضحك الحضور ضحكة الجهل والاستنكار، وعلم الله وحدَه في تلك اللحظة أنَّ تأييد ذلك الغلام كان أعظم وأقوم من أي تأييد .

وكان عليٌّ ﷺ في تلك السِّن الباكرة، كما كان عليٌّ في الخمسين أو الستين نصيرًا لله ولرسوله ...

يوم الهجرة

ويأتي يومُ الهجرة لتتجلَّى فيه قوَّة وشجاعة وفِداء الإمام علي ﷺ في موقفٍ قَلَّ أو نَدر أن تجد له مثيلاً أو قرينًا .

الفدائي العظيم

رسم رسولُ الله ﷺ خطَّتَه للهجرة على أن يأخذ مكانَه في البيت رجل، تشغل حركتُه داخل الدار أنظارَ المحاصرين لها من مُشركي قريش، وتخدعهم بعض الوقت عن مَخرج رسول الله ﷺ، حتى يكون هو وصاحبه قد جاوزا منطقة الخطر..

تُرى مَن؟ !مَن هو هذا الرجل الذي سيخلفه رسول الله ﷺ لهذه المهمة الصَّعبة الدقيقة؟ !فقد نظَر رسول الله ﷺ في جُلِّ أصحابه، فلم يجد مَن هو أنسَب لهذه المهمَّة من "الفِدائي العظيم" علي بن أبي طالب ﷺ.

تفاصيل المهمة

فقال رسول الله ﷺ لعلي :«**نَمْ على فِراشي، وتسجَّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه فإنَّه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم** ...»كانت هذه هي المهمة الأولى.

أمَّا المهمة الثانية :فقد أمره رسول الله ﷺ أن يَبقى بمكَّة حتى يردَّ الأمانات والودائع التي كان رسول الله ﷺ يَحتفظ بها، يردها إلى ذَويها من أهل مكَّة، وقد تلقَّى علي ﷺ من رسول الله ﷺ كلَّ هذه الودائع وأسماء أصحابها.

تنفيذ المهمة

ويقوم المغوار عليُّ بن أبي طالب بأداء المهمة دون أدنى تردُّد، وينام في فِراش رسول الله ﷺ حتى يصبح الصَّباح، ويكتشف المحاصِرون الخدعةَ الكبرى التي وقعوا فيها؛ فدخلوا بيتَ رسول الله ﷺ، ليجدوا عليًّا مكانَه، فيُشبِعونه ضربًا، ويَنطلقون بحثًا عن رسول الله ﷺ، وبعدها يقوم علي ﷺ بتنفيذ الجزء الثاني من مهمَّته، كما أمره رسول الله ﷺ، ويذهب إلى أصحاب الودائع دارًا دارًا، وفردًا فردًا، ويعطي كلَّ إنسان منهم أمانتَه، دون أن يعطي قُريشًا منه فرصة تَحول بينه وبين إنجاز مهمَّته .

ما نمت ليلة أهدَأ من تلكم اللَّيلة

ولك عزيزي القارئ، أن تتخيَّل رجلاً ينام على الفِراش وهو يَعلم أن على الباب رجالاً، لا يريدون إلَّا رأس النَّائم على هذا الفِراش، كيف كانت

مشاعره في تلكم اللَّيلة؟!

لما سُئل الإمام علي ﷺ فيما بعدُ عن ذلك، قال :"والله ما نِمتُ ليلةً أهدَأ ولا أهنَأ من تلكم اللَّيلة"، ولما سئل كيف كانت أهدأ وأهنأ والمحاصِرون على الباب، لا يريدون إلَّا رأس النَّائم على هذا الفراش؟ !قال : لقد قال لي رسول الله ﷺ :«**لن يَخلص إليك شيءٌ تَكرهه منهم** »...

هكذا كانت الشَّجاعة والفِداء والإيمان المطلَق بالله ورسوله ﷺ .

إلى المدينة

وبعد ثلاثة أيام قضاها عليٌّ ﷺ في مكَّة يردُّ الأمانات إلى ذويها، ركب الصَّحراءَ مهاجرًا إلى الله ورسوله على قدميه، فلم يكن عنده المال الذي يَشتري به دابَّة تساعده في رحلته .

خرج وحده لا يهاب قوَّات قريش التي تطارِد رسولَ الله ﷺ، خرج وحده في رباطة جأش، وفي إيمان مطلق زاده قوة وإصرارًا .

ويلحق برسول الله ﷺ في قباء قبل دخول المدينة، ولما رآه رسول الله وقد تورَّمَت قدماه، احتضنه ومسح على قدَميه، فشُفي ممَّا به ولم يصِبه أذًى في قدميه بعدها ...

وهذا أخي

ولما تمَّت هِجرة رسول الله ﷺ والمسلمين إلى المدينة، آخى رسولُ الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وجعل لكلِّ أنصاري أخًا من المهاجرين، ولما فرغ ﷺ من دمجهم في هذا الإخاء العظيم، دنا بصرُه تلقاءَ علي ﷺ وأشار إليه فأقبل عليه، وأجلس رسول الله ﷺ عليًّا إلى جواره، وربَت على كَتفه

وأخذ بيده وهو يقول :«**وهذا أخي**».

اختار رسولُ الله ﷺ عليًّا ﷺ ليكون في هذه المؤاخاة أخاه، وهو شرَف لا يَعدله شرَف، وشرف لم ينَلْه إلَّا علي ﷺ وهو ما زاد إحساسه بمسؤوليَّاته تجاه دينه ورسوله .

زواج علي ﷺ من فاطمة الزهراء

وبعد أن نال عليٌّ ﷺ هذا الشَّرف العظيم، بمؤاخاة رسول الله ﷺ، حصل على شرَف آخر يضاهيه، وهو أنْ زوَّجه رسولُ الله ﷺ من ابنته وأحبِّ النَّاس إلى قلبه البَتول فاطمة الزَّهراء ...وكان ذلك في العام الثاني للهجرة.

إنَّ الله أمرني أن أزوِّج فاطمة من علي

وكان قد تقدَّم كِبار الصَّحابة لخِطبة فاطِمة الزَّهراء، لينالوا شرفَ مُصاهرة رسول الله ﷺ؛ تقدَّم أبو بكر لرسول الله ﷺ، فردَّه ردًّا جميلاً وقال له : «**انتظر بها القضاء**»، فذكر أبو بكر ذلك لعمر، فقال عمر :ردَّك يا أبا بكر، فقال أبو بكر لعمر :اخطب فاطمةَ يا عمر، فلمَّا تقدَّم عمر، قال له رسول الله ﷺ مثلَما قال لأبي بكر، وقال رسول الله ﷺ : «**إنَّ الله أمرني أن أزوِّج فاطمة مِن علي**».

فلمَّا شاع الخبر في المدينة، فأَخبرت جاريةٌ عليًّا بذلك، وقالت له :ما يَمنعكَ أن تأتي رسولَ الله ﷺ فيزوِّجك إياها؟

علي يتقدَّم لخطبة فاطمة الزهراء

شجَّع كلام الجارية عليًّا، وكذلك شجَّعه نفَر من بني هاشم وبعض الصَّحابة؛ إذ قال له عمر بن الخطاب :أنت لها يا علي، فتشجَّع وقصد رسولَ الله ﷺ ...

ولْنَدَع عليًّا رضي الله عنه يَروي لنا ما حدث في هذه المقابلة التاريخية :

يقول علي رضي الله عنه : كانت لرسول الله ﷺ جَلالة وهَيبة، فلمَّا قدمت بين يديه أفحمت، فوالله ما أستطيع أن أتكلَّم، فقال : «**ما جاء بك يا علي؟ ألك حاجة؟**»، فسكتُّ ولم أستطع الكلامَ، فقال : «**لعلَّك جئت تخطب فاطمة؟**»، فقلت :نعم يا رسولَ الله، قال« :**وهل عِندك شيء تستحلُّها به؟**»، قلت :لا والله يا رسول الله، فقال :«**ما فعلتَ بدِرعك**»؟، فقلت : هو عندي، والله إنَّها لحُطَمِيَّة – أي :إنَّها تحطم السيوف – قال : «**وما ثمنها؟**»، قلت :أربعمائة درهم، فوافق رسول الله ﷺ بعد استِشارة الزَّهراء، وقَبِل بهذا الدِّرع مَهرًا لها.

جهاز بنت رسول الله ﷺ

وفي حضور كِبار الصَّحابة؛ أبي بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير، وعدد كبير من الأنصار، عقد رسولُ الله ﷺ زواجَ علي مِن فاطِمة الزَّهراء، وزُفَّت سيِّدة نساء العالمين إلى بيت زوجها ...

ترى عزيزي القارئ، ما كان جِهاز بنت رسول الله ﷺ؟!

لقد كان جهازها كالآتي :

- **غرفة النوم** :

سرير وهو عبارة عن جِلد كَبش، ينامان عليه باللَّيل وتضعه على النَّاضح بالنَّهار، ووسادة من أدم – جلد – حَشوها لِيف .

- **أدوات المطبخ:**

قِربة، ومنخل، وقدح للسِّقاء، ورحى للطحن .

هكذا بدأت الحياة الزوجيَّة لبنت خير خَلق الله ﷺ، وسيدة نساء العالمين ببساطة ويُسر وسعادة ...

ولعلَّنا نُهدي هذه اللَّفْتة إلى أبنائنا وبناتنا المقبِلين على الزَّواج وإلى أهليهم :أنْ يَسِّروا، ولا تُعسِّروا؛ فالسعادة لا تُبنى بالأكواب الموضوعة والنَّمارق المصفوفة، لكنَّها تُبنى بالبساطة والتفاهم والقُرب من الله ...

أنكحتك أحبَّ أهلي إليَّ

وكان رسول الله ﷺ قال لعلي :«**لا تقربنَّ أهلك حتى آتيك**»، ثمَّ تبعهما بعدَ قليل من وصولهما إلى منزلهما، ثمَّ دعا بإناء فيه ماء، وقال ما شاء أن يقول وهو يحرِّك يده الشَّريفة في الماء، ثمَّ مسح صدر علي وكتفيه ووجهه بهذا الماء، ثمَّ دعا فاطمةَ، فقامت إليه تعثر في ثوبها من الحياء، فنضح عليها من ذلك الماء ...ثمَّ قال لعلي : «**أما إنِّي ما آلوت أن أنكحتك أحبَّ أهلي إلي**».

ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟!

وتستمر الزِّيجة المباركة بين علي ﷺ وفاطمة الزهراء، ببساطتها وسعادتها، وكانت هي خادِمة نفسها – لم يكن لها خادمة – وفي يوم رأى عليٌّ ﷺ

آثارَ الطَّحن على يديها، فأشار عليها أن تطلب من رسول الله ﷺ أن يمدها بخادمة من السَّبي .

فأتت رسولَ الله ﷺ فقال لها : «**ما جاء بكِ أي بُنيَّة؟**»، فقالت : جئتُ لأسلِّم عليك، واستحيَتْ أن تسأل ورجعَت، وفي اليوم التالي أتياه جميعًا – هي وزوجها – فذكر علي لرسول الله ﷺ حالَهما، فقال رسول الله ﷺ : «**والله ما أعطيكما، وأدَع أهلَ الصُّفَّة تتلوى بطونهم، لا أجد ما أنفِق عليهم، ولكن أبيع وأنفِق عليهم أثمانهم**»، فرجعا.

ولكنَّ الأب الرَّؤوف الرحيم، لم يرُقه أن يرى بنتَه هكذا، فتبعهما إلى مَنزلهما، وعلَّمها، بل علَّم كلَّ نِساء الأمَّة نصيحةً غالية، فقال لهما : «**ألا أُخبركما بخيرٍ ممَّا سألتماني؟!**»، فقالا :بلى، قال :«**إذا أويتما إلى فِراشكما فسبِّحا ثلاثًا وثلاثين** – سبحان الله – **واحمدا ثلاثًا وثلاثين** – الحمد لله – **وكبِّرا أربعًا وثلاثين** – الله أكبر – »، فكان ذلك عِوضًا عن الخادمة، وقد منح الله فاطمةَ رضي الله عنها من القوَّة ما جعلها تَقوم بكلِّ هذه الأعمال بلا تعَب، ولا إجهاد، بفضل نَصيحة أبيها ﷺ لها ولكل نساء الأمَّة.

قم يا أبا تُراب

ولم تَخلُ حياة الزَّوجين الكريمين من ساعات خِلاف وساعات شكاية، كما هي العادة، فإذا حدث شيء من ذلك، فإنَّه كان يمر كسحابة صيف تنقشع سريعًا؛ وذلك بفضل رسول الله ﷺ الأب الرَّحيم، الذي يرقبهما بعينٍ كلها حبٌّ وعطف وحنان.

يروى أنه حدَث بينهما شيء أغضَب عليًّا رضي الله عنه فانصرف عنها إلى

المسجد، فجاء رسول الله ﷺ وسأل فاطمة :«**أين ابنُ عمِّك؟**»، قالت : كان بيني وبينه شيءٌ فغاضَبني وخرَج، وعلِم رسولُ الله ﷺ أنَّه في المسجد، فلمَّا أتاه في المسجد، وجَده مضطجِعًا وقد استغرق في النوم، ووجد رِداءه قد سقط عنه، وخلص الترابُ إلى ظهره، فجعل رسول الله ﷺ يمسح الترابَ عنه، وهو يُداعبه قائلاً : «**قم يا أبا تُراب، قم يا أبا تراب!** »، فنسي عليٌّ كلَّ شيء بهذه اللمسة الحانية من رسول الله ﷺ، وأصبحت هذه كُنيته "أبو تُراب"، وكانت أحبَّ الكُنى إلى نفسه .

أبناء علي رضي الله عنه

وبعد عشرة أشهر من الزَّواج المبارك، رَزَق الله عليًّا أولَ أبنائه من فاطمة، ولما وُلد جاء رسول الله ﷺ فقال : «**أروني ابني ما سمَّيتموه؟**»، قال عليٌّ :سمَّيتُه حَربًا، فقال رسول الله ﷺ : «**بل هو الحسَن**»، فكان الحسَن أوَّلَ أبنائه، وقد أحبَّه رسولُ الله ﷺ حبًّا كبيرًا.

ثمَّ بعدها بعام رَزَقهما الله بالمولود الثَّاني، فقال رسول الله ﷺ : «**أروني ابني ما سمَّيتموه؟**»، فقال علي :سمَّيتُه صَخرًا، فقال رسول الله ﷺ : «**بل هو الحُسَين**».

ثمَّ بعدها وضَعَت فاطمة طِفلاً سمَّاه رسول الله ﷺ "المحسِّن"، ولكنَّه مات صغيرًا.

ثم بعدها وضعَت ابنتَها التي سمَّاها رسولُ الله ﷺ" زينب"، تَخليدًا لابنته زينب، ثمَّ وضعَت وليدتَها الثانية وسمَّاها رسول الله ﷺ" أمَّ كلثوم"، تخليدًا لابنته أم كلثوم .

أبو بكر وعمر وعثمان "أبناء علي"

ظلَّ الإمام علي ﷺ مع السيِّدة فاطمة الزهراء، لم يتزوَّج غيرها طيلة حياتها، وبعد وفاتها تزوَّج عدَّة زيجات، ورزقه الله منهنَّ البنين والبنات، وإن ظلَّ أكثرهم شهرة وشرفًا أولادُه من فاطمة الزهراء رضي الله عنها .

ولكن ما أردنا أن ننوِّه إليه، ونسلِّط الضوء عليه في هذا المقام، أنَّه كان من أبناء علي ﷺ مَن أسماهم :

- أبا بكر، وهو ابنٌ له من ليلى بنت مسعود التميمية.
- وعمر، وهو ابنٌ له من أمِّ حبيبة بنت زمعة التغلبية .
- وعثمان، وهو ابن له مِن أم البنين بنت صرام الكلابية.

ولعلَّ في هذا أبلغَ الردِّ على القائلين :بأنه كان هناك خِلاف ونِزاع وفرقة بين الإمام علي ﷺ وهؤلاء الصَّحب الكرام، فليس من المعقول أن يسمِّي الإنسان أحدًا من أبنائه على اسم شَخص لا يحبُّه، ويكنُّ له كلَّ مودَّة وتقدير واحترام .

فلعلَّ هذه اللَّفتة تكون ردًّا قاطِعًا على دُعاة الفِتنة والمغالاة ...حفظ الله الأمَّةَ من كلِّ الفتن .

البطل والفارس

كانت آداب الفروسيَّة، والتي تتلخَّص في كلمة واحدة وهي :"النخوة"، كانت هي مِفتاح شخصيَّة الإمام علي – ﷺ كما قال الأستاذ عباس العقاد – في" عبقريَّة الإمام" .

فكانت هذه التوليفة من البطولة والشَّجاعة مع أخلاق وآداب الفروسيَّة، هذه التوليفة التي يصعب أن تَجتمع في شخص واحد .

وسيتَّضح ذلك جليًّا في معرض الحديث عن مَواقفه وبطولاته في الغزوات

والمواقع التي شهدها:

◆ **موقعة بدر** :

خرَج الفارس البطَل مع جيش المسلمين، وكعادة العَرب قبل بدءِ القتال، دائمًا ما يُدعى إلى المبارزة رِجال من الجانبين، ونتيجة هذه المبارزة غالبًا ما تحدِّد مصيرَ المعركة .

فخرج من صفوف المشركين ثلاثة من عائلة واحدة وهم :عُتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، وابنه الوليد، وطلبوا المبارزةَ، فخرج لهم ثلاثة من الأنصار، وهم من عائلة واحدة أيضًا، وهم :عوف بن الحارث وأخوه معوذ – وأمهما العفراء ، فلمَّا علِم كفار قريش بهم قالوا في غرور وصلف :ما لنا بكم من حاجة، إنما نريد بني عمنا، ونادى مناديهم :يا محمد، أَخرج لنا أكفاءنا مِن قومنا، فقال رسول الله ﷺ : «**قم يا حَمزة، وقم يا عَلي، وقم يا عبيدة بن الحارث**»، وكلهم من عائلة واحدة "بني عبد المطلب" .

وبدأت المبارزة، ولم يمهِل حَمزةُ شيبةَ فقتلَه، وبارز عليٌّ الوليدَ وقتله فورًا، واختلف عبيدة وعتبة، فكَرَّ حمزة وعلي بأسيافهما على عُتبة فأكملا قتله.

وكان لنتيجة هذه المبارزة الأثَر الكبير في النَّصر المبين على الكفَّار؛ فقد رفعَت من معنويَّات المسلمين، وأحبطت من معنويَّات كفَّار قريش، وبدأت المعركة التي أبلى فيها عليٌّ بن أبي طالب بلاء حسنًا، وكان نصر الله للمسلمين .

◆ **موقعة أُحُد:**

وتجيء مَوقعة أُحُد، وقد حشدت قريش كلَّ بأسها، وخرجت لتثأر لقتلاها في بدر، ويخرج المسلمون لملاقاتهم، ويملأ عليٌّ رضي الله عنه أرضَ المعركة

ببطولاته ...ويسقط اللِّواء من يد مصعب بن عُمير – حامل اللواء – بعد أن أبدى بطولات خارقة، ويعطي رسولُ الله ﷺ اللواءَ لعلي بن أبي طالب ليحمله بيدٍ، ويده الأخرى قابضة على سيفه "ذي الفَقَار"؛ هذا السيف الذي قال رسولُ الله ﷺ عنه وعن صاحبه :«**لا سيف إلَّا ذو الفَقَار، ولا فتَى إلَّا علي**».

آداب الفروسية

وفي تلك الأثناء وعليٌّ ﷺ يَحمل اللِّواءَ ويُبلي بلاء حسنًا، يُبصره حامل لواء المشركين فيَصيح :ألا هل من مُبارز؟ ولا يجيبه أحد من المسلمين، فقد كانوا في شغل عنه بالمعركة التي بلغت أقصى عنفوانها، ويصيح حامل لواء المشركين مرَّة أخرى :"ألا فليخرج إلى أحد منكم؟" ...فلم يُطِق عليٌّ ﷺ صبرًا فصاح :أنا قادم إليك يا أبا سعيد بن أبي طلحة.

والتقى المبارِزان بين الصُّفوف الملتحمة، فضربه عليٌّ ضربةً واحدة، فسقط على الأرض، وهمَّ على أن يضربه القاضية ليجهز عليه، فكُشفَت عورته أمامَ علي ﷺ ، وهنا تَبرُز أخلاقُ الإمام وآداب الفروسيَّة التي يتحلَّى بها، فبدلاً من أن يجهز عليه بالقاضية ويقضي عليه، أغمض عينه استحياء لما رأى عورته، وانصرف عنه .

فأي أخلاق، وأي نخوة تلك التي يتحلَّى بها هذا الفارس المغوار ...

وتنتهي معركة أُحُد بإخفاق المسلمين، بعد أن كانوا قد حقَّقوا نصرًا كبيرًا على أرض المعركة؛ وذلك لما خالفوا تعليمات وأوامر رسول الله ﷺ .

وقد وعى علي ﷺ الدرسَ كلَّه والعبرة جميعها ...وهو أنَّ دين الله لا ينبغي أن يكون طريقًا إلى الدنيا، وأنَّ الذين يتقدَّمون ليحملوا كلمة الله ورايته يجب ألَّا يَشغَلهم عنها أسلابٌ ولا غنائمُ ولا مناصب ...

◆ **موقعة الخندق :**

ولما كانت مَوقعة الخندق كان للإمام علي فيها دَور عظيم، أظهر البطولةَ والفروسيَّة ونبل الأخلاق معًا.

حيث خرجت قريش وأحزابها لمهاجمة المدينة في أعداد لم يسبق لها مَثيل في تاريخ العرب، وكانت فِكرة حَفر الخندق التي أشار بها سَلمان الفارسي، وما أن وصلت الأحزاب حتى فوجِئت بهذا الخَندق، الذي لم يكن لهم سابقة عهدٍ بمثل هذه الأساليب في الحروب .

وانطلق من مُعسكر قريش التي أضناها اقتحام الخندق، نفَر من مقاتليها على رأسهم عمرُو بن عبدِ وَدٍّ، وفعلاً وجَدوا مكانًا ضيِّقًا اقتحمَتْه خيولهم، ووقف عمرو بن عبد وَد، وهو مَعروف بين العرب بشدَّة بأسه وقوته، فما بارز أحدًا إلَّا صرعه .

صيحة تَحدٍّ وعلي لها

وقف ابن عبد وَد ينادي في تَحدٍّ وصلف :مَن يبارز؟ فوقف علي وقال : أنا لها يا رسول الله !فنظر إليه رسول الله ﷺ نظرة إشفاق وقال : «**إنَّه عمرو، اجلس يا علي**»، فنادى عمرٌو الثانية، فقام علي وقال :أنا لها يا رسول الله، فقال له :«**اجلس**»، فلمَّا كانت الثالثة، قام علي وقال :يا رسول الله، أنا لها، وإن كان هو عمرًا فأنا علي ...فأذِن له رسولُ الله ﷺ، ومشى عليٌّ نحوه، فلمَّا رآه عمرٌو قال له في غرور :يا بن أخي، إنَّ من أعمامك مَن هو أسَنُّ منك، فوالله ما أحب أن أقتلك، فقال علي :ولكنِّي واللهِ أحبُّ أن أقتلك، فغضب عمرو وأخذته حميَّة الجاهلية، وهجم على عَليٍّ الذي تلقَّاه بعنفوان أشد، وخاضا معًا نِزالاً رهيبًا لم تطل لحظاته، حتى رفع عليٌّ سيفَه المنتصر، بينما عمرو بن عبد ود على الأرض صريعًا، وسمع

رسول الله ﷺ التكبيرَ فعرف النَّاس أن عليًّا قد قتل عمرو بن عبد ود.

أخلاق الفارس

وتتجلَّى مرَّة أخرى آداب الفروسيَّة التي تحلَّى بها الإمام، فبعد مقتل عمرو بن عبد ود قال عمر بن الخطاب لعلي :هلَّا استلبتَ دِرعَه؛ فإنَّه ليس للعرب درع خير منها، فقال علي :ضربتُه فاتَّقاني بسوءته، فاستحييتُ أن أسلبه ...

فهكذا كانت بطولة عليرضي الله عنه ، تزدان في كلِّ مرة بشرف الرجولة ونبل الفروسيَّة، ولم تكن قط في خدمة هوًى أو زهو، إنما كانت في خدمة المبادئ العُلا التي هداه الله إليها، والتي آمن بها .

◆ **خيبر:**

والآن فلنتابع البطل الفارِس في خيبر، فها هو رضي الله عنه يشهد له رسول الله ﷺ في يوم خيبر بأنه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله.

فأمام حِصنها المنيع ارتدَّت أول يوم قوات المسلمين، وكذلك ثاني يوم، فلم يجزع رسول الله ﷺ، وإنما ألقى على الجموع من أصحابه نظرةً متفائلة وقال :«**لأعطينَّ الرَّايةَ غدًا رجلاً يحبُّ اللهَ ورسولَه، ويحبُّه اللهُ ورسولُه، يفتح الله على يديه**»، فبات الصَّحابة ليلتَهم وكلٌّ منهم يتمنَّى أن يكون هو صاحب الراية، يقول عمر بن الخطاب :ما تمنَّيتُ الإمارةَ قط إلَّا ذلك اليوم، رجاء أن أكون من يحبه الله ورسوله .

أصبح الصَّباح، وأقبل المسلمون على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يُعطاها، فقال رسول الله ﷺ : «**أين علي بن أبي طالب؟**»، فقالوا :

يَشتكي رمدًا في عينيه يا رسول الله، فقال : «**فأرسلوا إليه**»، فأتي به، ولما رأى رسول الله ﷺ ما به من رمَد، بلل أناملَه بريقه الطاهر، ومسَّ بها عين البطل، فبرئ حتى أصبح كأن لم يكن به وجع، وأعطاه رسول الله ﷺ الرَّايةَ، وقال له :« **امشِ ولا تَلتفت حتى يَفتح الله عليك** ».

فسار عليٌّ ﷺ شيئًا ثمَّ وقف، ولم يلتفت (كما أمره رسول الله ﷺ)، وصاح :يا رسول الله، على ماذا أقاتل النَّاس؟ قال :« **ادعهم إلى الإسلام، وأخبِرهم بما يجب عليهم من حقِّ الله فيه، فواللهِ لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا، خير لك من أن يكون لك حُمر النَّعم** ».

وتوجَّه البطل محملاً ببشرى رسول الله ﷺ له بالفَتح العظيم، وهناك يلقى "مَرْحَبًا"، وهو أحد أبطال اليهود الذي بارَزه، فضرب عليٌّ عُنقَه وقتله.

يد الله فوق أيديهم

ويستمرُّ القِتال حول حِصن ناعم، وهو أقوى حصون خيبر، وتلقَّى علي ﷺضربة قوية لم تصبه بسوء، لكنها أطارت ترسَه من يده، ورأى نفسه يواجه فرقةً كاملة من حرس الحِصن، ولا درع معه، فصاح :"والذي نفسي بيده، لأذوقنَّ ما ذاق حمزة، أو ليفتحنَّ الله بي".

واندفع نحو بابٍ من أبواب الحصن، وصاح :الله أكبر، ولم يلبس النَّاس إلَّا أن وجدوا البابَ في يد علي، وفي وقت قصير، كانت القوة المنتصرة تردد من شرفات الحصن الذي سقَط بكلِّ ما فيه هتافات النَّصر :الله أكبر ..الله أكبر .

فكانت يدُ الله فوق أيديهم ...يقول أبو رافع مولى رسول الله ﷺ وكان

ضمن كتيبة علي :"لقد هممتُ أنا وسبعة معي، أن نحرِّك هذا الباب من مكانه على الأرض – بعد أن تَمَّ الفتح – فما استطعنا".

وصدقت نبوءة رسول الله ﷺ وفُتحَت خَيبر على يد رجل يحبُّ اللهَ ورسوله، ويحبه الله ورسوله .

◆ يوم الحديبية:

وفي يوم الحديبية، لما تمَّ الاتفاق على بُنود الصُّلح، دعا رسول الله ﷺ عليًّا ليكتب الكتاب، فأملى عليه :"بسم الله الرحمن الرحيم"، فقال سُهيل بن عمرو – ممثِّل قريش :– أمَّا الرحمن فواللهِ لا ندري ما هو؟ ولكن اكتب : باسمك اللهمَّ، فأمر رسولُ الله ﷺ عليًّا بذلك، ثمَّ أملى :هذا ما صلح عليه محمد رسول الله، فقال سُهيل :لو نعلم أنَّك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتَلناك، ولكن اكتب :محمد بن عبد الله، فقال رسول الله ﷺ : «**إنِّي رسولُ الله وإن كذَّبتموني**»، وأمر عليًّا أن يَمحو لفظ "رسول الله"، ويكتب "محمد بن عبد الله"، ولكن عليًّا لم تطاوِعه يدُه أن يَمحوَ لفظ "رسول الله"، فأشفق عليه رسول الله ﷺ ومحاه بيده.

البطولة والأخلاق النبيلة

بعد ما تقدَّم من بطولات للإمام علي رضي الله عنه نخلص إلى أنَّ بطولته رغم شموخها واقتدارها، كانت بطولة مسالمة، عادلة، التقت فيها شدَّة البأس ولِين الجانب؛ من أجل ذلك كان رسول الله ﷺ يندبه في مَهام الحرب والقتال، لتلك التي تتطلَّب حظًّا وافرًا من ضَبْط النَّفس ولين الجانب.

جئت عليًّا فوجدته ألين القوم

وليس أدل على ذلك، مما شهد به الأعداء قبل الأصدقاء؛ فهذه شهادة أبي سُفيان – أيام شِركه ووثنيته – عندما نقضت قريش عهدها مع رسول الله ﷺ، وقرَّر الخروجَ إلى مكَّة لفتحها، ونمى الخبر إلى قُريش، أرسلت أبا سفيان إلى المدينة ليعتذر لرسول الله ﷺ، ويسأله الموافقة على تَجديد العهد بينهما، ونزل أبو سفيان المدينة، وقابل زعماءها، راجيًا أن يُزكُّوا مهمَّتَه عند رسول الله ﷺ، كلهم رفض، حتى ابنته أم حبيبة (زوج رسول الله ﷺ) أبَت أن تُجلِسه على فِراش رسول الله ﷺ، وأتى أبا بَكر وعمر فرفضا مساعدته.

فلمَّا أتى عليًّا، أخبره في رِفق، أنَّه لا يستطيع أحد أن يردَّ رسول الله ﷺ عن أمر هو اعتزمه، واشتدَّ الأمر على أبي سفيان، وسأل عليًّا النَّصيحةَ فقال له :واللهِ ما أعلم لك شيئًا يُغني عنك، ولكنَّك سيد بني كنانة، فقم فاجْرِ بين النَّاس، ثمَّ الْحَقْ بأرضك، ففعل أبو سفيان ما نصح به عليٌّ وعاد إلى أرضه، ولما عاد إلى مكَّة، جلس يحدِّث النَّاسَ عن محاولته فقال :جئتُ ابن أبي قحافة – يقصد أبا بكر – فلم أجد عونًا، وجئت لابن الخطاب، فوجدته أعدى العدو وقال لي :أأنا أشفع لك عند رسول الله؟ !والله لو لم أجد إلَّا الذَّر لجاهدتكم به، وجئت عليًّا فوجدته ألين القوم .

فهذه هي البطولة التي تحكمها الأخلاق النبيلة السامية.

اجعل أمر الجاهلية تحت قدميك

ومشهد آخر يعرِّفنا بجمال البطولة وإنسانيَّتها، فبعد فتح مكَّة أرسل رسولُ الله ﷺ إلى مَن حولها من القبائل السَّرايا، تدعوها إلى الله في غير قِتال أو حرب، وكان خالد بن الوليد على رأس إحدى هذه السرايا، أمره رسول الله ﷺ أن يَسير بأسفل تهامة داعيًا لا مُقاتلاً، وعند قبيلة بني جَذِيمة بن عامِر، وقد تصرَّف أحد رجالها تصرفًا تسرَّع تجاهه خالد فأعمل فيه السيف، فلمَّا نمى الخبر إلى رسول الله ﷺ، غضب وبَرِئ إلى الله ممَّا صنَع خالد، ثمَّ رأى أن يبادر بإرسال "رسول سلام"، فكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو الرسول المختار لهذه المهمة، فدعاه رسول الله ﷺ وقال له : «**يا علي، اخرج إلى هؤلاء القوم، فانظُر في أمرهم، واجعل أمرَ الجاهلية تحت قدميك**»، وأعطاه رسولُ الله ﷺ من المال ما يَكفي لدِيَة القتلى وتعويض أهليهم عن كل خسارة حاقَت بهم، وقام علي رضي الله عنه بهذه المهمة خير قيام .

◆ معركة تبوك:

أنت منِّي بمَنزلة هارون من موسى

وظلَّ عليٌّ رضي الله عنه يجاهد تحتَ راية رسول الله ﷺ، لم يتخلَّف عن غزوة من الغزوات، إلَّا معركة تبوك، ورغم عدم مشاركته فيها، إلَّا إنه حصل من رسول الله ﷺ على أعظم وِسام، إنه وسام لا نظير له ...

فلمَّا كانت معركة تبوك، خلَّف رسول الله ﷺ عليًّا على المدينة وتحرك بالجيش، فقال المنافقون :ما خلَّفه إلَّا استقلالاً له وتخفُّفًا منه، فتململت

روح البطل إزاء هذا التخلُّف، فأخذ سلاحَه وفرسَه وسار حتى لحق برسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف، فسأله عن سبب تخليفه، وأبلغه مقالةَ المنافقين، فقال له رسول الله ﷺ : «**كذبوا، ولكنِّي خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى أن تكون منِّي بمَنزلة هارون من موسى؟ إلَّا أنَّه لا نبي بعدي**».

فهدأَتْ ثَورة علي رضي الله عنه ورجع إلى المدينة .

◆ حجة أبي بكر:

في العام التاسع من الهِجرة، أرسل رسول الله ﷺ أبا بكر أميرًا على الحج، فخرج أبو بكر في عدد كبير من الصَّحابة، وساقوا معهم الهَدي، وبعد عدَّة أيام من خروجهم نزلت سورة التوبة، وتسمَّى أيضًا سورة براءة، فأراد رسول الله ﷺ أن يرسِل رسولاً ليلحق بهم ويبلغ النَّاس بما جاء بها من أحكام وأمور هامَّة، فلم يجد لهذه المهمة إلَّا عليًّا رضي الله عنه ، فأخذ الرِّسالةَ ليلحق بالصدِّيق، فلمَّا رآه الصِّدِّيق قال له :أمير أم مأمور؟ فقال علي :بل مَأمور، وأخبره بما جاء به، ثمَّ سارا معًا، ولما اجتمع النَّاس بمِنًى يؤدُّون مناسكَ الحج، طلب أبو بكر مِن علي أن يقف ليتلو على النَّاس الآيات من سورة التوبة، وما بها من أحكام هامَّة تَقضي بعدم طواف أو حجِّ المشركين بعد عامهم هذا، وألَّا يطوف بالبيت عُريان ...وغيرها من أحكام، وهكذا أناب رسولُ الله ﷺ عليًّا في قراءة أوائل سورة التوبة ...إيذانًا ببراءة الله ورسوله من المشركين .

◆ وفاة رسول الله ﷺ:

وظلَّ عليٌّ رضي الله عنه ملازمًا لرسول الله ﷺ، حتى اللَّحظات الأخيرة من

حياته ﷺ، إلى أن توفَّاه الله، وانتقل إلى الرَّفيق الأعلى .

وقد حزن عليٌّ حزنًا كبيرًا على وَفاة رسول الله ﷺ، حُزن كاد يمزِّق قلبه ...ولِم لا؟ وهو مربِّيه ومعلِّمه، ورسولُه وقدوته، ومثَله الأعلى في الحياة، اقتبس من علمه وزهده وأخلاقه الرفيعة، وأغدق عليه الكثير والكثير من رَحمته وعطفه، ليس ذلك فحسب؛ بل أعطاه قُرَّةَ عينه وأحب النَّاس إليه "فاطمة الزهراء" لتكون له زوجًا وسكنًا .

◆ في صحبة خلفاء رسول الله ﷺ الراشدين:

وبعد وَفاة رسول الله ﷺ، ظَلَّ علي رضي الله عنه ملازمًا لخليفته أبي بكر رضي الله عنه ، وكان أبو بكر يَعرف له قدرَه ومنزلتَه ويشاوره في عظائم الأمور، ودائمًا ما كان يقول :"أفتنا يا أبا الحسن" .

وبعد وفاة أبي بكر، وأصبح عمر أميرًا للمؤمنين، بايَعه وزوَّجه ابنتَه أم كلثوم، وكان عمر يَعرف له قدرَه، وكان من أهل الشُّورى والرَّأي، ولطالما كان يَستعين بفقهه وذكائه وبصيرته ويقول :"لولا عليٌّ لهلَك عمر"، وكثيرًا ما كان عمر يَستخلفه على المدينة إذا غاب عنها .

ولما استشهد عمر وتولَّى عثمان شؤون الأمَّة، كان يَستعين به وبرأيه، وقد ذكرنا سالفًا، ما كان له من مواقف مشرِّفة وشَجاعة في مواجهة المتآمرين ضد عثمان .

وقد ذكرنا سالفًا أنَّه رضي الله عنه قد سمَّى بعضًا من أولاده "أبا بكر"، "وعمر"، و"عثمان"؛ حبًّا وتقديرًا ومودَّة لهم.

* * * * * * * * * * *

شمائل الإمام علي ﷺ

والآن عزيزي القارئ، فلنقترِب أكثر مِن الإمام ونَعِشْ مع بعض نَفحات من صِفاته وشمائله ...وليس بمستغرَبٍ أن تجِد كثيرًا من هذه الخِصال قد تحلَّى بها من قَبل أبو بكر وعمر وعثمان، ولم لا؟ وكلهم مِن رسول الله ﷺ مقتبِس ...

١ – عدله ﷺ :

لقد كان عليٌّ ﷺ يقول فضلاً ويحكم عدلاً .

قاضٍ في زمن رسول الله ﷺ

لما رأى رسول الله ﷺ فيه من مقوِّمات العدل والفِطنة، بعثَه إلى اليمن قاضيًا، فقال :يا رسول الله، ترسلني وأنا حديث السِّنِّ ولا أعلم بالقضاء؟ فقال رسول الله ﷺ :« **إنَّ الله سيَهدي قلبَك، ويثبِّت لسانك، فإذا جلس بين يديك الخَصمان، فلا تقضينَّ حتى تَسمع من الآخر كما سمعتَ من الأوَّل؛ فإنَّه أحرى أن يتبيَّن لك القضاء**»، وظلَّ باليمَن يَقضي بين النَّاس بالحق .

مع الخلفاء الراشدين

وفي عصر الخُلفاء من بعد رسول الله ﷺ، كان دائمًا يَقضي ويُستفتى في كثير من المسائل، حتى إنَّ أبا بكر كان دائمًا يقول – كما أسلفنا :– "أفتنا يا أبا الحسن"، وعمر يقول :"أعوذ بالله أن أَعيش في قومٍ لستَ فيهم يا أبا الحسن"، وكان كذلك في عصر عثمان .

الخليفة يَمثل أمام القضاء

ويصبح الإمام علي ﷺ الخليفةَ وأمير المؤمنين، وفُقد منه دِرعه، ووجده عند رجل نَصراني، فلمَّا سأله الدِّرع رفض النَّصراني رده إليه، وادعى أنه ملكه .

فأقبل الخليفة به إلى القاضي "شُريح" يخاصمه، فقال للقاضي :هذا الدِّرع درعي، ولَمَ أبِعْ ولم أهَبْ، فقال شريح للنَّصراني :ما تقول فيما قاله أمير المؤمنين؟ فقال النَّصراني :ما الدرع إلَّا درعي.

فالتفت شُريح إلى أمير المؤمنين علي وقال :هل مِن بيِّنة؟ فقال علي :ما لي من بيِّنة، فقال :هل من شُهود؟ قال :معي ولَدي الحسن، قال :لا يصِح أن يَشهد لك ابنك، وقضى شُريح بالدِّرع للنَّصراني .

فأخذه النَّصراني، ومشى خُطى ثمَّ رجع فقال :أما أنا فأشهد أنَّ هذه أحكام الأنبياء، أمير المؤمنين يدينني بين قاضيه ويَقضي عليه؟ أشهد أن لا إلهَ إلَّا الله، وأشهد أنَّ محمدًا رسول الله، الدِّرع واللهِ درعك يا أمير المؤمنين، فقال له الإمام :أما إذ أسلمت فهي لك.

تلك كانت بعضًا من مشاهد عدله ﷺ ، وهي قليل من كثير لا يتَّسع المجال لذكرها جميعًا.

٢ – زهده ﷺ:

كان الإمام علي ﷺ لا يَركن إلى الدُّنيا لحظة؛ فإنها بالنسبة له قد أدبرت وآذنت بوداع، وأن الآخرة عنده هي دار القَرار وهي الأبد؛ ولذلك كان يقول :"ألا وإن الدُّنيا عرَض حاضر، يأكل منها البَرُّ والفاجِر، وإن الآخرة وَعْد صادق، يَحكم فيها ملِك قادِر"، ولم يكن ذلك قولاً فقط، وإنما كان قولاً وعملاً.

وهاك بعض المشاهد من زهده ﷺ :

- **قصر الخبال هذا لا أسكنه أبدًا:**

لما تولَّى الإمام علي ﷺ الخِلافةَ، وأتى إلى الكوفة، دُعي لينزل في قصر الإمارة، وهو قَصر كَبير ترتفع هامَتُه في شُموخ وفتنة، فلا يكاد يبصره حتى ولَّى مدبِرًا وهو يقول :"قَصر الخبال هذا، لا أسكنه أبدًا"، ويؤثِر عليه منزلاً متواضعًا في أرض خلاء.

- **هذا الثوب يصرف عني الزَّهو:**

كان ﷺ يَلبس الثوبَ الخشِن، فيسأله أصحابه أن يعطي نفسَه بعضًا من حقِّها، فيقول :"هذا الثَّوب يَصرف عنِّي الزَّهو، ويساعدني على الخشوع في صلاتي، وهو قدوة صالحة للنَّاس حتى لا يسرفوا، ولا يتبذخوا" .

- **دعوني أُهِن الدُّنيا:**

كان ﷺ يرتدي وهو خليفة المسلمين قميصًا اشتراه من السُّوق بثلاثة دراهم، ويركب حمارًا، وقد تدلَّت على جانبيه ساقاه، وكأنه واحد من فقراء البادية، ويعزم عليه أصحابُه أن يجعل وسيلته للنَّقل جوادًا يليق بأمير المؤمنين، فيجيبهم قائلاً :"دعوني أُهِن هذه الدنيا" .

- **هذه القطيفة التي خرجت بها من بيتي:**

دخَل رجل على الإمام عليٍّ ﷺ ، وعليه قَطيفة وهو يرعد من البرد، فقال له :يا أمير المؤمنين، إنَّ الله قد جعل لك ولأهل بيتك نصيبًا في هذا المال، وأنت ترعد من البرد؟ !فقال :"إنِّي والله لا أرْزَأ من مالكم شيئًا، وهذه القطيفة هي التي خرجت بها من بيتي" .

- **يا دنيا غرّي غيري:**

وقف الإمام عليٌّ ﷺ ، وقد أرخى اللَّيلُ سُدولَه، وهو في مِحرابه ويبكي بكاء الحزن وهو يقول :"يا دنيا أَبي تفَرَّضتِ؟ !أم إليَّ تعرَّضتِ؟ !أم إليَّ تشوَّقت؟ !هيهات هيهات، يا دنيا غُرِّي غيري !فقد أَبَنْتك – طلَّقتُك – ثلاثًا، لا رجعة لي فيك؛ فعمرك قَصير، وعيشك حَقير، وخطرك كبير، آهٍ من قِلَّة الزَّاد وبُعد السَّفر ووحشة الطَّريق".

- **أقوال اللاحقين في زهده ﷺ :**

– قال عمر بن عبد العزيز" ﷺ :أزهَد النَّاس في الدُّنيا علي بن أبي طالب".

–وقال الحسن البصري" ﷺ:رحم الله عليًّا، كان رهباني هذه الأمَّة، لم يكن لمال الله بالسَّروقة، ولا في أمر الله بالنَّؤومة"، أي :لا يَنام على أمرٍ من أوامر الله.

- **الدنيا دار صدق لمن صدقها:**

لم يكن زُهد الإمام علي ﷺ في الدُّنيا وعزوفه عنها زُهْدَ الهاربين من تَبِعات الوجود ومسؤوليَّات الحياة؛ إنَّما هو الزُّهد الذي يَجعل المسؤوليَّةَ العادلة دِينًا، والعمل الصَّالح عبادةً وقربة إلى الله؛ فقد سمِع رجلاً يذمُّ الدُّنيا مذمَّةَ العاجِز المتواكِل، فردَّ عليه قائلاً :"الدنيا دار صِدق لمن صدقها، ودار نَجاة لمن فهم عنها، ودار غِنًى وزاد لمن تزوَّد منها؛ فهي مَهبط وحي الله، ومَسجد أنبيائه، ومتجر أوليائه، ربحوا منها المرحمة، واكتسبوا بها الجنَّة".

فهذه الدُّنيا كما فَهِمها الإمام علي ﷺ ، ورحم الله الشيخ الشعراوي كان يقول :"إن الدُّنيا هي مطيَّة الآخرة" .

كان هذا بعضًا يسيرًا من كثير من الأمثلة على زهده ﷺ .

٣- تواضعه ﷺ :

كان الإمام علي ﷺ ، كما علَّمه رسول الله ﷺ شديد التواضع، لا يَعرف الغرورُ أو الزَّهو إليه سبيلاً .

وهاك بعضًا من شواهد تواضعه :

- وقف يومًا وهو خليفة المسلمين في السوق، يبيع سيفًا له، ويقول :"من يشتري منِّي هذا السيف، فوالذي فلَق الحبَّة لطالما كشفتُ به عن وجه رسول الله ﷺ، ولو كان عندي ثَمَن إزار ما بِعتُه".
- كان ﷺ يمشي في أسواق الكوفة، وهو خليفة المسلمين، فيرشِد الضالَّ، ويعين الضَّعيفَ، ويلتقي بالشَّيخ المسن الكهل فيحمل عنه حاجته .
- كان ﷺ يصرُّ أن يطحن دقيقَه بنفسه، ولا يأكل الخبزَ إلَّا قديدًا مخلوطًا بنخالته، ويرقع ثوبه، حتى لا يجِد فيها مكانًا لرقاع جديدة .

٤- ورعه وخشيته من الله:

أمَّا عن ورَعه ﷺ ، فكان منذ أن صلَّى خلف رسول الله ﷺ وهو صَبي مع بداية الوحي، وحتى آخر عهده بالدنيا - كان ورعه وخشيته من الله هي شاغله الأكبر ...

- **أمن أهل السماء تحرسون، أم من أهل الأرض؟**

كان الإمام علي ﷺ يخرج باللَّيل إلى المسجد يصلِّي تطوعًا، فلمَّا فرغ من صلاته، رأى أناسًا من أصحابه جالسين لحراسته، فقال لهم :ما يُجلِسكم؟ فقالوا :لنحرسك، فقال :أمن أهل السماء تحرسون، أم من أهل الأرض؟ ثمَّ قال :"إنه لا يكون شيء في الأرض حتى يُقضى في السماء،

وليس من أحد إلَّا وقد وكِّل به ملكان يدفعان عنه ويحرسانه، حتى يجيء قدَره، فإذا جاء قَدَرُه خليا بينه وبين قدره، وإنَّ الله جعل لي جُنَّةً – وِقاية – حَصينة، فإذا جاء أجَلي كُشفت عنِّي، والله إنَّ المرء لا يجد طعمَ الإيمان حتى يعلم أنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه".

هكذا كان إيمانه المطلق وخشيته من الله .

- **قبس من أقواله في الورع وخشية الله :**

* كان الإمام علي ﷺ كثيرًا ما يَذكر أيامَ الوحي والرسالة ويقول :

–"واللهِ لقد رأيتُ أصحاب محمد ﷺ، فما أري اليوم شيئًا يشبههم، لقد كانوا يصبحون وبين أعينهم آثار ليل باتوا فيه سجَّدًا لله، يَتلون كتابه، ويتراوحون بين جباههم وأقدامهم، وإذا ذكروا الله مادوا كما يَميد الشَّجر في يوم الريح، وهملت أعينهم من شدة البكاء، حتى تبتلَّ ثيابهم" .

هذه صورة الماضي العظيم، أيام الوحي والرسالة، يعيش فيها دائمًا وأبدًا، ولا يستطيع الزمن مهما توغَّل في البعد أيامه وأعوامه أن ينزع الإمامَ العابد منها فهي منسكه ومحرابه .

*كان الإمام علي ﷺ يقول وكأنَّه يصِف نفسَه :"ألا وإن عبادًا شرورهم مأمونة وقلوبهم محزونة، صبروا أيامًا قليلة لعُقبى راحة طويلة، إذا رأيتَهم في اللَّيل رأيتهم صافِّين أقدامهم، تجري دموعهم على خُدودهم، يجأرون إلى الله في فِكاك رِقابهم، أمَّا نهارهم فظِماءٌ حُلماء، برَرة أتقياء، كأنَّهم القداح، ينظر إليهم الناظِرُ فيقول :مَرْضى !وما بهم من مرض، ولكنه الأمر العظيم" .

نعم، إنَّه الأمر العظيم؛ وهو دِين الله، واليوم الذي سيَقف فيه بين يديه غدًا لينظر جزاءه وحسابه.

٥- كرمه رضي الله عنه :

كان الإمام علي رضي الله عنه شديدَ الكرم، رغم قلَّة ما يملِك لشَديد زُهده - كما أسلفنا - إلَّا أنَّه لم يَرُدَّ سائلاً، وكان دائمًا يقضي حاجةَ كل محتاج.

- كان من بين أصهاره ومعارفه مَن لم يرَ لهم في الفيء نَصيبًا، فيعطيهم من ماله.
- وكما كان معلِّمه وقدوته ﷺ يفعل، كان يَقترض ليقضيَ حوائجَ النَّاس، حتى إنَّه مات وعليه سبعون ألفًا دَينًا، ولما مات قام الحسَن بن علي فباع من حواشي ماله حتى قَضى عنه، ثمَّ كان يعتق عنه كلَّ عامٍ خمسين نَسمة .

٦- صبره رضي الله عنه على البلاء:

ضرَب الإمام علي رضي الله عنه المثَلَ في الصَّبر، وتحمُّل الأذى، وضبط النفس .

- **يعلمني الصبر:**

كان للإمام رضي الله عنه خادِم، لا يُطيع له أمرًا، كثير المجادلة، فلمَّا سألوه :لماذا يحتفظ به رغم ما به من عيوب؟ !فقال :"إنَّه يعلِّمني الصَّبر".

- **لا أثأر لنفسي :**

في غَزوة من الغزوات، بارز عدوًّا له، ولما وقع العدوُّ على الأرض، وهَمَّ الإمام أن يَفتك به، بصق العدوُّ في وجهه، وبدلاً من أن يجهِز عليه ويقتله، تركه وانصرف، ولما سُئل عن هذا؟ قال :لما كنتُ أبارزه كنتُ أقاتِل لله ورسوله، أما وإن بصَق في وجهي، فأردتُ ألا أقتل أحدًا انتقامًا وثأرًا لنفسي.

- **ومن أقواله في الصبر :**

-"الصَّبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسَد، ولا إيمان لمن لا صَبر له" .

لله دَرُّك يا أبا الحسن !ما أرقاها من أخلاق، وأعلاها من قِيَم، كنتَ عليها مقيمًا ولها حافظًا!

٧- الشجاعة وأخلاق الفروسية:

كنَّا قد أسلفنا ما كان يتمتَّع به الإمام علي ﷺ من شَجاعة ليس لها نَظير، وقد تجلَّت هذه الشَّجاعة بأخلاق الفروسيَّة، بدءًا من موقفه يوم الهجرة، ونومه في فراش رسول الله ﷺ، مرورًا بما كان عليه من شجاعة ونُبل أخلاق، في كلِّ الغزوات والمشاهد التي خاضها، وقد ذكرناها بالتفصيل سابقًا.

- **أوامره لجنده:**

ولنستمع للقائد الشُّجاع، وقد تجلَّت أخلاق الفروسيَّة في أوامره لجنده قبل المعركة، يقول الإمام :

- لا تقاتلوا القومَ حتى يَبدؤوكم .
- إن قاتلتموهم فهزمتموهم، فلا تَقتلوا مُدبِرًا، ولا تُجهِزوا على جريح، ولا تكشفوا عورة، ولا تمثِّلوا بقتيل.
- فإن وصلتم إلى رحالهم، فلا تهتكوا سِترًا، ولا تَدخلوا دارًا إلَّا بإذن، ولا تأخذوا من أموالهم شيئًا.
- ولا تقربوا النِّساء بأذًى، وإن شتمنَكم وشتمنَ أُمراءكم وصلحاءكم .
- واذكروا اللهَ كثيرًا لعلَّكم تفلحون.

ومن تلك الأوامر لجنده نستطيع أن نستخلص أيَّ نوع من الفُرسان كان الإمام علي ﷺ .

٨– أمانته وإخلاصه للسابقين:

كان الإمام علي ﷺ يتحلَّى بالأمانة والإخلاص للسَّابقين:

- سئل يومًا عن أشجع النَّاس؟ فردَّ وبلا تردُّد :أبو بكر، وذكر قصَّتَه يوم التفَّ كفَّارُ قريش حول رسول الله ﷺ، وكان المسلمون من الضَّعف وقلَّة العدد، ما لم يمكن أحدًا منهم من التقدُّم دفاعًا عن رسول الله ﷺ، وتقدم أبو بكر بمفرده، ودفعهم وهو يقول :

–"أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ ."!

هكذا كانت أخلاق الإمام ﷺ وإخلاصه، ولو أنَّه قال :أنا أشجع النَّاس فما كذب؛ فهو لذلك أهل، ولكنَّها الفضيلة ونكران الذَّات والإخلاص لمن سبقه .

- دخل عليه ﷺ رجل وقال له :أنت خير النَّاس ...فقال له رأيت رسول ﷺ ؟ قال : لا... فقال له :أرأيتَ أبا بَكر؟ قال :لا، قال :أرأيتَ عمر؟ قال :لا، قال :أرأيتَ عثمان؟ قال :لا، قال الإمام :واللهِ فما رأيتَ خيرَ النَّاس.
- سمِع يومًا رجلاً يسبُّ عثمان، فقال له :على رِسلك، أرأيتَ لو كانت لك ابنة وأردت أن تزوِّجها، هل تفعل ذلك قبل أن تَستشير؟ قال الرجل :لا، فقال عليٌّ :ﷺ فما بالك برسول الله ﷺ، وقد استشار اللهَ وزوَّجَه بِنتيه؟ !
- وقد أسلفنا ما كان من الإمام علي ﷺ من حبٍّ ووفاء وإخلاص للسابقين، أنْ سمَّى بعضًا من أولاده : أبا بكر وعمر وعثمان.

فما أكرمها من أخلاق، وما أحوجنا إلى استدعائها والعمل بها في أيامنا هذه التي يَنسى النَّاس أو يتناسون فيها الفضلَ فيما بينهم، ولا يُعطي كلُّ ذي فضل حقَّه!

لله دَرُّك يا أبا الحسن!

٩- ذكاؤه وفصاحته وعلمه :

لقد كان الإمام علي ﷺ عالِمًا فقيهًا، قد منحه الله من الفِطنة والذَّكاء، ما جعله أقضى أهل زمانه، وأعلمهم بالفِقه والشَّريعة، ولم يكن بينهم مَن هو أقدر منه على إخراج الأحكام من القُرآن والحديث والعُرف والمأثور، وكان في المسائل العويصة يتجاوز النَّقلَ إلى القياس، كلَّما وجَب الاجتهادُ بالرأي الصائب والقياس الصحيح.

ومن أمثلة ذلك :

- يقال :إنَّ امرأة جاءت إليه وشكت أنَّ أخاها مات عن سِتِّمائة دينار، ولم يَقسِم لها إلَّا دينارًا واحدًا، فقال لها :لعلَّه ترك زوجة وابنتين وأُمًّا واثني عشر أخًا وأنتِ؟ فقالت في دهشة :نعم، وكان مثلما قال .

- وفي خلافة عُثمان :ﷺ أَتى رجل إلى الخليفة يشكو له أنَّ زوجته وضعَت له طفلاً بعد ستَّة أشهر من زواجهما، وهو يشك في نسَب ذلك الطفل وانتسابه له، فسأل عثمانُ ﷺ عليًّا ﷺ في هذه المسألة .

فكان جوابه :أنَّه من الممكن أن يكون ذلك الطفل هو ابنه، فقال عثمان :وما دليلك؟ قال :إن الله تعالى يقول: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا} [الأحقاف: ١٥].

وفي موضع آخر يقول: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ} [لقمان: ١٤].

وعليه يكون من الممكن الحمل في ستَّة أشهر فقط؛ [٣٠ شهرًا (حمل

ورضاعة) – ٢٤شهرًا رضاعة = ٦ أشهر]

وفي هذه الإجابات وغيرها دليل الذَّكاء وسُرعة البديهة، فضلاً عن الدلالة الظَّاهرة على علمه بالقرآن والمواريث والحساب .

إنشاء علم النحو

لم يكن أحَد أوفر سَهمًا من الإمام علي ﷺ في إنشاء عِلم النَّحو، فقد تواتَر أنَّه اشتكى إليه أبو الأسود الدُّؤلي من شيوع اللَّحن على ألسِنَة العرب، فقال له : اكتب ما أُملي عليك، ثمَّ أملاه أصولاً من علم النَّحو منها :

- **أن كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف.**
- **فالاسم :ما أنبأ عن المسمَّى.**
- **والفعل :ما أنبأ عن حركة المسمى .**
- **والحرف :ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل.**
- **إن الأشياء ثلاثة :ظاهِر، ومضمر، وشيء ليس بظاهر ولا مضمر، يعني :اسم الإشارة على قول بعض النحاة .**

ثم قال لأبي الأسود :انْحُ هذا النَّحو يا أبا الأسود، فعُرف العلم باسم "النحو" من يومها .

فن الخطابة والبلاغة "نهج البلاغة"

لم يكن الإمام علي ﷺ أولَ مَن كَتب الرسائل وألقى العِظات وأطال الخُطب على المنابر في الأمَّة الإسلاميَّة، ولكنَّه ولا ريب أوَّل مَن عالج هذه الفنون معالجة الأديب، وأول من أضفى عليها صبغة الإنشاء .

فقد تعلَّم الكتابة صغيرًا، ودرس الكلامَ البليغ من روايات الألسُن أي :(التي تواترت من لسان إلى لسان)، وتدوين الأوراق، وانتظَر بالبلاغة حتى

خرجَت من طور البداهة الأولى إلى طور التفنُّن والتجويد، فاستقام له أسلوبٌ مَطبوع مصنوع، وهو أول أساليب الإنشاء في اللُّغة العربية، وأول أسلوب ظهرت فيه آثار دراسة القرآن والاستفادة من سياقه ...

فديوانه الذي سُمِّي "نهج البلاغة" هو أحق ديوان بهذه التَّسمية بين كتب العربية، وفيه ترى طابع الشخصيَّة العَلَويَّة ظاهرًا من وراء السطور، ومن ثنايا الحروف، يوحي إليك حينما تَعيهِ أنَّك تسمع الإمامَ ولا أحدَ غير الإمام .

نفحات أغلى من الذَّهب :

والآن عزيزي القارئ، فلنُصغِ لبعض من أحاديث الإمام وأقواله المأثورة، والتي تتجلَّى فيها نَفحات علمه، وروعته، وبلاغته، فهي بحقٍّ كلمات أغلى من الذهب .

يقول الإمام علي ﷺ :

- **"العلم خير من المال؛ العِلم يَحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على العمل، والمال تنقصه النفقة" .**
- **"مات خزَّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدَّهر، أعيانُهم مَفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة".**
- **"ألا إنَّ الفقيه كل الفَقيه الذي لا يقنِّط النَّاس من رحمة الله، ولا يؤمِّنهم من عذاب الله، ولا يرخِّص لهم في معاصي الله، ولا يدَع القرآنَ رغبةً عنه إلى غيره" .**
- **"لا خير في عبادةٍ لا عمل فيها، ولا خير في عمَل لا فهم فيه، ولا خير في قراءة لا تدبُّر فيها".**
- **"لا خير في الدُّنيا إلَّا لأحد رجلين :رجل أذنب ذنوبًا، فهو يتداركها بتَوبة، ورجل يسارِع في الخيرات ويعمل في الدَّرجات".**

- **"ألا وإنَّ الدُّنيا قد ارتحلت مُدبِرة، وإنَّ الآخرة قد أتَت مقبِلة، ولكلٍّ واحد منها بَنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا" .**
- **"ألا وإنَّ مَن اشتاق إلى الآخرة، سلا عن الشَّهوات، ومن أشفق من النَّار، رجع عن المحرَّمات" .**
- **"مَن طلب الجنَّةَ سارع إلى الطَّاعات، ومن زهد عن الدُّنيا هانت عليه مصائبها" .**

فتلك كانت قَطرات من مُحيط فَيض علم الإمام عليٍّ ﷺ ، وقد أسلفنا بعضًا من هذه المأثورات للإمام في معرض حديثنا عن زُهده وورعه .

١٠- حب رسول الله ﷺ له ﷺ :

بعد كلِّ ما تقدَّم، وقبل كل ما تقدَّم من شمائل للإمام عليﷺ ، كان حُب رسول الله ﷺ له هو أعلى وِسام وأكبر مزيَّة له، فقد كا نﷺمن أحبِّ النَّاس إلى رسول الله ﷺ.

لقد كان رسولُ الله ﷺ يغمر بالحبِّ كلَّ مَن أحاط به من الغرباء والأقربين، فأي عجب أن يخصَّ بالحب من بينهم إنسانًا كان ابن عمه الذي كفله وحماه، وكان بديلَه في الفِراش يوم هِجرته، وكان زوجًا لابنته العُزَّى عنده، وكان نصيرَه الذي أبلى أحسن البلاء في غَزواته .

وهاك بعضًا من شواهد حبِّ رسول الله ﷺ له :

- **الجنة تشتاق لثلاثة:**

قال رسول الله ﷺ :«**إنَّ الجنَّة تشتاق إلى ثلاثة؛ عليٍّ، وعمَّار، وسَلْمان**».

- **عليٌّ مِنِّي وأنا منه:**

شَكا بعضُ الصَّحابة عليًّا لرسول الله ﷺ بعد إحدى السَّرايا، وبلغوه بعضَ المآخِذ عليه، فأعرض عنهم، وتناوبوا الحديثَ إلى رسول الله ﷺ واحدًا بعد الآخر، فلمَّا فرغ رابعهم من حديثه، قال رسولُ الله ﷺ :«**ما تريدون مِن عليٍّ؟!**»؛ كرَّرها ثلاثًا، «**علي منِّي وأنا منه، وهو وَلي كلِّ مؤمن من بعدي** » .

- **أهل الخيمة:**

رُوي عن الصدِّيق رضي الله عنه أنه قال :رأيتُ رسولَ الله ﷺ خيم خيمة، وفي الخيمة علي وفاطِمة والحسَن والحُسَين، وقال : «**يا معشر المسلمين، أنا سلم مَن سالَم أهلَ الخيمة، حَرْب لِمن حاربهم، وليٌّ لمن والاهم، لا يحبُّهم إلَّا سعيد الجد طيِّب المولد، ولا يبغضهم إلَّا شقي الجد رديء الولادة**» .

- **ثلاثة أغلى من الدُّنيا:**

يقول سعد بن أبي وقَّاص :ثلاثة قالهنَّ رسول الله ﷺ لعلي؛ لأن تكون لي واحدة منهنَّ أحب إلى من حُمر النَّعَم والدنيا وما فيها .

- سمِعتُ رسولَ الله ﷺ يوم خيبر يقول : «**لأعطينَّ الراية غدًا رجلاً يحبُّ اللهَ ورسولَه، ويحبه اللهُ ورسوله**»، قال سعد : فتطاولنا لها، فلمَّا كان الغد قال رسولُ الله ﷺ« : **ادعوا لي عليًّا**»، ورفع الرايةَ إليه وفتح الله عليه.

- وسمعتُ رسولَ الله ﷺ لما خلفه في بعض مغازيه، فقال له علي :يا رسولَ الله، خلفتني مع النِّساء والصبيان؟ فقال رسول الله ﷺ :

«أما ترضى أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسى؟ إلَّا أنَّه لا نَبي بعدي».

- ولما نزلت الآية: {فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ} [آل عمران: ٦١]، دعا رسولُ الله عليًّا وفاطمة وحسَنًا وحُسينًا وقال : **«اللهمَّ هؤلاء أولادي »**.

وعلى قَدْر حبِّ رسول الله للإمام علي كان حبُّه لرسول الله، وقد ذكرنا أمثلةً كثيرة على ذلك.

* * * * * * * * *

الخِلافة والخلاف

البيعة وثقل المسؤولية:

بويع الإمام علي ﷺ بالخِلافة بعد حادثة من أفجع الحوادث في تاريخ الإسلام، وهي مَقتل الخليفة عثمان بن عفَّان ﷺ في شيخوخته الواهنة على يد المتآمِرين على الدَّولة الإسلاميَّة؛ كما أسلفنا.

وهكذا جاءته الخِلافةُ مثقلة بالمتاعب، معبَّأة بالعواصف، فلم تكن الخِلافةُ عندما عُرِضَت عليه، وعندما قبلها، تشكِّل أيَّ مَغنم من مغانم الحياة، بل كانت عبئًا لحامله، وكأنَّما كُتب عَلى ابنِ أبي طالب أن تكون حياته مَوكبًا متصلاً من المسؤوليات الجسام .

الخلافات وصراع الأنظمة:

وتبدأ خِلافة الإمام علي ﷺ ، وسط أجواء من التوتُّر والتناقضات، وتغيُّر الأمزجة والطبائع، وقد تجمَّعَت له أعباء النَّقائض والمفارقات .

فقد كانت الظَّاهرة الكبرى في عَصر الإمام علي ﷺ ظاهرة اجتماعية، خاصَّة به دون عصور الخُلفاء من قبله، فبعد ثُبوت الدَّولة الإسلاميَّة التي بدأت في عصر أبي بَكر، وتمَّ إنشاؤها في عصر عمر، وتكون المجتمع الإسلامي في عَصر عثمان بعد نشأة الدَّولة الجديدة، وبرز فيه نِظام جديد على أساس الثروة، جاء عصر الإمام علي ﷺ فانقسم المجتمَع إلى قِسمين متقابلين، أو قُل :نظامين أصبح بينهما صراع؛ صِراع بين الخِلافة الدينيَّة كما تمثَّلَت في الإمام علي ﷺ ، والدَّولة الدنيويَّة كما تمثَّلت في معاوية بن أبي سفيان .

فقد كان الموقف بين الخِلافة والملك ملتبسًا متشابكًا في عَصر عثمان، فكان نِصف ملك ونصف خِلافة، أمَّا في عَصر الإمام فقد زال الالتباس، وتقابل الضدَّان اللذان لا يلتقيان، ليبلغ الخلاف مداه .

أعمال الخِلافة

تجنيد قوى الخِلافة الدينية

بدأ الإمام علي ﷺ منذ اللَّحظة الأولى لخلافته في تَجنيد قوى الخِلافة الدينية، التي لا قوة له بغيرها .

فقام بعمل الآتي :

١ – عزل الولاة:

بدأ بعَزل الولاة الذين استباحوا الغنائمَ، وطمعوا وأطمعوا رعاياهم في بيت مال المسلمين؛ فإنَّهم لم يكونوا في رأي الإمام أهلاً لهذه الولاية، ولقد كانوا السَّببَ المباشر في إثارة السخط على عُثمان ﷺ والفِتنة الرَّهيبة التي أودت بحياته، ووضع مكانهم فريقًا من الأصحاب الذين لهم من الدِّين والاستقامة ما يجعلهم موضِعَ ثِقة الخليفة، وقد تسلَّم الولاة الجُدد عملَهم في سلام، إلَّا سهل بن حُنيف والي الشَّام الذي عُيِّن مكانَ معاوية بن أبي سفيان؛ فقد أرسل معاوية كتيبةً من جيشه، حالت دون دخوله البلاد .

٢ – سياسته الاقتصادية:

واستكمالاً لنَهجه ﷺ في إحياء الخِلافة الدينية، **قام بعمل الآتي :**

- رد القَطائع التي وُزِّعَت قبله على المقرَّبين والرؤساء، فانتزعها من القابضين عليها وردَّها إلى مال المسلمين، لتوزيعها بالمساواة، وقال : "إنَّ في العدل سَعة، ومَن ضاق عليه العَدل فالجَور عليه أضيَق".
- عاد إلى نَهج أبي بَكر الصدِّيق في العَطاء من بيت المال؛ فقد كان الصدِّيق يُعطي الجميعَ بالسويَّة، دون تَفريق بين مَن سَبق إلى الإسلام،

ومَن جاء متأخرًا، فلمَّا ولي عُمر الخِلافةَ، نهج نهجًا آخر، فجعل للسَّابقين أكثرَ ممَّا يأخذ الذين تأخَّر إسلامُهم، وقال :"لا أجعل مَن قاتل رسولَ الله، كمن قاتل معه"، وكان الإمام علي ﷺ أميَل إلى نَهج أبي بكر، مفسِّرًا ذلك بأنَّ الدَّولة لا تُعطي النَّاسَ مثوبةَ دينهم، وثمَن إيمانهم؛ فمثوبة ذلك عند الله، وقال :"إنَّما نُعطيهم حاجتهم ليَعيشوا"، كما أنَّ التفاوت في العَطاء من شأنه أن يصنَع فُرصَ تراكم الثَّروات لدى بعض النَّاس، ممَّا يشكِّل مع الزَّمن فِتنة في الدِّين وفسادًا في الدنيا .

- أتى بيت المال، ليُخرج كلَّ ما فيه ويقسمه على مُستحقِّيه، حتى إذا فرَغ بيت المال من المال، أمر أن تُنضح أرضه وتُغسل بالماء، حتى إذا تمَّ ذلك قام فصلَّى فوق أرضه المغسولة ركعتين، فكانت هذه الصَّلاة رمزًا لمعنًى جليل، كانت إيذانًا بعهد جديد تُسيطر فيه الآخرة على الدنيا، وهو أهم سِمات الدَّولة الدينية .
- كان أسلوبه في تَحصيل الضَّرائب المفروضة على النَّاس هو أن النَّظر في عمارة الأرض أبلغ من النَّظر في استِجلاب الضريبة، فكان يكتب إلى واليه :"تفقَّدْ أمر الخَراج بما يصلح أهله؛ فإنَّ في صلاحه وصلاحهم صلاحًا لمن سواهم، وليكن نظَرُك في عمارة الأرض أبلَغ من نظرك في استِجلاب الخَراج، فمَن جلَب الخراج بغير عمارة فقد أخرب البلاد وأهلك العباد" .

٣– الرِّفق بالرعية:

وعلى نَفس النَّهج فرض الإمام علي ﷺ على كلِّ والٍ من ولاته الرِّفق بالرعيَّة؛ فلا إرهاق، ولا استغلال.

ومن وصاياه لولاته :

- **"أنصفوا النَّاسَ من أنفسكم، واصبروا لحوائجهم؛ فإنكم خُزَّان الرعية".**
- **لا تحسموا أحدًا عن حاجته، ولا تحبسوه عن طلبه، ولا تبيعُنَّ للنَّاس من الخراج كسوة شتاء ولا صيف، ولا دابَّة يعتملون عليها ولا عبدًا، ولا تضرِبُنَّ أحدًا لمكان درهم" .**
- **ومن وصاياه في أسلوب تحصيل الخراج والصدقات :"امض إليهم بالسَّكينة والوقار، حتى تقوم بينهم، فتُسلِّم عليهم ثمَّ تقول :عبادَ الله، أرسَلَني إليكم عبدُ الله وخليفته، لآخذ منكم حقَّ الله في أموالكم، فهل لله في أموالكم حقٌّ فتؤدونه إلى وليِّه؟ فإن قال قائل : لا، فلا تراجِعْه، وإن أنعم لك مُنعِم فانطلق معه، ولا تُخِفْ أحدًا، ولا تُعسف بأحد أو تُرهقه" .**

٤– نقل عاصمة الخِلافة إلى الكوفة:

نقل الإمام علي ﷺ عاصِمةَ الخِلافة من المدينة إلى الكُوفة، فكان أوَّل مَن خرج بالعاصمة من المدينة إلى أرضٍ غير أرض الحِجاز، وهو سليلُ الحجازيين، وقد اختار الكوفةَ، فكانت أوفَق عاصِمة؛ لأنَّها كانت مُلتقى الشعوب من جميع الأجناس، وكانت مِحورَ التجارة بين الهِند وفارس، والعراق والشَّام، وكانت كذلك العاصِمة الثقافيَّة التي ترعرعَت فيها مَدارس الكتابة واللغة والأنساب، فكانت أليق العواصم في ذلك العصر .

٥– السياسة الخارجية:

انقضَت أيام الإمام علي ﷺ وليس للحكومة الإسلاميَّة سياسة خارجيَّة، تحسب من سياسة الفتوح، أو سياسة المقاومة والاستطلاع .

كل ما كان يدور، هو مِن قَبيل سياسة الحُكم بينه وبين رعاياه "السياسة الداخليَّة" كما نسمِّيها في عصرنا الحديث؛ فقد كان هناك الكثير من الفِتن والاضطرابات التي حالت بينه وبين أي فُتوحات خارجيَّة .

فقد شاء القدَر أن يجعله فدية الخِلافة الدينية، ونضالها الأخير مع الدَّولة الدنيوية .

* * * * * * * * * * *

الفتن من كل حدب وصوب

لما بويع الإمام علي ﷺ بالخِلافة، كانت هذه البيعة إيذانًا بانقِسام الحلقة بين النِّدَّين – الخِلافة والملك – للصِّراع الأخير .

ولم يكن لهذا الصِّراع المحتوم غاية، غير انتهاء الخِلافة أو انتهاء الملك؛ فأما انتهاء الملك في بدايته فقد كان بعيدًا بل كان عسيرًا في تلك الآونة، كما يعسر انطفاء النار وهي تهب للاشتعال، وأما انتهاء الخِلافة فهو الذي كان، وهو الذي كان مَنظورًا أن يكون .

وقد نظر رسول الله ﷺ بعَين الغيب إلى هذا المصير فقال : «**الخِلافة ثلاثون عامًا، ثمَّ يكون بعد ذلك الملك**».

فبعد ما قام به الإمام علي ﷺ من سياسات جَديدة؛ من عَزل للولاة، وسياسات اقتصاديَّة وغيرها، فهذه السياسات أغضبَت منافسيه، وطالبي المنفعة الدنيوية ... ومن هنا بدأَت الفِتنُ والخلافات تهبُّ على الإمام من كلِّ حَدَب وصَوْب، في موج كالجبال ...

ولا ننسى في معرض حديثنا عن الفِتن، ما أسلفنا ذِكرَه عن محرِّكي هذه الفِتن "عبد الله بن سبأ" وأعوانه، وقد ساعدتهم الأحداثُ وتبعاتها، بأن يشعِلوا هذه الفِتن كما بدؤوها، وسنرى ذلك جليًّا فيما سيلي مِن أحداث .

فتنة خلاف معاوية

كانت أوَّل الفِتن التي هبَّت على الإمام ﷺ هي فِتنة الخِلاف مع مُعاوية بن أبي سفيان؛ فقد امتنع عن بَيعة الإمام، واحتجَّ على خِلافته لظنِّه أنَّه تهاون في نُصرة عثمان على قاتليه، ومعاوية يرى لنفسه حقًّا في القِصاص من قَتَلة عثمان؛ لأنَّه وليُّه .

ولما قرَّر الإمام عزلَه، رفض هذا القرار، ومنع سهلَ بن حُنيف – الذي عيَّنه الخليفة واليًا على الشَّام – من دخول الشَّام .

فكتب الإمامُ علي ﷺ إلى مُعاوية رسالة يقول فيها :"أمَّا بعد؛ فقد بلَغَك الذي كان من مُصاب عثمان، واجتماع المسلمين علَيَّ ومبايعتهم لي، فادخل في السلم أو ائذن بحرب"، كان يرجو أن تروع هذه الكلمات معاوية ويجنح للسلم ...ولكن رد معاوية كان عجيبًا!

فبعد أن ردَّ رسول الخليفة، أرسل رسالة مع رجل من بني عبس، وهي عبارة عن ورَقة طويلة، وليس بها إلَّا هذه العبارة :

–"من مُعاوية بن أبي سفيان إلى علي بن أبي طالب"، وطلب من رسوله أن يرفعها إذا قدم إلى المدينة، لِيُعلم النَّاس أنَّه مخالِف، وقد فعل الرَّجل ما أمر به، وهنا لم يجِد الإمام فرارًا من مواجهة معاوية .

ولكن الفتن لم تقِف عند هذا الحدِّ؛ فقد كانت هناك فِتن أدهى وأمَرُّ تنتظره ...

فِتنة خِلاف عائشة وطلحة والزبير

وبينما يتجهَّز الإمام لملاقاة مُعاوية؛ إذ جاءه خبر لم يكن في حِسابه، وهو خلافُ طَلحة والزُّبير وأم المؤمنين عائشة، وأنَّهم قصدوا البصرةَ على رأس حَشد كبير من المسلمين ليحرِّضوا النَّاس بالعراق على الثأر من قتَلَة عثمان.

وكان رأيهم أنَّ أول الواجبات في هذا الوقت هو تتبُّع قتَلة عثمان والقصاص منهم، بينما يرى الإمام أنَّه لا بد من استقرار أوضاع الدَّولة أولاً، ويترك الأمر للحاكم ليسوي هذه المسألة ...

ولكنها الفِتن التي كُتب على الإمام أن يواجهها، ودار في خَلده ما هو مَصير هذه الأمَّة إذا وقف فريق يطالب بدم عثمان، وفريق آخر يدحض

ويقاوم هؤلاء المطالبين؟ !إنَّها الحرب الأهليَّة إذًا، فاتخذ قرارَه أن يلوي زِمامَه شطر البصرة، بدلاً من الشَّام ليواجه هذه الفتنة المستجدة .

في البصرة

وسرعان ما تحقَّقت ظنون الإمام عليؓ ، فلم يكد مَوكب السيدة عائشة يستقرُّ في البصرة، حتى وقَع صِدام بينه وبين حُشود كَبيرة من أهل البصرة، أبَوا أن يُسلِّموا أقرباءهم وذويهم ممن اشتركوا في مَقتل عثمان، ودخلوا في جِدال مع طَلحة والزُّبير وأمِّ المؤمنين عائشة، واحتدَّ النِّقاش حتى إنَّ جارية بن قدامة السعدي قال للسيدة عائشة :"يا أمَّ المؤمنين، واللهِ لَقتل عثمان أهوَن من خُروجِك من بيتك على هذا الجمل عرضة للسِّلاح"، وانتهى الأمر بقيام مواجهات مسلَّحة بين الفريقين، قُتل فيها خلق كثير .

في الكوفة؛ مقالة أبي موسى الأشعري

عندما جاءت أنباء الصِّدام في البصرة، بعث الإمامُ إلى أهل الكوفة يدعوهم لنصرته، وكان رأيُ أبي موسى الأشعري – أمير الكُوفة – هو قعود النَّاس عن الفِتن، فلم يخرج أحد، فلمَّا بلغ ذلك الخبرُ الإمامَ عليًّا أرسَل إليه الحسَنَ بن علي وعمَّارَ بن ياسر، فقال له الحسَن : لِمَ تثبِّط النَّاسَ عنَّا؟ ! فواللهِ ما أرَدْنا إلَّا الإصلاح، ولا مثل أمير المؤمنين يُخاف على شيء، قال أبو موسي :صدقتَ واللهِ يا ابن أخي، ولكن المستشار مؤتمَن؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول :« **إنَّها ستكون الفِتنة، النَّائم فيها خيرٌ من اليقظان، واليقظان خير من القاعد، والقاعد خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خيرٌ من الراكب، والراكب خير من السَّاعي إليها** »، وقد جعلَنا الله إخوانًا، وقد حرَّم علينا دماءنا وأموالَنا.

وهنا كَثر الجدال بين النَّاس؛ فمِن محرِّضٍ على الخروج مع أمير المؤمنين،

ومن مثبِّطٍ عنه، فقام القعقاع بن عمرو وقال :"يا أهلَ الكوفة، إنِّي لكم ناصح، وعليكم شفيق، ولأقولنَّ قولاً هو الحق؛ أمَّا ما قال الأمير (أبو موسى) فهو الحق ولكن لا سبيل إليه، إنه لا بدَّ من إمارةٍ تُنظم النَّاس، وتزَعُ الظالم، وتعزُّ المظلوم، وهذا أمير المؤمنين ولي بما ولي، وقد أنصف في الدُّعاء، يدعو إلى الإصلاح، فانفروا وكونوا له ناصرين..."، وقال الحسن بن علي : "أجيبوا دعوةَ أميركم، وسيروا إلى إخوانكم، وأعينونا على ما ابتُلينا به وابتليتم".

فأثَّر هذا القول في أهل الكوفة، ورضوا بالخروج، فلمَّا وفدوا على الإمام زَلزلوا الأفق بصياحهم، وراحوا يعجلون الإمام ليواجِهَ بهم جيشَ البصرة .

حكمة الإمام ودعوة إلى السَّلام

ووسط هذا الحماس وهذا الحشد تجلَّت فِطنة الإمام، فلقد استبان مِن حَماس أهل الكوفة، أنَّهم كانوا على وَشك أن يَخرجوا بأنفسهم مسلَّحين إلى البصرة، لينضمُّوا إلى المقاومة المسلَّحة التي هبَّت هناك ضد طلحة والزُّبير؛ فقد كان مِن أهل الكُوفة، كما كان من أهل البصرة مَن اشترك في مَقتل عثمان، وتتجلَّى حِكمة الإمام، فأراد أن يهدِّئ من حَماس أهل الكوفة ويهديهم السبيل، ويعلمهم أنَّ الحقَّ يدرَك بطرق كثيرة آخرها المواجهة المسلحة .

رسالة سلام

هنا دعا الإمامُ علي ﷺ القعقاعَ بن عمرو، وأرسله برسالة سَلام إلى أمِّ المؤمنين عائشة وطلحة والزُّبير، وفي البصرة يَجلس القَعقاع مع ثلاثتهم، ويبدأ حوارًا رقَّت له الأفئدة، ولانَت له العقول، بعد أن أقنعهم أنَّه لا سَبيل للثأر مِن قتَلَة عُثمان الآن، فلقد قَتلوا من أهل البصرة ستمائة مِن قتلة عثمان، فغضب لهم ستة آلاف، فازداد الأمر سوءًا، فقالت أم المؤمنين :وماذا ترى

يا قَعقاع؟ فقال :أرى أن تؤثِروا العاقبةَ، وتعطوا البيعةَ، وأن تكونوا مفاتيحَ الخير، كما كنتم دائمًا.

وانتهى الحوار بإقناعهم، واتفاقهم أن يجيء الإمام إلى البَصرة ليتمَّ لقاء صُلح وسلام، ولما عاد القَعقاع إلى الإمام وأنبأه بما كان، فرِح فرحًا شديدًا، وحمد اللهَ أن حُفظَت دماء المسلمين .

إني مرتحل غدًا

ووقَف الإمام علي ﷺ خَطيبًا في جنده، فحمد اللهَ وأثنى عليه، وذكَّرهم بأيَّام الجاهليَّة بخصوماتها وحروبها الضَّارية، حتى جاء الإسلام فألَّف بين النَّاس، وأصبحوا إخوانًا تحت إمرة رَسول الله ﷺ، ثمَّ تحت إمرة خَليفته مِن بعده، ثمَّ الذي يليه ثمَّ الذي يليه، ثمَّ حدَث هذا الحدَث، الذي جرَّه على الأمَّة أقوامٌ طلَبوا الدُّنيا وأرادوا للإسلام أن يتقهقَر، ولكنَّ الله بالِغ أمره، "ألا إنِّي مرتحِل غدًا فارتحِلوا، ولا يرتحلنَّ أحد أعان على قَتْل عثمان ولو بشطر كلمة".

ويرحل الإمام إلى البَصرة بمن معه، وحطوا رحالَهم هناك؛ حيث أخذ كلُّ فريق يتهيَّأ لإجراء الصلح .

عيون لا تنام ومؤامرات لا تغفو

لم يكن هذا الصُّلح والتقارب بين الصَّحب الكرام على هوى مَن أرادوا الأمَّةَ بسوء؛ فقد خطَّطوا للفِتن وأشعَلوا نارَها، بداية مِن التَّحريض على عثمان ثمَّ قَتله، ثمَّ الفِتن والشقة بين الصَّحب الكرام، وهكذا كانت تَسير الأمور على هواهم وكما هو مخطَّط له، أمَّا أن يأتي صُلح كهذا، فهو الطامَّة الكُبرى عليهم؛ لأنَّه إن تَمَّ سيكون ثَمنه هو رقابهم.

هنا تحرَّك رأس الفِتَن عبد الله بن سَبأ ومَن معه "السبئيُّون"، لما سمِعوا

مقالةَ الإمام علي ﷺ وتَشاوروا فيما بينهم، ماذا يفعلون لوَأدِ هذا الصلح؟ ! فقال لهم ابن سَبأ :يا قوم، إنَّ عزَّكم في خلطة النَّاس، فإذا التقى الفريقان غدًا فأنشِبوا القِتالَ بينهم ولا تفرغوهم للنظر، وبذاك ينشغِل النَّاس، ولا يَحدث ما تَكرهون يعني :(الصلح).

لقاء الأحبَّة وصلح لم يتم

ويبزغ فَجر اليوم الذي ضرب موعدًا لبدء المصالحة، ويلتقي الجيشان، ويرسِل الإمام عليٌّ إلى طلحة والزُّبير :إن كنتم على ما فارقتم عليه القَعقاع، فكفُّوا حتى نَنزِل وننظر في هذا الأمر، فأجابا .

ويدور بينهم الحِوار التالي، الذي هبَّت فيه نسَمات مِن زمَن رسول الله ﷺ، هبَّت عليهم لتُطفئ تلك النَّار، وتهدئ النُّفوس الغاضبة.

الإمام علي ﷺ : لعمري، لقد أعددتُما سلاحًا ورجالاً، إن كنتما أعددتما عند الله عذرًا، فاتَّقيا اللهَ ولا تكونا كالَّتي نقضَت غَزْلها من بعد قوَّة أنكاثًا، ألم أكن أخاكما في دينكما، تحرِّمان دَمي وأحرم دمكما؟ !فهل مِن حدَث أحلَّ لكما دَمي؟

طلحة :ألَّبْتَ على عُثمان . **الإمام :لعَن اللهُ قتَلَةَ عثمان، ما ألَّبتُ ولكنِّي دافعتُ عنه، واستطرد قائلاً لطلحة :أخبَّأتَ عِرْسَكَ في البيت وجئت بعِرْسِ رسول الله ﷺ تقاتِل بها؟!**

ثم التفت إلى الزُّبير وقال له :أتذكر يومَ كذا، عندما رأيتني مقبلاً على رسول الله ﷺ فضحِك فضحكتُ إليه، فقلتَ :لا يدَع ابنُ أبي طالب زَهْوَه، فقال لك :« **أتحبُّه يا زبير؟**»، فقلتَ :نعم، فقال لك : «**أما إنَّك لتقاتلنَّه وأنت ظالِم له**» .

قال الزُّبير :أجَل، لقد ذكَّرتني بما كنتُ قد نسيت.

ويتعانق الأصحاب، وقد ابتلَّت لِحاهم من شدَّة البُكاء، ويُلقون بسيوفهم، ويغادر طلحة والزُّبير وقد عَزما ألَّا يقاتِلا عليًّا بعدما سمعا منه، وبعد أن علِما أنَّ "عمار بن ياسر" في جَبهة علي، وتذكَّرا قولَ رسول الله ﷺ لعمَّار : «**تقتلك الفِئة الباغية**» .

ويعود عليٌّ إلى صفوف جُنوده فرِحًا بما وصلوا إليه من تفاهم ووقفٍ لنَزيف الدم.

تنفيذ المؤامرة

وهنا تبدأ المؤامرة التي دُبِّر لها بلَيل؛ فلم يمهِل القتَلةُ طلحةَ والزُّبير، فقد تربَّصَت بهما عصابة آثِمة وقتلَتهما، وخرج منهم نحو ألف رجل، من غير أن يَشعر بهم أحد، واقتَحَموا خيامَ جيش البصرة، وأعملوا فيهم سيوفَهم، وأشاعوا الفوضى والشَّائعات في المعسكَرين؛ ففي معسكر البصرة أشاعوا أنَّ عليًّا نقَض عهدَه، ولن يَهدأ حتى يسفِك الدِّماء، أمَّا في معسكر عليٍّ فأشاعوا أنَّ طلحة والزُّبير غير منتهيين حتى يسفِكا الدِّماء .

وينتهي الصُّلحُ قبل أن يبدأ، وينجح المتآمرون في أن تظلَّ نار الفتنة مشتعِلة بعد أن أوشكت على الانتهاء .

موقعة الجمل

ويحتدِم القِتال بين الفريقين، ولم يبقَ لجيش البصرة من قائديه أحَد؛ فلقد ذهب عنه طَلحة والزُّبير، ولم يقاتِل جيش البصرة إلَّا قليلاً حتى هُزم، هنالك لم يجد الرَّاغبون في استمرار القِتال سوى أم المؤمنين في هَوْدجها فوق الجمل الذي كانت تمتطيه مشرفة على القتال ...

ويستمرُّ القتالُ حول هَوْدج أم المؤمنين، وقد التفَّ حوله الكثير ممن ثارَت حميَّتهم العظمى لحرم رسول الله ﷺ، وأمسكوا بخِطام الجمل ومات دونه الكثير.

فطنة الإمام

ورأى الإمام علي ﷺ أنَّ خصومه قد اتَّخذوا من الجمل كَعبة أحاطوا بها، ورأى كثرةَ القَتلى بين المسلمين، ومع كلِّ رأس تميل وكل روح تزهق، بل مع كلِّ قطرة دم تسيل كان قلب الإمام ينخلع، وازداد خوفه وقلقه، لما رأى كَثرةَ السِّهام على هودج أم المؤمنين، فخشي أن تُصاب بأذًى، فكان الرأي بأن يعقر الجمل، ويرمي بسَهم يقضي عليه، فلو عُقر الجمل تفرَّقوا عنه، ويأمر الإمام بعضَ جنده وصحبه أن يكونوا على أقرب قرب مستطاع من الجمل، حتى إذا عُقر وسقَط، سارعوا إلى هودج أم المؤمنين فأحاطوه وتلقوه قبل أن يَسقط على الأرض فيصيبها سوء .

ونفِّذَت الخطَّةُ بنجاح، ولم يصِب أمَّ المؤمنين أي أذًى، وجاءها الإمامُ فقال لها :كيف أنتِ يا أمَّاه؟ فقالت :بخيرٍ، يغفر الله لك، فقال :ولكِ.

وانتهى القتال، ووقف نزيف الدم .

ثمَّ أمر الإمام أن تنزل أمُّ المؤمنين في دار أُعدَّت لاستقبالها لترتاح، حتى تتهيَّأ لها وسائل العودة إلى المدينة في أمن وسلام .

أوامر القائد وأخلاق الفارس

ثمَّ وقف الإمام وسط جنوده ليَتلو عليهم أوامرَه الجديدة، والتي تتجلَّى فيها أخلاق الفارس التي لم تفارقه أبدًا.

يقول الإمام لجنده :

- لا تتَّبعوا مدبرًا.
- لا تُجهزوا على جريح.
- لا تَنهبوا مالاً.

- من ألقى السِّلاحَ فهو آمِن .
- من أغلق عليه بابَه فهو آمن .

يقال :إنَّه كان أتباع الإمام يمرُّون بالذَّهب والفِضة، فلا يعرض لهما أحد، حتى قال أحدهم :كيف حَلَّ لنا قتالهم، ولم يحل لنا سَبيهم وأموالهم؟ فأجابه الإمام :ليس على الموحِّدين المؤمنين سبي ولا يغنم من أموالهم .

وبعث كلَّ ما كان من أسلاب إلى مسجد البصرة وقال :من عرف شيئًا فليأخذه .

الإمام يبكى أصحابه

وبعد انتهاء المعركة، طاف الإمام عليٌّ على القتلى، ولما أتى طَلحةَ قال باكيًا :لهفي عليك يا أبا محمد، إنَّا لله وإنا إليه راجعون، والله لقد كنتُ أكره أن أراك صريعًا، ولعل الله يجمعنا ونكون ممَّن قال فيهم اللهﷻ : {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} [الحجر: ٤٧].

وصلَّى الإمام على القتلى من أهل البَصرة والكوفة، وأذِن بدفنهم.

أبشِر يا قاتل ابن صفية بالنار

ويدخل الإمام البصرةَ ليبايعه أهلها، وولَّى عليها عبدَ الله بن العباس، وظلَّ الإمام بها عدَّة أيام...

وفي يومٍ وهو جالس مع أصحابه، دخل عليه أحد أتباعه يقول:

- "عمر بن جرموز"، قاتل الزُّبير بالباب يَستأذن في الدخول، فأذِن له الإمام، ودخل القاتِل مزهوًّا فخورًا، يظنُّ أنَّ الخليفة سيستقبله استقبالَ الأبطال، لكنَّه لم يكد يواجه الإمامَ حتى صرخ في وجهه: أهذا الذي تَحمله؟ سيف الزُّبير؟! قال: نعم هو، سلَبْتُه منه بعد أن قتلتُه، فأخذ الإمام منه

السيفَ، ثمَّ قبَّله في خشوع، وقال ودموعه تسيل على خدَّيه: سيفٌ طالما والله فرَّج به صاحبُه الكربَ عن رسول الله.

ثمَّ نظَر إلى القاتل وقال له: أمَّا أنت، فأبشِر يا قاتِلَ ابنِ صفيَّة بالنار... ويخرج الرجل متعجبًا ويقول: عجبًا لكم! نقتل أعداءكم، وتبشرونا بالنَّار.

أم المؤمنين تعود إلى المدينة

ولما استقرَّت الأمور جهَّز الإمام أمَّ المؤمنين عائشة، واختار معها أربعين امرأة من نِساء البصرة المعروفات، وسيَّر معها أخاها محمد بن أبي بكر.

فلمَّا كان اليوم الذي ستَرتحل فيه، اجتمع النَّاسُ إليها فقالت: يا بُني – تقصد الإمامَ عليًّا – لا يَعتِب بعضُنا على بعض، ثمَّ توجَّهَت بالحديث إلى النَّاس وقالت: والله ما كان بيني وبين علي في القديم، إلَّا ما يكون بين امرأة وأحمائها، وإنَّه على مَعتبَتي لمن الأخيار، فقال علي: صدقتِ والله ما بيني وبينها إلَّا ذلك، وإنَّها لزوجة نبيكم في الدُّنيا والآخرة.

وخرجَت أم المؤمنين من البصرة، فتوجَّهَت إلى مكَّةَ فحجَّت ثمَّ رجعت إلى المدينة.

ويرجع الإمام عليٌّ إلى الكوفة، التي جعلها مقَرًّا للخلافة – عاصِمة للخلافة كما أسلفنا – وقد دخلت جميعُ أقطار المسلمين في بيعته عدا الشَّام.

* * * * * * * * * * * *

موقعة صفِّين

وينتهي الإمام من فِتنة خِلاف طَلحة والزُّبير وأم المؤمنين عائشة، ولكن ما زالت هناك فِتنة أخرى، من مسلسل الفِتن التي تَعصف به، وهي فِتنة خصومة وخلاف معاوية.

فبعد محاولات الإمام لإقناع مُعاوية بالعدول عن مَوقفه – كما أسلفنا – كان لا بدَّ من المواجهة... وهي مواجهة ما أرادها أيٌّ من الطَّرفين ولا سعى لها... ولكنَّها الفِتَن التي كان لها القائمون عليها ممن يسعون على إشعالها واستمرارها.

هكذا كان قَدر الإمام علي ﷺ مواجهة تلك الفِتن، التي ما زالت تأتيه من كلِّ حدب وصوب؛ كما أسلفنا .

المسالمة والمهادنة

فبعد غَلبتِه في العراق، نظَر الإمام علي ﷺ فلم يجِد أمامَه خصمًا يقف في طريق الخِلافة إلَّا جيش معاوية بالشَّام، فعمد معه إلى خطَّته التي جرى عليها مع خصومه كافَّة حيث كانوا وكانت منزلتهم من الجاه والقوَّة؛ ألا وهي سياسة المسالمة والمهادنة، ومحاولة الإقناع لعلَّ الله يَحقِن الدِّماء .

فكتب الإمام إلى معاوية بعد مَوقعة الجمل – وقد سبقَتْه كتب كثيرة من المدينة – يدعوه فيها إلى بيعته، ولم شمل المسلمين، وكان رد معاوية، أنه لا بيعة قبل الثَّأر من قتَلَة عثمان، وظلَّ الوضع على هذا الحال ...ووفود المسلمين تَغدو وتروح بين الإمام في العِراق، ومعاوية في الشَّام بلا طائل، وأدرك الإمام بعد كلِّ هذه المحاولات أنَّه لا مفَر من المواجهة .

محاولات أخيرة لنزع فتيل الحرب

وزحف الإمام من الكوفة متوجهًا إلى الشَّام، ولما علم بذلك معاوية سار إليه، والتقى الجيشان في سَهل صفِّين – سهل على نَهر الفُرات شرقي حلَب –واستمرَّ الإمامُ على نهجه في المهادنة والمسالَمة، وفي محاولة أخيرة، أرسل رسلاً عدَّة إلى معاوية، وتستمرُّ الوفود ذَهابًا وإيابًا بلا عائد، حتى كان شهر محرم من سنة ٣٧ هجرية، فعقَد الطَّرَفان هدنةً مدَّتها شهر – شهر مُحرَّم، وهو من الأشهر الحُرم التي لا قِتالَ فيها – وفي أثناء تلك الهُدنة ظلَّت المراسلات والمفاوضات، بلا طائل، وانقضى شَهْر الهدنة لتبدأ المواجهة التي أصبح لا مفرَّ منها .

المواجهة وأخلاق الفارس

وقبل أن تبدأ المواجهة أوصى أميرُ المؤمنين جندَه فقال :

- **لا تُقاتلوهم حتى يقاتلوكم.**
- **فإن هزمتموهم، فلا تقتلوا مدبِرًا.**
- **ولا تجهزوا على جَريح.**
- **ولا تكشفوا عورة.**
- **ولا تمثلوا بقتيل.**
- **وإذا وصلتم لرِحال القوم، فلا تَهتكوا سِترًا.**
- **ولا تدخلوا دارًا.**
- **ولا تأخذوا من أموالهم شيئًا.**

– هكذا كانت أخلاق الفارس التي لازمَتْه في كلِّ وقت وحِين.

ويبدأ القِتال وتصاولوا في وقعات شتَّى، غامرَت بها طائفة مِن هنا وطائفة من هناك، وقلَّما اشتبك فيها الجيشان في وقعة جامعة، حتى كان يوم

العاشِر من صفر سنة ٣٧ هجرية؛ حيث دارت رحى الحرب بشدَّة على الطائفتين، وتقدَّم جيش الإمام، حتى قارب معاوية الذي قيل :إنَّه هَمَّ بالفرار، وأصبح جيش الشَّام والسَّآمةُ والملالُ على وجوههم .

فتنة التحكيم

لما أنهك القِتال جيشَ الشَّام، وبات النَّصر مؤكَّدًا لجيش الإمام، وما هي إلَّا ساعات ويتحقَّق النصر؛ إذ يُبتلي الإمام بفِتنة أُخرى من الفِتن التي لا تزال تَهطُل عليه في مَوج كالجبال من كلِّ حَدب وصوب؛ ألا إنها فِتنة التحكيم.

فلمَّا رأى معاوية وعمرو بن العاص أنَّ الهزيمة آتية لا مَحالة، وما وجدوه من جنودهم من يأس واستسلام – قال عمرو :ندعوهم إلى كِتاب الله ليكون حَكمًا بيننا وبينهم، فأمر معاوية برفع المصاحِف على الرماح، ومناديًا يقول :هذا كِتاب الله بيننا وبينكم، فمَن لثغور الشَّام بعد أهل الشَّام، ومَن لثغور العراق بعد أهل العراق؟

والتحكيم في تلك الظُّروف لا يُثير خلافًا في صفوف المنهزمين؛ بل سيعطيهم الأملَ وفرصةً لجمع صفوفهم وإعادة قوَّتهم، أمَّا في صفوف المنتصرين الذين لا يفصلهم عن النَّصر إلَّا ساعات؛ فإنَّه يثير خلافًا كبيرًا، وهو ما حدَث بالفعل بين صفوف جيش الإمام.

شق الصف والخدعة

فما كادت المصاحف تُرفع حتى نَشب الخِلاف في معسكر الإمام؛ ففريقٌ رأى الاستجابة لهذا الطَّلب والاحتكامَ لكتاب الله، وفريق رأى أنَّ ذلك خدعة ولا بدَّ من استكمال القتال، وكان هذا هو رأي الإمام، ولكنه اتَّبع رأي مخالفيه لكثرتهم.

ويبدأ التحكيم؛ يمثِّل معاويةَ "عمرو بن العاص"، ويمثِّل الإمامَ "أبو موسى الأشعري"، ويستمرُّ النِّقاشُ والجِدال بين الحَكَمَين، وينتهي التَّحكيم دون الوصول إلى حَلٍّ للأزمة؛ بل زادها تَعقيدًا، خاصَّة في مُعسكر الإمام؛ فقد اتَّفقا على خَلْع كلٍّ مِن علي ومعاوية، ولم يتَّفقا على مَن يخلفهما .

وقام أبو موسى ليعلن خلعهما معًا، وتختار الأمَّة خليفةً جديدًا، أمَّا عمرو فقام وقال :إنَّ أبا موسى قد خلَع صاحبَه كما رأيتم، وإنِّي أخلعه معه وأثبِّت معاوية، فهو أمير المؤمنين، والمطالب بدَم عثمان فبايِعوه ...وثار أبو موسى لهذه الخدعة، وانتهى التَّحكيم بدون جدوى، ليعود الخلافُ إلى ما كان عليه، ويعود الإمام إلى الكوفة لإعادة ترتيب أوضاعه .

فتنة الخوارج

وقرَّر الإمام العودةَ إلى القتال، ولكنَّ هناك فتنة أخرى، أو قُل :مِحنة أخرى، استشرَتْ في صفوف جنوده، ألا وهي فِتنة الخوارج ...لك الله يا أبا الحسَن!!

فبعد خدعة التحكيم مزَّق الخلافُ أصحابَ الإمام، وتحوَّلوا إلى شِيَع يقاتِل بعضهم بعضًا، فغير الفريقين المؤيِّد والمعارض للتحكيم، ظهر فَريق آخر وهم الخوارج، الذين رأوا أنَّ التحكيم نَقضٌ لدِين الله، وأقرُّوا بكفر كلٍّ مِن علي ومعاوية؛ ليس ذلك فحسب، بل حملوا السِّلاحَ ضد أمير المؤمنين، وانطلقوا هائمين في البلاد والقرى يقتلون كلَّ مَن خالفهم الرَّأي، وجاءت الأخبار إلى الإمام، وأرسل النَّاس مِن كلِّ مكان يستغيثون به، ويتوسَّلون إليه ألَّا يذهب إلى الشَّام قبل أن يؤمنهم من هذا الوَباء .

فقرَّر الإمام قِتالَهم، وكعادته أبى قتالَهم حتى ييئس مِن توبتهم، ولقيهم بجنوده، فآثر أن يَلقاهم مناقشًا قبل أن يلقاهم مقاتِلاً.

ولم تنجح الحجَج ولا النِّقاش، وأصرُّوا على تَكفير الإمام وأصحابه، وأن

يعامِلوهم في الحرب والسِّلم معاملة الكفَّار، واستبقى الإمام بعد هذا كله بقيَّة للسلم والمراجعة، فرفع في السَّاحة رايةً، ونادى :مَن جاء تحت الرَّاية فهو آمِن، ومَن لم يقاتِل فهو آمِن، ومن انصرف إلى الكوفة فهو آمِن، فخرج عدد كبير مسالمين، وبقي نَحو ألفين – من أصل ثمانية آلاف – أصرُّوا على القِتال، فقاتَلَهم الإمام، ولم يلبثوا إلَّا ساعة، حتى قُتل معظمهم، ولاذ الباقي بالفِرار .

هدنة مع معاوية

ولما هَمَّ أمير المؤمنين بالمسير إلى الشَّام ليلقى جيشَ معاوية، لم يجد حولَه من الرجال مَن يعاونه؛ فقد تَسلَّل الجُند من معسكرهم، حتى قال قائل منهم :"يا أمير المؤمنين، نَفِدَت نبالُنا وكلَّت سيوفنا، فارجع بنا إلى مقرِّنا لنستعدَّ بأحسن عدَّتنا"، وأيقن الإمام أنَّ القوم مارِقون من يده، ولا طاعة له عليهم إذا دعاهم للقتال .

أمَّا معاوية، فقد علا نَجمه وأعانَتْه الظُّروف والحوادث، وأعانه الخوارج غير عامدين، واستمرَّ هو في إنفاذ البعوث والسَّرايا إلى كلِّ مَوقع آنس منه غرَّة، فلم تنقضِ سنتان حتى كانت معه مِصر والحجاز واليمن وغيرها من البلدان، وبقي الإمام في الكُوفة، ولم يَعد متمسِّكًا ببيعته إلَّا العِراق وما والاها، وكلها نار وخِلافات، فَريق من شيعته، وآخرون خوارج لا يريدون عليًّا ولا معاوية، وفريق منافِق يظهر طاعتَه للإمام ويخفي عداءه، حتى مَلَّهم الإمام وسئِم إمارته عليهم.

وانتهى الأمر بقَبول المهادنَة بينه وبين مُعاوية، على أن يكون له العِراق، ولمعاوية الشَّام ...ولا نزاع، ولا قِتال، ولا دماء تَسيل، ولا أرواح تزهق ...

* * * * * * * * * *

الفصل الأخير من حياة الإمام

الآن وبعد سنوات طويلة من الجِهاد، والمواجهة والمؤامرات، وكل أنواع المِحن والفِتن، والخلاف المستعصي – آن لهذا الجسد أن يَستريح، وهذه الرُّوح الطَّاهرة أن تَصعد إلى بارئها مع النَّبيِّين والصدِّيقين والشهداء .

الفوز بالشهادة

وتتحقَّق نبوءة رسول الله ﷺ للإمام بالفوز بالشَّهادة؛ فقد اجتمع ثلاثة من غُلاة الخوارج وهم :عبد الرحمن بن ملجم، والبرك بن عبد الله، وعمرو بن بكر، فتذاكروا القتلى من فريقهم، والقتلى من المسلمين عامَّة، وألقوا وِزرَ هذه الدِّماء على ثلاثةٍ وهم :علي بن أبي طالب، ومُعاوية بن أبي سُفيان، وعمرو بن العاص، فقرَّروا الخلاصَ منهم.

فقال ابن مُلجِم :أنا أكفيكم عليَّ بن أبي طالب .
وقال البرك :أنا أكفيكم معاويةَ بن أبي سفيان .
وقال عمرو بن بكر :أنا أكفيكم عمرَو بن العاص .

حافز الغرام

وكان للمتآمرين الثَّلاثة حافِزٌ وافٍ من الثَّأر، يُغني عن مزيد من التحريض على القَتل والانتقام، وشاءت الأقدارُ أن تشحذ عزيمةَ ابن ملجم بحافِز آخَر غير الثَّأر لإخوانه، وهو "حافز الغرام" الذي لا يرويه إلَّا دَم ذلك الشهيد الكريم.

فقد كان ابن مُلجم يُحبُّ فتاةً من تَيْم، قُتل أبوها وأخوها وبعضُ أقاربها في معركة الخوارج، وكانت توصف بالجمال الفائق، والشكيمة القويَّة، فلمَّا

خطبها ابن ملجم، لم ترضَ به زوجا إلَّا أن يَشفي لوعتها، قال لها :وما يشفيكِ؟ قالت :ثلاثة آلاف دِرهم، وعبد، وقينة (جارية مغنية)، وقَتْل عليٍّ بن أبي طالب، فقال :أمَّا قتل علي فلا أراكِ ذكرتيه لي وأنت تريدينني، قالت :بل التمس غرَّتَه؛ فإن أصبتَ شفيت نفسك ونفسي ويهنأ لك العيش معي، وإن قُتلت فما عند الله خيرٌ من الدُّنيا وزينة أهلها، ثمَّ أضافت له مساعدًا من قومها.

تنفيذ المؤامرة

وخرَج الثلاثة متواعدين في لَيلة واحدة، يَقتل كلٌّ منهم صاحبَه في ذلك الموعد .

فأمَّا عمرو بن العاص في مِصر فقد اشتكى بطنَه تلك اللَّيلة فلم يَخرج من بيته، وأمر خارجةَ بن حذافة صاحب شرطته أن يصلِّي بالناس، فضربه عمرو بن بكر وهو يحسبه عمرًا، فقتله وقبض عليه وأمر بقتله .

أمَّا معاوية في الشَّام، فضربه البرك بن عبد الله، فوقعَت الضَّربة على إليته ولم يَمت، فأمر به معاوية فقُتل .

أمَّا عبد الرحمن بن ملجم فقصد الكوفةَ، وانتظر أميرَ المؤمنين وهو خارج لصلاة الفجر، وبعد أن عبَر شوارعَها وهو يوقِظ النَّاسَ للصلاة، ولما اقترب من باب المسجد، ضربه ابن ملجم في قرنه بالسَّيف المسموم وهو يقول : الحُكم لله، لا لك يا علي، ولا لأصحابك، ففزع الذين كانوا بالمسجد، وشدَّ عليه النَّاس وأخذوه.

الإمام والقدوة

حدثَت هذه الفاجِعة في ليلة الجمعة ١٥ رمضان سنة ٤٠ هجرية، ويُحمل الإمام إلى داره، ويأمر حامليه والحافِّين حولَه أن يذهبوا إلى المسجد

ليدركوا الصَّلاةَ، وحين يفرغون من الصَّلاة، ويعودون إليه ممسكين بالقاتِل، يفتح عينيه فتقعان عليه، فيهزُّ رأسَه حين يعرفه ويقول :أهو أنت؟ لطالما أحسنتُ إليك!

البطل وأخلاق الفارس

ويُلقي البطَل العظيم على وجوه بَنيه وأصحابه نظرة، فيراها تتفجَّر غيظًا، ويحسُّ بَرْدَ الموت يَسري في أوصاله، ويكاد يرى المصيرَ الذي سيَحيق بقاتله، والانتقامَ المروِّع الذي سيثأر به أولاده وأصحابه، هنا تظهر عظَمة البطَل الفارس، فنادى بنيه وعلى رأسهم الحسَن وقال لهم :

- **أحسِنوا نُزله.**
- **وأكرموا مثواه.**
- **فإن أعِش، فإنِّي أولى بدَمه قِصاصًا أو عفوًا.**
- **وإن أمُت فألحِقوه بي، أُخاصِمْه عند ربِّ العالمين.**
- **ولا تَقتلوا بي سواه، إنَّ الله لا يحبُّ المعتدين .**

الوصايا الأخيرة

ثمَّ راح يُملي على بنيه وصاياه :

- **أوصيكم بتقوى الله، ولا تموتنَّ إلَّا وأنتم مسلمون .**
- **اللهَ اللهَ في القرآن، لا يسبقنَّكم إلى العمل به سابق.**
- **لا تخافُنَّ في الله لومةَ لائم.**
- **لا تَدَعوا الأمرَ بالمعروف والنَّهيَ عن المنكر.**
- **كونوا للظَّالم خُصماءَ، وللمظلوم ناصرين.**

ثمَّ لم يزَل يذكر اللهَ حتى فاضت روحُه إلى بارئها، فغسَّله ولداه الحسَن والحُسَين وابن أخيه عبد الله بن جعفر، وصلَّى عليه ابنُه الحَسَن.

وهكذا آب المسافِر إلى وطنه وعاد إلى مَنزله، ورحل الإمام عن الدنيا ... لكنَّ حياته التي عاشها تحوَّلت إلى شَمس تضيء بنورها ظلامَ الضَّلالة والبغي، وتجذب إلى مدارها قِيَم الحقِّ والبطولة والإيمان والخير والشَّرف ... فهو الراحل المقيم.

رحمة الله وبركاته عليك يا أبا الحسن

* * * * * * * * *

الحسن بن علي

لما استُشهد الإمام عليﷺ ، بايَع أهلُ الكوفة ابنَه الحسَنَ، ولما بويع وكان أبوه قد جهَّز جيشًا لحرب أهل الشَّام، فأمر بخروج هذا الجيش، ليتمِّم ما قد عزَم عليه أبوه .

لعلَّ الله يصلح به بين طائفتين من المؤمنين

وليحقِّق الله ﷻ للحسَن ما أخبره به رسول الله ﷺ حين قال: «**إنَّ ابني هذا سيِّد، ولعلَّ الله يصلِح به بين طائفتين من المؤمنين**»، فقد ألهمه الله سبحانه الرُّشدَ، فنظر إلى بَيعته فرآها ليست كبيعة أبيه، ورأى أنَّ جند العراق لا تقوم بهم دولة؛ وذلك لما بينهم من شِقاق ونزاع.

فراسَل معاويةَ بنَ أبي سفيان أن يبذل له الصُّلح، ويشترط عليه شروطًا، فأرسل معاوية بصَكٍّ مختوم، ليس فيه كِتابة، وطلب من الحسَن أن يشترط لنفسه ما يشاء.

فكتب الحسَن فيه شروطًا، أهمها: تأمين جيشه وشيعة علي كلهم، فقبِلَها معاوية، وقدم إلى العراق فقابله الحسَن وبايعه بالخِلافة.

لتتحقَّق نبوءةُ رسول الله ﷺ بصُلح وصلاح الأمَّة على يَد السيِّد ابن السيد الحسَن بن عليﷺ.

وبهذا تَنقضي فَترة الفِتَن التي دامت عشر سنين، لو كانت في أمَّة أخرى لهدمَت أركانها، ولكنَّ الله سبحانه نظَر إلى دينه القويم بعين عِنايته، فألَّف كلمة أهله وحفظه كما وعد .

* * * * * * * * * * * * *

تلك أمة قد خلت

والآن عَزيزي القارئ، وقبل أن نَترك تلك الحقبة الهامَّة من تاريخ الإسلام، وهي حِقبة الخِلافة الراشدة، وما عصف بها مِن فِتن في آخر عَشر سنوات، نريد أن نسلِّط الضوء على عدَّة أمور هامَّة :

أولاً : أنَّ صَحابة رسول الله ﷺ كلهم عُدول، وأنَّهم ما كانوا يَطمعون في حُطام الدنيا، ولم يتَّبعوا الهوى، إنَّما أرادوا جميعًا وجهَ الله، ونصرةَ دينه، وأنَّهم اختلفوا في الرَّأي واجتهدوا؛ فمنهم من اجتهد وأصاب، ومنهم من اجتهد وأخطأ، ولكلٍّ منهم أجر الاجتهاد، أمَّا مَن اجتهد وأصاب فله أجران؛ كما أخبرنا رسول الله ﷺ.

ثانيًا : لوحِظ في الآونة الأخيرة اختلاف النَّاس على صَحابة رسول الله ﷺ؛ فهذا فريق يؤيِّد هذا الصَّحابي، وذاك فريق يعارِضه، ولوحظ أيضًا تحامُل قد يصِل إلى حدِّ التطاول على صَحابة رسول الله ﷺ.

ونسي هؤلاء أنَّهم يتحدَّثون عمَّن قال فيهم رسول الله ﷺ : «**لا تسبُّوا أصحابي، فلو أنَّ أحدكم أنفَق مثلَ أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ** – أي :مِلء الكفِّ – **أحدهم أو نَصفيه**».

ثالثًا : ما الفائدة التي ستعود الآن على الأمَّة من هذا الشِّقاق والخِلاف، والخوض في أحداثٍ قد مَرَّ عليها أكثرُ من ١٤٠٠ عام؟ ونعلم أنَّ هناك كثيرًا من القصص قد دُسَّت، وحقائق قُلِبَت على يَدِ أناس قضَت عليهم ظروف زمانهم أن يَقلِبوا الحقائقَ ويَكذبوا على الله.

فالأَولى بنا هذه الأيامَ والأمَّةُ تواجه ما لا يَخفى على أحد من تحدِّيات جِسام، أن نَشغَل أنفسَنا بمواجهة هذه التحدِّيات، وتحسين أحوال الأمَّة

والنُّهوض بها، والتقرُّب إلى الله، وأن نحمد اللهَ أن نجَّانا من تِلكم الفِتَن – التي طالت الصَّحابة – نجَّانا منها بأجسادنا، فلِم نخوض فيها بألسنتنا وأقلامنا اليوم؟

ولنذكر جميعًا قولَهﷻ : {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [البقرة: ١٣٤].

الفتن لا تزال تعصف بالأمَّة

فإن كان "عبد الله بن سبأ" قد مات؛ فإنَّ هناك الآلاف بل الملايين ممَّن يَعملون بعمله وينتهجون نهجَه اليوم في إثارة الفِتَن والقلاقل بين المسلمين هنا وهناك، والأمر لا يحتاج كثيرًا من البحث...

انظر حولك، لترى الأمَّةَ وقد تمزَّقَت وتفرَّقَت شيعًا وأحزابًا، وجماعات، وفصائل، وتنظيمات، وأسماء لا حَصر لها ما أنزل الله بها من سلطان، ولا هَمَّ لهذه الفِرق المتناحرة سوى الاقتِتال فيما بينهم، فالقاتل والمقتول من أمَّة محمد ﷺ؛ وهو الأمر الذي تدمى له القلوب... ألا من ناصح لهذه الأمَّة؟! فلِم الاختلاف؟ وعلى ماذا الاقتتال؟! رُحماك يا ألله...

تعالوا إلى كلمة سواء بيننا

يقول الله تعالى معلِّمًا حبيبَه ﷺ وأمَّتَه معه: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} [آل عمران: ٦٤]، فإذا كان هذا ما أمرنا به الله في حوارنا مع أهل الكِتاب، فلماذا لا نقول وعلى نَفس المنهاج، وبنفس القياس: يا أحبابَ رسول الله ﷺ، يا أتباعَ رسول الله ﷺ، يا أبناء

الدِّين الواحِد، تعالَوا إلى كَلمة سواء بيننا وبين بعضنا البعض؟!

وكنَّا قد أجرينا بحثًا متواضعًا عن نِقاط الخِلاف ونِقاط الاتفاق بين المسلمين كافَّة، وخلصنا إلى أنَّ هناك أكثر من٩٥ % متّفق عليه بين المسلمين، فالله واحد، والكِتاب واحد، والنَّبي واحد، والقِبلة واحدة، والصَّلاة واحدة، والصوم واحد... كل ذلك وأكثر بين بعضنا البعض.

أمَّا نِقاط الاختلاف فهي أقل من ٥ %، فما يَجمعنا أكثر بكثير ممَّا يفرِّقنا.

أما آنَ لهذه الأمَّة أن تُفيق من سُباتها، وأن ننبذ تلك الخِلافات، وأن نَجتمع على كلمة سواء بيننا، وتتوحَّد هذه الأمَّة؟!

فالتحدِّيات التي تواجِهها اليوم كَبيرة وخطيرة، قد تأكل الأخضرَ واليابس!

ألا قد بلَّغت؟ اللهمَّ فاشهد.

* * * * * * * * * *

طلحة بن عُبيد الله

ما زِلنا عزيزي القارئ نستمتِع بصُحبة العشرة المبشَّرين بالجنَّة من صَحابة رسول الله ﷺ.

فدعونا نَستقبل صحابيًّا هو من العشرة المبشَّرين بالجنَّة، وأحد الثَّمانية الذين سبَقوا إلى الإسلام، وأحد الخمسة الذين أسلَموا على يَد أبي بكر، وأحد الستَّة أهل الشُّورى...

فمرحبًا بالشهيد الحَي... طلحة بن عُبيد الله التَّيمي القرشي.

نشأته:

نشَأ طَلْحة رضي الله عنه بين والِده عُبيد الله وهو من أشراف مكَّة، وأمِّه الصعبة بنت الحضرمي، وهي من عائلة مَشهودٍ لها بحبِّ العطاء والكرم، ترعرع شبابه، وتعلَّم على يديهما الكثير من الأخلاق الحميدة، حتى إذا بلَغ مبلغ الرِّجال تزوَّج من حَمْنةَ بنت جحش – أخت زينبَ بنت جحش زوجة رسول الله ﷺ – تعلَّم الرِّمايةَ بالسهم، والإصابةَ بالرُّمح، واشتغل بالتجارة، وعُرف بأنَّه تاجر صَدوق وبائع سَمْح .

إسلامه:

إياك أن تسبق إليه يا فتى!

خرَج طلحة رضي الله عنه إلى بُصْرى (مدينة بالشَّام) مع قافلة مِن قوافل قريش للتجارة، ورغم حَداثة سِنِّه (١٥ سنة) كان يملِك حدَّة الذَّكاء ونفاذ البصيرة .

وبينما هُم بأسواق بصرى يبيعون ويَشترون، إذا راهِب ينادي في النَّاس :

يا معشرَ التجَّار، أمِنكم أحد من أهل الحرَم؟ فيجيبه طلحةﷺ وكان قريبًا منه وقال :نعم، أنا من أهل الحَرم، فقال الرَّاهب :يخرج من أرضكم آخِر الأنبياء، الذي تنبأ به الأنبياء الصَّالحون، فهذا زمانه، فإيَّاك أن تُسبق إليه يا فتى !

ويَمضي طَلحَةُ ﷺ إلى مكَّة يطوي الأرضَ طيًّا، وقد وقعَت مقالة هذا الرَّاهب في قلبه، ولما وصل مكَّةَ ألفى أهلها يتحدَّثون عن "محمد الأمين"، وعن الوحي الذي يأتيه، وسأل عن أبي بكر، فعلم أنَّه اتَّبع محمدًا ﷺ، فحدَّث طلحة نفسَه :محمد وأبو بكر؟ تاللهِ لا يجتمعان على ضَلالة أبدًا .

وأسرع طَلحة إلى دار أبي بَكر، ولم يَطل بينهما الحديث، فصحبه إلى رسول الله ﷺ، ليَشهد بين يدَي رسول الله ﷺ :أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله، وقد سُرَّ رسول الله ﷺ لَمَّا قَصَّ عليه قصَّةَ راهب بُصرى.

وهكذا كان طَلحة رابِع ثلاثة أسلَموا على يد أبي بكر ...وليكون مِن الأوَّلين الأولين ..السَّابقين السَّابقين .

اضطهاد قريش وإيذاؤها

ورغم مَكانَته بين قومه، وثَرائه الشَّديد، فقد أخَذ طلحة ﷺ حظَّه من اضطهاد قُريشٍ وأذاها، فما أن أعلن الفتى إسلامَه حتى اشتدَّ عليه قومُه لِيُثنوه عن دينه، ولكنهم وجدوه كالطَّود (الجبل) الرَّاسخ، فلمَّا يئسوا من إقناعه لجؤوا إلى تعذيبه.

وهاك بعضًا ممَّا تعرَّض له من تعذيب :

- روي أنَّهم كانوا يوثقون يدَيه إلى عُنُقه، ويُهرولون وراءه يَدفعونه في ظهره، ويضربونه على رأسه، ومن ورائهم أمُّه تحرِّضهم على ضربه والتنكيل به.

- روي أنَّ نوفل بن خويلد الملقَّب "بأسد قريش"، قام إلى طَلحة فأوثقه في حبل، وأوثق معه أبا بَكر الصدِّيق، وقرنهما معًا، وأسلمهما إلى سُفهاء مكَّة، ليذيقوهما أشدَّ العذاب؛ لذلك دُعي طَلحة وأبو بكر "بالقرينين" .

أعماله وأخلاقه

وظلَّت الأيام تَدور والأحداث تتلاحَق، ورفع الله عنه بلاءَ العَذاب والاضطهاد، وطلحة ﷺ يزداد بلاؤه في سَبيل الله ورسوله، وتعاظم بِرُّه بالإسلام والمسلمين.

- فهاجر إلى المدينة المنورة ليَنعم بصُحبة رسول الله ﷺ، بعيدًا عن أعين قريش وسطوتهم.
- شهِد مع رسول الله ﷺ المشاهِدَ كلَّها عدا بَدرٍ؛ فإنَّ رسول الله ﷺ كان قد ندَبه لمهمَّة خارج المدينة، ولما عاد إلى المدينة كانت المعركة قد انتهت، فآلم نفسَه أن تفوته أوَّل غزوة مع رسول الله ﷺ، بيد أنَّ رسول الله ﷺ طمأنه، وأنبأه أنَّ له المثوبة والأجر مثل مَن شهدها، بل قَسَم له من غَنائم المعركة مثل مَن شهدها.

- **ذلك يوم كله لطلحة:**

وفي يوم أُحُد، لما جاءت قُريش بكلِّ بأسها لتَثأر ليوم بدر، وبدأت المعركة، ودارت الدَّائرة على المشركين، ثمَّ لما رآهم المسلمون يَنسحبون وضعوا أسلحتَهم، ونزل الرُّماةُ عن مواقعهم ليَحوزوا نصيبَهم من الغنائم، رغم ما كان مِن أوامر رسول الله ﷺ لهم بعدم مغادرة أماكنهم مهما كان من

نَصْر أو هَزيمة.

ويمتلِك جيش قُريش زمامَ المعركة وتَدور الدَّائرةُ على المسلمين، ويحتدم العِراكُ حولَ رسول الله ﷺ، الذي أصبَح هدفًا للمشركين، فأبصر طلحة رضي الله عنه ذلك المشهدَ فهرع إلى رسول الله ﷺ، وهو لا يُبالي السُّيوفَ والرِّماح التي تَنهال على رسول الله ﷺ ومَن حولَه.

ولما وصَل إليه وجد حوله تِسعة نفَر من الأنصار، ومن المهاجِرين سعد بن أبي وقَّاص فانضم إليهم طلحة ...

ويقاتِل الأنصارُ دِفاعًا عن رسول الله ﷺ حتى قُتلوا جميعًا، وبقي طلحة وسعد بن أبي وقَّاص، أمَّا سعد فأخذ يَرمي بالسِّهام، وأمَّا طَلحة فوقَف يصدُّ عن رسول الله ﷺ، يضرب بالسيف يمينًا ويسارًا، ويصدُّ عنه السِّهامَ ثمَّ يلتفت إلى رسول الله ﷺ فيَرْقَى به قليلاً في الجبَل، ثمَّ يعاود الكرَّةَ على الكفَّار، يضرب بيمينه ويصدُّ عن رسول الله ﷺ بيساره، وظلَّ هكذا يصدُّ عن رسول الله ﷺ وهو يصيح :نَحري دون نَحرِك يا رسول الله !وما زال كذلك حتى صدَّهم عنه، ويصِل أبو بكر وأبو عُبيدة بن الجرَّاح ليجدا رسولَ الله ﷺ على هذا الحال، فقال لهما رسول الله ﷺ« :**اترُكاني وأدرِكا أخاكما**»؛ يقصد طَلحة .

فذهبا إلى طلحة ليَجِداه قد سقط مغشيًّا عليه، وبه بِضع وتِسعون ضربة بسَيف أو طعنة برمح وقطع إصبعه، ولما أفاق من غشيته، لم يفكِّر في أيِّ شيء ممَّا أصابه من جراح أو آلام وقال :"ما فُعل برسول الله؟"، فعلم أنَّه ما زال حيًّا .

وينسى جراحه وآلامَه ويُهرَع إلى رسول الله ﷺ ليجده وقد أحاط به

عدد من الصَّحابة، ويبدأ رسول الله ﷺ في الانسِحاب، فلمَّا أراد أن يصعَد إلى صَخرة ولم يستطع، جلس طَلحة تحت رسول الله ﷺ – رغم ما به من جِراح – حتى استوى على الصَّخرة، وتكرَّر هذا المشهد عدَّة مرَّات، كلَّما أراد رسولُ الله ﷺ أن يَصعد، وفي إحداها اضطر أن يحمل رسولَ الله ﷺ، ولأنَّ العرج كان قد أصاب إحدى رجليه، تكلَّف استقامةَ المشي حتى لا يشقَّ على رسول الله ﷺ، أي :مشى مستقيمًا، رغم ما به من عرج وألَم حتى لا يُشعِر رسولَ الله ﷺ بأي ألم ...

وظلَّ هكذا حتى أصبح رسولُ الله ﷺ في مأمن عن أعيُن كفَّار قريش، وهكذا أوجب طَلحةُ في ذلك اليوم ...حتى إنَّ أبا بكر الصدِّيق كلَّما ذكَر يومَ أُحُد يقول :"ذلك يومٌ كلُّه لطلحة".

- **الشهيد الحي:**

ويمنَح رسول الله ﷺ طَلْحة بن عُبيد الله أرفَعَ وِسام يمكن أن يَحصل عليه إنسان .

يقول رسول الله ﷺ : «**مَن أحبَّ أن يَنظر إلى شَهيد يمشي على الأرض، فلينظر إلى طَلْحة بن عُبيد الله**» .

وفي رواية :«**مَن سرَّه أن ينظر إلى رجل يمشي على الأرض وقد قَضى نَحْبَه، فلينظر إلى طَلْحة بن عُبيد الله**» .

ولذلك أطلق عليه الصَّحابة لقبَ "الشهيد الحي"، وظلَّ طَلْحة رضي الله عنه مع رسول الله ﷺ، شَهِد معه المشاهدَ كلَّها، وهو دائمًا في مقدِّمة الصفوف يبتغي وجهَ الله، ويدافع عن راية رسول الله ﷺ .

سمع من رسول الله ﷺ ما لم نسمع

جاء رجلٌ إلى طَلْحة ﷺ فقال له :أرأيتَك هذا اليَماني – يقصد أبا هريرة –أعلم بحديث رسول الله ﷺ منكم؟ !فنسمع منه أشياءَ لا نسمعها منكم ...فكان رد طلحة، وهو الثَّري ذو المال والتجارة العريضة والجاه الرَّفيع، والحديث عن أبي هريرة الفقير الذي لا مال له ولا جاه ...يقول طَلْحة ردًّا على هذه المقالة :أمَّا أنَّه قد سمِع مِن رسول الله ﷺ فلا شك؛ فإنَّا كنَّا أهل بيوت وتجارة، وكنا إنَّما نأتي رسولَ الله ﷺ غدوة وعشيَّة، وكان مِسكينًا – يقصد أبا هريرة – لا مال له ولا تِجارة، فكان دائمًا على باب رسول الله ﷺ، فلا شكَّ أنَّه سمِع من رسول الله ﷺ ما لم نسمع.

فلعلَّنا نعي الدَّرسَ ونحسن الظنَّ دائمًا بإخواننا.

طَلحة الخير – طَلْحة الجود – طَلْحة الفياض

كان رسول الله ﷺ قد لَقَّب طَلْحةَ ﷺ بألقاب عدَّة، منها :طَلْحة الخير، طَلْحة الجود، طَلْحة الفياض، إطراءً لجوده وكرمه المفيض، فكان طَلْحة ﷺ إذا قضى حقَّ ربِّه راح يضرب في الأرض، ويبتغي من فَضل الله منميًا تجارته، فكان من أكثر المسلمين ثراء وأنماهم ثروة، وكانت ثروته مع كثرتها، كلها في خدمة الدِّين؛ فكان ينفِق منها بغير حساب، وكان الله كذلك ينمِّيها بغير حساب .

ما ظنُّ رجل بربه ينام وهذا المال في بيته؟

كان طَلْحة تاجرًا واسِع التجارة، عظيم الثراء، فجاءه ذات يوم مال من "حضرموت" مقداره سبعمائة ألف درهم (٧٠٠٠٠) ...فبات ليلتَه خائفًا

حزينًا، فدخلَت عليه زوجته "أم كلثوم بنت أبي بكر"، وقالت له :ما لك يا أبا محمد؟ لعلَّه رابك (ساءك) منِّي شيء؟ فقال :لا، ولَنِعم الحليلةُ (الزوجة) أنتِ، ولكنِّي تفكَّرتُ منذ اللَّيلة وقلت :ما ظن رجل بربِّه ينام وهذا المال في بيته؟ فقالت :وما يغمُّك منه؟ أين أنتَ من المحتاجين من قومك وأخلَّائك؟ فإذا أصبحتَ فقسمه بينهم، فقال :رحمك الله؛ فإنَّكِ موفَّقةٌ بنتُ موفَّق .

ولما أصبح جعَل المالَ في صُرر وجفن، وفي كلٍّ منها ألف درهم وقسمه بين فقراء المهاجرين والأنصار، وقبل أن ينتهي التوزيع، ولم يبقَ إلَّا صرة واحدة، قالت له زوجته :يا أبا محمد، ما لنا من هذا المال نَصيب؟ !فليس في بيتنا دِرهم واحد !فقال لها :فأين كنتِ منذ بداية اليوم؟ فشأنك بما بَقي، فكانت صُرَّة واحدة بها ألف درهم ...

همسة إلى أثرياء الأمَّة

كلَّما مررتُ على هذه القصَّة من حياة هذا الصَّحابي الجليل، ومثلها كثير في حياة طَلْحة رضي الله عنه وإخوانه من خرِّيجي مدرسة الحبيب المصطفى ﷺ –أصابني شعور ممتزج بالفَخر والألم في نفس الوقت ...

– فَخْر بهذه الكواكِب والنُّجوم السَّاطعة من صحابة رسول الله ﷺ الذين بهم نَقتدي ونهتدي، وهم ينفِقون من مال الله وكأنَّهم – كما علَّمهم معلِّمهم ومعلِّم البشريَّة ﷺ – يُنفِقون ولا يخشون من ذي العرش إقلالاً ...

فإنَّك عزيزي القارئ، لو أجريت عمليَّةً حسابيَّة بسيطة، وعلمت أنَّ الدِّينارَ يساوي ٤.٢٥ جرام من الذَّهب وأن الدرهم عُشر دينار، وأنَّ سعر جرام الذهب هذه الأيام حوالي ٤٠ دولارًا (هذا السِّعر في يوم كتابة هذه السطور، قد يزيد أو ينقص) — (ستجد أنَّ ما أنفقه طَلْحة في ذلك اليوم (٧٠٠٠٠٠) درهم (يعادل حوالي ١٢ مليون دولار أمريكي) ...

نعم ١٢ مليون دولار في يوم واحد، ودفعة واحدة، وبلا تردد، وبنفس راضية!!

– أمَّا الشُّعور بالألم، فهو لِما أصاب أمَّتنا – وخاصَّة أغنياءها – مِن تَقصير في حقِّ الله، وحق الفقراء والمحتاجين، ولعلَّنا نهمس في أذن أثرياء هذه الأمَّة، ونهدي إليهم هذه القصَّة، لعلهم يتأسَّون برسول الله ﷺ وصَحْبه الكرام، وينفِقون من مال الله الذي مَنَّ به عليهم، ليقضوا حوائج إخوانهم الفقراء والمساكين، ويعلموا أنَّه ما نقص مال من صدقة ...بل إنَّها التجارة الرَّابحة مع الله.

همسة أخرى إلى أخواتي المؤمنات

هلَّا لاحظتنَّ ما فعلَتْه زوجتُه "أم كلثوم بنت أبي بكر" لما رأته مَهمومًا بالمال الذي عنده؟ لم تقل له :لا عليك زوجي العزيز، غدًا ننفق هذه الأموال على أولادنا، ونشتري بيتًا جديدًا وحليًّا ...إلى آخر هذه القائمة التي لا تنتهي .

بل قالت له :أين أنتَ من المحتاجين من قومك؟ فإذا أصبحتَ فقسمه بينهم ...

هكذا أخواتي العزيزات تكون الزَّوجة الصَّالحة عونًا لزوجها على البِرِّ والتَّقوى، والسَّبق إلى الخيرات؛ لعلَّ الله سُبحانه يهدينا جميعًا سواءَ السبيل.

بارٌّ بأهله

لم تكن تلك هي المرَّة الوحيدة التي ينفِق فيها "طَلْحة الخير" بهذا الكَرم وذلك السَّخاء، بل هناك الكثير والكثير :

هذه رَحِم ما سألني بها أحد من قبل

في يوم جاءه رجلٌ يعرفه، يطلب منه المعونةَ والعطاء، وذكر له صِلَةَ رَحِمٍ تربطه به، فقال طلحة :إنَّ هذه لرَحِم ما سألني بها أحدٌ من قبلك، ثمَّ قال له – وكأنَّما أراد أن يَعتذر له عن عدَم معرفته بهذه الصِّلة كل هذه السنوات –قال له :إنَّ لي أرضًا ثمنها ثلاثمائة ألف؛ فإن شئتَ خذها، وإن شئتَ بعتُها وأعطيتُك ثمنَها، فقال الرجل :بل آخذ ثمنها، فأعطاه إيَّاه.

وهكذا كان طَلْحة ﷺ أكثرَ النَّاس بِرًّا بأهله، فكان يَعولهم جميعًا على كثرتهم، فكان لا يدَع أحدًا من بني تيم عائلاً إلَّا كَفاه مؤنته ومؤنةَ عياله؛ فكان يزوِّج أبناءهم ويخدم عائلَهم، ويقضي دَينَ غارمهم .

وهناك العديد والعديد من الأمثِلة على كرمه وجوده وسخائه.

وقد شَهد له بذلك رسولُ الله ﷺ لَمَّا منحه لقبَ "طلحة الخير"، "طَلْحة الجود"، "طَلْحة الفياض"؛ كما أسلفنا.

وقد شهد كثيرٌ من الصَّحابة بذلك، يقول جابر بن عبد الله :ما رأيتُ أحدًا أَعْطَى لجَزيلِ مالٍ من غير مسألة، أكثر من طَلْحة بن عُبيد الله .

موقعة الجمل والفوز بالشَّهادة

وتأتي الفِتن التي عصفَتْ بالأمَّة في أواخر عَصر عثمان ﷺ والتي – كما أسلفنا – أشعل نارها وزَكَّاها "عبد الله بن سبأ" وأعوانُه، وقد كانت هناك بعض المآخذ على سياسة عثمان ﷺ ، وظهرَت المعارضة الحَميدة من بعض الصَّحابة والمعارضة الخَبيثة التي قادها المتآمِرون – كما أسلَفنا – في معرض حديثنا عن حياة عثمان ﷺ .

وكان طَلْحة ﷺ مع هذه المعارضة الحَميدة، وهو لا يعلم أنَّ هناك أيدٍ خفيَّةٌ تَعبث بالأمَّة وتُريدها فِتنة كبيرة ...وقد كانت الفِتنة كما أرادها

المتآمِرون، فتنة اشتعلت واكتوى بنارها جَمْعٌ كبير من كِبار الصَّحابة، وقد نال طَلْحةَ حظُّه منها.

فلمَّا قُتل عثمان ﷺ أصاب طَلْحةَ ندَمٌ شديد، وشعور بالذَّنب لمناصرته للمعارضة ضد عثمان، وإن كان لا يَعلم ما كان هؤلاء يسرُّون للأمَّة، فرأى طَلْحة أنَّه لا بدَّ من الثَّأر من قتَلَة عثمان، بينما رأى علي بن أبي طالب "الخليفة الجديد" أنَّه لا بدَّ من استقرار الدَّولة أولاً، ثمَّ الثَّأر من قتَلَة عثمان.

ويتوجَّه طَلْحة إلى البصرة مع الزُّبير وأمِّ المؤمنين عائشة، مطالبين بالثَّأر مِن قتَلَة عثمان ...وكانت المواجهة في مَوقعة الجمل؛ كما ذكرناها سالفًا بالتفصيل.

وقد التمس الإمام عليٌّ ﷺ كلَّ وسيلة للخروج من هذا المأزق، ولما تحدَّث إلى طَلْحة والزُّبير وذكَّرهما بما كان بينه وبينهما من حبٍّ وأخوَّة ومودَّة -بكى الجميعُ، وعقدوا العزمَ على عدَم الحرب وإيثار السلم، حتى إنَّ طَلْحة ﷺ قال وهو يَبكي :كنَّا بالأمس يدًا واحدة على مَن سِوانا، فأصبحنا اليومَ جبلين من حديد، يزحف أحدنا إلى صاحبه، وقال الإمام علي مثل مقالته وكذلك الزُّبير ...

وانسحب طَلْحة والزُّبير من ميدان القِتال، بيد أنَّ الشَّهادة كانت مذخورة لهما؛ أجل لقد كانت الشَّهادة من حظِّ طَلْحة يدرِكها وتدرِكه أينما كان، ألم يقل رسول الله ﷺ : «**مَن سرَّه أن ينظر إلى شَهيد يَمشي على الأرض فلينظر إلى طَلْحة**»؟

لقي الشَّهيدُ إذًا مصيره المقدور ...وقتَلَه المتآمِرون الذين لا يَرجون صلحًا ولا خيرًا للأمَّة.

علي يَنعى طَلْحة

ويقِف الإمام علي ﷺ لما انتهى إلى طَلْحة بعد استشهاده، ويمسَح الغبارَ عن وجهه ويقول :"لهفي عليك يا أبا محمد، ليتني مِتُّ قبل هذا، والله كنتُ أكره أن أراك صَريعًا"، وقال :"إنِّي أرجو أن يجعلني الله وإيَّاك ممَّن قال فيهم: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} [الحجر: ٤٧].

رحمة الله عليك يا طَلْحة الخير

* * * * * * * * * * * * *

الزُّبير بن العوَّام

ولنستقبل أعزَّائي نجمًا آخر من النُّجوم التي بأيِّهم اقتديتم اهتديتم ...

إنَّه ابن عمَّة رسول الله ﷺ صفيَّة بنت عبد المطلب، وأحد العشرة المبشَّرين بالجنَّة، ومن السَّابقين الأولين للإسلام، وزوج أسماء بنت أبي بكر -أخت عائشة زوجة رسول الله ﷺ، وأحد الستَّة أهل الشُّورى، وأوَّل من سَلَّ سيفَه في سبيل الله ...

إنَّه حَواري رسول الله ﷺ "الزُّبير بن العوَّام" رضي الله عنه .

إسلامه وتعذيبه

كان الزُّبير رضي الله عنه واحدًا من السَّبعة الأوائل الذين سارَعوا إلى الإسلام، وكان حدَثًا له ستةَ عشرَ سنَةً، وعلى الرَّغم من شرَفه في قومه فقد حمل حظَّه من اضطهاد قُريش وتعذيبها لكلِّ مَن تبع دِين محمد ﷺ .

وقد كان مختلِفًا في تعذيبه عن أقرانه وإخوانه، فقد تولَّى عمُّه تعذيبَه، فكان يلفه بالحصير ويدخن عليه بالنَّار، كي تزهق أنفاسه، ويناديه وهو في هذه الحال، وتحت وطأة العذاب :"اكفُر بربِّ محمد، أدرأ عنك هذا العذاب"، فيجيبه الزُّبير في تحدٍّ وشجاعة ورغم حَداثة سنِّه فيقول :"واللهِ لا أعود إلى الكُفر أبدًا".

الفدائي المقدام

لقد كان أكثر ما يميِّز الزُّبيرَ رضي الله عنه هو شجاعته وإقدامه؛ فقد كان منذ صِغره فارسًا مغوارًا، لا يخشى الموتَ ولا يهابه، وقد ظهر ذلك جليًّا في كلِّ

مواقفه وأعماله منذ صباه وحتى استشهاده ...
فكان بحقٍّ "الفدائي المقدام".

أوَّل مَن سلَّ سيفًا في الإسلام

في الأيام الأولى للإسلام، والمسلمون يومئذٍ في قلَّة يستَخْفون في دار الأرقم، ولا يَملكون القدرةَ على المواجهة – سرَت إشاعة ذات يوم أنَّ رسول الله ﷺ قُتل ...فما كان من الفدائيِّ المقدام "الزُّبير بن العوَّام" إلَّا أن استلَّ سيفَه وسار في شوارع مكَّة، ورغم حَداثة سنِّه، يريد أن يتبيَّن الخبر، معتزمًا إن هو ألفاه صحيحًا أن يقاتِل قريشًا كلَّها، يظفر بهم أو يظفرون به .

ويلقاه رسول الله ﷺ وهو على هذه الحالة، فيسأله : «**ماذا بك؟**»، قال :أُخبرتُ أنَّك قُتلتَ، فقال رسول الله ﷺ : «**فكنتَ صانعًا ماذا؟**»، قال :كنتُ سأضرب بسيفي هذا مَن قتلك، فتبسَّم رسول الله ودعا له بالخير ولسيفه بالغلب، فكان الزُّبير رضي الله عنه أولَ مَن سَلَّ سيفًا في الإسلام دِفاعًا عن دين الله، وعن رسول الله ﷺ .

مَن رَجلٌ يَخرج حتى يأتيَنا بالخبر؟

ويهاجر الزُّبير رضي الله عنه إلى الحَبشة مع مَن هاجروا، لما أشار عليهم رسول الله ﷺ بالهِجرة ليكونوا في جوار النَّجاشي ذلك المِلك العادل، وظلُّوا عنده بخير دارٍ مع خير جوار، إلى أن نزَل رجل من الحبشة ينازِع النجاشيَّ في الملك، فحزن لذلك المسلمون، وخافوا أن يَظهر ذلك الرجل على النَّجاشي، وهو لا يعرفهم، وماذا سيكون مصيرهم إذًا؟ وهنا أراد الصَّحابة أن يعرفوا أخبارَ الصِّراع الدَّائر بين النَّجاشي وبين هذا الرجل، وكان الصِّراع على الجانب الآخر من النِّيل .

فقال الصَّحابة :مَن رجلٌ يَخرج حتى يَحضُر وَقيعة القوم، ثمَّ يأتينا بالخبر؟ فقال الفدائيُّ المقدام "الزُّبير بن العوَّام" :أنا آتيكم بالخبر، وكان أحدَث القوم سِنًّا، ففتحوا له قربةً جعلها في صدره، ثمَّ سبح عليها حتى خرج إلى الجانب الآخر من النَّهر، وأثناء انشغال الصَّحابة بالدُّعاء إلى الله أن يظهر النَّجاشي على عدوِّه يطلع الزُّبير ويَسعى إليهم بالبشرى؛ فقد ظهَر النَّجاشي، وأهلك الله عدوَّه .

جبريل ينزل على هيئته

وتأتي غَزوة بدر، ليكون الفدائي المقدام في المقدِّمة، ويضع عمامتَه الصَّفراء، ويبلي بلاءً حسنًا، وقتل مِن المشركين ما قتَل، وينزِل جبريل على هَيئته بعمامته الصَّفراء نُصرة للمؤمنين .

الذين استجابوا لله والرسول

لما انصرف المشرِكون من أُحُد، وأصاب رسولَ الله ﷺ هو وأصحابه ما أصابهم، خشي رسولُ الله ﷺ أن يرجعوا ويستأنفوا القِتالَ، فقال: «**مَن ينتدب لهؤلاء في آثارهم حتى يَعلموا أنَّ بنا قوَّة؟**»، فندب رسولُ الله الفدائيَّ المقدام "الزُّبير" ومعه "أبو بكر الصدِّيق"، ويقود أبو بكر والزُّبير سبعين رجلاً من المسلمين، وعلى الرغم من أنَّهم يتتبَّعون جيشًا منتصرًا، وبرغم ما بهم من قَرْح وآلام ممَّا حدَث لهم ولرسول الله ﷺ – إلَّا أنَّهم نجَحوا في أن يبثُّوا الرُّعبَ في قلوب المشركين، وجعلت قريش تظنُّ أنَّ هذه الطلعة القويَّة ما هي إلَّا مقدِّمة لجيش كَبير قادم لقتالهم، فأسرعت قُريش خطاها إلى مكَّة، ويعود المسلمون بقيادة أبي بكر والزُّبير بنِعمة من الله وفَضل ولم يَمسسهم سوء .

تقول السيدة عائشة مخاطِبة ابن الزُّبير :"يا ابن أُختي، كان أبوك وأبو بكر ممَّن قال فيهم الحقُّ سبحانه: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ} [آل عمران: ١٧٢].

حواري رسول الله ﷺ

ويواصِل الفدائيُّ المقدام عطاءه وبذلَه في سبيل الله ونصرة دينه؛ ففي يوم الخندق لما علم رسول الله ﷺ بخِيانة بَني قُريظة له وتحالفها مع الأحزاب، أراد أن يتثبَّت من الأمر فقال : «**مَن يأتينا بخبَر بني قُريظة؟**»، قال الزُّبير : أنا يا رسول الله، فذهب على فرَس له ثمَّ جاء بخبرهم، ثمَّ قال رسولُ الله ﷺ الثانية، فقال الزُّبير :أنا يا رسول الله، ثمَّ كرَّرها الثالثة، فلمَّا رجع منحه رسولُ الله ﷺ أعلى وِسام ...وقال : «**لكلِّ نَبي حَواري، وحواريَّ الزُّبير**».

يوم حُنين

وفي يوم حُنين، لما كان "مالك بن عوف" زعيم جَيش الشِّرك في مَكمن مع جنوده بعد هزيمتهم، يتربَّصون فيه زعماء المسلمين العائدين من المعركة – أبصر مالِكٌ الزُّبيرَ بن العوَّام، وكان الزُّبير واضعًا رمحَه على عاتقه، وعليه عمامة حمراء، فقال مالك لجنده :"هذا الزُّبير بن العوَّام ليخالطنَّكم فاثبتوا له"، ويقتحم الزُّبير حشدَهم وحده، وشتَّت شملَهم، وأزاحهم من مَكمنهم وحده ...

يقول الإمام علي في حقِّ الزُّبير :"يغضب كالنَّمر، ويَثِب وثوبَ الأسد" .

جيش وحده

وفي يوم اليرموك – في عَصر أبي بكر – رأى الزُّبيرُ ﷺ المقاتلين الذين كان على رأسهم يتقهقرون أمامَ جبال الرُّوم الزاحفة، فقام وصاح :الله أكبر، واخترق جيشَ الرُّوم وكأنَّه جَيش وحده، حتى خرَج من الجانب الآخر وعاد إلى أصحابه، فصاح صيحةً زلزلت تلك الجِبال الزاحفة من جَيش الرُّوم، واخترق صفوفَهم ثانية، وفعل كما فعَل في الأولى، وقفل راجعًا وسط هذه الصُّفوف الرَّهيبة نفسها وسيفه يتوهَّج في يمينه، يضرب به يمينًا ويسارًا ...

وكانت هذه الصَّحوة وتلك الفدائيَّة والإقدام من الزُّبير ﷺ سببًا في بثِّ الروح في جنوده، وقَذْفِ الرُّعب في جنود الأعداء ...وكان نصر الله للمؤمنين .

جئنا للطعن والطاعون

لما قصد عمرو بن العاص مِصرَ لفتحها، كتب إلى عمر بن الخطاب يطلب منه المددَ من الرِّجال، فأرسل عمرُ الزُّبيرَ على رأس أربعة آلاف رجل، وحين قدم الزُّبير على عمرو، وجده محاصِرًا حصنَ بابليون، فطاف بالخندق المحيط بالحِصن، وفرَّق رجاله حوله، وطال الحصار، وقيل للزُّبير :إنَّ بها الطَّاعون، فلم تُهن تلك المقولة من عَزيمة الفدائي المقدام وقال :"إنَّما جئنا للطَّعن والطَّاعون"، ووضع سلَّمًا وأسنده إلى جانب الحصن ثمَّ صعد، وأمر جنودَه إذا سمعوا تكبيرَه أن يجيبوه جميعًا، فما هي إلَّا لحظات والزُّبير على رأس الحِصن يكبِّر وسيفه في يده، فتحامل النَّاس على السلَّم وفتحوا الحصنَ المنيع، وبفتحه انتهَت المعركة الحاسِمة لفَتح مصر، وكانت شجاعة الزُّبير وإقدامه السبب المباشر لانتِصار المسلمين .

يسمي أولاده بأسماء الشهداء

والآن أعزائي، بعد كلِّ ما تقدَّم من بطولات وتضحيات نادرة، ألا ترون معي أنَّ الزُّبير بن العوَّام ﷺ كان حقًّا هو" الفدائي المقدام"، الذي لا يَهاب الموتَ، بل شديد الولع بالشَّهادة ...حتى إنَّه من حبِّه للشَّهادة كان يسمِّي أولاده بأسماء الشُّهداء.

يقول الزُّبير :"إن طَلْحة بن عُبيد الله يسمِّي بنيه بأسماء الأنبياء، وقد علم أنَّه لا نبيَّ بعد محمد ﷺ، وإنِّي أسمِّي بنيَّ بأسماء الشهداء لعلهم أن يستشهدوا".

– فسمَّى ولده عبد الله؛ تيمنًا بالصَّحابي الشهيد "عبد الله بن جحش".

– وسمَّى ولده حمزة؛ تيمُّنًا بخاله الشَّهيد "حمزة بن عبد المطلب".

– وسمَّى ولده جَعفرًا؛ تيمُّنًا بالشهيد "جعفر بن أبي طالب" .

– وسمَّى ولده مصعبًا؛ تيمُّنًا بالشهيد "مُصعب بن عُمير" .

طلحة والزُّبير

لا يجيء ذِكر "طَلْحة" إلَّا ويُذكر "الزُّبير" معه، ولا يجيء ذِكر الزُّبير إلَّا ويُذكر طَلْحة معه، وطالما كان رسول الله ﷺ يتحدَّث عنهما معًا؛ كقوله ﷺ : «**طَلْحة والزُّبير جاراي في الجنَّة**» .

فكلاهما كان أكثر النَّاس في مقادير الحياة؛ في النَّشأة، في قوَّة الإيمان، في روعة الشَّجاعة، وكلاهما من المسلمين المبكرين بإسلامهم، ومن العشرة الذين بشَّرهم رسول الله ﷺ بالجنَّة، ومن أصحاب الشُّورى الستة الذين وَكل عمر بن الخطاب إليهم اختيارَ الخليفة من بعده .

وحتى مصيرهما كان مصيرًا واحدًا، لما استُشهِدا معًا في مَوقعة الجمل .

إذا أعجزك دَين فاستعن بمولاي

كان الزُّبير رَفيعَ الخِصال، عظيم الشَّمائل، وكانت شجاعته وسخاؤه كفرسَيِ الرِّهان، فكان ثراؤه عريضًا، لكنَّه أنفقه في الإسلام، حتى إنَّه مات وهو مَدين .

وكان توكُّله على الله هو مُنطلَق جوده، ومنطلق شجاعته وفدائيته، حتى وهو يَجود بآخر أنفاسه يوصي ابنَه "عبد الله" بقَضاء ديونه فقال له :يا بني، إن عجَزْتَ عن شيء منه، فاستعن بمولاي، فسأله عبد الله :يا أبتِ، ومَن مولاك؟ قال :الله مولاي ونِعم النَّصير .

يقول عبد الله بن الزُّبير فيما بعد :"فواللهِ ما وقَعتُ في كربةٍ من دَيْنه إلَّا قلت :يا مولى الزُّبير اقضِ دَينَه فيقضيه".

موقعة الجمل والفوز بالشهادة

وتنال نار الفِتنة من الزُّبير، كما نالت من أخيه "طلحة"، وتقع واقِعة الجمل – أسلفنا ذكرها تفصيلاً – وتنال رِماح الغَدر من الزُّبير على يَد المتآمِرين الذين أشعلوا نار الفتنة، ولم يرضوا لها أن تَهدأ، ولا للصُّلح بين علي بن أبي طالب من جِهة وبين طَلْحة والزُّبير من جهة أن يتِمَّ .

ويفوز الزُّبير بالشَّهادة التي كان مولعًا بها، ليلحق برسول الله ﷺ وصحبه الكرام في جنَّات النَّعيم.

ويبكي الإمام على أخيه الزُّبير، ويصلِّي عليه، ويأذن بدفنه ...ولما دخل عليه قاتِلُ الزُّبير وهو يظنُّ أنَّه يحمل إليه بُشرى، فما أن رآه الإمام حتى صرَخ في وجهه وقال :"قاتِل ابن صفيَّة في النَّار".

رحمة الله عليك يا حواري رسول لله ﷺ

* * * * * * * * * *

سعد بن أبي وقَّاص

من بُستان إلى بُستان نحن نتنقل بين خَير البشر بعد الرسل، مَن اختارهم الله سبحانه ليكونوا في صُحبة خير خلقه ﷺ.

دعونا نرحِّب بخَال رسول الله ﷺ، وواحد من الأوَّلين السَّابقين، الذي كان يومًا ثُلث الإسلام، وواحدًا من العشرة المبشَّرين بالجنَّة، وأحدَ الستَّة أهل الشُّورى، وبطل القادسية، ومطفئ نار المجوس المعبودة إلى الأبد – إنَّه الأسد في براثنه "سعد بن أبي وقَّاص" رضي الله عنه .

نسبه:

هو سعد بن أبي وقَّاص "مالك" بن أُهَيب بن عبد مناف، فكان جده "أُهيب بن عبد مناف" من بني زهرة، هو عم السيدة آمِنة أم رسول الله ﷺ، وعليه فكان أبوه ابن عمها، وهو كأنَّه أخ لها، مِن هنا كان رسول الله ﷺ يلقِّبه بخاله، فكان إذا دخل عليه سَعد وهو بين أصحابه، حيَّاه وداعبه قائلاً : «**هذا خالي ..فليُرني امرؤ خالَه**» .

إسلامه:

كان سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه يستقبل ربيعَه السَّابع عشر، لما رأى في المنام كأنَّه غارِق في ظلمات بعضها فوق بعض، وبينما كان يتخبَّط في تلك الظُّلمات، إذ أضاء له قمَر فاتبعه، فرأى نفرًا أمامه وقد سبَقوه إلى ذلك القمر، فرأى زيدَ بن حارثة وعليَّ بن أبي طالب وأبا بكر الصدِّيق، فقال لهم :منذ متى وأنتم هاهنا؟ فقالوا :الساعة .

فلمَّا كان الصَّباح، علم أنَّ رسول الله ﷺ يدعو إلى الإسلام خفية، فعلم أنَّ هذه إشارة من الله، وأنَّه أراد به خيرًا، وشاء أن يخرجه من الظُّلمات إلى النور، فمضى مسرعًا إلى رسول الله ﷺ فأسلم، وما تقدَّمه أحد سوى هؤلاء النَّفر الذين رآهم في منامه .

وهكذا كان سَعد بن أبي وقَّاص من الأوَّلين السَّابقين للإسلام، وكان ثالث ثلاثة، أو رابع أربَعة أسلموا من الرِّجال؛ ولذا كثيرًا ما كان يقول : "لقد مكثتُ سبعةَ أيام وإنِّي ثُلث الإسلام" .

تعذيبه:

لم يمر إسلام سعد بن أبي وقَّاص سهلاً هيِّنًا، إنَّما تعرَّض الفتى المؤمن لتجربة من أقسى التجارب وأعنفها، حتى إنَّ الله سبحانه أنزل في شأنها قرآنًا .

فما أن سمعَتْ أمُّه بخبر إسلامه حتى ثارَت ثائرتها، وكان فتًى بارًّا بأمِّه محبًّا لها، فأقبلت عليه تقول :يا سعد، ما هذا الدِّين الذي اتبعتَه وصرفك عن دين آبائك؟ !واللهِ لتدَعَنَّ دينَك أو لا آكل ولا أشرب، حتى أموت فينفطِر فؤادك حزنًا عليَّ، ويأخذك النَّدم على ما فعلتَ، وتعيِّرك النَّاس بها إلى أبَد الدَّهر، وسعدٌ يُحاول أن يثنيها عن هذا الإضراب، ويقول لها :لا تَفعلي يا أمَّاه، فأنا لن أدع ديني.

ومضَتْ الأمُّ في تَصميم مستميت في إضرابها عن الطَّعام والشراب حتى أشرفت على الهلاك، وسعد يحاوِل ويأتيها ساعة بعد ساعة، يسألها أن تبتلِع شيئًا من طعام أو شراب، فتأبى أشدَّ الإباء.

ويقاوم الفتى المؤمن هذه المِحنةَ التي يتعرَّض لها، والصِّراع بين حبِّه الشديد

لأمِّه التي توشك على الهلاك، وبين إيمانه الصلب الذي لا يضاهيه شيء، ويتغلَّب إيمانه على عاطفته، ويقول لأمِّه :"يا أمَّاه، إنِّي على شديد حبِّي لكِ لأشدُّ حبًّا لله ورسوله، واللهِ لو كانت لكِ ألفُ نَفْسٍ فخرَجَت منك نفْسًا بعد نفس، ما تركتُ ديني هذا لشيء".

فلمَّا رأت أمُّه الجِدَّ منه، أذعنت للأمر وأكلت وشربَت على كُرهٍ منها، وأنزل الله فيها قوله عزَّ وجلَّ: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [لقمان: ١٥].

طعامه لثلاثة أيام

لم يفُتَّ أيُّ شيء في عَضد سعدﷺ ؛ بل ازداد إيمانه قوَّة وثباتًا، وظلَّ مع رسول الله ﷺ يلازمه كظلِّه، حتى كانت المقاطعة الظَّالمة التي فرضَتْها قريش على بَني هاشم، ورأى أبو طالب أن يدخلوا في شِعْب أبي طالب تأمينًا لرسول الله ﷺ، وانحاز إليه كلُّ بني هاشم مسلمِهم وكافرهم – إلَّا أبا لهب، انحاز لقريش – ودخل معهم سعد بن أبي وقَّاص والعديد من المسلمين، طواعية للاشتراك في حِماية رسول الله ﷺ .

وظلَّت المقاطعة ثلاثَ سنوات، عانى فيها رسولُ الله ﷺ هو ومن معه عناء شديدًا، حتى إنَّهم كانوا كلَّما اشتدَّ بهم الجوع لجؤوا إلى أوراق الشَّجر ليأكلوها .

وخرج سعد يومًا لبعض حاجته، فسمِع قعقعةً تحتَ البول، فإذا هي قِطعة من جلد بعير يابِسة، فأخذها وغسلها ثمَّ أحرقها وفتَّتها ليسفَّها بالماء، وكان ذلك طعامه لثلاثة أيام ...وهكذا كانت صِناعة الرجال.

* * * * * * * * * * *

جهاده في سبيل الله

أول مَن رمى بسهم في سبيل الله

أرسل رسولُ الله ﷺ عبيدةَ بن الحارث في سريَّة، عقد لها لواء في ستين راكبًا، فيهم سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه ، أرسله إلى جانب من الحِجاز يدعى "رابغ"، فانكفأ المشرِكون على المسلمين، فحماهم سعدٌ يومئذ بسِهامه، حتى فرَّ المشركون وولَّوا الأدبارَ، فكان سعد أوَّلَ مَن رَمى بسَهم في سبيل الله، وكان يفخر بذلك ويقول :"إنِّي أول العرب رمى بسهم في سبيل الله".

اللهمَّ سدد رميتَه، وأجب دعوته

وفي يوم بدر أبلى سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه بلاء حسنًا هو وأخ له أصغر "عمير بن أبي وقاص"، وكان سعد يرمي بين يدَي رسول الله ﷺ، وكلَّما وضع السَّهمَ في كبد القوس يقول :"اللهمَّ زلزِل أقدامَهم، وأرعب قلوبَهم، وافعل بهم، وافعل"، فيقول رسول الله ﷺ« :**اللهمَّ سدِّد رميتَه، وأجب دعوتَه**»، وفي رواية : «**اللهمَّ استجِب لسعدٍ إذا دعاك**»، فكان من أحسن الرُّماة بين المسلمين، وأصبح مستجابَ الدَّعوة، بفضل دعاء رسول الله ﷺ له.

وانتهت المعركة بنَصرٍ مُبين للمسلمين، واستشهد أخوه عُمير في هذه المعركة .

ارمِ سعد ...فِداك أبي وأمي

وفي يوم أُحُد عندما عصى الرُّماةُ أمرَ رسول الله ﷺ، وتركوا أماكنَهم فاستطاع المشركون أن يَنقضوا على المسلمين، وأصبح رسول الله ﷺ هدفًا لهم يريدون قتلَه – ثبت حول رسول الله ﷺ تِسعة رجال من الأنصار، ومن المهاجرين رجلان هما طَلْحة بن عُبيد الله وسعد بن أبي وقَّاص، فقُتل الأنصار التسعة دفاعًا عن رسول الله ﷺ، وبقي طَلْحة وسعد، أمَّا طَلْحة فدافع عن رسول الله ﷺ بكلِّ ما يملك – كما أسلفنا – وأمَّا سعد فوقف يناضِل عن رسول الله ﷺ بقوسه، فكان لا يَرمي رميةً إلَّا أصابت من مشرك مقتلاً، ولما رآه رسول الله ﷺ يرمي كلَّ هذا الرمي، جعل يقول له: «**ارمِ سعد ..فِداك أبي وأمِّي**»، وهو ما كان فخرًا لسعد طوال حياته.

يقول الإمام علي :ما سمعتُ رسولَ الله ﷺ جمع أبويه لأحَد إلَّا سعد بن مالك (هو سعد بن أبي وقَّاص)؛ فإنِّي سمعتُه يقول يوم أحد : «**ارمِ سعد .. فداك أبي وأمي** » .

- وفي يوم أُحُد أيضًا رأى سعد رضي الله عنه الملائكةَ، يقول سعد :رأيت رسول الله ﷺ يومَ أُحُد ومعه رجلان يقاتِلان عنه، وعليهما ثياب بِيض ما رأيتهما قبل ولا بعد، وعلِم من رسول الله ﷺ أنَّهما كانا جبريل وميكائيل .

الأسد في براثنه ..سعد بن أبي وقَّاص

تَوَّج الفُرسُ يزدجرد ملكًا لهم، الذي قرَّر أن يهجم على المسلمين هجمةً شرسة يستردُّ بها ما ضاع من مَملكة الفُرس، ويرد هيبتها، فسَيَّر جيشًا جرارًا قوامه مائة ألف، وبدأ الزَّحف .

فلمَّا علِم بذلك عمر بن الخطاب، وكان خليفة المسلمين، قال :"واللهِ لأضربنَّ ملوكَ العجم بملوك العرب"، وكتب إلى عمَّاله أن يبعثوا له كلَّ مَن كانت له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأي، فجاءته أفواجهم إلى المدينة، وخرج عمر يقود جيوشَ المسلمين بنفسه، وخلف على المدينة عليَّ بن أبي طالب، ونزل بضرار (موقع قريب من المدينة) فعسكر هناك، والمسلمون لا يعرفون قصدَه، فلمَّا أعلمهم أشار عليه كِبار الصَّحابة أن يعود وينتدب لهذه المهمَّة واحدًا غيره من الأصحاب، ونزل أمير المؤمنين على هذا الرأي، وسأل أصحابه :مَن ترون أن نَبعث إلى العراق لملاقاة الفُرس؟ فقال عبد الرحمن بن عوف :الأسد في بَراثنه "سعد بن أبي وقَّاص"، فقال عمر :"نعم؛ إنَّه شجاع رامٍ، الأسد عاديًا سعد بن أبي وقَّاص".

وصية عمر لسعد

ويُستدعي الأسد "سعد بن أبي وقَّاص"، ويعطيه أميرُ المؤمنين "عمر بن الخطاب" اللواءَ وقيادة هذه المهمَّة الشاقَّة الصعبة الفاصلة .

ويقف عمر مودِّعًا جنوده ويوصي قائدَهم ويقول :"يا سعد، لا يغرنَّك مِن الله أن يقال :خال رسول الله ﷺ، وصاحب رسول الله ﷺ، فليس بين الله وبين أحد أنساب إلَّا بطاعته ."

"وإنِّي آمرك ومَن معك من الأجناد بتَقوى الله؛ فإنَّ تقوى الله أفضل العدَّة على العدو، وإنَّ ذنوب الجيش أخوَف عليهم من عدوِّهم، إنَّما ينصر الله المسلمين بمَعصية عدوِّهم لله؛ لأنَّ عددنا ليس كعددهم، وعدَّتنا ليست كعُدَّتهم، فإن استوينا في المعصية، كان لهم الفَضل علينا في القوَّة، فإن لم ننتصر عليهم بفضلنا، لم نغلبهم بقوَّتنا."...

وكنَّا قد أسلفنا هذه الوصايا لأمير المؤمنين وما عليه حال الأمَّة الآن في مَعرض حديثنا عن حياة "عمر بن الخطاب".

موقعة القادسيَّة

ويتحرَّك سعد بن أبي وقاص ﷺ بجَيش قِوامه ثلاثون ألفًا، وفي أيديهم رماح، مجرد رماح !ولكن في قلوبهم إرادة وإيمان عميق بالله وبنصره للمؤمنين، ليلاقي جيشًا من الفرس قوامه مائة ألف من المقاتلين المدرَّبين، المدججين بأخطر ما كانت تَعرف الأرض يومئذ من عَتاد وسِلاح، ويصِل جيشُ المسلمين بقيادة اللَّيث "سعد بن أبي وقَّاص" إلى القادسيَّة – قرية قريبة من الكوفة – ليجد جيشًا جرَّارًا من الفُرس بقيادة واحد من أشهَر وأخطر قوادهم "رستم" .

الأسد ينظم صفوفه

وفي القادسيَّة بدأ الأسد "سعد بن أبي وقَّاص" في تَنظيم جيشه وتعبئته للحرب :

- **فجعل على كلِّ عشرة عريفًا، وأمَّر على الرَّايات رجالاً من أهل السَّابقة، ورجالاً آخرين من أهل الشَّجاعة والإقدام ولَّاهم على المقدمات والأجناب .**
- **ولم ينسَ سعد القضايا الإداريَّة :فعيَّن مسؤولاً عن القَضاء، وجعله مسؤولاً عن الفَيء أيضًا، وعيَّن مترجمًا يجيد الفارسيَّة، كما عَيَّن كاتبًا تَنتهي إليه الأمور الكتابية .**
- **ولم ينسَ النُّصحَ والإرشاد؛ فعيَّن على كلِّ مجموعة رجلاً من أهل العلم والتَّقوى؛ ليكون مسؤولاً عن الوَعظ والإرشاد ...**

فأي نوعٍ من الرجال صنعتَ يا حبيبي يا رسول الله؟ !فداك أبي وأمِّي .

مراسلات بين الفريقين

وقبل بدء المعارك، يرسِل سعد إلى رستم قائد الفرس وإلى يزدجرد ملكهم نفرًا من أصحابه يدعوهم إلى الإسلام والمسالمة، ولكن صلف وغرور الفرس منعهم أن يستجيبوا لدَعوة الإسلام والسَّلام؛ فهي الحرب إذًا، وأجمع القائدان (سعد ورستم) على المناجزة .

المرض يتحالف على البطل

وتحالفَت الأمراض على البطل "سعد بن أبي وقَّاص" ﷺ فأصابته بدَمامل ملأت جسده، واشتدَّ عليه المرض وثقلت وطأته، حتى كان لا يَستطيع أن يجلس، فضلاً أن يَعلُوَ صهوةَ جوادِه، ويخوض مَعركة بالِغةَ الضراوة والقسوة.

ولم تؤثِّر تلك الأمراض، ولا هذه الآلام على عَزيمة الأسد، فصعد متحامِلاً على نفسه وآلامه إلى شُرفة الدار التي كان ينزِل بها، ليتَّخذها مقرًّا للقيادة، وفي الشُّرفة أكبَّ متَّكئًا على صَدره فوق وسادة، وباب داره مفتوح، وأقل هجوم مِن الفُرس على الدار يسقطه في أيديهم حيًّا أو ميتًا، ولكنه لا يَهاب ولا يَخاف؛ فهو الأسد في عرينه.

ولتبدأ معركة المصير، وقائدها دامله تنبح وتنزف، ولكنَّه في شغل عنها .

بداية المعركة وتحدِّي الفيلة

ويدير اللَّيثُ من عَرينه المعركةَ ...

بدأ يَخطب في جيشه ويحثُّهم، ويبثُّ روحَ القِتال والتضحية فيهم، وهو منبطحٌ على وجهه في شرفته، وقال لهم :لا تحرِّكوا شيئًا حتى تُصلُّوا الظُّهر؛ فإن صلَّيتم الظُّهرَ، فإنِّي مكبِّر تكبيرةً، فكبِّروا واستعدوا، فإذا كبَّرتُ الثانية

فكبِّروا والبسوا عدَّتكم، فإذا كبَّرت الثالثةَ فكبِّروا ونشطوا النَّاس، فإذا كبَّرتُ الرابعةَ فازحفوا جميعًا حتى تخالطوا عدوَّكم، وقولوا :"لا حول ولا قوَّة إلَّا بالله" ...

وتبدأ المعركة التي استمرَّت ثلاثة أيام ونصفًا، وكان التحدِّي الأكبر الذي واجَه جيش المسلمين في أوَّل الأمر، هو وجود الفيلَة في جيش الفُرس، فكانت خَيل المسلمين تنفر منها، وهو ما أوقع كثيرًا من القتلى في صُفوف المسلمين، فأمر سعدٌ الرُّماةَ بالرَّمي على ركبان الفيلة، وبعضًا آخر يقطع حِزامَ الفيلة من الخلف، فعوَت الفيلة وقُتل أصحابها.

وفكَّر المسلمون في حِيلة للتخلُّص من تفوُّق الفيلة نهائيًّا، فقام القعقاع بن عمرو، وجعل البعض يمتطي الإبل، وألبسها بما جعلها تشبِه الفيلة، ولما كان اليوم التالي لقيت خيل الفرس من شَبيهات الفِيلة، أعظم مما لاقت خيل المسلمين بالأمس من الفيلة.

ويستمرُّ القتال، وأصبحت خيل المسلمين لا تنفر من الفِيلة بعد أن تعوَّدَت على رؤيتها، وأمر سعدٌ بقتل الفيل الأبيض وهو كبير الفيلة، وتبعه باقي الفيلة ...وظلَّ القتال مستمرًّا والمسلمون في تقدُّم.

ليلة الهرير

واستمرَّ القتال حتى جاء مَساء اليوم الثالث، فانفصل الجيشان قليلاً، ثمَّ أمر سعد بمعاودة القِتال، متى أعلَن بشِعار القتال وهو "الله أكبر"، فلمَّا صلَّى هو وجنوده العِشاءَ، كبَّر فحمل المسلمون كلهم على الفُرس، وكانت ليلة ليلاء، لا صوت فيها سوى الهرير – من شدَّة القتال – لذلك سمِّيَت ليلة الهرير.

واستمرَّ القتال إلى الصباح، فقال القَعقاع :إن الدائرة ستكون لمن صبر ساعة، فاصبِروا ساعة .

يوم القادسية .. مقتل رستم

واستمرُّوا يقاتِلون حتى الظَّهيرة، وبدأ الفُرس في التقهقر أمام صَبر وجَلَد المسلمين ...ويقتل قائدهم "رستم"، فلمَّا رأى الفرس ذلك ابتدؤوا بالانهزام.

وتمَّ نَصر الله للمؤمنين، وتهاوَت جنودُ الفُرس، وتهاوت معهم الوثنيَّة وعبادة النَّار، ويسمَّى هذا اليوم بيوم القادسيَّة.

وبعد تمام النَّصر، أمر سعد رضي الله عنه بجَمع الأسلاب والغنائم وقسمها كما أمر الله ﷻ ، وبعث بالخمس والبشارة إلى أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب".

وكانت هذه الموقعة أعظم وقعات المسلمين مع فارس، وقُتل فيها الكثير من مَشاهير الفُرس، وقد كشفَت معركة القادسيَّة عن معدن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه النَّفيس، وفرط شجاعته .

وأقام سعد بالقادسيَّة شهرين، يَنتظر أوامِرَ عمر بن الخطاب، حتى جاءه الأمر بالتوجُّه إلى المدائن ...

فتح المدائن

إلى المدائن

ويتحرَّك الجيش المنتصر باتجاه المدائن، وسار المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقَّاص مِن نَصر إلى نصر ...ففُتحَت البرس ثمَّ بابل، وفلول جَيش الفرس وبقاياه تَهرب أمامهم، حتى تجمَّعَت في المدائن، متأهِّبة لموقف أخير وفاصل، ويستمرُّ زَحْف المسلمين حتى وصلوا إلى "بهرسير"، وهي مدينة على الضفَّة الغربيَّة لنهر دِجلَة، المقابلة للمدائن، فلمَّا رأى المسلمون إيوانَ كِسرى أمامهم، تذكَّروا وعدَ رسول الله ﷺ لهم، حين قال : «**عصبة من أمَّتي يفتحون البيتَ الأبيض**»؛ بيت كِسرى، وهو ما زادهم حماسًا وشوقًا لتحقيق وَعْد رسول الله ﷺ.

العبور العظيم

وتبدأ المعركة الحاسِمة الفاصِلة، وهي فَتح المدائن، وكانت بعد عامين من مَوقعة القادسيَّة، تمَّ خلالهما ما سبَق ذِكرُه من مُناوشات وفتوحات، حتى الوصول إلى الضفَّة الغربيَّة لنَهر دِجلة والمواجهة لإيوان كِسرى.

وكان التحدِّي الأكبر الذي واجه الليث "سعد بن أبي وقاص" ﷺ هو النَّهر الذي بينه وبين المدائن، وهنا تتألَّق عبقريَّة الأسد في براثنه كما وصفَه عبد الرحمن بن عوف ...فأصدر سعد أوامرَه للجيش بعبور دِجلة، ولنجاح العبور أمَر بالبحث عن أنسب مكان بالنَّهر يمكن منه هذا العبور، فوجدوا المكانَ، وقبل العبور فطن سعد إلى وجوب تأمين الوصول إلى الضفَّة الأخرى للنَّهر، والتي يرابط العدوُّ حولها، فجهَّز كتيبتين الأولى بقيادة "عاصم بن عمرو" والثانية بقيادة "القعقاع بن عمرو"، ومع كلٍّ مهما ستمائة رجل من أهل النَّجدات، ولما تهيَّأت الأمور، وتمَّ تأمين الجانب الآخر من النَّهر كان العبور الأعظم .

ذُلِّلت لهم البحار كما ذلِّل لهم البَر

ويأمر سعدٌ جنودَه بالعبور، ويقول لهم :قولوا :"نستعين بالله، ونتوكَّل عليه، حَسبنا الله ونِعْم الوَكيل، ولا حول ولا قوَّةَ إلَّا بالله العلي العظيم"، وبهذه القوَّة المزدوجة من إعداد جيِّد، وإيمان بالله وتوكل عليه حق التوكُّل، اقتحموا دِجلةَ وهم لا يَكترثون، وإنَّهم ليتحدَّثون أثناء عبورهم النَّهر الهادر –كان في موسم فيضانه – كما يتحدَّثون أثناء مسيرتهم على الأرض؛ وذلك لما شعروا به من الطمأنينة، والأمن والوثوق بعون الله ونصره .

ونجحت خطَّة سعد بن أبي وقَّاص ﷺ نجاحًا أذهل المؤرِّخين، وأذهل سعدًا نفسه، وأذهل صاحبه ورفيقه في المعركة "سلمان الفارسي" الذي

أخذَتْه الدَّهشة والغبطة، فقال :"إنَّ الإسلام جديد، ذُلِّلت لهم والله البحار كما ذُلِّل لهم البَر، والذي نفسي بيده، ليخرجنَّ منه أفواجًا، كما دخلوه أفواجًا"، ولقد كان وكما قال سلمان، خرجوا من نَهر دجلة أفواجًا كما اقتحموه أفواجًا لم ينقص منهم جندي واحد .

هروب يزدجرد ...ودخول المدائن

لما رأى جنود الفُرس هذا المشهد، قال بعضهم لبعض :"والله ما تقاتلون الإنسَ، وما تقاتلون إلَّا الجن"، وانطلقوا لا يَلوون على شيء، وفَزِع "يزدجرد" ملِك الفرس ففرَّ من المدينة.

ودخل سعد المدائنَ، وانتهى إلى إيوان كِسرى فأقبل يقرأ قولَه تعالى: {كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ} [الدخان: ٢٥ - ٢٨].

الأسد يوالي الفتوحات

ويستمرُّ الأسد "سعد بن أبي وقَّاص" ﷺ في العطاء والبَذل، ويتمِّم الله على يديه فتحَ العراق، وأكثر بلاد فارس، وأذربيجان، والجزيرة، وبعض أرمينية، فيمكن القول، حسب الخرائط والحدود الحديثة :إنَّه فتَح العراقَ، ومعظمَ إيران بحدودها اليوم، والقسم الجنوبي لتركيا المتاخم لإيران، والقسم الواقِع شَمال إيران والذي يحدِّد روسيا ...

لله درُّك أيها الأسد ...الفاتِح العظيم .

أمير على الكوفة

ولما تمَّت الفُتوحات ولَّى أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب سعدَ بن أبي وقَّاص أميرًا على الكوفة، ولما تولَّى إمارةَ الكوفة راح يبني للنَّاس ويعمر، وأرسى قواعدَ الإسلام في البلاد العريضة الواسعة.

وفوق ذلك كله، أعدَّ الكوفةَ فأصبحت القاعدةَ الأمامية للفَتح الإسلامي في الشرق كله، وأمدَّت العالم الإسلامي بعدَد ضَخم من قادة الفتح والفاتحين .

من أهل الشُّورى

ولما طُعن أميرُ المؤمنين "عمر بن الخطاب"، اختار مِن أصحاب رسول الله ﷺ ستَّةَ رجال ليكون لهم أمرُ اختيار الخليفة من بعده، وقال لهم :"إنِّي أختار ستَّةً مات رسولُ الله ﷺ وهو راضٍ عنهم"، وكان من بينهم سعد بن أبي وقَّاص، وليس ذلك فحسب؛ بل أثنى عمر عليه ثناء خاصًّا دون الآخرين، حين قال لأصحابه وهو يودعهم :"إنْ وَلِيها سعد فذاك، وإن وَلِيها غيرُه فليستعِنْ بسعد" .

وبالفعل وَلِيها غيرُه "عثمان بن عفَّان" ومن بعده "علي بن أبي طالب"، فكان دائمًا يُستعان به في كلِّ أمر من أمور الدَّولة .

اعتزاله الفِتنة

وعندما وقعَت الفِتنة بين أصحاب رسول الله ﷺ، اعتزلَها سعد بن أبي وقَّاص ﷺ ، بل أمَر أهلَه وأولاده ألَّا ينقلوا إليه شيئًا من أخبارها .

واختار الأسد البطل المغوار أن يَرعى الغَنم، ويعيش في معزل عن تلك الفِتن.

أريد سيفًا له عينان ولسان

وذات يوم تشرئبُّ الأعناق نحوه، ويذهب إليه ابنُ أخيه "هاشم بن عُتبة بن أبي وقَّاص"، ويقول له :يا عم، ها هنا مائة ألف سيف يرونك أحق النَّاس بهذا الأمر"، فيجيبه سعد :"أريد من المائة ألف سيف سيفًا واحدًا له عينان ولسان، فيقول لي :هذا مؤمِن وهذا كافِر، إذا ضربتُ به المؤمن لم يفعل شيئًا، وإذا ضربتُ به الكافر قطع".

ويدرك ابنُ أخيه غرضَه ويتركه في عزلته وسلامه .

إن الله يحبُّ العبد التَّقي الخفي

ويأتيه أحد أبنائه وهو في غنَم له، فلمَّا رآه قال له :يا أبتِ، أرضيتَ أن تكون أعرابيًّا في غنمك، والناس يتنازعون الملك بالمدينة؟

فضرب سعد على صَدر ابنه وقال :اسكُت يا بُني؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : «**إنَّ الله يحبُّ العبدَ التَّقي الغني الخفي**» .

ألا فعلوا كما فعل خليلي سعد؟

روي عن حسين بن خارجة الأشجعي أنه قال :لما قتل عثمان، أشكلَت عليَّ الفتنة، فقلت :اللهمَّ أرني من الحقِّ أمرًا أتمسَّك به، فرأيت في النوم رسول الله ﷺ وإبراهيم عليه السلام، وإذا برسول الله ﷺ يقول لإبراهيم: «**استغفِر لأمَّتي**»، فقال إبراهيم عليه السلام :إن أمَّتك اختلفوا من بعدك، إنَّهم أهرقوا الدِّماءَ وقتلوا أميرهم، ألا فعلوا كما فعل خليلي سعد؟

يقول ابن خارجة :لما رأيت تلك الرُّؤيا، أتيتُ سعدًا فقصصتُها عليه، فكان فرحًا بها وقال :"قد خاب مَن لم يكن إبراهيم عليه السلام خليله"، فقلت :مع أيِّ الطَّائفتين أنت؟ قال :ما أنا مع أحدٍ منهما، قلت :فما تأمرني؟ قال :هل لك من غنَم؟ قلت :لا، قال :فاشترِ غنمًا، وكن فيها حتى تَنجليَ الفِتنة .

* * * * * * * * * * *

باقة من مناقب سعد بن أبي وقَّاص

ولسعد بن أبي وقَّاص ﷺ العديد من المناقب، وعظيم الخصال والشمائل، **نذكر منها** :

- **حبه لرسول الله ﷺ :**

لقد بلغَت محبَّة رسول الله ﷺ في قلب سعد مبلغًا عظيمًا، حتى إنَّه كان يتمنَّى أن يَفديَه بنفسه وماله وولده، ولقد ذكرنا سالفًا ما كان منه يوم أُحُد وهو يرمي بالسِّهام دفاعًا عن رسول الله ﷺ، ورسولُ الله ﷺ يَمنحه أعلى وِسام : « **ارْمِ سعد، فِداك أبي وأمِّي**».

تقول السيدة عائشة :أرق رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقلتُ له :ما شأنك؟ فقال : «**ليت رجلاً صالِحًا من أصحابي يَحرسني اللَّيلة**»، قالت :وبينما نحن في ذلك؛ إذ سمِعْنا صوتَ سِلاح، فقال رسول الله ﷺ : «**مَن هذا؟**»، فقال سعد بن أبي وقَّاص :أنا يا رسول الله، جئتُ أحرسك، فدعا له رسول الله ﷺ، ونام حتى سمعتُ غطيطَه .

- **كرمه؛ ثلث والثلث كثير :**

كان لسعد مال، وكان مِن أغنياء المسلمين وأثريائهم، وفي يومٍ مرض مرضًا شديدًا، ظنَّ أنَّه سيُهلِكه، فلمَّا عاوده رسول الله ﷺ قال له سعد :يا رسول الله، إنِّي ذو مال ولا يَرثني إلَّا ابنة، أفأتصدَّق بثُلثَي مالي وأترك الثُّلث؟ قال رسولُ الله ﷺ : «**لا**»، فقال :فبِنِصفه وأترك النِّصف؟ قال

رسولُ الله ﷺ : «**لا**»، قال :فبثلُثه وأترك الثلثين؟ قال رسولُ الله ﷺ : «**نعم، الثُّلث والثلث كثير؛ إنَّك أن تَذَر ورثتك أغنياء، خير من أن تَذرَهم عالَة يتكفَّفون النَّاس**» .

ووضع رسولُ الله ﷺ يدَه على جبينه، ثمَّ مسح عليها وقال :«**اللهمَّ اشفِ سعدًا**»، فشُفي سعد وعاش بعدها عمرًا مديدًا، ورزقه الله غيرَ ابنته أبناء آخرين ...

- **إيمانه وورعه وعلمه:**

كان سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه كثير البُكاء من خَشية الله، وكان إذا استمع لرسول الله ﷺ وهو يَعظهم أو يَخطبهم فاضت عيناه من الدَّمع، وكان رجلاً أوتي نِعمة القَبول والتوفيق .

قضاء الله عندي أفضل من بصري :

في آخِر حياته كان قد كفَّ بصره، وكان النَّاس يهرعون إليه، كل واحد يسأله أن يَدعو له؛ لأنَّه كان مستجاب الدُّعاء، فقيل له :أنت تدعو للناس، فلو دعوتَ لنفسك فردَّ عليك بصرك؟ !فتبسَّم وقال :قَضاء الله سبحانه أفضَل عندي من بَصري؛ وهو ما يدلُّ على صَبره على البلاء؛ وذلك من شِيَم الصَّالحين المقرَّبين من الله .

إذا حدَّثك سعد فلا تسأل غيره :

كان عمر بن الخطاب يحبُّ سعدَ بن أبي وقَّاص حبًّا جمًّا، ويعرف له قدرَه ومنزلتَه؛ ففي يوم دخل عليه ابنه "عبد الله بن عمر"، فقال له :يا أمير المؤمنين، يقول سعد بن أبي وقَّاص :إنَّ رسول الله ﷺ مسَح على الخُفَّين،

فأردتُ أن أسألك عن ذلك، فقال عمر لابنه :إذا حدَّثك سَعد شيئًا عن النَّبي ﷺ فلا تسأل عنه غيره .

- **مستجاب الدَّعوة:**

كان سعد رضي الله عنه من أشجع فُرسان العرب، وكان له سلاحان :رُمحه ودعاؤه، فلقد امتنَّ الله عليه بأن جعله مستجابَ الدَّعوة؛ وذلك ببركة دعاء رسول الله ﷺ له : «**اللهمَّ استجِب لسعدٍ إذا دعاك** » ، فاشتهر بأنَّه مستجاب الدَّعوة، تُخاف دعوته وترجى، فكانت دعوته كالسَّيف القاطع .

ومن أمثلة ذلك :

* شكا أهلُ الكُوفة سعدًا إلى عمر بن الخطاب، وكان قد ولَّاه عليهم، فقالوا :إنَّه لا يُحسِن الصلاة ...فقال سعد :أمَّا أنا فكنتُ أُصلِّي بهم صلاةَ رسول الله ﷺ؛ أُطيل في الأُوليَين وأخفِّف في الأُخرين، فقال عمر :ذلك الظن بك يا أبا إسحاق .

ثمَّ بعث عمر رجالاً إلى الكوفة يسألون أهلها، فكانوا لا يأتون مسجدًا من مساجد الكوفة إلَّا أثنوا على سعد خيرًا وقالوا معروفًا، حتى إنَّ أحدهم قال :"إنَّه متواضع في خبائه، عربي في نمرته (كِسائه)، أسد في تامورة(عرينه)، يعدل في القضيَّة، ويقسم بالسويَّة، ويعد في السريَّة، يعطف علينا عطف الأمِّ البرَّة، وينقل إلينا حقَّنا نقل الذرة" .

ولما أتوا مسجدًا من مساجد بني عبس، قال لهم رجل منهم يقال له (أبو سعدة) :"إنَّه كان لا يَسير بالسريَّة، ولا يَعدِل في القضيَّة، ولا يقسم بالسويَّة"، فقال سعد :أما واللهِ لأدعونَّ بثلاث :"اللهمَّ إن كان كاذبًا فأطِل عُمره، وأطِل فَقرَه، وعرِّضه للفِتَن".

وروي أنَّ هذا الرجل(أبا سعدة) بلَغ من العمر أرذلَه، وقد سقط حاجِباه على عينيه من الكبر، وشوهد وهو يتعرَّض للجواري في الطُّرق فيغمزهنَّ أي :(يعترضهن بكلام فاحش)، وكان إذا سُئل عن سبَب بلائه يقول : "شيخ مَفتون، أصابتني دعوة سعد" .

*روي أنَّ سعدًا رأى رجلاً يسبُّ عليًّا وطلحة والزُّبير، فقال له سَعد : إنَّك تشتم أقوامًا قد سبَق لهم من الله ما سبق، والله لتكفنَّ عن شَتمهم أو لأدعونَّ عليك ...فقال الرجل :أراك تهدِّدني كأنَّك نبي، فقال سعد :اللهمَّ إن كان يشتم أقوامًا قد سبق لهم منك ما سبق، فاجعله اليوم نكالاً أي : (آية وعِبرة)، فلم يمض غير وقت قصير حتى خرجَت من إحدى الدور ناقة لا يردها شيء، حتى دخلَت في زحام النَّاس كأنها تبحث عن شيء، ثمَّ اقتحمت الرجل، فأخذته بين قوائمها، وما زالت تتخبَّطه حتى مات .

إنَّ هذه الظَّاهرة تنبئ عن شفافية روحه، وصِدق يقينه، وعُمق إخلاصه .

* * * * * * *

المشهد الأخير والاستعداد للقاء الله

وبعد حياة طويلة مَليئة بالتَّضحية والبَذل والجِهاد في سبيل الله، وفي ذات يوم من أيام العام الرابع والخمسين من الهجرة، وقد جاوز سعد بن أبي وقَّاص ﷺ سِنَّ الثَّمانين، وهو في داره بالعقيق – على بُعد ١٠ أميال من المدينة – يتهيَّأ للِقاء الله .

فينام البطَل على سرير الموت، ورأسه في حِجر أحد أبنائه والذي كان يَبكي، فيقول البطل الذي لا يَهاب الموت مهوِّنًا على ابنه :"أي بُني، لا تَبكِ؛ فإنَّ الله لا يعذِّبني أبدًا، وأنا من أهل الجنَّة".

هكذا كانت صلابة إيمانه، لا يوهِنها شيء، حتى رهبة الموت؛ فلقد بشَّره رسول الله ﷺ بالجنَّة، ففيمَ الخوف؟

ويريد البطَل أن يلقى الله، وهو يَحمل أجملَ تذكار جمعه بدينه ووصَله برسول الله ﷺ، فيأمر أهلَه أن يفتحوا خزانتَه، فإذا بها رِداء قديم قد بَلي، ثمَّ أمرهم أن يُكفِّنوه فيه قائلاً :"لقد لقيتُ المشركين فيه يوم بدر، ولقد ادَّخرتُه لهذا اليوم".

وتَفيض روحُه الطَّاهرة، ويُحمل على الأعناق من بيته بالعَقيق إلى المدينة ليصلِّي عليه المسلمون، ثمَّ صلَّى عليه أمَّهات المؤمنين في حُجَرهنَّ، ودُفن بالبقيع .

رحمة الله عليك يا خال رسول الله
أيُّها الأسد في براثنه

* * * * * * * * *

عبد الرحمن بن عوف

ولنرتحق عزيزي القارئ من بُستان آخر من بساتين صَحابة رسول الله ﷺ، فلنستقبل هذا الصَّحابي الجليل :

- أحد الثمانية السَّابقين للإسلام.
- أحد العشرة المبشَّرين بالجنَّة.
- أحد الستة أهل الشُّورى .
- من صلَّى رسول الله ﷺ خلفَه .
- من الذين كُتبت لهم السَّعادة والمغفرة، وهم في بطون أمَّهاتهم.

إنَّه رجل الاقتصاد الإسلامي؛ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه .

نسَبه:

هو عبد الرحمن بن عوف بن زُهرة، وأمُّه الشفاء بنت عوف بن الحارث بن زهرة، وأبوه من أشراف بني زهرة (أخوال رسول الله ﷺ)؛ فلقد كانت السيِّدة آمنة أم رسول الله ﷺ من بني زهرة .

وُلد عبد الرحمن بن عوف في العام العاشِر بعد عام الفيل، فهو أصغر من رسول الله ﷺ بعشر سنوات، وكان اسمه "عبد عمرو"، وسمَّاه رسولُ الله "عبد الرحمن" لَمَّا أسلم .

نشأته:

كان "ابن عوف" طفلاً نجيبًا، تَلوح عليه دلائل العَظمة والسُّمو، وهو ما زاد أباه سرورًا به؛ فكان يصحبه إلى مَجالس قريش، وجعل ينمي مواهبه ويعدُّه لحياة كريمة، فبادر يعلِّمه القراءة والكتابة والحساب، والضَّرب بالسيف، ورمي الرمح وركوب الخيل.

ولما رأى فيه ملامِح النَّجابة والذَّكاء رغم حَداثة سنِّه، بدأ يصحبه في أسفاره ورحلاته إلى بلاد الشَّام والعراق ومِصر.

وقد أبدى مَهارةً فائقة في البَيع والشِّراء واجتِذاب العملاء، واكتساب الأصدقاء لصِدق ورِقَّة حديثه وشهامته، ورغم إعجاب أبيه وفَخره به إلَّا أنَّه لم يكن مرتاحًا لبُعده عن الأصنام وسخريته منها وممَّن يعبدونها، ورغم نُصح أبيه له، إلَّا أنَّه ظلَّ بعيدًا عن الأصنام، ولم يسجد قط لصنم.

وعلى الجانب الآخر كان شديد التعلُّق بشخص الصَّادق الأمين "محمد بن عبد الله" ﷺ، كما كان يأْلَف أبا بكر بن أبي قُحافة التاجر الأمين، والمتعلِّق مثله بالصَّادق الأمين .

إسلامه:

لما قارب "ابن عوف" الثلاثين من عُمره، ونزل النُّور على رسول الله ﷺ، وكان أبو بكر الصدِّيق أوَّلَ من آمَن به من الرِّجال، فما أن عرَض أبو بكر على ابن عوف الإسلامَ حتى انشرَح صدرُه، وذهبا إلى رسول الله ﷺ ليعلِن ابنُ عوف إسلامَه بين يدي رسول الله ﷺ، ولما سأله رسول الله ﷺ عن اسمه، قال :عبد عمرو، فقال رسول الله ﷺ : «**بل عبد الرحمن، لا عبد الإنسان**»، ومن يومها أصبح اسمه عبد الرحمن بن عوف.

فكان ثامِنَ ثمانيةٍ سبقوا إلى الإسلام، وقبل أن يَدخل رسولُ الله دارَ الأرقم .

إيذاؤه واضطهاده:

ونال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه حظه من بَطش قُريش وزعمائها على كلِّ مَن تبع دين الإسلام، وإن كانوا لم يستطيعوا إيذاءه جسديًّا، كما

فعلوا مع كَثير من أقرانه، إلَّا أنَّهم شرعوا في محاربته في تجارته، فاتَّفقوا على أن يكسدوا تجارتَه، فلا بيع ولا شِراء ولا تعامُل معه، ليس ذلك فحسب؛ بل كانوا يتواصَون مع التجار في البلاد البعيدة (مصر والشَّام واليمن وغيرها)، ألَّا يتعاملوا معه ومع كلِّ مَن تَبع دين محمَّد ﷺ، ولكن كل هذا التعنُّت من قريش لم يفُتَّ في عضده؛ بل زاده إيمانًا ويقينًا .

الهجرة:

ولما اشتدَّ أذى الكفَّار على المسلمين، أشار عليهم رسولُ الله ﷺ بالهِجرة إلى الحَبشة، فهاجر عبد الرحمن بن عَوف رضي الله عنه مع مَن هاجروا، ولكنَّه لم يُطِق فِراق رسول الله ﷺ، فما لبث أن عاد إلى مكَّة، وظلَّ بجانب رسول الله يلاقي ما يلاقي هو وأصحابه من بَطش وتعذيب .

ثمَّ كانت الهِجرة الكبرى إلى المدينة، فلمَّا أمر رسول الله أصحابَه بالهِجرة، خرجوا مسرعين ومعهم عبد الرحمن بن عوف، الذي خرَج من دياره، وترك أموالَه وتجارته، ولم يهتمَّ بما ترك من ثَروة طائلة، وتجارة واسعة ... إنَّه الإيمان وحبُّ رسول الله ﷺ الذي لا تَعدله ثَروات ولا أموال .

المؤاخاة

وفي المدينة أوجد رسول الله ﷺ هذه العلاقة العبقريَّة، التي لم تكن العرب تعرفها مِن قبل، وهي علاقة المؤاخاة، فآخى رسولُ الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وعليه آخى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الرَّبيع .

والآن عزيزي القارئ، فلنستمِع لهذا الحوار الرَّاقي بين عبد الرحمن بن عوف "المهاجر" الذي ترك مالَه وتجارتَه، وهو لا يَملِك شيئًا وبين أخيه سَعد بن الربيع "الأنصاري" .

يقول سعد لعبد الرحمن :أخي، أنا أكثر أهل المدينة مالاً، فانظر شطر (نصف) مالي فخذه، وتحتي امرأتان، فانظر أيتهما أعجب إليك، حتى أطلِّقها فإذا انقضَت عدَّتها فتزوَّجها .

يقول عبد الرحمن :بارَك الله لك في أهلِك ومالِك، دلُّوني على السوق.

سعد بن الربيع :وماذا تصنع في السُّوق يا أخي؟

عبد الرحمن :أشتري وأبيع وأربح.

سعد :بغير مال تتَّجر فيه؟ لا بدَّ لك من رأس مال، لتبدأ التجارة وقد تركت كلَّ مالك في مكَّة.

عبد الرحمن :رأس مالي معي أينما كنتُ، هو عقلي وإدراكي، وقدرتي على الأخذ والعطاء.

ولم تنجح محاولات سَعد في إقناعه، ودَلُّوه على سُوق بني قَينُقاع، فاشترى وباع وربح وادَّخر، ولم يَمضِ إلَّا قليل، حتى اجتمع إليه مَهر امرأة من الأنصار فتزوَّجها، وجاء إلى رسول الله ﷺ يومًا وعليه ثياب من زَعْفران، فقال له رسول الله ﷺ : «**مَهيم** – كلمة تعني الاستفسار والتعجب – **يا عبد الرحمن**»، فقال :تزوَّجتُ يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ : «**فما أصدقتَها**»؟ قال :وزن نواة من الذَّهب.

وهنا يَحصل عبد الرحمن بن عوف على كَنز الكنوز ...

فقال له رسول الله ﷺ : «**أَوْلِم ولو بِشاة، بارك الله لك في مالِك**»، فكان هذا الدُّعاء من رسول الله ﷺ سببًا عظيمًا في إقبال المال عليه ...

يقول عبد الرحمن بن عوف :فأقبلَت الدُّنيا عليَّ، حتى رأيتني لو رفعتُ حجَرًا، لتوقَّعتُ أن أجد تحتَه ذهبًا أو فضَّة .

اليد العليا خير من اليد السُّفلى

وهنا عزيزي القارئ لنا مَلحوظتان من هذا الحوار الرَّاقي بين صاحبي رسول الله ﷺ :

أولهما :

أنَّنا نلاحظ الكَرم الشَّديد والإيثار، وإنكار الذَّات من سَعْد بن الرَّبيع الأنصاري ...وهو ما نفتقده هذه الأيام من روح التكافل والتعاون والمودة بين النَّاس .

ثانيهما :

وعلى الجانب الآخر، وبنفس الدرجة من الرُّقي، نجد عبد الرحمن بن عوف، المهاجِر الذي ترك كلَّ شيء في مكَّة، ولم يعد يملِك شيئًا، نجده يعفُّ نفسَه ولا يستغلُّ كرمَ أخيه استغلالاً سيِّئًا – كما يفعل البعض هذه الأيام – وحتى لا يكون عالَة على أخيه، اختار الطَّريق الأصعب وهو العمل والجد والاجتهاد ...فكانت البَرَكة والخير الوَفير، وأصبح من أغنى الصَّحابة، بل أصبح في مَوضع العطاء، ليكون صاحب اليَد العُليا التي هي خَير من اليَد السُّفلى؛ كما أخبرنا رسول الله ﷺ وقال : «**اليَد العُليا خير من اليد السُّفلى** ».

* * * * * * * * *

جهاده

يميِّز عبد الرحمن بن عوف أنَّه مارس نوعَين من الجهاد :

- **جهادًا بالنفس في ميادين القتال.**
- **جهادًا بالمال في شتَّى مناحي الحياة .**

أولاً – جهاده في ميادين القتال:

- **في يوم بدر :**

جاهَد عبد الرحمن بن عوف في الله حقَّ جِهاده، وقَتل عدوَّ الله عمير بن عثمان بن كعب .

- **في يوم أحد :**

صمد ابنُ عوف حين فرَّ المنهزمون، وخرج من المعركة وبه بِضعةٌ وعِشرون جرحًا، وأصيب في رِجله، فكان يَعرج عليها، وأُصيبَت ثناياه فتركت هتمًا واضحًا.

- شهد بعد ذلك مع رسول الله الخندقَ والحُديبية والمشاهدَ كلَّها .
- أرسله رسول الله ﷺ ليقود سرِيَّةً من سبعين رجلاً إلى دومة الجندل، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا، وكان رسول الله ﷺ يعمل على توثيق الصِّلات بينه وبين العرب، فكتب إلى عبد الرحمن أن يتزوَّج "تماضر" بنت زعيمهم "الأصبغ بن عمرو الكلبي"، فتزوَّجها، وعاد بها إلى المدينة فولدت له ولدا سمَّاه محمدًا تيمُّنًا برسول الله ﷺ، وأصبح يُدعى أبا محمد .

ثانيًا – جهاده بماله:

كان جِهاد عبدالرحمن بن عوف ﷺ بنَفسه، رغم ما فيه من بطولات وتضحيات يعدُّ قليلاً إذا قيس بجهاده بماله.

فقد استُجيبت دَعوة رسول الله ﷺ، وبورك له في ماله، وأخذَت تجارته تَنمو وتزداد، وبقيَت دعوة رسول الله ﷺ له تظلِّله ما امتدَّت به الحياة، حتى أصبح من أغنى الصَّحابة وأكثرهم ثراءً، ولكنَّه جعل المال كلَّه في مرضاة الله ورسوله.

فما أن سمِع قوله تعالى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} [آل عمران: ٩٢]، وسمِع كذلك قولَ رسول الله ﷺ له : «**يا بن عوف، إنَّك من الأغنياء، وستدخل الجنَّة حبوًا، فأقرِض اللهَ يطلق قدميك**»، حتى أصبح يقرض اللهَ قرضًا حسنًا، فيضاعف له أضعافًا كثيرة، فكان ابن عوف ﷺ سيِّد ماله وليس عبده، فلم يكن يسعد باكتِنازه وينعم به وحده؛ بل ينعم به مع أهله ورَحِمِه ومجتمعِه كلِّه .

وهاك بعض المشاهد من جهاده بماله :

- **تصدُّقه لجيش الإسلام:**

فلقد تصدَّق ابن عوف لجيش الإسلام في مواقف عدَّة، نذكر منها :

١– لما أراد رسولُ الله ﷺ أن يجهِّز سريَّة، وقف بين أصحابه وقال : «**تصدَّقوا؛ فإنِّي أريد أن أبعث بَعْثًا**»، فهرع عبد الرحمن بن عوف إلى منزله وعاد مسرِعًا، وقال :يا رسول الله، عندي أربعة آلاف؛ ألفان منها أقرضتُها لربِّي، وألفان تركتهما لعيالي، فقال له رسول الله : «**بارَك الله لك فيما أعطيتَ، وفيما أمسكتَ**».

٢- تصدَّق بأربعين ألف درهم فضَّة، ثمَّ أتبعها ألف دينار ذهبًا لجيش المسلمين .

٣- حمل المجاهدين على خمسمائة فرس، ثمَّ حمل آخرين على ألفٍ وخمسمائة راحلة .

٤- يوم تبوك :

لما عزم رسول الله ﷺ على غَزوة تَبوك "غزوة العُسرة"، وأمر رسولُ الله ﷺ أصحابه بالتصدُّق في سبيل الله - كان في طَليعة المتصدِّقين عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه ؛ فقد تصدَّق بمائتي أوقيَّة من الذَّهب، فقال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ :إنِّي ما أرى عبد الرحمن إلَّا مرتكبًا إثمًا، فما ترك لأهله شيئًا، فقال رسول الله ﷺ :«**يا عبد الرحمن، هل تركت لأهلك شيئًا؟**«، فقال :نعم يا رسول الله، تركتُ لهم أكثر ممَّا أنفقتُ وأطيب، فقال رسول الله ﷺ» :**كَم؟**»، قال :ما وعد الله ورسوله مِن الرِّزق والخير والأجر .

- **الناس كلهم عياله:**

بلغ مِن عطاء عبد الرحمن بن عوف أنَّه كان يقال :"أهل المدينة كلهم عياله" :

-ثلث يُقرِضهم.

-وثلث يَقضي ديونهم .

-وثلث يَصِلُهم ويعطيهم.

• ٧٠٠ عير في سبيل الله:

وفي ذات يوم حدَث ضَجيج شَديد بالمدينة، رجَّ أرضَها رجًّا، وسُمِع دَوي هائل ظنَّه النَّاس رِيحًا عاصِفة هبَّت على المدينة ...ترى ما هذه الرِّيح التي هبَّت على المدينة؟

إنَّها سبعمائة عِير محمَّلة بكلِّ ما يحتاج إليه النَّاس من طَعام ولباس، ولما سألت أمُّ المؤمنين عائشة عن هذا الضَّجيج، قيل لها :إنَّها عِيرٌ لعبد الرحمن بن عوف، محمَّلة بالبُرِّ والدَّقيق والطَّعام، فقالت :بارك الله له في الدنيا، ولَثواب الآخرة أعظم، إنِّي سمعتُ رسول الله ﷺ يقول له : «**إنَّك تدخل الجنَّة حَبوًا، فأقرِض الله يطلِق قدميك**» .

ونقل بعضُ الصَّحابة مقولةَ أمِّ المؤمنين إلى عبد الرحمن بن عوف، فتذكَّر مقالة رسول الله ﷺ له، وقبل أن تبرك النُّوق، هرع إلى السيِّدة عائشة وقال لها :ذكَّرتِني بحَديثٍ لم أنسَه، وإنِّي أُشهدك أنَّ هذه العير بأحمالها وأقتابِها وأحلاسها في سَبيل الله، أي :(العير وكل ما تَحمل في سبيل الله).

وإذا حاوَلنا ترجمةَ ذلك الموقف بلُغة عصرِنا نقول :إنَّ عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه تصدَّق بسبعمائة شاحنة (container) محمَّلة بالبضائع في يومٍ واحد، ودفعة واحدة، وبنفسٍ راضية ...لله درُّك يا بن عَوف ...

• يحنو على أمَّهات المؤمنين:

قال رسولُ الله ﷺ لأزواجه : «**إنَّ الذي يَحنو عليكنَّ من بَعدي لهُو الصادق البارُّ**»، فكان عبد الرحمن بن عوف هو ذلك الصَّادق البار، فكان يحنو عليهنَّ، ويقضي لهنَّ حاجتهنَّ .

روي أنَّه باع حديقةً له بأربعمائة ألف، وقسمها في أمَّهات المؤمنين، حتى إنَّ السيِّدة عائشة قالت :"اللهمَّ اسقِ عبد الرحمن بن عوف من ماء السَّلسبيل".

- **إنفاق حتى آخر العمر:**

ويستمرُّ عطاء ابن عوف وجِهاده بماله حتى آخر أيام حياته :

- فعند وفاته أَوصى بخمسين ألف دينار ذهبًا في سبيل الله.
- وأوصى بكلِّ مَن بقي ممَّن شهدوا بدرًا بأربعمائة دينار ذهبًا، فأخذوها جميعًا وكان عددهم مائة، حتى إنَّ عثمان بن عفَّان أخذ نصيبَه منها رغم ثرائه، وقال :"إنَّ مال ابن عوف حَلال صفوة، وإنَّ الطُّعْمة منه عافِية وبركة".
- لَمَّا حضرَتْه الوفاة أعتق خَلْقًا كثيرًا .

- **ترك ذهبًا يقطع بالفؤوس:**

ثمَّ إنَّه ﷺ بعد كلِّ ذلك العطاء، خلف لورثته مالاً لا يَكاد يحصيه العدد، فقد ترك :

- ألفَ بعير.
- مائة فرس.
- ثلاثة آلاف شاة.
- وترك لنسائه الأربعة لكلٍّ منهنَّ ثمانية آلاف من ميراثه (ربع الثمن).
- وترك من الذَّهب والفضَّة ما قسم بين ورثته بالفؤوس، حتى تأثَّرت أيدي الرجال من تقطيعه .

كل ذلك كان بفَضل دعوة رسول الله ﷺ له بأن يبارك الله له في ماله .

مناقبه وأخلاقه

- **رسول الله ﷺ يصلي خلفه:**

ولما كانت غَزوة تَبوك، حظي عبد الرحمن بن عوف ﷺ بشرَف عظيم، لم ينَلْه أحدٌ من المسلمين إلَّا أبو بكر .

فقد حضر وقت صَلاة الفَجر، ورسول الله ﷺ غائب – كان يتوضَّأ – فأمَّ المسلمين عبدُ الرحمن بن عوف، ولما أتمَّ الرَّكعةَ الأولى لحق به رسولُ الله ﷺ فصلَّى خلفه، فأراد عبد الرحمن أن يتأخَّر، فأومأ إليه رسولُ الله ﷺ أن يمضي في الصَّلاة، فلمَّا سلم قام رسول الله ﷺ يتمُّ صلاتَه، فلمَّا أتمَّها أقبل على النَّاس وقال :«**قد أَصبتم**»؛ ليَغبِطهم أنْ صلَّوُا الصلاة لوقتها.

فما أعظمَه من شرَف، أن يصلِّي خير خَلق الله، وإمام المرسلين خَلْف أحد من المسلمين!

- **المستشار الأمين:**

عُرف عن عبد الرحمن بن عوف ﷺ سَعة الأفق، ونضوج الرأي، والأمانة على الأسرار .

* فكان رسول الله ﷺ يأتمِنه على كلِّ عزيز لديه، ويأخذ رأيَه في كلِّ الأمور التي لا يحبُّ أن يعرفها أحد .
* ولما تولَّى أبو بكر الخِلافةَ اختاره مستشارًا له بين مجموعة من الصَّحابة، وقد استشاره في أمر المرتدِّين والحرب عليهم، وقد استشاره كذلك فيمن يوليه مِن بعده، وكان رأيه متَّجهًا إلى عمر بن الخطاب؛ لثقته فيه وعلمه بحِرصه على الدِّين والحق.
* ولما تولَّى عمر بن الخطاب اختار عبدَ الرحمن بن عوف في مَجلس

شورى المسلمين، وكان له الكثير من الآراء الصَّائبة في أمور الحرب والسلم، منها :

-عندما أراد عمر أن يبعث جيوشًا للفرس يقودها بنفسه، كان رأى العامَّة أن يسير ويسيروا معه، ولما دعا عمر مجلسَ الشُّورى ليأخذ بالرأي، كان لعبد الرحمن بن عوف رأي آخَر، وهو أن يَبقى أميرُ المؤمنين وينتدب قائدًا مِن المشهود لهم بالشَّجاعة والإقدام، ورشَّح عبدُ الرحمن لهذه المهمَّة "سعد بن أبي وقَّاص"، وأخذ عمر برأيه وكان النَّصر المبين للمسلمين .

-لما فُتحت الشَّام رأى عمر أن يَذهب إليه لينظم أموره، وكان وباء الطَّاعون قد انتشر وحصد الكثير من الأرواح، فلمَّا علم عُمر بخَبر هذا الوَباء وهو في الطَّريق، وقف مكانه متردِّدًا في المضيِّ أو العودة، فلمَّا استشار أصحابه فيما يَنبغي أن يفعل، أشار بعضُهم بالمضيِّ، وبعضُهم بالعودة، وكل منهم يبرهِن على صحَّة رأيه، فأراد أمير المؤمنين أن يجد شيئًا في كتاب الله أو سنة رسوله .

وبينما هم في أخذ ورَدٍّ، إذا بعبد الرحمن بن عوف يقبِل عليهم، فوجدهم في حيرتهم، فقال :الرأي أن نعود؛ لأنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول :« **إذا سمعتم بوَباء في بلد، فلا تَغدوا عليه، وإذا وقَع وأنتم به، فلا تَخرجوا فرارًا منه** ».

فتهلَّل وجه عمر وقال :"خزانة ابن عوف الأمين مملؤة علمًا وأدبًا ومالاً"، ثمَّ أمر النَّاسَ أن يَنصرفوا، وعاد بمَن معه إلى المدينة سالمين ناجين من هذا الوَباء.

-ولما طُعن عمر وأشرف على الموت اختار ستَّةً من الصَّحابة ممَّن مات رسولُ الله ﷺ وهو راضٍ عنهم، وكان من بينهم عبد الرحمن بن عوف .

- **زهده في الإمارة والخِلافة:**

* ولما توفِّي عمر بن الخطاب، وجلس الستَّة أصحاب الشُّورى ليختاروا خليفة من بينهم، كانت الأصابع تومئ نحو ابن عوف وتشير، حتى إنَّ بعض الصَّحابة فاتَحَه في أنَّه أحق الستة بالخِلافة .

فرفض عبد الرحمن بن عوف بشدَّة، ليس ذلك فحسب؛ بل أنبأ إخوانَه الخمسةَ الآخَرين أنَّه تنازل عن الترشُّح للخلافة، وسرعان ما أهَّله هذا الزُّهد في المنصب إلى مكان الحُكم بين الخمسة الأجلَّاء، وبعد استِطلاع آراء الصَّحابة الكِبار والعامَّة من النَّاس اختار ابنُ عوف عثمانَ بن عفَّان، فأمضى الآخرون واختاروه .

* وفي عصر عُثمان بن عفَّان، لما مرِض عثمان مرضًا شديدًا، ظنَّ أنه سيُهلِكه، فدعا أحد الصَّحابة وقال له :"اكتب العهدَ لعبد الرحمن بن عوف مِن بعدي"، فكتب له الرجل ومَضى إلى عبد الرحمن فقال له : البشرى، قال عبد الرحمن :وما ذاك؟ قال :إنَّ عثمان كتب لك العهدَ من بعده، فلم يسعِده هذا الخبر، فظلَّ يدعو اللهَ قائلاً :"اللهمَّ إن كان مَن ولَّاه عثمان هذا الأمر إياي، اللهمَّ أمتني قَبله"، فلم يمكث إلَّا ستَّة أشهر حتى قبضه الله ...وكان ذلك قبل وفاة عثمان.

هكذا كان زُهده ﷺ في الإمارة والخِلافة .

- **تواضعه وخوفه من الله:**

لم يكن ثَراء ابن عوف ليبعث لدَيه الغِبطة في نفسه، أو ليفتنه؛ بل كان دائم الخَوف من هذا الثراء.

* جيء له يومًا بطعام للإفطار وهو صائم، فما أن وقعَت عيناه على الطَّعام حتى بكى وقال :"قُتل مُصعب بن عُمير وهو خير منِّي، فما وجدنا له ما يُكفَّن فيه إلَّا بُردة إذا غطَّت رأسَه بدَت رجلاه، وإذا

غطَّت رجليه بدا رأسه، ثمَّ بسط الله لنا من الدُّنيا ما بسط، وإنِّي لأخشى أن يكون الله قد عجَّل لنا ثوابَنا في الدنيا، وما لنا في الآخرة من نصيب"، وأخذ يبكي وينشج حتى ترك الطَّعام .

* كذلك لم يكن ثَراؤه العريض يدعو إلى الصلف والكِبر؛ بل كان يدعوه إلى الشُّكر والتواضع، حتى قيل عنه :إنَّه لو رآه أحد لا يعرفه وهو جالِس مع خدمه ما استطاع أن يميِّزه بينهم، من شدَّة تواضعه ومحاكاته لهم في الأكل والشُّرب واللِّباس .

* * * * * * * *

المشهد الأخير

وبعد حياة مَليئة بالعَطاء والبذل والتَّضحية، ينام ابن عوف على فِراش الموت.

من الذين كتب الله لهم السعادة والمغفرة

غشي عليه وهو في مرَضه الأخير، حتى ظنُّوا أنَّه قُبض، فأفاق يكبِّر، فكبَّر أهله معه، ثمَّ قال لهم :انطَلق بي في غشيتي رجلان، أجِد فيهما شدَّة وغِلظة، فقالا :انطلِق نحاكمك إلى العزيز الأمين، فانطلقا بي، حتى لقيا رجلاً قال لهما :أين تذهبان به، قالا :نحاكمه إلى العزيز الأمين، فقال : ارجعا؛ فإنَّه من الذين كَتب الله لهم السَّعادةَ والمغفرة وهم في بطون أمَّهاتهم"، فعاش بعد ذلك شهرًا .

على موعد وعهد

أرادت أمُّ المؤمنين عائشة أن تخصَّ عبد الرحمن بن عوف ﷺ بشرَف لم تخص به سواه، فعرضت عليه وهو في فِراش الموت أن يُدفَن في حجرتها إلى جِوار رسول الله ﷺ وصاحبيه أبي بكر وعمر، ولكنَّه يستحي أن يرفع نفسَه إلى هذا الجوار، ثمَّ إنه كان على مَوعد وعهدٍ سابِق مع عثمان بن مظعون؛ إذ تواثق الصديقان يومًا :أيهما يموت بعد الآخر، يُدفن إلى جوار صاحبه؛ وقد كان ابن مظعون قد سبَقه ودُفِن بالبقيع .

ويجود البطَل الكريم بأنفاسه، وتَفيض روحُه الطَّاهرة في العام الثاني والثلاثين من الهِجرة، وقد بلغ من العمر الخامسة والسبعين.

ويحمل جنازتَه خالُ رسول الله ﷺ" سعد بن أبي وقَّاص"، ويصلِّي عليه ذو النُّورين "عثمان بن عفَّان"، وشيَّعه الإمام علي وهو يقول :"اذهب ابنَ عوف؛ فقد أدركتَ صفوها، وسبقتَ رنقها أي :(كدرها ونكدها)، رحمك الله" .

رحمة الله عليك يا مَن صلَّى رسول الله ﷺ خلفك

رحمة الله عليك يا بن عوف

أبو عُبيدة بن الجرَّاح

والآن أعزَّائي، دعونا نرحِّب بنَجم آخر، وريحانة من رَياحين تلك الصُّحبة الطَّاهرة لِخير خلق الله سيِّدنا محمد ﷺ، دعونا نرحِّب بواحد من السَّابقين الأولين للإسلام، وأحد العَشرة المبشَّرين بالجنَّة، وأوَّل من لُقِّب بأمير الأمراء، إنَّه أمين هذه الأمَّة "أبو عُبيدة بن الجرَّاح" رضي الله عنه .

نسبه ووصفه:

هو عامِر بن عبد الله بن الجرَّاح الفهري القُرشي، والمكنى بأبي عبيدة، ويَجتمع في النَّسَب الشريف مع رسول الله ﷺ في " فِهر" .

أمَّا عن وصفه :فهو وضيء الوَجه، بهيُّ الطَّلعة، طويل القامَة، نحيف الجسم، خفيف اللِّحية، ترتاح العين لرؤياه، وتأنس النَّفس للقياه .

إسلامه:

كان إسلامه على يَدِ الصدِّيق؛ فقد أسلم في اليوم التالي لإسلام أبي بكر الصديق، فكان بذلك من الأولين السَّابقين للإسلام، وقد أسلم قبل أن يدخل الإسلام دارَ الأرقم .

ولقي من العذاب والاضطهادِ مع المسلمين السَّابقين ما لقي، ولكنَّه صبر وثبَت للابتلاء.

هجرته:

هاجر أبو عُبيدة مع الذين هاجروا إلى الحبَشة، ورغم طيب الإقامة بها والحفاوة التي قابلهم بها النَّجاشي، إلَّا أنَّ أبا عبيدة لم يتحمَّل البعد عن

الحبيب المصطفى ﷺ، فسرعان ما عاد إلى مكَّة، ليَنعم بصُحبة ورؤية رسول الله ﷺ، رغم ما تسلِّطه قريش عليه وعلى أقرانه من كلِّ أنواع العذاب.

ولم يدم بَقاء أبي عُبيدة بمكَّة طويلاً، حتى أذِن رسول الله ﷺ له ولأصحابه بالهجرة إلى المدينة، ويطوي أبو عبيدة الأرضَ طيًّا، ليلحق بالعُصبة المؤمنة الفارَّة بدينها، ووصل المدينة المنورة، وفيها آخى رسولُ الله ﷺ بينه وبين سَعد بن معاذ .

بدر والاختبار الأصعب

وتأتي موقعة بَدر ليتعرَّض أبو عُبيدة إلى أصعب اختبار، بل قل :أصعب ابتلاء يمكن أن يتعرَّض إليه إنسان ...

بدأت المعركة، وأبو عبيدة يصول بين الصفوف لا يَهاب شيئًا؛ بل يهابه المشركون، وجعلوا يتنحَّون عنه كلَّما واجهوه، لكنَّ رجلاً واحدًا منهم، جعل يبرز لأبي عبيدة في كلِّ اتِّجاه، وهو يصوب سهامَه إليه، ويحاول أبو عُبيدة أن يتحاشاه، لكنَّ الرجل سدَّ عليه كلَّ المسالك، وكأنَّ غرَضه الوحيد هو القضاء على أبي عُبيدة، فلمَّا ضاق أبو عبيدة به ذرعًا قتَله ...

تُرى مَن كان هذا الرجل؟ إنَّه كان أباه "عبد الله بن الجرَّاح"!

هل رأيتَ مِحنةً أكبر مِن هذه؟ فلقد ظلَّ يحاوِل الابتعادَ عن أبيه وتفاديه، ولكنَّ الرجل ظلَّ مصرًّا على قِتاله، فقتله أبو عبيدة، لكنَّه لم يَقتل أباه، إنَّما قَتل الشِّركَ في شَخص أبيه.

ويحزن أبو عُبيدة حزنًا شديدًا لهذا الحدَث الذي هَزَّ أرجاءَه وزلزل كِيانَه، فينزل قرآنٌ من الله ﷻ في شأنه وشأن أبيه، فقال تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا

يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [المجادلة: ٢٢].

أحسن النَّاس هتْمًا

ولما كان يومُ أُحُد، ودارَت الدَّائرةُ على المسلمين، بعد أن ترَك الرُّماة مواقعَهم خلافًا لأوامر رسول الله ﷺ، وانتهى الأمر بأن وقَع رسولُ الله ﷺ في حُفرة أعدَّها له المشركون، وكُسِرَت رباعِيَتُه، وغارَت حَلْقتان من حِلَق المغفَر الذي يضَعه فوق رأسه في وجنتيه، ويسيل الدَّم على وجهه الشَّريف، ويصِل أبو عُبيدة بنُ الجرَّاح وأبو بكر الصدِّيق ليجدا رسولَ الله ﷺ على هذه الحال، ولما أراد أبو بكر انتزاعَ الحلقتان من وجنتي رسول الله ﷺ، قال له أبو عُبيدة: أُقسِم عليك يا أبا بكر أن تَتركني فأنزعهما، فتركه أبو بكر.

فخشي أبو عُبيدة إن اقتلعهما بيَده أن يؤلِم رسولَ الله ﷺ، فعَضَّ على أوَّلهما بثنيَّته (أسنان مقدَّم الفم) عضًّا قويًّا فاستخرجها ووقعت ثنيَّتُه، ثمَّ عَضَّ على الأخرى بثنيَّتِه الثانية فاقتلعها فسقطَت ثنيَّتُه الثانية...

فحَسُن ثَغرُه بذَهابِهما، حتى قيل: "ما رُئي هَتْمٌ أحسَنُ من هَتْم أبي عُبيدة"، وقال أبو بكر: "كان أبو عُبيدة أحسَنَ النَّاس هتْمًا".

رِزق أخرجه الله إليكم

بعث رسولُ الله ﷺ أبا عبيدة أميرًا في "سريَّة الخبط"، وزوَّدهم بجراب فيه

تَمْر، لم يجِد لهم غيره، وكانت المهمَّة صعبة والسَّفر طويلاً، فكان زاد كلِّ واحد منهم حفنة من التَّمر في اليوم، حتى إذا أوشك التمر أن يَنتهي هبط نَصيب كلِّ واحد منهم إلى تَمرة واحدة في اليوم، ولما نَفِد التمر كله، راحوا يجمعون "الخبط" وهو ورق الشَّجَر، فيَسحَقونه ويسفُّونه ويشربون عليه الماءَ – لذلك سمِّيَت "سريَّة الخبط" – فلمَّا أجهدهم الجوع، خرجَت لهم دابَّة من البحر، فأكلوا من لحمها لمدة عشرين يومًا.

ولما عادوا، وأخبروا رسولَ الله بما حدث قال لهم: «**رِزق أخرجه الله إليكم**».

أمين هذه الأمَّة

وتأتي المنقبة العظيمة، والوِسام الأعلى الذي حَصل عليه أبو عُبيدة بن الجرَّاح، لما قدم وَفْد من نَجران إلى رسولِ الله ﷺ سألهم وسألوه، ثمَّ دعاهم إلى الإسلام، ولما همُّوا بالرَّحيل، قالوا لرسول الله ﷺ: يا أبا القاسم، ابعث معنا رجلاً من أصحابك، ليَحكم بيننا فيما نَختلف فيه، فقال رسول الله ﷺ: «**ائتوني غدًا، أبعث معكم رجلاً أمينًا، حق أمين، حق أمين**»؛ كرَّرها ثلاثًا.

ويبيت الصَّحابة ليلتَهم، وكلٌّ منهم يتمنَّى لو كان هو مَن يقع عليه اختيار رسول الله ﷺ، بعدما سمعوا هذا الثَّناء من رسول الله ﷺ.

يقول عمر بن الخطَّاب: ما أحببت الإمارة قط، حبِّي إيَّاها يومئذ، رجاء أن أكون صاحب هذا النَّعت، فذهبتُ إلى صلاة الظهر مبكرًا، فلمَّا صلَّى بنا رسول الله ﷺ الظُّهرَ، جعل يَنظر عن يمينه وعن يساره، فجعلتُ أتطاول له ليراني، فلم يزل يقلِّب بصره فينا، حتى رأى أبا عُبيدة بن الجرَّاح، فدعاه

فقال: «**قم يا أبا عُبيدة**»، فلمَّا قام قال رسولُ الله ﷺ: «**هذا أَمين هذه الأمَّة، اخرج معهم فاقضِ بينهم بالحقِّ فيما اختلفوا فيه**»... يقول عمر: ذهب بها أبو عُبيدة...

ومن يومها، وهو يُلقَّب "بأمين الأمَّة".

* * * * * * * * * *

بطولات وزُهد في الإمارة

وشهد أبو عُبيدة مع رسول الله ﷺ المشاهدَ كلَّها، حتى مات رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنه.

وكما عاش أبو عُبيدة مع رسول الله ﷺ أمينًا، عاش بعد وفاته أَمينًا مع خليفته أبي بكر ومِن بعده أمير المؤمنين عمر، ولقد سار تحت راية الإسلام - أنَّى سارت - جنديًّا كأنَّه بفضله وإقدامه الأمير، وأميرًا كأنَّه بإخلاصه وتواضعه واحد من عامَّة المقاتلين.

وها نحن نعرض لبعض المشاهد، التي فيها من البطولات، وإنكار الذَّات، والزهد في الإمارة ما يجعل المرء يقِف تحيَّةَ إجلال وتعظيم لهذا البطَل، وتحيَّة لمن علَّمه وكان له قدوة؛ حبيبي ﷺ.

وهاك بعضًا من هذه المشاهد:

- **يوم سَقيفة بني ساعدة:**

لما كان يوم السَّقيفة، قال عمر لأبي عبيدة: ابسط يدك أبايعك؛ فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إنَّ لكلِّ أمة أمينًا، وأنت أمين هذه الأمَّة**»، فقال أبو عُبيدة: والله ما كنتُ لأتقدَّم بين يدَي رجل أمَرَه رسولُ الله ﷺ أن يؤمَّنا في الصَّلاة، فأمَّنا حتى مات رسول الله ﷺ، ثمَّ بويع بعد ذلك لأبي بكر، ليكون أبو عُبيدة له أمينًا وجنديًّا من جنوده.

- **ما سلطان الدُّنيا نريد:**

وفي موقعة اليَرموك، وكان خالد بن الوليد قائدًا عامًّا للجيوش بأمر

الخليفة أبي بكر الصدِّيق، وكان تحت إمرته أبو عبيدة بن الجرَّاح، وبعد وفاة أبي بكر، يستهلُّ عمر بن الخطاب عهدَه بتولية أبي عُبيدة قيادة الجيوش وعزل خالد، ولم يكد أمين الأمَّة يستقبل مبعوثَ عمر بهذا الأمر الجديد، حتى استكتمه الخبر، وكتمه هو في نفسه طاويًا عليه صدر زاهد، فطِن، أمين.

ولما أتمَّ القائد خالد فتحَه العظيم، تقدَّم إليه أبو عُبيدة بكتاب عمر في أدب جليل، فلمَّا قرأه خالد قال لأبي عبيدة: "يرحمك الله يا أبا عُبيدة، أتاك كتاب أمير المؤمنين ولم تخبرني، وتصلِّي خلفي والسلطان سلطانك"، ويرد أمين الأمة: "وأنت يرحمك الله يا خالد، إنِّي كرهت أن أكسر عليك حربك، حتى يَنقضي ذلك كله، وما سلطان الدُّنيا نريد، وما للدنيا نَعمل، إنَّما نعمل لله، وإنما نحن إخوة"، ويقود أبو عُبيدة المسيرةَ، وخالدٌ جندي تحت إمرته، فكلاهما ما للدنيا يعمل...

- **أمير الأمراء:**

ويصبح أبو عُبيدة أمير الأمراء بالشَّام، وهو أوَّل من يُلقَّب بهذا اللَّقب، ويصير تحت إمرته أكثَر جيوش الإسلام طولاً وعرضًا وعتادًا وعددًا.

ورغم شجاعته وحنكته في ميادين القتال، إلَّا أنَّه اشتهر بالحِلم والرِّفق، وسَعَةِ الصَّدر والأمانة، والصِّدقِ وحبِّ السلام؛ لذلك أحبَّه أهلُ الشَّام ويسَّروا له مهمَّتَه، وكان من أثر ذلك أن كَثُر تسليم مُعظم مدن الشَّام له صُلحًا لا حربًا، وبذلك حقن كثيرًا من الدِّماء، واطمأنَّت كثير من النفوس.

وبهذه الرُّوح وبذكاء القائد، وحنكة المقاتل، تمَّ فتْحُ الفحل واللاذقية، ودِمشق وحمص، وكان خير الخِتام فتح إيلياء "بيت المقدس"، ومِن نَصْرٍ إلى نَصر فتح الله على يديه الديارَ الشَّاميَّةَ كلها.

- **الدَّعوة إلى الله:**

ولم ينسَ "أمين هذه الأمَّة" الدَّعوةَ إلى الله، فكان دائمًا يَدعو الرُّوم إلى الإسلام قبل بدءِ القِتال معهم، فكان يذهب بنفسه، أو يرسل أحدًا من رسله إليهم، وأسلم على يديه منهم خلقٌ كثير، وكان أبرزهم "هامان" وزير ملك الروم.

* * * * * * *

أخلاقه وفضائله

- **إنِّي مسلم من قريش:**

وتظهر عَظمة التواضع في أبي عُبيدة، لما ترامَت إليه أحاديث أهل الشَّام وانبهارهم بأمير الأمراء، فلم تزِده هذه الأحاديث إلَّا خوفًا من الله وتواضعًا إليه، فجمع النَّاسَ ووقف فيهم خطيبًا، وقال لهؤلاء المفتونين بقوَّته وعظمَتِه وأمانته: "أيُّها النَّاس، إنِّي مسلِم من قريش، وما منكم أحد أحمَر ولا أسود يفضلني بتقوى، إلَّا وددتُ أني في إهابه".

هكذا كانت تَربية رسول الله ﷺ لصَحبه، لا فخر ولا غُرور، فهذا هو أمين الأمَّة يعرِّف نفسَه للنَّاس بأنَّه مسلم من قريش ولا فضل له على أحد، أمَّا هو كأمير للأمراء وقائد لأكثر الجيوش قوَّة وأعظمها فوزًا، كل ذلك ليس له في تَقديره أي حساب.

- **غيَّرَتنا الدُّنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة:**

وهنا صورة أُخرى مشرِقة من عَظَمة أبي عُبيدة في قمَّة الزُّهد والتواضع، فكما كان زاهدًا في الإمارة كان زاهدًا في الدنيا ...

لما فتحت إيلياء "بيت المقدس"، وطلب أهلُها الصُّلح وأن يتولَّى أمر الصُّلح أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب بنفسه، فلمَّا قدم عُمر سأل مستقبليه :أين أخي؟ فقالوا :مَن؟ قال :أبو عُبيدة بن الجرَّاح، ويأتي أبو عُبيدة فسلَّم عليه وعانقه، وسار به إلى منزله، فلمَّا دخل المنزل، ولم ير عمر فيه إلَّا سيفه وترسَه ورَحْلَه، سأله عمر :يا أبا عُبيدة، لو اتخذتَ متاعًا؟ فيردُّ أبو عبيدة قائلاً :"يا أمير المؤمنين، إنَّ هذا يبلِّغني المقيل"، قال عمر :أعندك طعام؟ فقام أبو عبيدة وأتى له بكسيرات خُبز، فبكى عمر وقال :"غيرتنا الدُّنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة" .

- **إخوة بعضهم من بعض:**

وإذا أردتَ عزيزي القارئ أن تتعرَّف على قمَّة الكرم وإنكار الذَّات والإيثار ...فلنستمع لهذا المشهد:

لما رأى أمير المؤمنين ما عليه حال أبي عُبيدة، أرسل إليه أربعمائة دينار، وقال لرسوله :انتظر ساعة وانظر ما يصنع، فذهب الغلام بها، وقال لأبي عُبيدة :يقول أمير المؤمنين لك :اجعل هذه في حاجتك، فقال أبو عُبيدة : وَصَلَه الله ورَحِمه، ثمَّ قال :تعالي يا جارية، اذهبي بهذه السَّبعة إلى فلان، وهذه الخمسة إلى فلان، وظلَّ هكذا حتى أنفذها ...نعم، أربعمائة دينار ذهبًا أنفقها هكذا .

ورجع الغلام إلى أمير المؤمنين وأخبره بما رأى، فوجده أعدَّ مثلها لمعاذ بن جبل، وقال له :افعل بها مثلما فعلتَ مع أبي عُبيدة، ويذهب الغلام إلى مُعاذ، وما أن أعطاه المال حتى قال :تعالي يا جارية، اذهبي إلى بيت فلان بكذا، وإلى بيت فلانٍ بكذا، فطلعت زوجة معاذ وقالت :نحن واللهِ مساكين، ولم يتبقَّ في الصرَّة إلا ديناران، فأعطاهما لها .

ويرجع الغلام إلى أمير المؤمنين، ويخبره بما رأى وما سمِع، فسرَّ بذلك وقال :"إنَّهم إخوة بعضُهم من بعض، الحمد لله الذي جعَل في الإسلام مَن يصنع هذا".

ولعلَّك عزيزي القارئ، قد تجِد مثيلات تلك الرِّوايات من كرَم وتواضُع وزُهد، كلما مررت على سيرة أي من "الصحب الكرام" .

فلا عجب ولا استِغراب، فما ذلك إلَّا لأنَّهم جميعًا تربَّوا وتعلَّموا وتخرجوا في أفضل مدرسة عرفَتْها البشريَّة ...هي مدرسة الحبيب المصطفى ﷺ .

* * * * * * * * *

المشهد الأخير

والآن نصِل إلى المشهد الأخير من حَياة هذا البطَل، أمين هذه الأمَّة "أبي عُبيدة بن الجرَّاح"ﷺ ، ويحين وقت الرَّحيل .

• يريد أن يستبقي ما ليس بباق:

وتأتي السَّنة الثامنة عشرةَ من الهجرة، ويدهم الشَّامَ وباءُ الطَّاعون، فجعل يَحصد النَّاس حصدًا، فما كان من عمر بن الخطاب لما علم بهذا الوَباء، إلَّا أن وجَّه رسولاً إلى أبي عُبيدة برسالة يقول فيها :"إنِّي بدَت لي إليك حاجة، لا غِنى لي عنك فيها، فإن أتاك كتابي ليلاً، فإني أعزم عليك أي :(أطلب بإلحاح) ألَّا تُصبح حتى تركب إليَّ، وإن أتاك نهارًا، فأني أعزم عليك، ألَّا تُمسي حتى تَركب إليَّ".

فلمَّا قرأ أبو عبيدة كتابَ عمر قال :"قد علمت حاجة أمير المؤمنين إلي، فهو يريد أن يَستبقيَ ما ليس بباقٍ"، ثمَّ كتب إليه يقول :"يا أميرَ المؤمنين، إنِّي قد عرَفتُ حاجتَك إليَّ، وإنِّي في جُند من المسلمين، ولا أجد بنفسي رغبةً عن الذي يصيبُهم، ولا أريد فراقَهم حتى يَقضي الله فينا أمرًا كان مفعولاً، فإذا أتاك كتابي هذا، فحلِّلني من عزمك، وائذن لي بالبقاء" .

فلمَّا قرأ عمر الكتابَ بكى حتى فاضَت عيناه، فقال له مَن عنده :أمات أبو عُبيدة يا أمير المؤمنين؟ من شدَّة ما رأوه من بكائه، فقال :لا، ولكنَّ الموت قريب منه .

• الوصية الأخيرة:

لم يكذب ظَنُّ الفاروق؛ إذ ما لبث أبو عبيدة أن أُصيب بالطَّاعون، فلمَّا

حضرَتْه الوفاة أوصى جندَه وقال :إنِّي موصيكم بوصيَّة إن قبلتموها، فما تزالون بخير :"أقيموا الصَّلاةَ، وآتوا الزكاةَ، وصوموا شهرَ رمضان، وتصدَّقوا، وحجُّوا واعتمروا، وتَواصوا، وانصحوا لأُمرائكم، ولا تلهِكم الدنيا؛ فإن المرء لو عُمِّر ألفَ حَول، ما كان له بدٌّ من أن يصير إلى مَصرعي هذا الذي ترَون، إنَّ الله كتب الموت على بَني آدم فهم ميِّتون، وأكيَسُهم أطوعهم لربِّه، وأعمَلُهم ليوم ميعاده، والسلام عليكم ورحمة الله"، ثمَّ التفت إلى مُعاذ بن جبَل وقال :يا معاذ، صلِّ بالناس.

ثمَّ ما لبِث أن فاضَت روحُه الطَّاهرة إلى بارئها، فقام معاذ وقال :

–"أيُّها النَّاس، إنَّكم قد فُجِعتم برجل واللهِ ما أعلم أنِّي رأيتُ رجلاً أبَرَّ صدرًا، ولا أبعدَ غائلة (أي :أبعد عن الشرِّ والحِقد)، ولا أشد حبًّا للعاقبة، ولا أنصح للأمَّة منه، فترحموا عليه، يرحمكم الله" .

• عمر يبكيه، ولا يزال يذكره:

وجاء النَّاعي إلى أمير المؤمنين، أنَّ أبا عبيدة قد مات، يَسُبل عمر عينيه وقد غصَّتا بالدموع، ويفتح عينيه في استسلام لأمر الله، ويترحَّم على صاحبه في حَنان وصبر .

وظلَّ عمر يَذكره، حتى إنَّه في يومٍ من الأيام وهو جالِس بين أصحابه، وقلبه قد امتلأ حزنًا على مَن فارَق مِن الأصحاب، فقال عمر لِمن حوله : تمنَّوا، فقال رجل :أتمنَّى لو أنَّ لي هذه الدار مملؤة ذهبًا، فأنفِقه في سبيل الله، فقال عمر :تمنَّوا، فقال آخر :أتمنَّى لو أنَّها مملؤة لؤلؤًا وزبرجدًا وجواهر فأنفِقه في سبيل الله أو أتصدَّق به، فقال عمر :تمنَّوا، فقالوا :ما ندري يا أمير المؤمنين !قال :"لكنِّي أتمنَّى لو أنَّ هذه الدَّار مملؤة رجالاً مثل أبي عُبيدة بن الجرَّاح" وبكى ...

ولا يزال عُمر يذكره، حتى وهو يَجود بآخر أنفاسِه ويقول :"لو كان أبو

عُبيدة بن الجرَّاح حيًّا لاستخلفتُه؛ فإن سألَني ربِّي عنه، قلتُ :استخلفتُ أمينَ الله وأمين رسوله وأمين هذه الأمَّة" .

وهكذا انتهت حياة "أمين هذه الأمَّة" أبي عُبيدة بن الجرَّاح ﷺ ، انتهت فوق الأرض التي طهَّرها من وثنيَّة الفُرس واضطهاد الرُّومان، وهناك تحت ثرى الأردنِّ يوارى رُفات هذا البطل الأمين.

رحمة الله عليك يا أمين هذه الأمَّة

يا أبا عُبيدة بن الجرَّاح

سعيد بن زيد

دعونا أعزَّائي نستقبل مِسكَ الخِتام لهذه الباقَة من أصحاب رسول الله ﷺ من العَشرة المبشَّرين بالجنَّة، وهو من السَّابقين الأوَّلين للإسلام وأسد يوم اليرموك، وأوَّل مَن تولَّى إمارةَ دِمشق ...إنَّه سعيد بن زيد رضي الله عنه .

نسبه :

هو سَعيد بن زيد بن عَمرو بن نُفَيل، والده "زيد بن عمرو" هو ابن عمِّ عمر بن الخطاب، من بَني عدي .

ثمرة طيبة من شجرة طيبة

لقد حَبى الله سعيدَ بن زيد ميزة، قَلَّ أن تجدها في أيٍّ مِن صحابة رسول ﷺ؛ فقد كان أبوه "زيد بن عمرو" من القلائل الذين تمرَّدوا على عِبادة الأصنام، وتوجَّهوا إلى عِبادة الواحد الديَّان .

فخرج من صلبه هذا الابن المبارَك "سعيد بن زَيد"، ليكون واحدًا من العشرة المبشَّرين بالجنَّة .

رحلة البحث عن الحقيقة

فدعونا نبدأ رِحلةَ البحث عن الحقيقة، رحلة التوحيد، مع الأب "زيد بن عمرو".

معارضته لقريش

- كان زيد يَعيب على قريش وأدَ البَنات، فكان يقول للرجل، إذا أراد أن

يَقتل ابنتَه :تمهَّل، لا تقتلها، أنا أكفيك مؤنتَها، فيأخذها، فإذا ترعرعَت، قال لأبيها :إن شئتَ دفعتُها إليكَ، وإن شئتَ كفيتُك مؤنتَها .

- كان كلما رأى النَّاسَ يأخذون الأنعامَ ويذبحونها بين يدَي الأوثان، ليتقرَّبوا بها إلى هذه الأوثان، كانت تَثور ثائرتُه ويقول :الشَّاة خلقها الله، وهو الَّذي أنزل لها من السَّماء ماءً فرَوِيَت، وأنبَت لها العُشْب من الأرض فشبعَت، ثمَّ تذبحونها على غير اسم الله؟ واللهِ إنِّي أراكم لَفي ضلال مبين ...

تعذيبه واضطهاده

من أجل هذه المواقف وتلك الآراء لَقي "زيد بن عمرو" من قريش عذابًا شديدًا، وخاصَّة من عمه "الخطاب" أبي عمر بن الخطاب، فلمَّا سمِع منه ما يقوله عن الأصنام وتَسفيهه لها، لطمَه وأغرى سفهاءَ قومه فآذوه، حتى نزح عن مكَّة، والتجأ إلى غار حِراء، فوكل به عمُّه الخطَّاب طائفةً من شباب قريش ليَحولوا دون دخوله مكَّةَ، كراهية أن يفسِد عليهم دينَهم، فكان لا يدخل مكَّة إلَّا سرًّا .

لقاء المعارضين للوثنية

وينجح زَيد بن عمرو في غَفلة من قريش، أن يَجتمع مع ثلاثةٍ آخرين ممَّن تمرَّدوا على عبادةَ الأوثان، وهم يَلتمسون طريقَ الحقِّ والصَّواب، والتقى الأربعة، وهم :ورَقة بن نَوْفَل، وعبيد الله بن جَحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نُفيل .

وجعلوا يتذاكَرون ما غرقَت فيه العرب من الضَّلال، فقال لهم زيد بن عمرو :إنَّكم واللهِ لتَعلمون أنَّ أقوامكم ليسوا على شيء، وأنَّهم أخطؤوا دِينَ

إبراهيم وخالَفوه، أفحَجر نعبد؟ !وهو لا يسمَع ولا يبصِر، ولا يضرُّ ولا ينفع !يا قومِ، التمسوا لأنفسكم دينًا تَدينون به؛ فإنَّكم والله ما أنتم على شيء .

فهبَّ الرجال الأربعة، وتفرَّقوا في البلدان إلى الأحبار والرُّهبان من اليَهود والنَّصارى وغيرهم من أصحاب المِلَل، يلتمسون الحنيفيَّة دين إبراهيم .

- أمَّا ورَقَة بن نَوْفَل :فاتَّبع النصرانيَّة.
- وأمَّا عبيد الله بن جَحش :فأقام على ما هو عليه من التباس، حتى أسلم، ثمَّ هاجر مع المسلمين ومعه زوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان إلى الحبشة، فلمَّا قدمها تنصَّر وفارق الإسلام، حتى مات هناك على نصرانيَّته .
- وأما عثمان بن الحُوَيرث :فقدم على قَيصر، ملك الرُّوم، وتنصَّر وحسنت منزلته عنده .
- وأما زيد بن عَمرو :فوقف ولم يَدخل في اليهوديَّة ولا النصرانيَّة، ولكنَّه فارق دِينَ قومه؛ فاعتزل الأوثانَ والميتةَ والدَّمَ والذَّبائحَ التي تُذبح على الأوثان، وقال :أعبد ربَّ إبراهيم.

رحلة التوحيد

رحلة زيد بن عمرو مع التوحيد

ويخرج زَيد بن عمرو من مكَّة ليبدأ رِحلةَ البحث عن التوحيد، عن ملَّة إبراهيم، ويسأل الرُّهبانَ والأحبار، حتى بلغ الموصِلَ، ثمَّ أقبل، فجال الشَّامَ كلها، حتى انتهى إلى راهبٍ عنده عِلم مِن الكتاب.

فقال الرَّاهب :أراك تُريد دينَ إبراهيم .

قال زيد :نعم، ذلك ما أبغي .

فقال :إنَّك تبغي دينًا لا يوجد اليوم، ولكنَّه قد أظلَّ زَمان نبي يخرج مِن قومك ومن بلدك التي خرجتَ منها، يُبعث بدِين إبراهيم؛ الحنيفية، فإذا أدرَكْتَه فالتزِمْه .

فقفل زيدٌ مسرِعًا إلى مكَّة، بعدَ ما سمِع من هذا الرَّاهب، يحثُّ الخُطا ليلحق بهذا النَّبي الموعود .

ولما كان في بَعض طريقه، إذ خرج عليه جماعة من الأعراب، فقتَلوه قبل أن يَدخل مكَّةَ، وبينما زيدٌ يَلفِظ أنفاسَه الأخيرة، رفع بصرَه إلى السَّماء وقال :"اللهمَّ إن كنتَ حرَمتني من هذا الخير، فلا تَحرم منه ابني سعيدًا".

رحلة سعيد بن زيد مع التوحيد

وتنتهي رِحلةُ الأب الباحث عن التوحيد، لتبدأ رِحلة الابن البارِّ ليكمل ما بدأه أبوه، ويستجيب الله ﷻ دَعوة زيد بن عمرو، فلم يَحرِم ابنَه سعيدًا من هذا الخير، فكان ابنه سعيد بن زيد في طَليعةِ مَن أسلموا، قبل أن يَدخل الإسلامُ دارَ الأرقم، وقد مَنَّ الله عليه فكان من العشرة المبشَّرين بالجنَّة.

ولا عجب؛ فقد نَشأ سَعيد في بيت يَستنكر ما كانت عليه قُريش من ضَلال، ورُبِّي في حِجر أبٍ عاش حياتَه يبحث عن الحقِّ، ومات وهو يلهث وراءه.

فاطمة بنت الخطاب وإسلام عمر

لم يسلِم سعيدٌ وحده؛ بل أسلمت معه زوجتُه فاطمة بنت الخطَّاب (أخت عمر بن الخطاب)، ولقي الفتى هو وزوجته من أذى قُريش ما لَقِيا، ولكنَّ الله عوَّضهما عن هذا الأذى، بأن كانا سببًا في إسلام رجل من أثقَل رِجال قريش وزنًا، وأجلهم خطرًا؛ حيث كانا السبب المباشر في إسلام عمر

بن الخطاب، وإن كان السَّبب الأساسي في إسلام عمر، هو دعوة رسول الله ﷺ عندما قال: «**اللهمَّ أعِزَّ الإسلام بأحبِّ هذين الرجلين إليك: عمرو بن هشام** – أبي جَهل – **أو عمر بن الخطاب**»، وكان أحبهما إليه هو عُمر بن الخطاب، وقد ذكرنا سالفًا قصَّة إسلام عمر بن الخطاب ودَور أختِه فاطمة وزوجها سعيد بن زيد.

يُبعَث أمَّة وحده

ويُعزُّ الله الإسلامَ بعمر بن الخطاب، ولم ينسَ سعيدٌ أباه "زيد بن عمرو"، كما لم ينسَ عمرُ ابنَ عمه "زيد بن عمرو"، فذهبا إلى رسول الله ﷺ وقالا له: أنستغفر لزَيد بن عمرو؟ قال رسولُ الله ﷺ: «**نعم؛ فإنَّه يُبعث أمَّة وحده**».

جهاده في سبيل الله

- وضَع سعيد بن زيد كلَّ طاقته الشابَّة الفتيَّة في خِدمة الإسلام؛ فشهد مع رسول الله ﷺ المشاهدَ كلَّها، إلَّا بَدرًا، كان في مهمَّة كلَّفه إيَّاها رسول الله ﷺ، وضرب له رسول الله ﷺ بسَهمه، فكان كمن شهدها.
- ومات رسولُ الله وهو راضٍ عنه، وظلَّ سعيد جنديًّا مناضِلاً مع خليفته أبي بكر ومِن بعده عمر، وقد أسهم مع المسلمين في القَضاء على الوثنيَّة وعبادة النَّار في بلاد فارِس، والقضاء على اضطهاد الرُّومان، وتقويض ملك قيصر.

- **ما سعيد يومئذ إلَّا مثل الأسد:**

ولعلَّ أروَع بطولاته تلك التي سجَّلها يوم اليَرموك، لما خرج المسلمون ليقاتِلوا الرُّوم، وأقبل الرُّوم في أعدادٍ ضخمة وزحفوا كالجبال، فلمَّا رآهم المسلمون على حالتهم هذه، هالَتْهم كثرتهم، وخالطهم بعضُ الخوف، عند ذلك قام أبو عُبيدة بن الجرَّاح يحضُّ المسلمين على القِتال، وقال: "عبادَ الله، انصروا اللهَ يَنصركم ويثبِّت أقدامَكم، عبادَ الله، اصبِروا فإنَّ الصَّبر مَنجاة من الكُفر، ومرضاة للربِّ، صوِّبوا رِماحَكم واستتِروا بالتُّروس، والزموا الصَّمت، إلَّا مِن ذِكر الله في أنفسكم حتى آمرَكم إن شاء الله".

عند ذلك خرَج رجلٌ من صُفوف المسلمين، وقال لأبي عبيدة: "إنِّي عزمتُ على أن أقضي أمري السَّاعة، فهل لك مِن رسالة تَبعث بها إلى رسول الله ﷺ؟"، فقال أبو عبيدة: "نعم، تُقرِئه منِّي ومن المسلمين السلام، وتقول له: إنَّا وجَدنا ما وعد ربُّنا حقًّا".

فما أن سمِع سَعيد بن زيد كلامَ هذا الرجل، ورآه يستلُّ سيفَه ويقتحم صفوفَ العدوِّ ولا يبالي، هنا اشتعل حَماس سعيد بن زيد، وبدأ يَحثو على ركبتيه، ويرمي بالرُّمح وقتل أوَّلَ فارِسٍ يقبِل عليهم، ثمَّ وثَب على العدوِّ وقد انتزع الله كلَّ ما في قلبه من خوف.

وظلَّ سعيد يقاتِل بشجاعة ألهبت حماسَ المسلمين، حتى إنَّه قيل عنه يوم اليرموك: "ما سَعيد يومئذ إلَّا مِثل الأسد"، وبهذه الرُّوح وهذا الفداء كان نَصر الله للمؤمنين.

أول أمير لدمشق

شهِد سعيدُ بن زيد بعد ذلك فتْحَ دِمشق، فلمَّا دانت للمسلمين بالطَّاعة، جعله أبو عُبيدة بن الجرَّاح واليًا عليها، فكان بذلك أوَّل مَن وَلِي إمرةَ دمشق من المسلمين.

مستجاب الدَّعوة

وفي زمَن بني أُمَيَّة وقعَتْ لسَعيد بن زَيد حادِثة، ظَلَّ أهل المدينة يتحدَّثون بها زمنًا طويلاً.

ذلك أنَّ "أروى بنت أيس" زعمَتْ أنَّ سعيد بن زيد قد أخذ شيئًا من أرضها، ثمَّ رفعَت الأمرَ إلى مروان بن الحكَم، فأرسل مروان إلى سَعيد يخاطبه في ذلك، فعزَّ الأمر على سَعيد وقال: كيف أفعل ذلك وقد سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**مَن أخَذ شبرًا من الأرض ظُلمًا، طَوَّقه الله إيَّاه يوم القيامة من سَبع أرَضِين**»، ثمَّ قال: اللهمَّ إن كانت كاذِبة، فأعمِ بصَرها، وألقها في بئرها الذي تُنازعني فيه، وأظهِر من حقِّي نورًا يبين للمسلمين أنِّي لم أظلِمْها.

ولم يمضِ على ذلك غيرُ قليل، حتى جاء سَيل شَديد في الأرض، كشَف عن الحدِّ الذي كانا فيه يختلفان، وظهر للنَّاس أنَّ سعيدًا كان صادقًا.

ولم تلبث المرأة بعد ذلك إلَّا شهرًا، حتى عميَتْ، وبينما هي تَطوف في أرضها، سقطت في بئرها فماتت، ولا عجَبَ في ذلك؛ إذ يقول رسولُ الله ﷺ: «**اتَّقوا دعوةَ المظلوم؛ فإنَّه ليس بينها وبين الله حِجاب**»، فكيف إذا كان هذا المظلوم هو "سعيد بن زيد" صاحِب رسول الله ﷺ، وأحد العشرة المبشَّرين بالجنَّة.

وظلَّ هذا الحدَث يُضرب به الأمثال، يقول عبد الله بن عمر: فكنَّا ونحن غِلمان، نسمع الرَّجل يقول للرَّجل: "أعماكَ الله كما أعمى أروى".

* * * * * * * *

المشهد الأخير

وبعد حياة طَويلة حافِلة بالعَطاء والتَّضحيات، يرحَل سعيدُ بن زيد إلى دار الخلود ليلحق "بخير الأنام وصحبه الكرام".

توفِّي بالعَقيق، ثمَّ حُمِل إلى المدينة، وغسَّله سعد بن أبي وقَّاص، ودُفن بالبَقيع؛ وذلك في سنة خمسين هجريَّة، وكان عمره بضعًا وسبعين سنة...

رحمة الله عليك يا سعيد بن زيد

المراجـــع

١ – القرآن الكريم.
٢ – تفسير ابن كثير ٤ أجزاء.
٣ – تفسير القرطبي.
٤ – تفسير الجلالين.
٥ – تفسير الشعراوي.
٦ – السيرة النبويَّة؛ لابن هشام.
٧ – زاد الميعاد في هدي خير العباد؛ لابن القيم.
٨ – البداية والنهاية لابن كثير ٤ أجزاء.
٩ – حياة خير الأنام؛ حسن عشماوي.
١٠ – محمد رسول الله، والذين معه؛ عبد الحميد جودة السحار ٢٠ جزءًا.
١١ – حياة الصَّحابة؛ محمد يوسف الكاندهلوي ٣ أجزاء.
١٢ – أصحاب الرسول؛ محمود المصري.
١٣ – صور من حياة الصَّحابة؛ عبد الرحمن رأفت الباشا.
١٤ – رجال حول الرسول؛ خالد محمد خالد.
١٥ – خلفاء الرسول؛ خالد محمد خالد.
١٦ – عبقرية الصديق؛ عباس محمود العقاد.
١٧ – عبقرية عمر؛ عباس محمود العقاد.
١٨ – عبقرية عثمان؛ عباس محمود العقاد.
١٩ – عبقرية الإمام؛ عباس محمود العقاد.
٢٠ – تراجم سيدات بيت النبوة؛ عائشة عبد الرحمن.
٢١ – أطلس تاريخ الإسلام؛ حسن مؤنس.
٢٢ – التاريخ الإسلامي مواقف وعبر؛ عبد العزيز الحميدي.

٢٣ – إحياء علوم الدين؛ الإمام الغزالي.
٢٤ – تاريخ الخلفاء؛ جلال الدين السيوطي.
٢٥ – أُسد الغابة في معرفة الصَّحابة؛ ابن الأثير.
٢٦ – الإصابة في تمييز الصَّحابة؛ ابن حجر العسقلاني.
٢٧ – الاستيعاب في معرفة الأصحاب؛ ابن عبد البر.
٢٨ – الطبقات الكبرى؛ ابن سعد.
٢٩ – إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء؛ محمد الخضري.
٣٠ – تاريخ الطبري؛ ابن جرير الطبري.
٣١ – تجريد أسماء الصَّحابة؛ الذهبي.
٣٢ – الخلفاء الراشدون؛ حسن أيوب.
٣٣ – رجال مبشَّرون بالجنة؛ أحمد خليل جمعة.
٣٤ – الصحيح المسند في فضائل الصَّحابة؛ مصطفى العدوي.
٣٥ – صفة الصفوة؛ ابن الجوزي.
٣٦ – فضائل الصَّحابة؛ للإمام أحمد.
٣٧ – سيرة الصَّحابة؛ مصطفى مراد.
٣٨ – الرياض النضرة في مناقب العشرة؛ المحب الطبري.
٣٩ – حلية الأولياء وطبقات الأصفياء؛ أبو نعيم الأصفهاني.
٤٠ – سير أعلام النبلاء؛ الذهبي.

تم بحمد الله

وإلى اللقاء مع الجزء الثالث "حياة الصحب الكرام"

للاتصال بالمؤلف:

1 – hashmawy 57@hotmail.com
2 – web site: www. Hassanashmawy. Com
3 – mercy to mankind 2013
4 – dr Hassan Ashmawy